# الهرطقة في المسيحية



## تاريخ البدع والفرق الدينية المسيحية

تأليف: ج. ويتلر



# الهرطقة في المسيحية

## تاريخ البدع الدينية المسيحية

تأليف ج. ويلتر

تعريب جمال سالم



# مقدمة الطبعة العربية

صدر النص الأصلي، الفرنسي لهذا الكتاب، عن البدع المسيحية عبر العصور، في العام 1950. وأن ننقله اليوم إلى العربية، بعد انقضاء ستة وخمسين عاماً على صدوره، ربما يبدو على شيء من الغرابة. ولكننا سنحاول في هذه المقدمة المقتضبة نسبياً أن نبدد، قدر الإمكان، شعوراً من هذا النوع:

أولاً، انطلاقاً من واقع بسيط هو أن هذا البحث يحتفظ دائماً براهنيته، لأن العقود التي تفصلنا عن تاريخ نشره لم تشهد ظهور بدعٍ إضافية جديدة جديرة بالذكر.

ثانياً، لكون ما نضعه الآن في متناول القارئ العربي يتميز بإحاطة شاملة بالموضوع، وهو ثَبْتٌ فريد بسلسلة واسعة من الفرق الدينية الخارجة على الديانة الأصلية، والانقسامات الأساسية اللاحقة، في الشرق كما في الغرب، ومنذ القرون الأولى للتقويم الميلادي، وصولاً إلى عصرنا هذا.

ثالثاً، لأن الكاتب لم يحرص فقط على تبيان الخلافات الطقوسية والإيمانية بين البدع التي يؤرخ لها والكنيسة الرومانية، بوجه خاص، بل أيضاً على إبراز الخلفية الاجتماعية لهذه الانشقاقات التي كثيراً ما عبرت عن رؤية الطبقات المقهورة وتطلعاتها إلى التحرر والعدالة والمساواة على الأرض بالذات، في مواجهة المؤسسة الدينية الأم التي غالباً ما كانت في مواقع الطبقات السائدة، ومشاركة في المظالم التي تمارسها هذه الأخيرة على الفئات الاجتماعية الموغلة في البؤس.

انطلاقاً من هذه المقدمات الأولية، سنكتفي بتسليط الضوء على

السمات الأكثر بروزاً لهذه البدع، كما تتبدى لنا في الكتاب الذي بين أيدينا، علماً بأنه إذا كانت ثمة سمات تشارك فيها معظم الانشقاقات عن الكنيسة الأم، فثمة سمات أخرى تنفرد بها بعضها، ولا سيما البدع والهرطقات الروسية، التي يفرد لها المؤلف فصلاً طويلاً في نهاية بحثه.

## 1- الموقف من الكنيسة الرومانية عامةً

كان جانب أساسي من رفض مطلقي الهرطقات والبدع ناجماً عن شعورهم بالبون الشاسع بين المسيحية الأولى، كما تظهر في الإنجيل وفي حياة مجتمع المؤمنين الأوائل، من جهة، وتوجهات الكنيسة الرومانية، من جهة أخرى، ونمط حياة رجالها الكبار، من رأسها الأعلى البابا مروراً بالكرادلة ورؤساء الأساقفة، وصولاً إلى الأساقفة وغيرهم من الممثلين المفترضين لمملكة المسيح. ذلك أنه إذا كانت بدت خلافات حقيقية حول مسائل الإيمان العادية والطقوس، من مثل مفهوم الثالوث الإلهي، وقضية النعمة وطبيعتي المسيح أو طبيعته الواحدة، وما إلى ذلك، فلقد كانت اللازمة التي تتردد باستمرار على لسان البدعيين وفي أدبياتهم ذات طابع أخلاقي، في نهاية المطاف.

هكذا، فالكاتاريون ينظرون إلى روما على أنها "كاتدرائية الشيطان"، فيما يصف الفوديون الكنيسة الرومانية ب"عاهرة بابل"، والبابوات والأساقفة بالقتلة، والرهبان بالفريسيين. ورأى ويكلف، الذي كان أول من ترجم، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، الإنجيل إلى الإنكليزية، أن البابا هو "المسيح الدجال و"قائد جيش الجحيم". أما لوثر، الذي يشعر بأنه

مدعو لإطاحة "المسيح الدجال" في روما، فكان يعتبر أن "الرهبان خنازير، والكهنة حمير، والكنيسة بيت دعارة"!

وقد بلغ النفور من المؤسسة الدينيّة وما تحيط به نفسها من ألغاز ومفاهيم غامضة تذكّر، من بعض النواحي، بتراثٍ يرتبط في الأخير بالمجتمعات الوثنية وأعمال السحر والخوارق، بلغ حدوداً جعلت العديد من أصحاب البدع، يدعون على غرار هنري دو لوزان، تلميذ بيار دو بروي، الفرنسي، إلى "دين من دون كهنة أو كنائس أو أسرار".

## 2- التوجه الاجتماعي الجذري

يشدد المؤلف على أن "البدع الإنجيلية في القرون الوسطى غالباً ما اعتنقت نظريات اجتماعية كانت تتعارض مع نظام المُلْكية". وقد توصل، انطلاقاً من ذلك، إلى اعتبار أن الدولة – التي اتخذت على امتداد قرون سمة دينية، بما يتفق مع تصور البابا بونيفاسيوس الثامن القائل إنه "يجب وضع السلطة المادية للملوك والجنود في خدمة الكنيسة والانصياع لإشارة الكاهن" – كان لديها مبرر إضافي لدعم الصراع الذي بادرت لخوضه الكنيسة ضد عقائد بدت ضارة بالنسبة إليها بصورة مزدوجة، أي في رفضها للرؤية السائدة بخصوص الإيمان ومعارضتها في آنٍ للهيمنة الاجتماعية القائمة.

ويقول المؤلف إن مؤرخ الكنيسة دولينجر كان على حق حين كتب: "لقد كان لكل العقائد الهرطوقية التي ظهرت في القرون الوسطى، بصراحة وبصورة ضمنية طابع ثوري".

فبيار فالدو، أو فالديز، الذي عُرفت باسمه بدعة جذرية، هي الفودية، كان قد وزع أملاكه على الفقراء، وكان يقرأ، في مواعظه، كتب الأنبياء والرسل بالعامية، لغة الناس البسطاء والمعدمين، ودعا إلى رفض هؤلاء دفع العشور، وإلى اعتبار جميع الناس متساوين.

كما أنه بالإضافة إلى عناصر هرطوقية بحصر المعنى، كنفي تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين وإدانة الغفرانات وعبادة الصور والذخائر والقديسين، اتخذت الويكليفية، على سبيل المثال، ووفقاً للمؤلف، "شكلاً اجتماعياً" ولذا جرى اضطهادها.

ولعل المثال الأبرز على الجانب الثوري للكثير من تلك البدع كان ذلك الذي أعطاه توماس مونزر (المولود عام 1498)، وكان دكتوراً في اللاهوت وكاهناً لدير نساء في هال بألمانيا. وقد اعتبر أن العقل مصدر أساسي للوحي إلى جانب الكتب المقدسة، وأن المسيح نبي وحسب، وينبغي البحث عن السماء في هذه الدنيا. وعلى المستوى الاجتماعي، راح يعظ بإلغاء الطبقات والملكية الخاصة، ولأجل حرب الفلاحين التي فجرها في خريف 1525، ورفعت مطلب إلغاء القنانة والحقوق الإقطاعية، أعطاه فريدريك أنجلس، يقول المؤلف، "شهادة شيوعي حقيقي".

ونكتفي بهذه الأمثلة، في الوقت نفسه الذي نلفت فيه النظر إلى أن هذا الواقع لم يكن ينسحب على جميع الانشقاقات في تاريخ الكنيسة. فأحد هذه الانشقاقات، وهو بين أبرزها، وبالتحديد ذلك الذي أطلقه مارتن لوثر وأدى إلى ظهور البروتستانتية، لم يكن يتسم بالطابع الثوري. بل على العكس، فقد وقف لوثر موقفاً سلبياً جداً من الثورة الاجتماعية. وهو القائل: "يجب وقف الفلاحين، وقتلهم بالسيف، سراً وجهاراً. فليس ثمة

من هو أشبه بالشيطان من متمرد. إنه كلب مسعور، إذا لم تقتله قتلك ومعك بلداً بكامله". وينطلق الكاتب من هذا الكلام ليقول إن الأمراء والإقطاعيين نفذوا تعاليمه هذه بحذافيرها، حتى إن أحد هؤلاء اعترف في حديثه عن طريقة خوضه هو وكبار الملاكين للحرب الاجتماعية التي قادها توماس مونزر ضدهم، بضراوة تلك الحرب وما رافقها من جرائم، وذلك بكلمة مختصرة معبرة جداً، حيث قال: "لعبنا برؤوس الفلاحين بالطابة".

### 3- دور المرأة

في العديد من تلك البدع. كانت هناك أسماء بارزة لنساء، بينهن من ادعين النبوة، أو لعبن دوراً تأسيسياً حاسماً. وبين هؤلاء، يمكن أن نذكر اسم أنّا لي، التي أسست في أواسط القرن الثامن عشر، بدعة الراجفين (Shakers)، واعتبرت فيها أن الله كائن مزدوج. فهو ذكر وأنثى معاً، حيث يسوع هو العنصر المذكر، وأنّا لي هي العنصر المؤنث. كان ذلك أول رد بهذا الوضوح وتلك الجرأة على ذكورية الأديان بغالبيتها الساحقة، ولا سيما تلك الموصوفة بالأديان السماوية.

كما يمكن أن نشير أيضاً، وعلى سبيل المثال، إلى الجمعية العلموية المسيحية، أو مذهب "العلم المسيحي" الذي أسسته عام 1875 ماري بيكر إيدي في بوسطن، وانتشر في أميركا بوجه خاص، وفي إنكلترا وبلدان أوروبية أخرى.

أكثر من ذلك، وإذا استعرضنا العديد من البدع الروسية، يمكن أن نلاحظ أن تأثير المرأة كان واضحاً في أكثر من واحدة منها. وتمكن الإشارة،

في هذا المجال، بوجه أخص، إلى الموقف الذي اتخذته بدعة "مصارعي الروح"، التي ازدهرت في القرن التاسع عشر، في روسيا، وكانت تعتبر أن جميع الناس متساوون، وللزوجة مثل حقوق الزوج ويمكنها تركه إن هي شاءت. أما العلاقة بين الزوجين فقائمة على أقصى الاحترام. يقول لها: "يا أختي"، وتقول له: "يا أخي".

وثمة بدعة أخرى لافتة على هذا الصعيد. إنها بدعة "الناكرين"، الذين كانوا يرفضون كل شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي، ويعتبر من يعيش منهم مع امرأة أنها "كائن مستقل"، مساوٍ له، ويخاطبها قائلاً: "صديقتي".

## 4- اللاعقلانية المطلقة وتقديس الموت في بعض البدع الروسية

لقد عبرت بعض البدع الروسية عن سعي دائم إلى الكمال كما يظهر في بدعة "مصارعي الروح" التي مررنا بها أعلاه، والتي كانت تعتبر السلطة المدنية شراً لا بد منه، ولكنها ترفض الخدمة العسكرية لأنها تتعارض مع مبادئها القائمة على الحب المتبادل والوفاق بين الجميع، ووصل الأمر ببعض أنصارها ممن هاجروا إلى أميركا في القرن التاسع عشر إلى حد إطلاق سراح مواشيهم، على أساس أن الحرية التي دعوا إليها لا تتجزأ، وهي حرية واجبة لجميع المخلوقات.

إلا أنه، بالتوازي مع هذا الرقي الرائع والسابق لعصره لدى أنصار هذه البدعة، يُظهر لنا كتاب "الهرطقة في المسيحية..." مشهداً آخر لبدع بلغت بها اللاعقلانية درجات عليا، وذلك إلى حد تقديس الموت على أنه "السبيل الوحيد إلى الخلاص"!

ويشير المؤلف إلى أنه إذا كان هناك من بين أتباع المذهب الكاتاري، الذي ازدهر في أوروبا في القرون الوسطى، بعضٌ منهم يتركون أنفسهم يموتون جوعاً بسبب الإفراط في العبادة، "فالانتحار الديني لم يكن في أي بلد، وفي أي عصر، انتحاراً جماعياً ووبائياً": ويضيف: "مع ذلك، فهذا ما حصل في موسكوفيا". وهو يصف ما يسميه بالموت الأحمر، الذي كان يودي بالآلاف من المتعصبين الدينيين الذين يقضون على أنفسهم في محارق جماعية. كما يصف أيضاً من كانوا يوصفون بالبدعيين "الطبيعيين"، الذين كانوا يتجمعون في دهاليز سرية ويقتلون بعضهم بعضاً بالفؤوس، هاتفين: نموت من أجل المسيح"!

يبقى أن نختم أن الكاتب، وكان كاثوليكياً مقتنعاً، ينهي بحثه بصدد الفرق المسيحية الخارجة عن الكنيسة الرومانية، وحتى عن الكنيستين الأخريين، الأورثوذكسية والبروتستانتية، بخلاصة مفادها أن الخطر الأكبر في عالمنا المعاصر إنما هو الإلحاد، داعياً المسيحيين، بدلاً من التخاصم في ما بينهم، إلى التعامل مع هذه الظاهرة على أنها "العدو المشترك".

ومع أنه يسعى دائماً إلى إظهار تعاطف، ولو ضمني، ولكنه محسوس، مع الجوانب الإنسانية الراقية في أكثر من بدعة يؤرخ لها، كما في المسيحية الأصلية، مسيحية الإنجيل التي يعتبرها تتضمن "رؤية شيوعية" على المستوى الاجتماعي، مستشهداً بحياة المؤمنين الأوائل، من جهة، وبكلام القديس أمبرسيوس على المُلكية بوصفها "اغتصاباً"، من جهة أخرى، فهو لا يخفي، ولو في أحيان نادرة، نوعاً من العنصرية المتلبسة بفكرة الفعالية، حين يقول في خاتمة كتابه، وفي معرض حديثه عن الأعمال التبشيرية لبعض الإرساليات الدينية:

"ونتساءل إذا لم يكن من الأفضل، بوجه عام إعادة بيضٍ إلى الإيمان، بدلاً من جعل سودٍ أو صفرٍ يهتدون إليه، ولا سيما أن عدد الاهتداءات لا يتناسب مع مقدار المشقة والمال المخصصين لها منذ زمن بعيد جداً".

جمال سالم

## استهلال

تلزم مؤلفات عديدة لاستيفاء الموضوع المخصص له هذا الكتاب: لذا ليس له غير طموح واحد هو أن يضع جردةً بسيطة ومختصرة، خلاصة تقريباً للانحرافات المذهبية أو الطقسية التي شهدها، منذ قرابة عشرين قرناً، تاريخ الدين المسيحي.

بعد أن نحدِّد بأكبر قدر ممكن من الدقة المصطلحات المستخدمة في هذا الصدد، وبعد أن نعيِّن حدود الحقب والشعوب التي تقدم لنا اكبر عدد من الأمثلة على الانشقاقية الدينية، سوف نذكر وفقاً للترتيب الزمني، ونصفُ باقتضابٍ الهرطقات والفرق الدينية[1] التي ضربت، من حين إلى آخر، أو لزمن طويل، وحدةَ الكنيسة المسيحية البدائية، والكنيسة الكاثوليكية ـ الرومانية وشتى الكنائس البروتستانتية، وأخيراً الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وهذا يعني أننا سوف نلتزم بالموضوعية التاريخية الدقيقة وأنه لن يفسد أيُّ تحيّزٍ دوغمائي أو عقلاني جَهْدَنا لاعتماد النزاهة، وانه إذا ظهر عنصر شخصي خلال عرضنا سيكون ناتجاً فقط من استخدام طريقة علم النفس التي كنا قد طبقناها، في مؤلفات سابقة، على دراسة الماضي.

ج.و.

---

[1] إن تعبير "البدعة"، بالعربية، ربما يكون الأكثر دقة في إعطاء معنى كلمة Secte الفرنسية. (المعرِّب)

# المقدمة

## التعريف بالمصطلحات



إن كلمة بدعة، أو Secte (من اللاتينية Sequi ، أو اللحاق بـ) هي بالمعنى الأوسع مجموعة من الأشخاص الذين يعتنقون المذهب ذاته. ويتم أحياناً تطبيق المصطلح على المدارس الفلسفية في الزمن القديم: بدعة الرواقيين، والمشّائين. وهذا نوع من تقليد القديم فنحن لا نقول اليوم[1]: إن سارتر يقود فرقة الوجوديين؛ والمصطلح لم يعد يستخدم حالياً إلا على مستوى الدين.

إن البدعة الدينية مطبوعة بواقع أن أتباعها يلتحقون برأي تعتبره خاطئاً سلطة كهنوتية أو غالبية أعضاء كنيسة معينة. فالأمر ليس رأياً وحسب، بل هو انحراف. وهذا الانحراف يتناول إما العقائد، أو الطقوس أو النظام ويشكل في الحالة الأولى هرطقة.

فلكي تكون هناك هرطقة، يجب أن تكون هناك مبادئ إيمانية[2] أساسية، حقائق موحى بها، وأن تكون ثبّتت هذه المبادئ وقنّنتها كنيسة شرعية، تمتلك سلطة مطلقة على صعيد الإيمان. بتعبير آخر، يجب أن يكون هناك عقيدة رسمية وإلزامية ولنُضِف أن العقيدة تضم بالنسبة للاهوتيين الكاثوليك، فضلاً عن المبادئ المحددة، التعاليم المعدّة للتبشير العادي، بموافقة أكيدة من سلطة الكنيسة العقيدية. فالمبدأ الإيماني يفترض، بالفعل، تدخلاً صريحاً من جانب الكنيسة، التي تحدد موقفها بخصوص نقطة معينة

---

[1] صدر هذا الكتاب عام 1950(م)

[2] تعريب لكلمة dogme الفرنسية، أو دوغما (م).

من عقيدتها وتترجم بلغة دقيقة أحد معطيات الوحي الإلهي، أو تعاليم الكتاب المقدس أو التراث المسيحي البدائي.

لم يعرف العصر القديم الإغريقي والروماني هرطقات لأن ديانته لم تكن مؤسسة على وحي إلهي، وكانت تجهل بالتالي مفهوم " المبدأ الإيماني"، أو " الدوغما". فلقد كان لتلك الديانات طابع عُرفي، وغير دوغماني. وسواء كان المقصود هو العبادة العامة للآلهة حماة المدينة، أو العبادة العائلية للجدود أو حتى العبادة السرية التي كان المُطّلعون على الأسرار الدينية يؤدّونها لآلهة من أصل طوطمي عموماً، فان هذه المجموعة من المعتقدات والطقوس لم تكن تشكل عقيدة، الإعدادَ العقلاني لكلام مقدس. هذه المعتقدات وهذه الطقوس، التي كانت تتمثل بوجه خاص في حركات وأقوال، كان يمليها تراث يوقّره الجميع، ولكن لم يكن أوصى بها إله واحد يكشف للناس، بفضل إرادته كلية القدرة، أسس الإيمان الذي يفرضه عليهم. وفي الواقع، إن تعدد الآلهة لا يتعارض مع الوحي بالمعنى الذي نقصده اليوم: يمكن الآلهة أن يعلنوا عن أنفسهم للمؤمنين بهم عبر وسطاء الوحي، والنبوءات والعجائب، ولكن هذه الظاهرات، العَرَضية تماماً وذات الطبيعة المتنوعة جدا، لا تشكل تعليماً فائقاً للطبيعة، عقيدة قادمة من الأعالي، وقد كتب فان در ليو Van der leeuw : "إن الديانة البدائية تجهل أي نوع من العقيدة. فالاحتفالات والأسطورة تستنفد ما يتعلق بالدين. يتم اعتماد الحكاية وليس التعليم، والأمر على هذا المنوال في كل من الديانات المصرية والبابلية، والإغريقية، والرومانية، وكذلك في العهد القديم.

فمع أن الديانة اليهودية توحيدية وموحى بها، في الواقع، لم تقنن

مبادئها الإيمانية الأساسية في منظومة دقيقة. كانت تجيز للأنبياء تفسيرها على طريقتهم، ما عدا بالطبع بخصوص مبدأ وحدانية يهوه. وفِرَقُ الفريسيين والصّدّوقيين والإسّينيين ـ التي لا نعرف بالضبط معتقداتها ـ لم يتم اعتبارها يوماً هرطوقية.

إن الديانة المسيحية هي التي سوف يقيَّض لها أن توضح مفهومي المبدأ الإيماني(الدوغما)، والهرطقة، علماً بأن هذه الأخيرة سوف تتبدل بشكل محسوس وفقاً للمكان والزمان.

إن التعريف الكاثوليكي للهرطقة هو التالي: رأي ديني مدان كنسياً على أنه مناقض للإيمان الكاثوليكي، أو أيضاً: خطأ إرادي ومتشبَّث به، متعارض مع مبدأ إيماني موحى به وتُعلّمه الكنيسة بصفته هذه. ومن وجهة النظر التاريخية، ينبغي التوسع بالتعريف، لأن مفهوم الهرطقة موجود، وإن بطريقة أكثر غموضاً، في كنائس أخرى غير الكاثوليكية ـ الرومانية. هكذا يعتبر الرومُ الأرثوذكسُ "اللاتينيين" هراطقةً، لأنهم تبنُّوا المبادئ الإيمانية التي لم تكن قد تحدثت عنها المجامع المسكونية السبعة الأولى(كمبدأ وجود المَطْهَر). أما الكنيسة البروتستانتية فكان لديها هراطقتها، على الأقل في البدايات. فلقد أدان كالفن ميشال سيرفيه بهذه الصفة، وفعل لوثر الأمر نفسه مع القائلين بتجديد العماد.

هذا وليس هناك من توافق مطلق بين مفهومي"الهرطقة"و"البدعة الدينية"، فكل الهرطقات لم تولّد بدعاً، وليست كل البدع هرطوقية.

فالهرطوقي لا يصبح منتسباً إلى بدعة دينية إلا حين يستمر في خطئه وينفصل بشكل مكشوف عن الكنيسة مع عدد من الأشخاص الذين

يفكرون مثله على صعيد الإيمان. فالمرء لا يمكنه أن يشكل بدعة لوحده، ولكن يمكن شخصاً، لوحده، أن يؤمن بهرطقة من دون أن يكون عضواً في جماعة هرطوقية أو زعيماً لها. وتلك كانت حال إتيان دوليه، الذي جرى حرقه لأنه أنكر خلود الروح؛ وتلك أيضاً كانت حال غاليليه، الذي تعرض للإدانة لأنه أنكر حركة الشمس؛ وتلك كانت حال جان دارك التي أدانتها محكمة روان الكنسية، لأسباب سياسية في الحقيقة أكثر مما هي دينية، معلنة أولاً أنها "انشقاقية ومرتدَّة"، ثم"هرطوقية وساقطة ثانيةً في الهرطقة"، بعد أن عدلت عن ارتدادها.

من جهة أخرى، إن عضو بدعة دينية ليس هرطوقياً بالضرورة. فمن وجهة النظر الكاثوليكية، ليس كذلك إذا لم تكن الجماعة التي ينتسب إليها تسيء إلا إلى طقوس الكنيسة أو نظامها: فالدوناتيون[1]، في القرن الرابع، الذين كانوا يرهنون صحة الأسرار الدينية بقداسة من يقوم بإعطائها، جرى اعتبارهم انشقاقيين وليس هراطقة.

والانشقاق أقل خطورة، في الواقع، من الهرطقة. فهو يشكل إساءة لوحدة الكنيسة، لا إلى وحدة الإيمان، إلا أن التمييز بقي غامضاً في القرون الأولى. وقد كان توسع الدوناتية بالضبط هو الذي أُجبر على توضيح الأمور. فلقد اعترف احد خصوم هذا الانشقاق، أوبْتا دو ميليف، بأنه في حين يكون الهراطقة خارج الكنيسة تماماً، فإن الانشقاقيين وإن ابتعدوا عنها يحملون معهم الإيمان والأسرار. ولاحظ أحد الدوناتيين، النحويّ كريسكونيوس، أن الهرطقة فرقة دينية مؤلفة من أناس تكون العقيدة عندهم مختلفة، ولكن الانشقاق قطيعةٌ بين أناس لديهم العقيدة عينها.

[1] نسبة إلى دونا، أسقف قرطاجة في القرن الرابع الميلادي(م)

ويعد مرسوم الإمبراطور أونوريوس ضد الدوناتيين(405) أعلن القديس اغسطينوس، وكان تردد في هذا الصدد في البدء، أن تشبث المنشقين بخطئهم يجعل منهم هراطقة. ولقد كان القديس جيروم أشد صرامة أيضاً، ولاحظ أن كل فرقة انشقاقية تصنع هرطقة لتبرير انشقاقها. إلا أن هذا الرأي لم يصمد في الكنيسة، التي اهتمت، بعد الانشقاق المشرقي الكبير(عام 1054) وأملاً بإعادة النعاج الرومية إلى الحظيرة، بعدم التعامل معها إلا على أساس أنها انشقاقية. وبعد ذلك بوقت طويل، عاملت الكهنة "المحلّفين" للثورة الفرنسية بالطريقة نفسها، وكذلك "الكاثوليك القدامى" الألمان عام 1870 والمنشقين التشيكوسلوفاكيين عام 1920.

كما أن الابتداعية (الايتيروذكسية) هي بدوره اقل خطورة من الانشقاق. ليست انفصالاً طوعياً ومتشبثاً بالرأي، بل هي خطأ في الإدراك، ليس إلا، يؤدي إلى الوقوع في الضلال. وهكذا تتمّ إدانة الهراطقة، ويؤسف لمغادرة المنشقين، وتجري محاولة إقناع الابتداعيين.

ولكن هناك ما هو أسوأ من هذه الانشقاقات المتنوعة. إنه الارتداد، التخلي الكامل عن الدين المسيحي. والمرتد اشد ذنباً من الهرطوقي، لأن هذا الأخير لا يقترف سوى قطيعة جزئية مع العقيدة الرسمية. بيد أن الكنيسة الرومانية على درجة من الحرص على الدفاع عن سلامة الإيمان بحيث تفرض على المرتد، والهرطوقي وحتى المنشق العقوبة نفسها: إلقاء الحرم عليه. وهذا هو أيضاً عقاب الساقطين ثانية في الهرطقة، أولئك الذين كانوا قد سقطوا في الانفصال، أو الهرطقة أو الارتداد، ويعودون إليه Sicut canisad Vomitum Sum[1].

---

[1] باللاتينية في النص الأصلي(م)

أولئك الذين ينفصلون عن كنيسة ليشكلوا فرقة دينية يصبحون أحياناً من الكثرة والقوة بحيث يخلقون كنيسة جديدة، مع إكليروس منظّم وسلطة تحكم بخصوص الإيمان والنظام. وتلك كانت، في الأزمنة الأولى، حال الأريوسيين، وهكذا كان اللوثريون، والكالفينيون، والانغليكانيون الذين كان على كنائسهم أن تكافح حالات الانشقاق. وهكذا كان أيضاً من شكلوا من بين "المؤمنين القدامى" الروس مراتبية كهنوتية.

إن كلمة hairesis اليونانية تعني الاختيار، التفضيل، ثم الرأي المنفصل، وأخيراً البدعة. والكلمة مستعملة في أعمال الرسل من دون دلالة انتقاصية. فلقد قال القديس بولس للملك أغريبا: " لقد عشت فريسياً وفقاً للبدعة hairesis الأشد تصلباً في ديننا". وفي الرسالة الأولى إلى القورنثيين، لا يدين صراحةً الآراء المخالفة التي قد تظهر بين المؤمنين: " يجب أن تكون هناك بدع دينية بينكم، لكي يتم الاعتراف بتلك التي تلقى القبول والتأييد بأنها على هذه الحال في ما بينكم". بالمقابل ففي الرسالة إلى أهل غلاطية، يجعل البدع في عداد " شهوات الجسد"، مثلها مثل السحر، أو الفجور أو السكر. ونقرأ في رسالة بطرس الثانية: " سيظهر في صفوفكم أحبار زائفون يُطلقون بدعاً دينية خبيثة مؤذية". ومن الجليّ أن عبارة hairesis اليونانية قليلة الوضوح حتى أن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس تستخدم كمقابل لها في اللاتينية كلمة haeresis تارة، وكلمة Secta طوراً.

وبين آباء الكنيسة، كان أسقف إنطاكيا إغناطيوس أول من اتهم الهراطقة، في نهاية القرن الأول، بانتهاك وحدة الكنيسة. ففي رسائله، يهنئ الأفسسيين على عدم تقبُّل عقائد باطلة، ويوصي التراليين بالابتعاد عن الدوسيتية، " تلك النبتة الغريبة التي تشكل هرطقة". وفي القرن الثاني،

كتب الشهيد يوستينيانوس بحثاً عن الهرطقات يصف فيه من يستسلمون لها بـ " فاقدي الإيمان" و "الزنادقة" و "المجدّفين". وفي كتاب من النوع عينه كتبه في الفترة عينها أسقف ليون إيرينيوس، يبدو هذا الأخير أقل عنفاً، وقد حذا حذوه في ذلك، في القرن الثالث، أوريجان وترتليانوس. هؤلاء الأحبار المشهورون الثلاثة يكتفون بإعلان أن الهراطقة، الذين ينسبون أنفسهم كذباً إلى المسيح، يسيئون إلى تعليم الكنيسة المألوف.

في غضون ذلك، كانت المبادئ الإيمانية الأساسية قد تجسدت. فثمة كتابات مسمّاة قوانين الإيمان كانت تعرض النقاط الأساسية للعقيدة الدينية. والأولى زمنياً بينها كانت قانون إيمان الرسل الذي كان وضَعَه معاً، وفقاً للمتعارف عليه، تلاميذ يسوع، بعد أن تلقوا موهبة النطق بلغات عديدة. ويبدو أنه كتب، بشكله الكلاسيكي، حوالي العام مئة، لأن صاحب الهرطقة مارسيون يتكلم عليه حوالي العام 150 . وقد سمي في البدء فعل الإيمان العمادي، ثم منذ أيام القديس قبريانوس (القرن الثالث)، قانون إيمان الرسل. وظهر في الفترة عينها كتاب عقيدة الرسل (باليونانية Didakhè)، وهو بحث صغير معد لتعليم المتنصرين حديثاً. ثم حدث عندئذ نمو الهرطقات الكبرى الذي اجبر على تحديد أكثر تفصيلاً ودقة للحقائق الإلزامية. ولقد تتالت المجامع، وهي سلطة عليا في هذا الصدد، بوتيرة سريعة، لشدة ما كانت عديدة وقاسية هجمات أولئك الذين كانت تضللهم آراء زائفة. والأولى بين تلك الجمعيات الرسمية، التي اجتمعت في العام (325)، وضعت قانون إيمان نيقية الذي يكمل قانون إيمان الرسل، منادياً على نقيض العقيدة الأريوسية بمشاركة الإبن في الجوهر للآب والروح القدس؛ وفي العام 380، أضاف قانون إيمان القسطنطينية، لأجل إعادة

الهراطقة المُسَمَّين مقدونيين إلى جادة العقل، دوغما ألوهة الروح القدس.

وفي القرن التالي، أوضح مجمعا أفسس (عام 431) وخلقيدونية (451)، ضد نسطوريوس وأوتيشيس، طبيعة يسوع المسيح المزدوجة. ومن جهة أخرى، جرى عرض عقيدة الكنيسة في التعليم الديني بالمحادثة (catéchèses)، حيث يتم تعليم مريدي التنصر عبر الأسئلة والأجوبة؛ ومن بين أهم كتب التعليم هذه ذلك الذي وضعه القديس سيريل، بطريرك أورشليم، وذلك الذي كتبه القديس أغسطينس.

لم يبد ذلك كافياً، فعلى غرار الدولة الرومانية، وبتأثير منها، أرادت الكنيسة أن تكون لها مجموعة قوانين سوف تكون القانون الكنسي. فمنذ نهاية القرن الخامس، وضع دوني الصغير قرارات المجامع والفتاوى البابوية في مجموعة؛ والفتاوى أجوبة يقدمها البابوات لرجال دين كانوا يستشيرونهم حول نقطة دوغما أو نظام. وهذه المجموعة المسمّاة **Liber Canonum** بقيت تستخدم حتى القرن الثاني عشر، حين أكملها العالم بالقوانين الكنسية الايطالي غراسيانوس، الذي اشتهر كتابه باسم الـ**Decretio**. ثم ظهرت **Extravgantes**، وهي مجموعة وضعت بأمر من غريغوريوس التاسع، وكانت تضم القوانين التي "تتداول خارج" **Decretio** غراسيانوس ثم الـ**sexte**، أو الكتاب السادس المضاف إلى المجموعة السابقة، والـ**Clémentines**، المنشورة عام 1315 على يد كليمان الخامس؛ وأخيراً الـ **Corpus juris Canonici**، وهو قانون كامل للحق الكنسي وضعه مجمع بال في العام 1431 . وفي فترة الإصلاح الديني، حدَّث مجمع ترانت النظام القديم. وحينذاك جُمعت القرارات البابوية شيئاً فشيئاً، وبالتدريج، في مجموعة رسمية تحمل اسم البراءات البابوية الرومانية.

ولنُضِفْ انه في العام 1917، أصدر البابا بونوا الخامس عشر قانوناً بعنوان Codex juris Canonici، وذلك ليحل محل المجموعات السابقة، وهو يشكل تعديلاً محافظاً إجمالاً للنظام القديم. وقد جرى تقديمه بالشكل الوجيز للقوانين المدنية الحديثة، ولكن مواده تحمل الاسم التقليدي "Canons".

وفي ما يتعلق بالهرطقة، ينص القانون الكنسي الحالي على ما يلي: "إذا أنكر أحدهم، بعد أن يكون تلقّى العماد في الوقت نفسه الذي يحتفظ فيه بصفة مسيحي "(أي إذا لم يكن مرتداً)" إذا أنكر بإصرار إحدى الحقائق التي يجب اعتبار أنها تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي، او شكّ بها، يكون هرطوقياً. "وتعلن مادة أخرى من الكوريوس: "إن القضية الهرطوقية هي تلك التي تدخل في تناقض مباشر وفوري، على شكل تعارض أو تضاد، مع نقطة من العقيدة التي أوحى بها الله واقترحتها الكنيسة".

كل عقيدة تتعارض مع الإيمان الحقيقي تشكل في ذاتها ما يسميه اللاهوتيون كفراً، أي غياب فضيلة الأيمان الموحى بها (habitus fidei)، أو القضاء عليها. وهم يميزون ثلاثة أنواع من الكفر: الكفر السلبي الصرف وهو كفر الوثنيين الذين لم يظهر لهم المسيح، وهو ناجم عن الجهل، ولهذا السبب لا يجعلهم مذنبين؛ والكفر السالب المتصف بالرفض الواعي والإرادي للالتحاق بالحقائق الموحى بها أو حتى البحث عنها، إما بإنكار إمكانية الوحي الإلهي (وهذه حالة الماديين، والوضعيين، والتأليهيين، والواحديين، أو برفض واقع الوحي المسيحي وقانونه (الوثنيون، الإسرائيليون، المحمديون)؛ وأخيراً، الكفر الإيجابي، وهو يختلف عن السابقين بكونه ليس سابقاً لتلقي فضيلة الإيمان الموحى بها، بل يدمر هذه الفضيلة.

إن الكفر الإيجابي خطير بوجه خاص، لأنه يستتبع من جانب المعمَّد ارتداداً كاملاً إلى هذا الحد أو ذاك. وهو ينطوي إما على الجحود، الإنكار الإرادي لأسباب تتعلق بالتصديقية (أو قابلية التصديق) [الإلحاد، الواحدية، المادية، العقلانية]، أو الزندقة، أي رفض التسليم بسلطة الله، حق الشاهد الإلهي بأن يُصدَّق، بغير دليل (يمكن أن يكون للزنديق اعتقاد، ولكن هذا الأخير إهانة للألوهة المسيحية، وتلك على سبيل المثال حال المانويين الثنويين)، وإما الكفر العقيدي، التخلي الكامل عن الكنيسة عن طريق الانتماء إلى البوذية، أو حتى الانتماء إلى الارواحية؛ وإما أخيراً الهرطقة بحصر المعنى، المخالفة الشكلية لواحد أو اكثر من تعريفات الكنيسة المعصومة على صعيد الإيمان.

هكذا ليس كل كفر إيجابي هرطقة؛ فالحالة الأولى هي النوع والحالة الثانية هي الصنف. ولكي تعتبر الهرطقة هرطقة، يجب أن تتعارض مع مبدأ إيماني على الفور، أي من دون تدخل حدٍّ وسط، أي مجرد استنتاج لاهوتي مستنبط من حقيقة موحى بها رسمياً؛ ومباشرةً، أي من دون توسط حقيقة دينية[1] أو واقعة دوغمائية ضرورية للحفاظ على مبدأ إيماني أو اقتراحه؛ وأخيراً، بصورة مناقضة، أي بخطأ لايكون فقط معاكساً، بل يكون نقيضاً (وهو تمييز دقيق لا يسلمٌ به كل اللاهوتيين، كما يمكن ملاحظته انطلاقاً من الاستشهاد المأخوذ من Corpus juris Canonici، (الوارد أعلاه).

إن الهرطقة تُعتبر مادية حين تكون خطأً من ينكر بنية حسنة، ومن دون تشبث، واحدةً من الحقائق الإلهية التي تحددها الكنيسة؛ ولكنها تصبح قَطعيَّة حين تنكر عن سابق علم وتصميم واحدة من هذه النقاط الإيمانية

[1] يميز اللاهوتيون الكاثوليك، في الواقع، حقائق الإيمان الإلهي وحقائق الإيمان الكهنوتي.

الحاسمة. وهي إذا لم تظهر إلى العلن، يتم وصفها بأنها داخلية، وفي الحالة المعاكسة، خارجية. والهرطقة الخارجية يمكن أن تكون بدورها علنية او خفيَّة؛ وفي هذه الحالة الأخيرة، تظهر من دون شهود أو أمام عدد صغير من الأشخاص الكتومين.

باختصار، لكي تكون هناك هرطقة، يجب توفر الشروط التالية: ينبغي أن يكون المرء معمَّداً، وأن يختار الخطأ بعمل من أعمال عقله، ويتشبث به بعناد؛ ينبغي، فضلاً عن ذلك، أن يكون هذا الخطأ متعارضاً مع وحي إلهي، تطرحه الكنيسة الكاثوليكية بواسطة أحد أعضائها المعصومين عن الخطأ، عندما يكون يتكلم في معرض ممارسة الوظيفة التي يكون فيها معصوماً عن الخطأ.

وإذا كان مفهوم الهرطقة بالذات لم يتغير، نظرياً، منذ قرون، في الكنيسة الرومانية، سنرى لاحقاً أنه على الصعيد العملي لم يعد الهرطوقي، بصورة على تلك الدرجة من الإطلاق، المنبوذ الذي ينبغي تحاشي أي احتكاك به.

إذ نتفحص الآن ما يجري في الكنيسة الأرثوذكسية ـ اليونانية، يذهلنا انعدام الدقة في المفاهيم التي رأينا للتو أن الغربيين اهتموا كثيراً بتحديدها. فمثلما بقيت أصول العقيدة، حتى فترة قريبة، في حالة جنينية لدى الروس، لم يحددوا بالضبط طبيعة جرم الهرطقة ومداه. فكل الذين تركوا منذ القرن السابع عشر أحضان الكنيسة الرسمية، سواء بسبب تباينات دوغمائية أو طقسية، يوصفون بالـ Raskolniki، أي المنشقّين. بالمقابل، فإن الكاثوليك اللاتين كانوا هراطقة دائماً في نظر الأرثوذكس.

ونجد انعدام الدقة عينه في الكنائس البروتستانتية، ولكن لأسباب مختلفة تماماً: ليس، بالتأكيد، بسبب انعدام الانكباب الفكري على دراسة مواد الإيمان، بل على العكس تماماً، لكون مبدأ حرية التفكير يفسح في المجال أمام أي تفسير فردي للعقيدة. فلقد لاحظ فان درليو، لدى الكالفينيين مثلما لدى اللوثريين، " نفوراً مشتركاً من أي تحديد نهائي ملموس للإيمان". فالمبادئ الإيمانية ليست ثابتة وعصيّة على النقض، كما تلك الخاصة بالكنيسة الرومانية. إن قيمتها أقل موضوعية مما هي ذاتية؛ لم يعد الوحي هو الإبلاغ بكلام الله، مرة والى الأبد، بل هو وفقاً لتعابير اللاهوتي البروتستانتي ساباتييه، " عمل العناية الإلهية المستمر على النفوس الداخلة في اتصال بالإلهي". وبما أنه يتم فهم المبادئ الإيمانية على هذا النحو، فإن من يرفضونها او يقلدونها يعتبرون مخطئين أكثر بكثير مما مذنبين. وإذا كان مصطلح الهرطقة موجوداً في كتابات المصلحين الدينيين الأوائل، الذين كانوا لا يزالون مشبعين بالتصورات الكاثوليكية، فلقد اختفى منذ زمن بعيد من القاموس البروتستانتي. أما مفهوم البدعة ففقد أي دلالة انتقاصية.

## عقاب الهرطقة

إذا كانت الهرطقة خطأً، من الناحية الدوغمائية، وإذا كانت خطيئة، على المستوى الأخلاقي، فهي جرم وفقاً للقانون الكنسي. لكن الجرم غير موجود إلا إذا كانت هناك هرطقة "خارجية".

وفي القانون الكنسي، يؤدي جرم الهرطقة إلى عقاب واحد وحيد هو إلقاء الحُرْم، أو الإقصاء الكلي من الاتحاد بالكنيسة، أي الحرمان من الأسرار المقدسة، ومن القداس الإلهي، وصلوات الكنيسة، والمنافع

والأعباء الكنسية، وأخيراً من الدفن في أرض مسيحية[1].

في بدايات عصرنا[2]، كان الحُرْم يسمّى بالأحرى لعنة. فالمجامع الأولى كانت تدين الأحبار الكاذبين بهذه العبارات: Si quis dixerit...anathema sit[3]. وفي ما بعد، جرى تمييز ثلاث عقوبات كنسية: الحرم الأصغر الذي كان يتعرض له المرء حين يتصل بأناس أُلقي عليهم الحرْم، والذي لم يكن يؤدي إلا الى الحرمان من الأسرار المقدسة (لم يعد موجوداً في القانون الكنسي الحالي)؛ والحرم الأكبر، مع العقوبات المذكورة أعلاه؛ واللعنة، او الحرم الرسمي، الذي يعاقب به على اخطاء خطيرة بشكل خاص ولكن الذي بات يندمج، منذ مجمع ترانت[4]، بالحرم الأكبر. وهذا المصطلح الأخير لم يعد مستخدماً؛ فاليوم لم يعد يجري الكلام الا على محرومين Vitandi ومحرومين tolerati؛ والأولون، وهم قليلون جداً، هم من يعلن قرار أو حكم صادر عن الكرسي الرسولي أنه يجب " تحاشيهم" من جانب المؤمنين.

يعاقب بتهمة الهرطقة: الهراطقة بحصر المعنى، وأصحاب الهرطقات أو مبتدعوها، وبالأحرى المرتدّون؛ المشتبه بهم بجرم الهرطقة؛ ناشرو العقائد المتعلقة بالهرطقة والمدافعون عنها؛ ناشرو الكتب الهرطوقية، والمدافعون عنها، وقرّاؤها وحائزوها. وكانت لائحة المجرمين في الماضي اكثر اتساعاً.

---

[1] لقد حرم رئيس اساقفة باريس موليير من الدفن الكنسي، لأن الممثلين كانوا يتعرضون للحرم لمجرد ممارستهم مهنتهم.

[2] المقصود هنا العصر الذي يبتدئ مع ظهور المسيحية(م)

[3] باللاتينية في النص(م)

[4] مجمع مسكوني انعقد في مدينة ترانت الايطالية، من عام 1545 الى العام 1549، ومن 1551 الى 1552، ومن 1562 الى 1563، وتم فيه الإصلاح الكاثوليكي (او الإصلاح المضاد) (م).

ففي القرن الثالث عشر أصابت فتوى، صادرة عن البابا بونيفاسيوس الثامن[1] بالحرم من يكون استقبل هرطوقياً أو دافع عنه أو ساعده، وحتى من يدفنه؛ وفي الحالة الأخيرة، لا يُحَل المذنب من العقوبة إلا إذا أخرج من القبر جثمان الهرطوقي.

ولقد كان إلقاء الحرم، في الحقبة التي كان الإيمان يتحكم فيها بكل الحياة الاجتماعية، عقوبة مريعة. إلا أنه بعد أن جعل الامبراطور قسطنطين من المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، دعت الكنيسة الدولة لتشديد عقاب المتهمين بالهرطقة. لم يعد الجرم كنسياً وحسب، بل بات مدنياً. ولقد أعطى قسطنطين المثال شخصياً بإصدار الحكم بالنفي على اريوس، الذي حكم عليه مجمع نيقية بتهمة الهرطقة. وقد أصدر خلفاؤه العديد من المراسيم ضد الهرطقة وبات قانون تيودوسيوس يعرِّض المتهمين بها للعقوبات التالية: الغرامات، فقدان الأهلية لحيازة الاملاك وللقيام بالوظائف العامة، النفي، فضلاً عن عقوبات جسدية، كالجلد والتعذيب. وقد أظهرت الملكيات الاوروبية المنبثقة من انهيار الامبراطورية الرومانية صرامة اشد أيضاً وحكمت كلها بأن الهراطقة يستحقون الموت. وقد جرى إقرار أصول محاكمة يتم بموجبها، بعد إدانة محكمة كنسية للمتهم لكونه تشبث بخطئه، تسليمه للقضاة الدنيويين الذين كانوا يحكمون عليه بالإعدام. وفي القرن الرابع عشر، كرس الامبراطور فريدريك الثاني مبدأ هذا الاجتهاد عبر اصداره مرسوماً ورد فيه ما يلي: " نقرر ان جرم الهرطقة، أياً يكن اسم البدعة، هو في عداد الجرائم العامة". وبذلك كان يجسد الادعاء الذي قال به في القرن السابق البابا المخيف بونيفاسيوس الثامن: " يجب

[1] كان في كرسي البابوية من العام 1294 الى العام 1303(م)

وضع السلطة المادية للملوك والجنود في خدمة الكنيسة والانصياع لإشارة الكاهن".

ونحن نلاحظ في هذا الصدد أن البدع الانجيلية في القرون الوسطى غالباً ما اعتنقت نظريات اجتماعية كانت تتعارض مع نظام المُلْكية: كان اولئك الهراطقة تقريباً، في نظر المالكين في تلك الايام، ما كان الأناركيّون[1] عندنا قبل خمسين عاماً وما هم الشيوعيين اليوم. لذا كان للدولة مبرر إضافي لدعم الصراع الذي كانت قد بادرت لخوضه الكنيسة ضد عقائد ضارّة بصورة مزدوجة. وقد تجسد هذا التعاون عام 1229 بمجمع تولوز الذي قرر أن يخلق في تلك المدينة محكمة يتم تكليفها، بمساعدة السلطة الدنيوية، بالبحث عن الهراطقة الألبيّين[2] ومعاقبتهم. هذه المؤسسة الجديدة، التي نظمها البابا غريغوريوس التاسع عن طريق ثلاث براآت بابوية متتالية، اتخذت تسمية محكمة التفتيش. ومعروفة هي التجاوزات الرهيبة في قسوتها التي توصل لممارستها قضاة متعصبون كان عسفهم بلا حدود، وهي تجاوزات وصلت في اسبانيا الى أحجام جعلت عدة بابوات يحتجون إزاءها على حماس مبالغ به، لا بل إن البابا ليون العاشر ألقى الحرم على قضاة التفتيش في توليدو.

لقد ولّد تطبيق عقوبة الإعدام على الهراطقة وساوس لدى اللاهوتيين بالذات. ويتضمن الـ "Corpus juris canonici" في هذا الصدد مبادئ

---

[1] تعريباً لكلمة "anarchistes" الفرنسية، التي غالباً ما جرى تعريبها خطأً بالفوضويين، حيناً، وبالتحرريين حيناً آخر. علماً بأن كلمة "anarchie" تعني نظاماً سياسياً يتحرر فيه الفرد من كل وصاية حكومية (م).

[2] نسبة الى مدينة ألبي، جنوبي فرنسا، التي انتشرت فيها وفي ضواحيها فرقة مانوية منذ القرن الثاني عشر، وأمر البابا اينوسان الثالث بشن حرب صليبية على اعضائها عام 1209 (م).

أساسية متناقضة: "لا ينبغي قتل الأشرار، بل ضربهم بالقضبان"، ومن جهة أخرى "ليسوا قَتَلةً اولئك الذين يتسلحون بالحماس ضد المفروض عليهم الحرم، حبّاً بأمهم الكنيسة". وقد تواجه رأيان في صفوف رجال القانون الكنسي حول ما كان يسمّى "حق السيف". فبحسب الرأي الأول، يمكن الكنيسة، بوصفها "مجتمعاً كاملا"، أن تقرر عقوبة الموت وتنفيذها عن طريق أحد رؤسائها، إذا كانت هذه العقوبة ضرورية لأجل الخلاص الأبدي للمسيحية؛ ولقد كانت هذه النظرية لا تزال تلقى دعماً في القرن الماضي، في ظل البابا بيوس التاسع، من جانب الكاردينال تاركيني. أما الرأي الثاني فلا يعطي حق السيف للكنيسة إلا بصورة وسيطة؛ يجب أن تعيده للسلطة المدنية، وهذا ما كان يذهب إليه القديس توما الأكويني.

إلا أنه لما كان القديس أوغسطينس اتخذ في أيامه موقفاً ضد عقوبة الإعدام بحق الهراطقة، فلقد استعاد هذا الرأي العديد من القانونيين الكنسيين الحديثين. فهم يؤكدون أن هذا العقاب ليس " علاجيا"، أي أنه لا يتجه إلى إصلاح الخاطئ، وبالتالي لا يتناسب مع عقيدة الكنيسة الحقيقية. وقد جرى الرد عليهم بأن ليون العاشر في قراره Exsurge الصادر عام 1520، أدان القضية 33 لدى لوثر، التي كانت تقول: "ان حرق الهرطوقي ضد ارادة الروح" (Hereticos comburi est voluntatem Spiritus). وهو ما ردوا بدورهم عليه بقولهم إن القرار لا ينص صراحة على أن الكنيسة هي التي ينبغي أن تحرق الهراطقة بنفسها، بل انه يتضمّن ان في وسعها، لا بل عليها، أن تترك الاهتمام بذلك للدولة. ومهما يكن من أمر هذا الجدال المشوَّش قليلاً، فثمة نقطة تبقى أكيدة في كل حال، وهي أن عقوبة الموت لم تَرِدْ يوماً في قانون الكنيسة الرومانية الكنَسي.

إن القاموس الدفاعي عن الإيمان الكاثوليكي (1911) يصوغ على الشكل التالي العقيدة المعمول بها حتى ايامنا هذه : "تُبرر الضرورةُ حكم الإعدام. ففي إحدى الحقب، أمكن أن يكون ضرورياً وملائماً؛ وبسبب الزمان، والافكار، والعادات التي تغيرت، يمكن اليوم اعتبار هذه العقوبة القصوى غير ملائمة، لا بل خطيرة". فلقد حدث تطور لا مجال لمقاومته، بالفعل، وتبدو لنا شبه عائدة الى العصر الوسيط الجملةُ التي كتبها جوزيف دو ماتر في رسائل الى نبيل روسي حول محاكم التفتيش الاسبانية: "يجب وضع مبتدع الهرطقة، والهرطوقي وناشر الهرطقة، بصورة لا جدال فيها في مصاف اكبر المجرمين". ويدهشنا اكثر أن نعرف أن الأب جانفييه، أعلن عام 1912، في إحدى محاضراته في نوتردام، ما يلي: " يمكن الكنيسة، في بعض الحالات، الاستعانة بصورة مشروعة بالسلطة المدنية للدفاع عن الإيمان ضد عمل الهراطقة، وليس تطبيق عقوبة الموت على هؤلاء أمراً لا مبرر له دائماً".

هذا ومهما كانت الكنيسة الرومانية مفعمة بالتحدي في دفاعها عما تعتبره الحقيقة، فقد اضطرت لتقديم بعض التنازلات لليبرالية المعاصرة ولروح التسامح الديني، إذا لم يكن بخصوص جوهر عقيدتها بالذات، فعلى الأقل في الممارسة. لم تعد تقصي الهراطقة من المجتمع، وهي تجيز لمؤمنيها أن يقيموا علاقات معهم، كحضور زواجهم وجنازاتهم. لم نعد نرى، في ليون ومونبلييه، كما الحال قبل نصف قرن، المجتمع الكاثوليكي والمجتمع البروتستانتي يعيشان وقد فصلت بينهما حواجز مسيكة. وقد يثير فرنسوا مورياك ضحك قرائه اذا وصف زميله اندريه سيغفريد، في مقال في جريدة الفيغارو، بالهرطوقي.

لقد صاغ العقيدة، على هذا الصعيد، النص 1258 من قانون الحق الكنسي، الذي ورد فيه: " ليس مسموحاً للكاثوليك بأن يحضروا، بأي صورة من الصور، الاحتفالات المتعلقة بالعبادات، التي يقيمها غير الكاثوليك، أو بأن يشاركوا فيها بنشاط. يمكن التسامح فقط مع حضور عابر او محض مادي، لمراسم الدفن، والزيجات، واحتفالات أخرى من النوع عينه، من باب الإكرام واللياقات، حين يحفّز هذا الحضور سببٌ هام ينبغي، في حال الشك، إخضاعه لموافقة الأسقف، فضلاً عن انه يجب ألا يكون ثمة ما يثير المخاوف من خطر الانحراف والفضيحة. ويوضح القانون 2316 خطر المشاركة الأدبية في عبادة غير كاثوليكية. " كل من يتصل in divinis، على الرغم من القانون 1258، بالهراطقة، يكون مشبوهاً بالهرطقة".

ويمكن أن نقرّب من تدابير الحيطة هذه قرار الجمعية المقدسة لمحكمة التفتيش الذي يحظر على الكاثوليك، أكانوا إكليريكيين أو علمانيين، أن يشاركوا، من دون الترخيص المسبق من جانب الكرسي الرسولي، في الاجتماعات الموصوفة بـ " المسكونية". ومعروف ان هذه الجمعيات حاولت ان تحقق الحلم بتوحيد كل المذاهب المسيحية؛ وهي لم تنجح في اكثرمن إقامة جسر بين الكنيسة الانغليكانية والكنيسة الروسية، وهو جسر جعلته سريع العطب أحداث السنوات الاخيرة.

بيد أن ثمة نقطة ترفض الكنيسة المساومة بصددها: إنها تتعلق بالقراءات التي تحظرها على المؤمن، تحت طائلة الحرم. إن الجمعية المقدسة للدفاع عن

العقيدة الكاثوليكية[1] (التي حلت في هذا المجال، محل الجمعية المهتمة بفهرس الكتب المحرَّمة)[2] لا تزال تضع على اللائحة السوداء أسماء المؤلفين الذين تعتبرهم خطرين. وفي الفترة الأخيرة، وُضع على هذه اللائحة اسم جان بول سارتر، وهي إدانة تأتي طرافتها بوجه خاص من واقع أن مؤلفاته باتت محظرة في الاتحاد السوفياتي. وفي القرن التاسع عشر، حل المصير نفسه بكل من دوما[3] الأب، وبالزاك، وفلوبير، وفيكتور هوغو وزولا؛ ونحن نقتصر هنا على ذكر الكتّاب الفرنسيين. ومن السذاجة بمكان افتراض أن أياً من الكاثوليك، حتى الممارسين جدا لإيمانهم، لم يقرأ يوماً صفحة من كتب هؤلاء المؤلفين المدانة، وبوجه خاص أنه، بعد أن قرأ هؤلاء، اعتبر نفسه مصاباً بالحرم. فلنوردْ في هذا الصدد أحد أحكام القانون الكنسي، الذي يبيِّن الى أي تفاصيل يصل واضعو هذا التشريع:

إن الطابع الذي صفَّ نص كتاب محظَّر يكون محروماً اذا قرأ، عن سابق علم، المخطوط الذي كان أمام عينيه. ولنلاحظ من جهة اخرى ان الكنيسة لا تجعل من فهرس الكتب الممنوعة أداة قمع فظة؛ فهي تجيز للأساتذة، والطلاب، والكتّاب، الخ.، قراءة مؤلفات ممنوعة.

ولأجل اختتام الحديث عن اعمال الرقابة الكنسية، دعونا نُشر، بجانب إلقاء الحرم، الى الرِّباط، أو منع الكاهن من الاستمرار في الاحتفال

---

(1) حلت محل هذه الجمعية، منذ العام 1965، الجمعية لأجل عقيدة الإيمان، في اطار الحملة الاصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية(المعرب).

(2) هذه الرقابة، التي تم اقرارها في القرن السادس عشر، الغيت عام 1966 في ايام البابا بولس السادس، الذي واصل إصلاحات البابا الذي سبقه، البابا يوحنا الثالث والعشرين(م).

(3) المقصود الكسندر دوما (1802- 1870)، صاحب الفرسان الثلاثة، وبعد عشرين عاماً، والكونت دو مونتي كريستو، وعدد كبير من الروايات الأخرى والمسرحيات(م).

بالقداس، وإلى الحرم الديني، أو منع العلمانيين من حضور القداس. والحرم الديني يوصف بالمحلي، حين يشمل منطقة بأسرها، وبالشخصي حين لا يطول اكثر من شخص واحد. وهذا التدبير لم يعد مطبّقاً، على الأقل على الصعيد المحلي. أما سبب ذلك فعائد إلى أنه ليس للكنيسة مصلحة، إزاء توسُّع الإلحاد، في إبعاد أيٍّ كان عن الواجبات الدينية.

أما بخصوص الكنيسة البروتستانتية، فقد سبق أن اشرنا إلى أنها لم تعرف هراطقة حقيقيين إلا في البدايات. فلقد نظرت الدساتير البروتستانتية الأولى إلى الهرطقة على أنها جريمة يجب أن تتعرض للعقاب على يد السلطات المدنية. هكذا، في 27 تشرين الأول / اكتوبر 1553، تم إحراق سيرفيه Servet في جنيف بأمر من مجلس المدينة، الذي أحاله إليه كالفن. وهو ما كان له صدى كبير، واعتبر المصلح بأن عليه أن ينشر، في شباط/ فبراير 1554، باللاتينية والفرنسية، كتيباً بعنوان : **إعلان الايمان الحقيقي**، حيث بيَّن أنه من المشروع معاقبة الهراطقة، وأن " هذا الشرير جرى إعدامه بصورة محقّة في مدينة جنيف". وفي الشهر اللاحق، ظهر **بحث في الهراطقة** كتبه البروتستانتي سيباستيان كاستيليون، نجد فيه أفكاراً متسامحة تعتمد لهجة حديثة تماماً[1]. وفي أيلول/سبتمبر من العام عينه، دحض تيودور دو باز كاستيليون في **بحث عن سلطة القاضي في عقاب الهراطقة ووسيلة القيام بذلك**. ووصف الألماني ميلانشتون العقوبة المنزلة بسيرفيه بأنها Pium et memorabile ad omnem posteritatem exemplum[2].

[1] على سبيل المثال: "ليس قتل انسان دفاعاً عن عقيدة، بل هو قتل انسان... والدفاع عن عقيدة ليس من اختصاص القاضي، بل هو عمل احبار الكنيسة... لا يحافظ المرء على ايمانه بحرق انسان، بل بالاحرى بحرق نفسه لأجل ذلك الإيمان".

[2] عمل ورع ومأثور يكون مثالاً لكل الأجيال القادمة (م).

أما لوثر فكانت له مواقف متباينة جداً في هذا الصدد. فحين حرمه البابا في العام 1520، أنكر بشدة ان يكون هرطوقياً، لأن صكوك الغفران التي كان قد هاجمها لم تكن " نظامية ولا ضرورية للخلاص". وقد انتقد بشدة إحراق جان هوس وأعلن: "لا يمكن القبول بأي شكل بإهلاك الأحبار الزائفين". وقال : "لا يمكن مكافحة الهرطقة إلا بكلام الله: فهذا الكلام ينوّر القلوب، وبذلك تتهاوى كل الهرطقات والاخطاء تلقائياً". واذا تشبث الهرطوقي بموقفه، ينبغي إقصاؤه من الجماعة، بالاستناد إلى ما يقوله القديس بولس في رسالته الى تيطس: "أبْعد عن نفسك، بعد تحذيرين أول وثانٍ، من يتسبب بالانقسامات".

وجاء تمرد القائلين بتجديد العماد وحرب الفلاحين. وقد كرر أيضاً، في الرسالة إلى أمراء الساكس بصدد الفكر المثير للفتنة، أن السلطة الزمنية يجب الا تتدخل في نقاش روحي، ولكن حدث في العام 1525 تغيير كامل: لقد نشر كتيباً ضد عصابات الفلاحين القَتَلة والنهّابين، ودعا بشدة إلى تدخل السلطة المدنية. كان قد لاحظ أن "كلام الله" عاجز عن إخضاع مجانين يحرقون القصور ويقتلون النبلاء. ولقد وقّع بدون تردد بياناً يؤيد فيه لاهوتيو وورتمبرغ عقوبة الموت للهراطقة.

بعد إبعاد خطر قيام ثورة اجتماعية، اعتمدت كنائس المانيا البروتستانتية نظرية اكثر احتراماً للضمير الفردي، الذي هو قاعدة اتجاهاتها العقيدية ومبرر وجودها. واذا كانت رفضت بعضُ الكنائس المناولة أحياناً بالنسبة لأعضاء بدع تعتبرها خطيرة بوجه خاص، سرعان ما سيتم التخلي عن هذه الممارسة.

الأمر نفسه يقال عن الكنيسة الكالفينية التي سرعان ما تخلت عن تشدد مؤسسها. ففي المراسيم الكنسية الصادرة عام 1576، أي بعد وفاة كالفن باثنتي عشرة سنة، نقرأ ما يلي: "إذا كان هناك من يطلق آراء ضد العقيدة المتلقاة، فليتم استدعاؤه للتداول معه (المجمع الديني)؛ وإذا تعقّل، فليتم تحمُّله من دون فضائح أو تشنيع؛ وإذا كان متشبثاً برأيه، فليؤنَّبْ مراراً سعياً وراء إخضاعه. واذا وُجد أخيراً أن ثمة حاجة لقدر أكبر من الصرامة، فليحظَّر عليه العشاء السري، وليتم تنبيه السلطة الكنسية لمعالجة هذا الأمر". وهكذا جرى إضعاف دور السلطة المدنية الى أقصى حد، وبات إحراق سيرفيه أمراً عائداً إلى زمن بعيد سابق.

أما بخصوص الكنيسة الروسية، فكما أنها لم تحدد بدقة جرم الهرطقة (ربما بسبب أن هذا الجرم لم يكن موجوداً حتى القرن السابع عشر)، لم تقرر يوماً، بصورة رسمية، ما يستحقه من عقوبات. كانت العقوبة الكنسية هي إلقاء الحرم، أو اللعنة لمزيد من الدقة. لكن مذ اتخذ الراسكول[1] أحجاماً مقلقة بالنسبة لكنيسة كانت تختلط تقريباً بالدولة، قدمت هذه الأخيرة كل ترسانة العقوبات التي تصيب المجرمين: التعذيب، النفي، المحرقة. ولقد أظهر بطرس الأكبر قدراً أقل من الصرامة، وسنرى أن خلفاءه اتخذوا حيال الراسكولنيكي (أي المنشقّين) سياسة اختلفت تبعاً لصُدَف الظروف أو لأهواء القيصر.

وفي أيامنا، إذا صدّقنا دائرة المعارف اللاهوتية الارثوذكسية، لا تُظهر الكنيسة الروسية صرامة خاصة حيال المنشقين، حتى إذا كانوا هراطقة عن سابق تصور وتصميم. والتعريف الذي يعطيه هذا الكتاب للهرطقة قابلٌ

---

[1] الانشقاق (م).

كفايةً للتأويل: "إنها عقيدة الدين المسيحي، التي يدخل أتباعها في تناقض واعٍ وبديهي مع قوانين ايمان مسيحية موحى بها بوضوح وصاغتها الكنيسة بدقة".

أما بخصوص العقوبات المفروضة، فهاكم ما نقرأه: "في علاقة الكنيسة الارثوذكسية مع الهراطقة، يرشدها تعليم السيد المسيح بالذات، الذي يعامل على قدم المساواة الوثني والخاطئ المتشبث برأيه والمصر على ذنوبه، ويطرده تالياً من الكنيسة (متى، الإصحاح الثامن عشر، 15- 17). وفي ذلك يكمن حق اللعنة او الحرم، الذي ليس إطلاقاً عملاً من اعمال الإكراه أو القسوة، بل هو فعلُ محبةٍ رحيم ويهدف الى حماية الاعضاء الآخرين من عدوى الهرطقة، والنداء الأخير بصوت الكنيسة بغية إعادة الهرطوقي بالذات الى جادة الصواب". والمقطع المأخوذ أعلاه من إنجيل متى متصوَّر على الشكل التالي: "إن أخطأ أخوك ، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. فإن سمع منك ربحت أخاك، وإن لم يسمع، خذ معك شخصا او شخصين، لكي تُسوَّى القضية بشهادة شاهدين او ثلاثة. وإن رفض الاستماع إليهم، قل ذلك للكنيسة، وإن رفض الاستماع إلى الكنيسة أيضاً، فليكن عندك كالوثني والعشّار". وسوف نلاحظ أن نص المراسيم الكنسية الصادر في جنيف، والذي استشهدنا به اعلاه، إنما يستلهم بوضوح المقاطع نفسها من الإنجيل وفقاً للقديس متى.

## عماد الهراطقة

إن مسألة عماد الهراطقة أو إعادة تعميدهم أفسحت في المجال امام سجالات وفيرة، سواء في الكنيسة اليونانية او في الكنيسة الرومانية.

فمنذ نهاية القرن الثاني وفقاً للتقويم المسيحي، شوهدت نعاج ضالة على يد رعاة زائفين تطلب العودة إلى قطيع الكنيسة، فتوجَّب إذاً وضع شروط عودتها إلى الايمان الحقيقي. فإذا كان الأمر يتعلق بمعمَّدين انتقلوا الى حالة الهرطقة، وتابوا الآن، كان يكفي فرض قصاص طويل إلى هذا الحد أو ذاك، وعلى هذه الدرجة من الصرامة أو تلك. ولكن إذا كان المرشح قد تلقى العماد على يدي كاهن هرطوقي أو منشق، كانت المشكلة تتعقد.

وبناء على رأي ترتوليانوس، كانت الكنيسة الافريقية قد اعترفت ببطلان العماد الهرطوقي، وكانت تشترط عماداً جديداً. ولقد كان الرأي في روما يتعارض مع الرأي في الاسكندرية، وإذا كان العماد قد تم وفقاً للصيغة الثالوثية وباسم يسوع المسيح، كان يتم اعتبار الهرطوقي تائباً بمجرد وضع اليدين على رأسه.

ولقد وضع القديس أغسطينس، في بحثه **De baptismo** (أو العماد) عقيدة الكنيسة في هذا الخصوص: بيَّن أنه اذا كان العماد الهرطوقي غير جائز، فهو لم يكن بسبب ذلك باطلاً، ولقد حافظ على فعاليته الباطنة، على طابعه الرباني(character dominicus)، والمسيح بالذات عمل بواسطة مسؤول ديني، أياً تكن ابتداعية هذا الكاهن أو لا أهليته. وبعد مجادلات طويلة، انتهى " معيدو العماد" الافريقيون الى الخضوع. كان رأي القديس أغسطينس قد تغلب، وكرسه، في ما بعد، مجمع ترانت (1515) بالعبارات التالية: "إذا قال احدهم إن العماد الذي يعطيه هراطقة باسم الآب، والإبن والروح القدس، بنيَّة صنع ما تصنعه الكنيسة، ليس عماداً حقيقياً، فلتحلَّ عليه اللعنة". والممارسة الحالية لا تزال تَعْتبر كافياً الطقسَ التَّوْبي لوضع اليدين على الرأس، مع احتمال تجديد طقس العماد المختص

بالأسرار المقدسة إذا كان هناك شك حول صحة ذلك الذي منحه رجل دين هرطوقي.

اما بخصوص الكنيسة اليونانية، فبعد أن انفصلت عن الرومانية بفعل الانشقاق الكبير، ترددت طويلاً حول هذه المسألة. وفقط في العام 1484، اتخذ مجمعٌ شرقي انعقد في القسطنطينية موقفاً واضحاً حين أعلن أن اللاتين هراطقة من الفئة الثانية، أي من شأنهم أن يُقبلوا في الكنيسة اليونانية عبر تجديد سر التثبيت وتلاوة صيغة جَحْد وإعلان إيمان. أما روسيا، المنعزلة في قوميتها الدينية، فأظهرت عموماً صرامة أشد.

واذا كان الاكليروس الروسي قد اكتفى، منذ الانشقاق البيزنطي وحتى مجمع فلورنسا الذي خلص في العام 1439 إلى أن يعلن من دون حذرٍ اجتماع الكنيستين الشرقية والغربية مجدداً، بأن يفرض على المرشح طقس مصالحة متمثلاً بالمسح بالزيت المقدس، بالتلازم مع صلواتٍ شتى، فلقد بات يعتقد الآن بأنه مجبر، إزاء الخطر البابوي، على إعادة تعميد الكاثوليك. ولقد تعاظم الخطر أيضاً في بداية القرن السابع عشر، حين اجتاحت قوات بولونية روسيا وتمركزت داخل موسكو؛ لذا قرر مجمع (Sobor) في العام 1620، ممارسة إعادة العماد. ألم يكتب البطريرك هيرموجين، زعيم المقاومة الوطنية للاحتلال الاجنبي: "إن الأنجس والأشرس بين الهراطقة هم اللاتين البابويون الذين قبلوا في دينهم بالهرطقات الملعونة الخاصة باليونانيين، واليهود، والأغارينيين، وكل البدع الهرطوقية؟" ولتحاشي عدوى طاعون كهذا، اذا كان المهجَّرون القادمون من بولونيا وليتوانيا قد عُمِّدوا بالنقيع، فلقد باتوا يعمَّدون مجدداً عبر التغطيس ثلاث مرات؛ والذين كانوا قد عُمِّدوا بالتغطيس، ولكن على يدي كاهن بابوي (اي يعترف بالبابا)، بات ينبغي تعميدهم مجدداً أيضاً.

بيد أن التشدد الروسي على هذا الصعيد ضعف حين استقدم البطريرك نيكون، الراغب في إصلاح كنيسته، أساقفة ولاهوتيين يونانيين إلى موسكو، بصفة مستشارين. وقد قرر مجمع انعقد عام 1667 أنه يجب الأخذ بطقس المصالحة المعمول به لدى اليونانيين منذ العام 1484. إلا أن صيغة الجحد، أو التخلي عن المعتقد، بقيت عديمة الرحمة: كانت تتضمن أربعاً وأربعين لعنة ضد المبادئ الايمانية والطقوس الخاصة بالكنيسة الرومانية، وضد العديد من البابوات الذين اقترفوا اخطاء خطيرة، ولا سيما المدعو بطرس المفأفئ (Pierre le Bègue) الذي يقال إنه سمح للكهنة الكاثوليك بأن يتخذوا لأنفسهم سبع خليلات. وكان على المرشح ان يضيف: "ألعن غواية الوجه الكريه والمنتهك للحرمات لأولئك الذين يقصُّون لحاهم".

وقد استمرت الكنيسة الروسية في إعادة تعميد البروتستانت وذلك حتى عهد بطرس الأكبر. ذلك أن الإصلاحي الكبير[1] الذي كان بحاجة إلى تقنيين اجانب يستقرون في روسيا، استحصل من بطريرك القسطنطينية على إجازة قبول بروتستانتي في الكنيسة الاورثوذكسية عبر مجرد منحه سر التثبيت، الذي لم تكن تأخذ به الكنائس البروتستانتية. وقد أعلن السينودس الأقدس، في عهد كاترين الثانية "الامبراطورة الفيلسوفة"، التي كان قد بلغ بها التسامح حد بناء كنيسة كاثوليكية في عاصمتها، في قلب جادَّة نيفسكي، أنه سيكون ممكناً من ذلك الحين وصاعداً قبول اللاتين من دون تجديد سر التثبيت، وبمجرد تلاوة صيغة التخلي (عن المعتقد) وإعلان الإيمان. وهذه الصيغة، على غرار تلك التي أقرَّها اليونانيون في العام 1484، لم تكن ترفض سوى استخدام الفطير، وقرارات مجمع فلورنسا. ولقد تعدلت في

---

(1) المقصود القيصر بطرس الأكبر(م).

العام 1858 لأجل توضيح رفض أولوية البابا وعصمته عن الخطأ.

أما العقيدة البروتستانتية حول استقبال الكاثوليك او المنشقّين، فتستند إلى مقطع من الرسالة إلى أهل أفسس: "هنالك ربٌّ واحد، وإيمان واحد، وعماد واحد، وإله واحد وأب للجميع، هو فوق الجميع، وبالجميع، وفي الجميع". وكان لوثر سبق أن سلمً بصحة عماد الكاثوليك، مع أنه اتهمهم بتشويه معناه الحقيقي، عن طريق اعتبارات لا علاقة لها بالإيمان. وإذا استثنينا، في الفترة الحاليّة، مجددي العماد طبعاً، فإن كل المذاهب البروتستانتية تعترف بالعماد المعطى مسيحياً كعماد سليم. واذا حام الشك حول النقطة الأخيرة، تعيد الكنيسة الانغليكانية العماد بصورة مشروطة.

## تصنيف البدَع

يستحق موضوع تصنيف البدع الدينية وفقاً للزمان والمكان دراسة معمَّقة، لأن هذا التصنيف يظهر غير متكافئ إطلاقاً، من دون ان نتمكن، للوهلة الأولى، من اكتشاف أسباب ذلك بالضبط.

إن الحقبة التي بدت فيها الانشقاقات هي الأقوى، على الأقل، اذا لم تكن الأكثر عدداً، هي حقبة بدايات المسيحية، حين كانت مبادئ الإيمان في الكنيسة الجديدة لا تزال تفتقد التعريف السليم، وحين كان يمكن المرء أن يؤمن بما يشاء تقريباً حتى بخصوص أقسام من العقيدة الدينية ذات أهمية. ولم تكن التباينات انحرافاتٍ عن عقيدة مثبَّتة بل بحثاً عن عقيدة يجب تثبيتها وبلورتها.

وقد لقيت البدع، في القرون اللاحقة وإلى حين قيام الإصلاح الديني،

نجاحاً أقل، إما لأن استقامة المعتقد الكاثوليكية الصِّرفة فرضت نفسها عن طريق الاهتمام الموسوَس جداً الذي بُذل لأجل توضيحها، أو لأن اضطهاد الهراطقة أصبح أعمَّ وأفعل، بفضل دعم السلطة المدنية. ثم جاء الإصلاح البروتستانتي، الذي كان التفسير الحر للنصوص المقدسة سبباً ونتيجة له في آن معاً، ففتح الطريق امام كل التباينات في وجهات النظر، ويمكن القول أيضاً أمام كل الأهواء؛ فالبدع البروتستانتية تقدم لنا، في الواقع، تنوعاً كبيراً على صعيد المعتقدات الدينية. وبسبب هذا التنوع بالذات، وإزاءه وبالتضاد معه وطدت الكنيسة الكاثوليكية وحدتها وعززت سلطتها، إلى حد أنها لم تشهد في الأزمنة الحديثة، إلا بدعاً لا اهمية ولا مستقبل لها.

أما بخصوص الشعوب ذات البدع فتمكن الإشارة إلى أنها اكبر عدداً في الشرق مما في الغرب، وفي شمال أوروبا مما في الجنوب. فلقد عمد الروم (أو اليونانيون) البيزنطيون، في القرون الأولى، إلى استخدام حدة ذهنهم لأجل أن يشرِّحوا بشتى الطرق سرَّي التجسيد والثالوث، في حين كان اللاتين، الأقل اهتماماً باللاهوت مما بالقانون، يرغبون اكثر في التعريف بمبادئ الإيمان بُغْية الخضوع لها بشكل أفضل. واذا ذهبنا أبعد في اتجاه الشرق، فإن الروس قد انصرفوا، انطلاقاً من اللحظة التي انشقت فيها كنيستهم، الى المبالغات الاشد غرابة في الشرود الايماني. أما في الغرب، ففي حين كانت الشعوب اللاتينية تحافظ على الوحدة الدينية للأمة، وإن كلفها ذلك القضاء على المنشقين جسدياً، كان الالمان الشماليون والانكليز ينفصلون بوضوح عن المسيحية الرومانية، ويخلقون شيئاً فشيئاً، بفضل حرية التفكير، عدداً لا حصر له من البدع. واذا كان الأولون (أي الألمان) ربما تأثروا بنهوض مفاجئ للحرية الجرمانية القديمة، فلا شك في أن الآخرين كانوا يستلهمون

الاحترام الذي يشعرون به بصورة طبيعية حيال أي رأي خاص. وفي الولايات المتحدة، حيث غلبة الدم الانكلوسكوني والدم الجرماني تضفي على الذهنية الوطنية طابعاً "شمالياً" بوضوح، جزّأت الفردية الدينية إلى أبعد الحدود جمهور المؤمنين البروتستانتيين وأدت أحياناً إلى ظهور التفسيرات الأشد غرابة لتعاليم المسيح.

إلا أن الشذوذ الديني يتخذ الأشكال الأكثر غرابة، والأشد تطرفاً، في البلدان الشرقية والسلافية، فسواء تعلق الأمر بهذيانات الغنوصية الإسكندرية، او بالثنوية الغريبة لدى البوغوميليين[1]، أو بالانحرافات الخارقة في الإيمان الروسي، فإننا نلاحظ في كل مكان التعارض الذي يضع اوروبا اللاتينية- الجرمانية، في هذا الصدد، بمواجهة اوروبا السلافية، وآسيا الخلفية ومصر. ففي الشرقِ اللامعقولُ وهو يتيه بصورة جامحة، وفي الغرب اللامعقولُ أيضاً وقد أضفى عليه المنطقُ الاعتدال. حتى أننا، إذا أخذنا بالاعتبار التوزع الجغرافي للبدع وهجراتها من الشرق إلى الغرب، قد نقع تحت إغراء القول **Ex oriente obscurit** (الظلمة الآتية من الشرق) وليس **Ex oriente lux** (الضوء الآتي من الشرق).

---

[1] هراطقة بلغاريون ظهروا في القرن الثاني عشر(م).

# الفصل الأول

## الهرطقات الكبرى للقرون الأولى

### أولاً. الحقبة السابقة لمجمع نيقية

يشكّل أول مجمع مسكوني انعقد في نيقية، في آسيا الصغرى، في العام 325، حَدثاً هاماً في تاريخ البدع المسيحية. فللمرة الأولى، اجتمع ممثلون لكل طوائف المؤمنين بصورة رسمية لأجل تحديد ما يَحْسُن الإيمان به وإدانة العقائد الزائفة. لقد دخل اللاهوت بذلك الى العالم المسيحي، وحتى إلى العالم عموماً.

وكنا لاحظنا، في الواقع، أن العصر القديم لم يعرف الحاجة الى وضع مبادئ إيمان وإعلانها. فلقد كان للأديان طابع عرفي، وإتني تقريباً. كانت المعتقدات والطقوس تشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث الوطني.

وكان النفي أسوأ العقوبات، لأنه كان يحول بين المحكوم عليه وبين أن يواصل أداء العبادة المتوجبة حيال آلهة المدينة ؛ كان يتطابق مع إلقاء الحرم في الدين المسيحي. وقد أعقبت هذه الديانات المدينية ديانةٌ شاملة، عالمية واممية ("لن يعود هناك يهود ولا يونانيون").

من جهة أخرى، وقبل ظهور المسيحية، كانت فتوحات روما قد ألغت استقلال المدن القديمة، وبعد استقلال هذه الأخيرة شهدت زوال المعتقدات التي كانت تشكّل ماهية وطنيتها المحلية بالذات. وإذ جرى فصل النفوس الضائعة عن آلهتها الوطنية، بحثت عن آلهة أخرى. في ذلك الحين بالذات اكتسحت الصوفية الشرقية اليونان، ومصر وايطاليا وأصابت عدواها روما

بالذات، التي كانت حتى ذلك الزمن قلعة للتوازن الديني. ففرض المواطنون الرومان المعتزون بأنفسهم ـ وزوجاتهم بوجه خاص ـ فرضوا على أنفسهم الإماتات، والصوم الصارم، وحمامات الماء الجليدي، التي كان يأمرهم بها معلّمو أسرار إيزيس المصرية أو الكهنة المخصيُّون لسيبيل[1] الفريجية؛ كما خضعوا للتوروبول[2]، او التضحية بثور كان دمه يرويهم، مجدِّداً إياهم إلى الأبد؛ وانصرفوا إلى عبادة ميترا[3]، مع عمادها وعشائها السرّي من الخبز والماء.

لقد كان في الجوانب الشاذة والغريبة لتلك الطقوس أساس صلب وجديد: إنه القلق الأخلاقي. لم تعد الديانة مجموعة من الحركات والكلمات التي يقوم بها معتقوها ويقولونها لأن مواطنيهم قاموا بها وقالوها، على الدوام، بل باتت تطلعاً إلى حياة حارَّة ومجدَّدة، خاضعة تماماً لقوةٍ عليا، ولكنها تستنير بالحماية الرحيمة لتلك القوة. ومن عساه كان قادراً على استجابة هذا الأمل الكبير غير إله المسيحيين؟ هذا الإله الذي ضحَّى بابنه الوحيد لإنقاذ البشرية، وإنقاذ كل إنسان بوجه خاصٍ عن طريق عملٍ لم يَحْدُث أن فُكر به من قبل أيٌّ من آلهة الوثنيين؟

والحال أنه كان على الدين المسيحي ـ لكي يكون قادراً على التغلب على الوثنية المحتضرة وسط تكاثرٍ مَرَضي لإيديولوجياتٍ غريبة، ولكي يكون في وسعه، من جهة اخرى، أن ينافس تعاليم الرواقيين، او الأبيقوريين، الفلسفية ـ كان عليه أن يتمكن من حيازة عقيدة واضحة ودقيقة. لا بل كان

[1] إلهة الخصب، واصلها من آسيا الصغرى، وبالتحديد من فريجيا، الواقعة بين بحر إيجه والبحر الاسْود(م).
[2] أضحية تكفيرية لدى الوثنيين يتضمخ فيها الكاهن بدم ثور مذبوح (م).
[3] إلهة كبرى لدى الفرس، جنية العناصر وقاضية الموتى(م).

يلزم ذلك لأجل الحفاظ على إيمان اولئك المسيحيين الأوائل الذين خيَّب آمالهم الانتظار العبثي للملكوت الله الذي بشَّر به الانجيل على أساس أنه وشيك جداً، والذي كان يُعرف بمجيء المسيح الثاني، أو رجعة المسيح. كان أولئك المتنصِّرون المتحمسون الجدد قد عاشوا على وعد الرسالة الخيِّرة، وطالما كان المسيح سيظهر بلحمه ودمه، هل كان يهمهم أن يفقهوا سر طبيعته المزدوجة أو سر علاقاته بكلمة الله؟

فضلاً عن ذلك، لم يكن تمحَّصَ بعد بتلك الأسرار أحبارُ الكنيسة الأوائل، اولئك الآباء الرسوليون المفترض أنهم كانوا تلامذة الرُسل بالذات: كليمان الروماني، واغناطيوس الأنطاكي، وبوليكاربيوس الإزميري، وآخرون. لم تكن قد أُرسيت بعد بنية فوقية لاهوتية على تعاليم يسوع والرُسُل، وهي تعاليم كانت قد بقيت ناقصةً جداً على صعيد مبادئ الإيمان، حتى في إنجيل يوحنا ورسائل القديس بولس.

كانت أصول العقيدة المسيحية، إبّان المرحلة التي سبقت مجمع نيقية، لا تزال في الطور الضبابي، إذا أمكن القول. لم تكن الحقائق الإلهية قد أصبحت بعد تلك النجوم الثابتة التي سيشع بريقها في القرون اللاحقة. فلقد كان يتم تفسير النصوص المقدسة وفق مشيئة كلٍ من أولئك الذين ينصرفون إلى ذلك، ووسط المشادات والصياح وُلِدت الكريستولوجيا، أو مجمل النظريات المتعلقة بشخص المسيح وعلاقاته بالله وبالإنسان. وسجالات تلك الحقبة كانت لا تزال تنحّي جانباً مسألة الثالوث، التي ستثير لاحقاً جدالات عنيفة جداً؛ فلن يُعلن بروزها، قبل ظهور الأريوسية وإدانة مجمع نيقية الأول لها.

إن هرطقات القرون الثلاثة الأولى يمكن أن تُختصر بأربعة اتجاهات رئيسية تتشابك، فضلاً عن ذلك، أو تتراكب غالباً بسبب التوفيقية الدينية التي كانت رائجة آنذاك :

1 - العرفان (gnose)، أو الوجوه الخفية لعلم نشأة الكون، والسوتريولوجيا (أو عقيدة الخلاص)، وهي وجوه تتميز عموماً بوجود الثواني، أو الأيونات (eors )، وهي كائنات وسيطة بين الله والعالم المادي ؛

2 - الثنوية، أو النظرية التي تميِّز مبدأين في العالم، الخير والشر، والتي تعتبر النفس والجسد جوهرين مستقلين تماماً ؛

3 - الدوسيتية (من اليونانية دوكيو dokéo ، أو بدا)، وكانت تعتبر أن يسوع الإنسان لم يكن غير ظاهر ؛

4 - الوحدوية، التي تتمسك بالتوحيدية الأكثر دقة، ولا تعترف، تالياً، بالثالوث.

## البدع اليهودية - المسيحية[1]

لما كان اليهود، على المستويين الجغرافي والنفسي أول أتباع الايمان الجديد، كان طبيعياً جداً ألا تكون اليهودية تخلت، من دون قتال، عما كان يمكن، من بين مبادئها، ان يكون قابلاً للتوفيق مع العقيدة المسيحية.

ولقد كان يوجد، ، في الحقبة الرسولية[2]، اتجاهان في الايمان اليهو -

[1] - سوف نعتمد عبارة اليهو- مسيحية، من الآن وصاعداً، بدلا من اليهودية المسيحية(م).

[2] أي التي عاصرت رسلَ المسيح (م)

مسيحي: كان أحدهما يعتبر أن الإنجيل لم يُلغِ الناموس، وينبغي الحفاظ على سبيل المثال، على طقس الختان؛ أما الثاني، الأكثر اعتدالاً، فكان يقبل، بخصوص الوثنيين المهتدين الى المسيحية، بإمكانية عدم الالتزام بالأنظمة القانونية الخاصة بشريعة موسى.

في حال الالتزام بالرأي الأول، كان ذلك يقضي بجعل المسيحية بدعة دينية يهودية؛ أما في الحالة المعاكسة، فكان ذلك يعني خلق فئتين من المسيحيين، فئة "التامّين"، وفئة "المتهوِّدين". وهذا هو ما حصل، فضلاً عن ذلك، في البدايات: كان أنصار العدل يخضعون لكل أنظمة الشريعة الموسوية، بحيث كان الختان يتضافر مع مسارَّة[1] يبدو أن العماد كان جزءاً منها، في حين أن أنصار الباب، وكانوا وثنيين سابقين، لم يكن في وسعهم الدخول إلا إلى النطاق الأول للهيكل، وبعد عبور "باب الوثنيين"؛ هم الذين تدعوهم أعمال الرسل "الناس الأتقياء"، "الناس الذين يخافون الله".

لقد كان بولس، "رسول الوثنيين"، بوصفه الرائد الحقيقي للكنيسة الجامعة، يعارض اولئك الذين كانوا يقولون، "هم الآتين من اليهودية": "إذا لم تكونوا مختونين بحسب شريعة موسى، لا يمكنكم أن تحصلوا على الخلاص". وقد جعل وجهة نظره تنتصر في الجمعية التي التقى فيها الرسل والشيوخ في أورشليم. إلا أن "المتحمسين للايمان" واصلوا تحريضهم في أنطاكيا وغلاطية؛ فبالنسبة إليهم، هم الأنصار المتأخرين لليهوديّة الفرّيسية، كانت الأمة اليهودية ستعرف مستقبلاً مجيداً في ظل المسيح — الملك. وقد كانت هذه التوفيقية اليهو ـ مسيحية بناء سريع العطب جداً بحيث لن تصمد أمام الاندفاع الظافر للديانة الكوسموبوليتية الجديدة. صحيح أنها

[1] احتفالات كانت تتم لإطلاع المهتدي الجديد الى الديانة على أسرارها وطقوسها(م).

بقيت موجودة في القرنين الثاني والثالث، ولكن سرعان ما اختفت بعدئذ، لعجزها عن حل مأزق الانتماء: إلى اليهودية أو إلى المسيحية.

لقد جرى التمييز، داخل اليهو ـ مسيحية، بين اتجاهين: المعتدل والراديكالي. وكان يتمثل الأول بالنصرانيين، الذين كانوا ينسبون أنفسهم إلى الرسول يعقوب. لقد كانوا إسرائيليين مخلصين، ولكنهم نجحوا في أن يجمعوا الكمال الإنجيلي إلى الالتزام الدقيق بوصايا الناموس القديم. هذا ولم يؤد خراب أورشليم ودمار الهيكل (في العام 70 بعد الميلاد) إلى القضاء على نزعتهم القومية وحلمهم المسيحاني. كانت المدينة المقدسة مركزهم، وكان لديهم أسقف فيها؛ وقد اختفى الأسقف الأخير خلال قمع الرومان لتمرد بار ـ كوشيبا (135 ب.م.). ولقد كانوا يستعينون بإنجيل مكتوب بالآرامية ضاع نصه للأسف.

يمكن اعتبار النصرانيين مستقيمي العقيدة، إي أنهم لم يكونوا ينبذون اياً من مبادئ المسيحية. ولكن الاتجاه اليهو ـ مسيحي الآخر، اتجاه الابيونيين، كان هرطوقياً بوضوح. وأصل اسمهم، المنشق بلا ريب من الكلمة العبرية إيبيون ("فقير")، لم يتم إلقاء الضوء عليه. ولقد كانوا، على غرار "المتحمسين للايمان"، يعتبرون الختان والممارسات الناموسية (أي الشرعية) شرطاً ضرورياً للخلاص. فضلاً عن ذلك، كانوا يرفضون التصور الفائق للطبيعة وألوهة المسيح الذي، بولادته الطبيعية من يوسف ومريم، أصبح ابن الله عبر عماده في نهر الأردن. وهم كانوا يقتربون من بدعة الأسينيين الاسرائيلية بتقشفهم الغذائي وإكثارهم من الوضوء.

ولقد كانت هناك مجموعة مثيرة للفضول متفرعة من الأبيونية هي الألسيزية، حيث يمتزج العُرفان، والسحر والتنجيم بالأفكار اليهودية.

المسيحية. أما كتابها المقدس، الذي أُنزل بواسطة ملاك وجاء به الحكيم ألسيزاي من أعماق الشرق، فكان يُعلّم أن ابن الله، سيد الملائكة، تجلّى في أشخاص عديدين، من آدم إلى المسيح. ولقد كان على المرشح للانضمام إلى البدعة ان يتلو الصيغة التالية: "أشهد السماءَ، والماءَ والأرواحَ القُدوُسة، وملائكةَ الصلاة، والزيتَ، والملحَ والأرضَ، بأنني سأمتنع من الآن وصاعداً عن الوقوع في الخطيئة، وعن الزنى، والسرقة، والشتم، واشتهاء قريبي او كراهيته، ونقض العهود، وارتضاء أي شر". وكان معتنق الايمان الجديد يُغطّس عندئذ بكامل ثيابه في ماء العماد. وإذا وقع الألسيزي في الخطيئة مجددا، كان في وسعه النهوض منها عن طريق عماد جديد يدعى حَمَّام المصالحة.

ويمكن أن نضع بجانب اليهو - مسيحيين فيلون اليهودي المشهور، ليس لأنه ينتمي لإحدى البدع التي تحدثنا عنها للتو، بل لأن تأملاته الفلسفية تركت تأثيرها في الفكر المسيحي. ولقد ولد في العام 20، في الاسكندرية، حيث كانت الطائفة الاسرائيلية كبيرة العدد، وبقي مرتبطاً على الدوام بإيمان آبائه. بيد أنه سعى، في حوالى 50 كتاباً وضعها باليونانية، ان يدمج التوراة بأفلاطون. أخضع العهد القديم لتفسير رمزي، فالأحبار الكبار يرمزون إلى ينبوع معرفة الله فينا: يمثل ابراهيم التعليم، وإسحق الطبيعة ويعقوب الزهد. فضلاً عن ذلك، يُفلتُ الله من أي تحديد، فكل ما يمكن عقلنا أن يطمح إليه، إنما هو معرفة أنه توجد علّة للكون، ومن قبيل الحماقة أن نريد معرفة طبيعتها وصفاتها. بيد أن هذا الله المتعالي الى هذا الحد يمكن أن يدخل في علاقة بالعالم والانسان بواسطة "قوى" غير مرئية ولكنها يمكن أن تدرَك بالعقل، يماثل فيلون بينها وبين "الأفكار" الأفلاطونية. ونجد

في مقدمة هؤلاء الوسطاء اللوغوس، وهو فاعل الخَلْق ووسيط لصالح الانسان. هذا ومنظومة فيلون تفتقر الى الدقة والتماسك؛ فهي تخلط اليهودية بالأفلاطونية والرواقية؛ وباختصار، إن الغرض منها جعل اليونانيين يسلِّمون بالقيمة الجامعة لشريعة موسى. ومع أن اللوغوس الخاص به مجرد تماماً بالقياس إلى كلمة الله[1] لدى القديس يوحنا، حياة البشرية ونورها، ومع ان فلسفته مائعة وغير قياسية، عموماً، فلقد قدَّره كثيراً آباء الكنيسة الأوائل، الذين استخدموا بشكل خاص الطريقة الرمزية التي خلقها.

## البدع الغنوصية

يمكن اعتبار أن البدع الغنوصية أصلاً اقدم من أصل الهرطقات اليهو ـ مسيحية. فهي تعود إلى ينابيع مصرية، وكلدانية، وفارسية، وربما حتى هندوسية، ينابيع اختلطت في الاسكندرية، عاصمة تلك الهللينية المنحطَّة التي شهدت فيلون اليهودي يحجب بسُحُبٍ متماوجة أنوارَ الفكر الأفلاطوني الواضح. وسوف نرى الآن الرهافة الاغريقية تتحد بالصوفية الشرقية بحيث تبنيان عقائد يمكن تفسير تنوعها وغرابتها سواء ببلبلة العصر الأخلاقية أو بغياب ما يوازن لاهوتاً مسيحياً مؤسساً بصلابةٍ على النصوص الانجيلية والتراث الرسولي.

إن الغنوزيس (gnosis)، او المعرفة، تتعارض مع البيستيس (Pistis)،

---

[1] Le Verbe . وسوف نستخدم هذا التعبير حيناً، واحياناً مختصراً بتعبير الكلمة حصراً، على ان نميزه عن تعبير الكلمة العادي (le mot) بالتعامل معه على اساس انه في حالة التذكير لا التأنيث (المعرب).

أو المعتقد؛ فالأولى وقفٌ على المطّلِعين، والثاني قِسمةُ المؤمنين البسطاء.

وهذا التعارض يبيِّن الطابع الفلسفي و"الارستقراطي" في آن معاً الذي تتسم به الغنوصية. وهو يفسِّر نجاحها: إنه لأمرٌ يدغدغ المشاعر دائماً أن يعرف المرء أشياء يجهلها العامّة، وتاريخ البدع المسيحية يظهر لنا أنها استخدمت غالباً هذا الجاذب المقدَّم للغرور البشري. واليوم أيضاً، ألا نرى، في كل مكان حولنا، "الإخفائيين"[1] يزدرون جهلنا بـ "العقائد الباطنية"؟

إن الغنوصية تقدم لنا اللوحة الأكثر اضطراباً للمذاهب التوفيقية الدينية. فنحن نجد فيها خليطاً من الأسرار الوثنية، والطقوس السحرية، والنظريات الغريبة عن نشأة الكون، والتفسيرات الاعتباطية للعهدين القديم والجديد. إن كّلاً من مؤسسي عرفانٍ ما (gnose) يعطي الانطباع بأنه استمتع بإظهار نفسه اشد فرادة من منافسه، وأكثر عسفاً، وأعظَمَ جنوناً. مع ذلك فثمة فكرتانِ مشتركتان تنبثقان من هذا الركام الظاهر: فكرة كائن أسمى، ومتعالٍ ولا يمكن بلوغه، وفكرة عالم سُفليّ فاسد ومُفْسِد. كيف يرتبط هذان العنصران أحدهما بالآخر؟ في حين يحل الانجيل هذه الثنوية بالتجسد والفداء، وفيلون بواسطة اللوغوس، يتخيل الغنوصيون، من الأعلى إلى الأسفل، سُلَّماً كاملاً من الكائنات التي يسمونها أيونات **éons** (من الكلمة اليونانية **aiôn**، أي الخالد).

بما أن إله الغنوصيين كامل، فهو لم يتمكن من خلق مادة ناقصة. لقد خلق العالم إله صانع[2]، هو نفسه ناتج تكوُّن معقَّد تتعاقب فيه أيونات

[1] "الإخفائيون" هم المؤمنون بالقوى الخفية وبإمكان إخضاعها للسيطرة البشرية(م).

[2] demiurge. وهذا الصانع عند افلاطون هو العقل الاسمى او الكلي الذي صنع العالم بإعطائه النفس الكلية، وهو يميز الصانع من آلهة دونه رتبة صنعت الكائنات القابلة للموت(م).

يتغير عددها وفقاً لسخاء كل صانع منظومة. وكلما ابتعدت الأيونات اكثر عن المبدأ الأول، تفقد قليلاً من ماهيتها الإلهية. والأخير بينها لا يمتلك إلا الحد الأدنى منها، ولكنه مع ذلك جزء من البليروم (**Plérôme**)، أي من مجموع الكائنات الكاملة. والحال أن أيوناً يطمح، عن جهل أو عن كبرياء، إلى لعب دور يفوق ذلك الذي تعيِّنه له الطبيعة. وكعقاب على ذلك، يجري استبعاده من البليروم ويهبط الى العالم الوسيط، الذي يَعْمَر شيئاً فشيئاً بعدد كبير الى هذا الحد او ذاك من الأيونات الثانوية. إن الأيون المطرود من العالم الكامل يخلق عندئذ العالم المادي والإنسان، اللذين لا يمكن طبيعتهما إلا أن تكون مشوبة بالعيب كما الحال مع طبيعة خالقهما. ومن الواضح انه يحل، في الواقع، محل سقوط الملائكة والانسان سقوطَ إله؛ فهذا الأخير هو، إجمالاً، صانع الشر.

هذا وقد جرى أيضاً تشويه مبدأ الفداء الإيماني المسيحي، حيث أنه يتم الاقتصار على افتداء العنصر اللامادي وحده، الذي يبقى، باسم الفكرة، أو الشرارة الإلهية أو الـ **Pneuma** ، في المادة البشرية، في حين يُحكم على الجسد بأن يهلك إلى الأبد. ومعظم الغنوصيين يسلّمون تماماً بوجود أيون مخلّص، هبط من العالم الأسمى عبر البليروم والعالم الوسيط، ولكنه عاجز بطبيعته عن التجسد (او اتخاذ مظهر مادي)؛ يكتفي بأن "يسكن" في يسوع، من العماد وصولاً إلى الآلام بوجه الحصر. وهذه نظرية دوسيتية، تدمر أساس الديانة المسيحية بالذات.

إن أول أثر من آثار غنوصية مسيحية موجود في مقطعين من سفر الرؤيا، حيث ثمة إشارة إلى انه يوجد في كنائس برغامس وتياتيرة بعض النيكولاويين الذين يزعمون معرفة "اعماق الشيطان"، وينصرفون، فضلاً عن ذلك، إلى أعمال الفحش. ويبدو أنهم هم من يلمّح إليهم القديس بولس حين كتب

إلى تيموتاوس: "إحفظ الوديعة، متحاشياً الاحاديث الباطلة والدنيوية، ومناقضات علم كاذب".

ويقول إيرينيوس الليوني[1]، في كتابه Adversus Haereticos (ضد الهراطقة)، إن مؤسس تلك البدعة هو شماس يدعى نيكولاوس، كان نصيراً لنظرية العالم الذي خلقه إله صانع.

وتجدر الإشارة إلى أنه جرى، على امتداد فترة طويلة من الزمن، النظر إلى الساحر سمعان على أنه اول الهراطقة، وفي الوقت عينه أول الغنوصيين؛ وقد ورد ذكره في أعمال الرسل، بتعابيرغامضة، في معرض الحديث عن مرور القديس بولس بالسامرية. ويبدو أنه جرى الخلط بينه وبين سمعان آخر، ساميٍ أيضاً، وزعيم بدعة سمعانيين يحدثنا عنها كل من يوستنيانوس، وإيرينيوس، ومؤلف الـPhilosophoumena[2]. إن عقيدة هؤلاء كانت غنوصية بشكل اساسي: كان تحديدهم لأنساب الآلهة يتضمن مبدأ جامعاً، هو النار السامية، المسمّاة أيضاً "من هو كائن، وكان وسيكون"؛ هذا الله كوَّن ستة أيونات، تمثل ملكات الإنسان الذهنية، التي تضاف اليها قوة سابعة، هي الصمت، وهذا مبدأ ذكوري وأنثوي، أبو الإيبينويا (أو الفكر)؛ وهذا الأخير، إذ ترك والده، خلق العالم السفلي، الذي يسكنه الناس؛ اما الانسان بالذات، فقد خلقه الله من غبار الأرض؛ الا أن الملائكة الأشرار نجحوا في احتجاز الإيبينويا في جسد امرأة؛ في البدء، في جسد هيلانة حرب طروادة، وأخيراً في جسد هيلانةٍ أخرى،

[1] نسبة الى مدينة ليون الفرنسية (م).

[2] هذا الكتاب الذي نسب، على التوالي، الى اوريجان، والى ترتليانوس والقديس إيبوليت، هو أثير بالنسبة الينا بدحضه لهرطقات القرون الأولى، ولا سيما الغنوصية.

كانت عاهرة سابقاً في صور، وكان سمعان يجعل السامريين يعبدونه، فيما هي برفقته. ولما كان سمعان هو المخلّص وهيلانة هي المخلّصة بامتياز، كان يكفي الايمان بهذين الشخصين لضمان الخلاص الأبدي. لقد كانت الأعمال غير مجدية، بالتالي، وكان السمعانيون يستفيدون منها للانصراف الى اختلاط جنسي كانوا يسمّونه " تطهيراً متبادلاً".

لقد بلغت الغنوصية أوجها حوالى اواسط القرن الثاني، حين انتشرت في كل مناطق البحر المتوسط الشرقي. ونحن لا نعرف عقائدها عبر أدبياتها الخاصة بها، التي اندثرت بالكامل تقريباً، بقدر ما نعرفها عن طريق مؤلفات آباء الكنيسة الذين كافحوا الهرطقات. وقد كان الممثلون الرئيسيون للحركة الغنوصية كلاً من : ميناندر في القرن الاول، وساتورنين، وبازيليو، وفالانتين وبارديزان في القرن الثاني، وماني في القرن الثالث.

1 ـ كان ميناندر، السامري، أحد تلامذة مواطنه سمعان، الذي سبق أن تحدثنا عنه. وبحسب إيرينيوس، اسقف ليون، كان ميناندر يعلّم أن العالم خلقته ملائكة، منبثقة من الـ **ennoïa** (أي الفكر). وقد كان أتباع ميناندر يؤمنون بأنهم يُبعثون أحياء إذ يتلقون العماد، ويبقون خالدين منذ ذلك الحين. وكان استعمال السحر يبدو لهم ضرورياً للحصول على الخلاص. ونحن لا نعرف الكثير عن عقيدتهم.

2 ـ كان ساتورنين أو ساتورنيل، تلميذ ميناندر، يقيم في أنطاكيا، وكان قائد الغنوصية السورية. اما عقيدته فهي نفسها تقريباً عقيدة سمعان وميناندر، مع عنصر جديد مع ذلك: إرسال الآب شرارة حياة لتحسين الإنسان، الذي هو عمل الملائكة السبعة الخالقين عديم الشكل. بيد أن الناس لم يتلقوا جميعهم شرارة الحياة، وفقط من يملكونها سيحصلون على

الخلاص، أي في الظاهر أعضاء البدعة. والمسيح، الذي لم يظهر للناس إلا في الظاهر، جاء ليقضي على إله اليهود، الذي لم يكن غير ملاك. ولقد كان الساتورنيون، او الساتورنيليون، يدينون الزواج والإنجاب، على أنهما من اعمال الشيطان.

3 ـ إن بازيليد، وهو تلميذ آخر لميناندر، انتقل من أنطاكيا إلى الاسكندرية وكان أول غنوصي مصري نعرفه. تتسم عقيدته بالفرادة، ولكنها مجردة ومعقدة. فهو يسلّم بوجود ثلاثة عوالم متراكبة: العالم الكوني الأكبر، والعالم الوسيط أو الفوقمري[1]، والعالمَ العادي أو التحقمري[2]. ويحكم العالم الأول العدم الموجود، الله- الصيرورة، الذي يتضمن كل المبادئ او الأسباب(germes). ويشتمل الثاني على 365 سماء، تسكنها الأيونات ولكل منها رئيس يدعى أرخون (archon)؛ وتسمّى السماء الأولى، جارة العالم الأعلى، " ogdoade" والسماء الأخيرة، الأدنى، " hebdomade"، ويرأسها أرخون هو إله اليهود، خالق العالم الواقع تحت القمر. ولكن الأيونات ميّالة الى الخطيئة، ولأجل افتدائها، ينزل مخلّص، يسمّى الانجيل، من العالم الاعلى إلى العالم الوسيط. اما العالم التحقمري فيخلّص سكانه، اي الناس، أيون يدعى يسوع، يحرر الشرارة الإلهية الموجودة فيهم. أما أيونات العالم الأعلى، المصفوفة تحت الله الآب، فتكوّن بمجملها البليروم، أو المجموعة الكاملة. إن الكريستولوجيا (اي دراسة المسيح) البازيليدية دوسيتيةٌ: لا يمكن يسوع ان يكون انساناً، مخلوقاً من العالم المرئي، إذاً ناقصاً. لقد كان بازيليد قد أبصر النور في نهاية القرن

[1] اي الواقع فوق القمر(supralunaire)، يقابل ذلك الواقع تحت القمر (sublunaire)، (م).
[2] تحت القمر.

الاول؛ وقد واصل ابنه، إيزيدور، تعليمه في القرن اللاحق، وكانت البدعة لا تزال موجودة في مصر في القرن الرابع. وكان يؤخذ على أتباعها الانصراف إلى الفسق، بحجة أنهم لما كانوا كاملين فالخلاص مضمون لهم.

4 - درس فالانتينوس، المتوفى في العام 161، في الاسكندرية، وكرز في روما بعقيدة تجمع الى مذهب الفيض الغنوصي، الثنوية (dualisme) والدوسيتية، وذلك بصورة غريبة. فبالنسبة اليه، كان الآب بصحبة الـ Sighê (او الصمت)، وقد ولّد الزوج المتمثل بالروح والحقيقة، والذي يخرج منه كلمة الله والحياة، اللذان ينتجان بدورهما الإنسان والكنيسة. ثم تنبثق من الزوج الأول عشرة أيونات، ومن الثاني 12 أيوناً، أي بالمجموع ثلاثون كائناً أعلى يشكلون البليروم. وفي الدرجة الأخيرة من الاثنيعشرية هنالك الأيون المؤنث Sophia (اي الحكمة)، وهي روح فضولية تريد، لأجل تقليد الأب، أن تتناسل ولا تنجح إلا في توليد المادة عديمة الشكل. وبناء على رجاء أيونات البليروم، يغفر الآب للحكمة (Sophia) ويجيز للروح والحقيقة إنتاج زوج جديد، هو المسيح والروح القدس. يسود السلام مجدداً في البليروم، ويتحد كل السكان ليلدوا الأيون يسوع، الذي يمر عبر العذراء، quasi aqua per tubam[1]، ويجيء لأجل إعادة إرساء النظام الكوني. لقد كان فالانتينوس يقسم الناس إلى غازيين (روحانيين)، هم المسيحيون، وإلى نفسيين، وهم اليهود، وماديين؛ والاولون يخلصهم العرفان (gnose)، والثانون فِعْلُ الخير، ولكن الثالثين يعودون إلى التراب الذي أتوا منه. ولقد كان الفالنتينيون يُخضِعون المرشح للاطلاع على أسرار مذهبهم لطقس يسمّى "الزواج الغازي". ولقد كافح الفالنتينية كلٌّ من

[1] كما الماء في الأنبوب(م).

إيرينيوس وترتليانوس. وكان هذا الأخير، في بحثه بعنوان de Praescriptione ، يستخدم حجة طريفة هي التالية: بما أن الكتب المقدسة هي ملك الكنيسة الشرعي عن طريق الانتقال الاعتيادي، يحدث إذاً تقادم بخصوص ملكيتها ولا يكون للهراطقة الحق باستخدامها لمصلحتهم.

5 ـ وضع بارديزان ـ وكان من مدينة إيدس Edesse ، في منطقة ما بين النهرين ـ منظومة ليست غنوصية بالضبط، لأنها لا تتضمن نظام الأيونات، بل تنسب نفسها بالأحرى إلى علم التنجيم: الشمس هي الأب، والقمر هو الأم، والأبراج هي كائنات ذكورية أوأنثوية، وقد ولد يسوع تحت برج المشتري وصُلب تحت برج المريخ. والله يترك الشر يعمل لأنه صبور، لكنه سيخلق بعد ستة آلاف سنة عالماً جديداً يتم استبعاد أيّ نقص منه. ويدعى تلامذة هذا الكلداني، المسيحي بارديزانيين، وقد طوّر بعضهم عقيدته في اتجاهٍ ثنوي وربما أثّروا في عقيدة ماني.

6 ـ خلق ماني (مانيس او مانيشيه)، وهو فارسي ابصر النور في بابل، حوالى العام 215، تنويعة غنوصية ثنوية انتشرت باسم المانوية في العديد من بلدان آسيا وافريقيا الشمالية، ونقلت بعضاً من مبادئها إلى شتى أتباع البدع الاوروبيين. وقد حاول ماني أن يزاوج، عبر توليفة واسعة وصارمة، بين المسيحية البدائية والزرادشتية، أي تلك الثنوية الفارسية التي كانت تشخّص الخير في أهورامازدا والشر في أهريمان. ويسمّى الأول من بين هذين المبدأين، لدى ماني، أمير النور، والثاني أمير العالم، أو الشيطان أو الشرير. لقد خلق اللهُ الطيب الانسان البدائي أو الروحاني، الذي هزمته في ما بعد قوى الظلام وسُجن في الأجسام.ولا يمكن إنقاذ الانسان إلا بمعرفة العلم الحقيقي، الذي أتى به البارقليط ("المعزّي"، او الروح القدس)، الذي هو

ماني بالذات؛ وهذا هو الفداء الحقيقي، في حين أن ذلك الوارد في الكتاب(المقدس) فداء رمزي، لا اكثر.

لا يلجأ ماني الى الأيونات لتفسير اصل الشر، بل إلى العناصر التي يتألف منها الانسان البدائي والأرض المظلمة؛ وهذه الأخيرة تتألف من ظلمات، ووحل، وريح عاصفة، ونار ودخان، فيما الأول ينطوي على نَفَسٍ خفيف، وريح، وضوء، وماء ونار. وعلى حدود مملكتي الضوء والظلمات، ينشب قتال بين الأرض المظلمة والانسان البدائي، وينهزم هذا الاخير. ولكن نفسه تحتفظ بعناصر روحانية سوف يكون في وسع ماني ان يحررها، ماني، "رسول يسوع المسيح بعناية الله الآب". وسيوسم المؤمن بأختام ثلاثة : واحد على اليد، كي يتحاشى اي عنف ضد الناس او حتى ضد الحيوانات؛ وآخر على الفم كي يمتنع عن الكذب والارتداد؛ وثالث على الصدر، كي يبقى عفيفاً او، على الأقل، كي لا يخالط إلا عابرة سبيل، ومن دون الإنجاب، لأن ذلك يعادل سجن نفس في المادة. ولا ريب في أن هذه الاخلاق المتقشفة لم تكن تُفرض إلا على المطّلعين (على أسرار الدين)؛ ويروي القديس افرام، أسقف إدس Edesse، الذي يضع ماني، مع بارديزان ومارسيون، في عداد الأخطر بين هراطقة عصره، أن كنيسته كانت مؤلفة من طبقتين من الناس: المختارين والسامعين. أما الاولون فلم يكونوا يتزوجون، ولم يكن في وسعهم أن يقسموا الخبز بأيديهم هم، وفي حياتهم كواعظين جوّالين كان يقوتهم سامع يعد لهم الطعام.

إن تاريخ المانويين غامض كفاية، وبائس جداً، في كل حال، لأنهم تعرضوا في الوقت نفسه لاضطهاد المسيحيين والزرادشتيين، ثم المسلمين في ما بعد. فقد سُلخ رئيسهم حياً، عام 276، لأنه أراد إفساد الزرادشتية، وقد

تم ذلك بأمر من ملك فارس، الذي جعل جلده المحشوّ بالقش يُعرض على أحد أبواب عاصمته. وقد بقيت عبارة "مانوي" تُستخدم زمناً طويلاً في الكنيسة الكاثوليكية للتنديد بالمنشقين الثنويين، ولا سيما البوغوميليين والكاتاريين. وقد انتشرت عقيدة ماني في القرون الوسطى في آسيا الوسطى، وحتى في الصين. وقد اعتنقها العديد من ملوك المغول أو أمنّوا لها، على الأقل، الحماية.

وبين اشهر البدع الغنوصية الأخرى ذات الأهمية الثانوية، بدعة **الأوفيين** (من اليونانية ophis، التي تعني الأفعى)، ويسمونهم أيضاً **النعسيين** (من كلمة Naas العبرية، التي معناها الأفعى أيضاً). ولم يكونوا ينظرون الى هذه الزحّافة على انها مُغْوية سفر التكوين، بل كمُطْلعة النوع البشري على علم الخير والشر، وكانوا يمارسون نوعاً من المناولة بواسطة الخبز الذي يتم تقديسه بالاحتكاك بأفعى حيّة؛ وهذا الحيوان يرمز، من جهة اخرى، الى الانسان السماوي أداماس ويحتوي في ذاته على كل شيء "مثل قرن القارن"[1]. ولقد كان الكوزموس (او الكون) يتضمن بالنسبة للأوفيين، ثلاثة مجالات، مجال المطلق، ومجال المادة ومجال الصيرورة، أي تطور الروح داخل المادة. والأفعوان هو أيضاً محور منظومة السيتيين، فلقد كانوا يتصورون العالم كرحم يدخل فيه، بشكل افعوان، البطريرك سيت، الذي يجسِّد الكلمة السماوية، والذي يشكّل مع قايين وهابيل ثالوث الأيونات الثاني، في حين يتألف الثالوث الاول من آدم وحواء والافعى. ولنشر أيضاً الى الباربيليين، المدعوين هكذا نسبةً إلى روحٍ عذراء، هي باربيلوت، التي أخصبها أيون ذكر، والذين إذ كانوا يمارسون مشاعية

[1] حيوان اسطوري بجسم حصان كان الأقدمون يفترضون له قرناً وسط الجبين(م).

النساء، كانوا يسخرون من المناولة عن طريق استخدام البذار البشري ودم الطمث؛ وإلى البوربوريين (من الكلمة اليونانية **Borboros**، أو الوحل)، وكانوا مشهورين بفحش تقاليدهم؛ والكوديين (من السريانية كودا (Codda)، أو طبق)، لأنهم كانوا يأكلون منفصلين عن الناس الآخرين؛ والفيميونيين، أو الفيبيونيين، الذين يذكّر اسمهم باسم بدعة الأبيونيين اليهودية؛ والزكّيّن، الذين كانوا يقارنون أنفسهم بزكّا، الذي تشرّف في بيته بزيارة يسوع له؛ والمعارضين للعمل، الذين كانوا يدينون الزواج وينصرفون إلى الفسق؛ وأخيراً القايينيين، الذين كانوا يعتبرون قايين أول الحائزين العرفان.

ولقد كان تكاثر العرفان عظيماً إلى حد أنه تم على ما يبدو إحصاء سبعين بدعة تتحدر منه.

ولْنُشِرْ أيضا إلى بدعة كاربقراط ، وكان اسكندارنياً معاصراً لبازيليد وفالنتينوس. ومع أن عقيدته تصبغ بأفكار أفلاطونية، فلقد كانت على تضادٍ مطلق: يمكن للانسان انتهاك كل القوانين، لأنها من صنع الملائكة الخالقين. لذا كان الكاربقراطيون يطلقون لفسقهم العنان، فخلال "ولائمهم" ، كانوا يطفئون المشاعل وينصرفون الى فسوق جماعي. ولقد كان اسمهم مرادفاً، في ذهن المسيحيين الحقيقيين، لداعرين سافلين.

هذا ومع أن العقيدة الغنوصية تبدو لنا قديمة جداً، فهي لا تزال موجودة الى اليوم في بدعة المانديّين. ففي القرن السابع عشر، اكتشف راهبٌ كرمليٌّ حافي القدمين هو الآب اغناطيوس يسوع، في ما بين النهرين، جماعةً من المسيحيين الذين ينسبون أنفسهم بصورة رئيسية إلى يوحنا المعمدان. ومنذ تلك الفترة، جرت دراسة البدعة بمزيد من اليقين، ولا سيما أننا نمتلك

كتبها المقدسة مكتوبةً بالآرامية، وبوجه خاص ذلك الذي يحمل عنوان الكنز (Ginza). واسم هذه البدعة يعود إلى الكلمة الآرامية ماندا، اي المعرفة أو العرفان. وقد سمِّيَ أتباعُها نصرانيين أو سَبَئيين. وهذا التعبير الأخير يطلقه الباحثُ في الهرطقات أبيفانوس على معيدين للعماد كل صباح كانوا موجودين في السامرة قبل المسيحية. واذا كان هناك نَسَبٌ اكيد بين السَّبئية والمانديَّة، ففي مستطاع هذه الأخيرة أن تعتَّز بقِدمٍ فريدٍ في تاريخ الانشقاقات المسيحية.

إن عقيدة المانديين مشوشة ومتنافرة، ولقد تغيرت كثيراً مع الوقت. أما شكلها الاكثر حداثة فيتضمن كائناً أسمى يدعى ملك النور، تنبثق منه أيونات لا تحصى تُسمَّى **utras** (أو "السيادات").

وأحد هذه الانبثاقات هو " معرفة الحياة"، الإنسان الأول، الذي هو المسيح أيضاً؛ وآخر هو يوحنا المعمدان، وثالث هو هيبيل أو المسيح متجِّسداً. وتشكل هذه الأيونات المتنوعة الحياة الثانية، حيث أن الحياة الأولى تتمثل بملك النور. وثمة أيضاً حياة ثالثة يشكل جزءاً منها بيتاهيل، خالق المانديَّة. وقد خلق بيتاهيل الكون، ثم آدم وحواء؛ ولكن هذين الأخيرين لا يمكنهما الوقوف، لأنهما لا يملكان روح الحياة. فيستحصل هيبيل من ملك النور على الإذن بنفخ هذه الروح فيهما؛ وهو يعلمهما أيضاً التطهر بواسطة العماد. وعلم نشأة الكون المانديّ، المعقَّد جداً، يتضمن أيضاً ثلاث جهنَّمات وأربعة دهاليز جهنَّمية. وتقترن شيطانة اسمها رُها بابنها أور لتوليد الكواكب السبعة والأبراج الإثني عشر. أما الشمس، سيدة الأرواح الكوكبية، فتقيم في السماء الرابعة.

يقدّس المانديُون الأحد بحضور عبادة تتضمن تلاوة كتبهم المقدسة. وهم لا يعترفون بالصيامات المسيحية، ويقول الكنز (Ginza) في هذا الصدد: "صوموا الصوم الكبير، الذي ليس صياماً عن طعام هذا العالم وشرابه؛ إجعلوا عينيكم تصومان عن النظرات الشريرة... وأذنيكم عن التطفل على الأسرار على الأبواب التي ليست لكم، وفمكم عن لغة الأكاذيب...، وقلوبكم عن أفكار الخبث والحقد، وأجسادكم عن النساء اللواتي لسن لكم". ليس لديهم محظورات بخصوص الطعام، لكن ممنوع عليهم ان يأكلوا مع غرباء. والعماد عن طريق التغطيس والنفث الثلاثي على الجبين، يُعطى في الماء الجاري لنهر او جدول ماء. وهو يُعطى للأطفال، ولكنه يكرَّر يوم الأحد، وايام الاعياد، وبعد اقتراف خطيئة، وبعد التعرض للدغة أفعى. ويتم الاحتفال بنوع من سر القربان المقدس بواسطة الخبز والماء.

## المارسيونية

غالباً ما يجري تصنيف مارسيون، وهو أحد كبار مبتدعي الهرطقات في القرن الثاني، بين الغنوصيين. إلا أنه لاهوتي اكثر مما هو فيلسوف؛ وهو يبقى في إطار تفسير النصوص التوراتية؛ ولقد اسس، في الواقع، كنيسة قوية التنظيم بقيت في آسيا الوسطى حتى القرن الخامس، لا بل الى ما بعد ذلك التاريخ. كان ابن أسقف سينوب في البحر الأسود، واغتنى بفضل مهنة تجهيز السفن، ثم استقر في روما، حيث صار له تلامذة كثيرون.

تُنحّي العقيدة المارسيونية الأيونات جانباً، وعلم نشأة الكون لديها بسيط نسبياً : إن الإله الصانع، خالق العالم المرئي، هو الإلهُ العادل

والقاسي للعهد القديم، الذي يكافح صنيعَه المشؤوم إلهُ الإنجيل الطيب والرؤوف.

والثنوية هنا لا تعارض الشر بالخير، بل العدل بالغفران، والقسوة بالمحبة. وهو لا يقبل من التوراة بكاملها غير إنجيل لوقا (مقتطعاً منه مقاطع لها علاقة بالتجسد) وعشرٍ من رسائل القديس بولس. وهذا الأخير هو بالنسبة إليه المؤسس الحقيقي للشريعة الجديدة، إذ إن باقي الرسل ظلوا متهوِّدين جداً. وهو يضيف الى هذا القانون الكنسي النقائض، وهو كتاب أبرز فيه التناقضات بين العهدين القديم والجديد.

ومارسيون هو فضلاً عن ذلك دوسيتي: فجسد يسوع ظاهري وحسب، والروح القدس لم يمر بمريم، والمسيح ظهر فجأة في اليهودية من دون أن يكون ولد أو كبر. ومن الواضح أن مارسيون يرفض كل ترميزات الغنوصيين، ويُحِل محلَّ جمهرة الأيونات إلهين متعارضين ومتعاديين، سينتهي صراعهما بانتصار المسيح، الذي سينزل الى الجحيم لافتداء المختارين. وفي حين سيرفض عادلو الشريعة القديمة التخلي عن إلههم، سوف ينضم إليه ملعونو اليهودية : السدوميون، والمصريون والوثنيون.

لقد كان المارسيونيون يدينون عمل الجسد. ومن كانوا تلقَّوا العماد كانوا يتحاشون الزواج والإنجاب، أما الآخرون فلم يكونوا يتلقونه إلا على سرير موتهم، أو حين كان يمكنهم، من دون خطر الزلل، أن يتقيدوا بالعفة المطلقة. يترتب على ذلك أن مريدي التنصُّر، في الكنيسة المارسيونية، كانوا اكثر بكثير من المتنصرين. وقد كانت الجماعات المارسيونية، تزدهر في كل مكان تقريباً في القرنين الثاني والثالث: في ليون، وقرطاجة، والاسكندرية،

وانطاكيا. وكانت لها هرمية قديمة من الأساقفة وكهنة الرعايا والشمامسة.

كان مارسيون قد تتلمذ، في روما، على السوري سردون، الذي كان قد أقام المعارضة بين إله العهد القديم العادل والإله الطيِّب، والد يسوع المسيح. أما تلامذة مارسيون فأشهرهم أبيللس، الذي كان يزعم أن عذراء مُلهَمة، اسمها فيلومان، أملت عليه كتابة الكشوفات. وهو يرجع ثنوية معلمه إلى الواحدية : ليس هناك سوى إله واحد، لكن أحد الملائكة الذين خلقهم خلق بدوره العالم الناقص. كما أنه تخلى عن دوسيتية مارسيون : لقد كان ليسوع جسدٌ حقاً مكوَّن من عناصر متنوعة مأخوذة من الأفلاك العليا التي اجتازها لينزل إلى الأرض.

ومهما تكن نظريات البدع الغنوصية متنوعة، فقد كانت تلك البدع، بمجملها، تخلط الايمان المسيحي بعناصر يهودية او يونانية غريبة تماماً عن جوهره. وربما كانت الهرطقات اللاحقة اقل خطورة على الكنيسة الشابة ؛ فصحيح أنها غالباً ما تصدَّت للمبادئ الايمانية، ولكنها بقيت مع ذلك في إطار المسيحية بالذات، وساهمت بذلك في التعريف الدقيق بالعقيدة المسيحية.

## المونتانية

حوالى العام 172، وفي فريجية( في آسيا الصغرى)، استخف فرحٌ انخطافي المدعو مونتان أو مونتانوس، وكان كاهناً وثنياً اهتدى حديثاً الى المسيحية، وشرع يتنبأ.

وقد حذت حذوه امرأتان، هما ماكسيميليا وبريسيلا، فبشرتا على

غراره بالنزول الوشيك لأورشليم السماوية. وقد تشكلت بدعة شديدة الحماس، سرعان ما انتشرت في آسيا الصغرى، وباتت معروفة في ليون منذ العام 177 بالذات.

لم تكن عقيدة مونتان متعارضةً في الجوهر مع الأورثوذكسية المسيحية، ولكنها كانت هرطوقية من حيث تسليمها بأنبياء جدد، يلهمهم الروح القدس، وتبشيرها بقرب رجعة المسيح. ولم يكن يمكن كنيسة أصبح لها تنظيمها الهرمي أن تسلّم بمس كهذا بدور الأساقفة وسلطتهم. فضلاً عن ذلك، هل كان يحق للنساء أن ينطقن بالوحي الإلهي؟ ألم يكن القديس بولس قد أمرهن بالصمت في الاجتماعات؟ ولقد بلغت الفضيحة مستوى عالياً بحيث أن مونتان أعلن، خلال اختطافه، أنه "الأب، والابن والبارقليط"، وصرخت بريسيلا من جهتها، بأنها المسيح بشكل امرأة، وماكسيميليا بأنها الروح القدس. وهذا على الأقل ما يتهمهم به أبيفان، في كتابه **Adversus haereses** (ضد الهرطقات)، وأوزيب في كتابه **Historia Ecclesiae** (تاريخ الكنيسة). والجدير بالذكر أن هذا المؤلف الأخير يطلق على المونتانيين تسمية الكاتافريجيين.

لم يكن يمكن إيراد اي مأخذ اخلاقي على المونتانيين : فلقد كانوا يستعدون للملكوت الله، الذي كانوا يؤمنون بأنه وشيك جداً، وذلك عن طريق تقشف يقارب الزهد. وكانوا يبيعون املاكهم أو يجعلونها شراكة في ما بينهم، وهي ممارسة مناهضة للمجتمع (القائم) ربما ساهمت في إثارة حماس مضطهديهم. ولقد تمت إدانة الهرطقة الفريجية في روما، في عهد البابا زيفيران، في بداية القرن الثالث الميلادي، من دون ان تتوقف مع ذلك عن الانتشار في الغرب.

لكن المونتانية ستجد في إفريقيا بالضبط الأشهر بين أصحاب بدعها،

ترتليانوس الكبير. كان كاهناً في كنيسة قرطاجة، وكتب عدة مؤلفات في الدفاع عن المسيحية، ولا سيما ضد الغنوصيين، والوحدانيين، وبوجه خاص ضد مارسيون. كان مزاجه سلطوياً ومتحمساً، وقد أعلن دائماً، وبعنف، موقفاً مناهضاً للمتع الدنيوية، إلى حد أنه حظّر على المسيحيين حضور عروض تمثيلية أياً تكن طبيعتها، أو حتى تعلم الآداب الجميلة. لذا نفهم ان يكون قطع علانية، في العام 213 تقريباً، كل علاقة بالكنيسة الرسمية، معلناً تأييده للزهد المونتاني. فضلاً عن ذلك، لم يكن يمكن ترتليانوس، المفعم كبرياء، إلا أن يجد فائدة في عقيدةٍ تتيح للبارقليط (الروح القدس) أن يظهر لكل إنسان.

تكمُّل الترتليانوسيةُ المونتانية، بإضافتها إليها النظرية المغرية للتجليات المتعاقبة. وقد كتب مؤسسها : "إن العصر البدائي هو عصر مخافة الله؛ وتأتي الطفولة مع الشريعة والانبياء؛ ويأتي الإنجيل بحماس الشباب؛ اما اليوم فالبارقليط يجسد النضج. لقد أعقب المسيح، ولن تعرف البشرية بعد الآن سيِّداً آخر". وهذه نظرية تتعارض مع تلك التي كان ترتليانوس ذاته قد فصَّلها، كما رأينا خلال عرضنا بخصوص الفالنتينيين، في بحثه **De Praescriptione**. لم يكن يدعي المنطق، وكان يستدل تقريباً على طريقة الشعراء. أليس من قبيل الشعر أن يُرى في الإنسان "نفسٌ ناعمة، مضيئة، بلون اللازورد، ولها شكل مشابه تماماً لشكل جسد الانسان"؟ أما بخصوص الأخلاق، فقد كان ترتليانوس صارماً لا يلين: "بطنك إلهك؛ وقصرك معبدك؛ ومعدتك مذبحك؛ والطاهي هو كاهنك؛ وروحك القدوس دخان المآكل الشهية؛ ومواهبك الروحية إنما هي التوابل؛ وحوازيق شبعك إنما هي نبوءتك". وفي بحثه بعنوان **De Monogamie** (أي احادية الزواج)، يستنكر الزواج الثاني على أنه معاشرة لا تقل وحشية عن

جماع السدوميين(اي المثليين). وقد بقي الترتليانوسيون في افريقيا حتى ايام القديس اغسطينس، الذي تمكن من إعادتهم الى الطريق القويم.

اما في الغرب، فيبدو أن المونتانيين اختفوا منذ العام 407، حين حكم عليهم قانون اصدره الامبراطور أونوريوس بالحرمان من الحقوق المدنية. وفي الشرق، صمدوا أطول بكثير؛ ففي القرن الثامن، أراد الباسيليوس ليون الثالث الإيزوري أن يجبر على العماد آخر أتباع هذه البدعة، إلا انهم فضلوا إحراق أنفسهم أحياء في البيوت التي كانوا يحتفلون فيها بأسرارهم.

ومنذ بدايات المونتانية، يبدو أن ردَّ فعلٍ برز ضدها، في آسيا الصغرى، بسبب الـ (a-logos أي مفتقدي الروح)، الهرطوقيين الذين كانوا يُنكرون ألوهة كلمة الله؛ إن المعلومات التي لدينا بخصوصهم غامضة، ويبدو أنهم اعتبروا الإنجيل الرابع (أي إنجيل يوحنا[1]) مزوّراً.



. الوحدانية (أو المونارشيانية)

يسمَّى وحدانيين الهراطقة، من شتى التلاوين، الذين كانوا ينكرون، لأجل صيانة وحدة الله (la "monarchie" de Dieu)، تثليث الأشخاص الإلهيين[2].

ويبدو أنه كُرِز بهذه الهرطقة للمرة الأولى في نهاية القرن الثاني، في إزمير، على يد شخص كان يدعى نويت Noêt. كان يزعم أنه لا يوجد غير

---

[1] الإضافة بين هلالين من وضعنا(م).

[2] سر التثليث لدى المسيحيين، هو الذي يتم بموجبه اعتبار ان الله واحد، ولكن في اقانيم او اشخاص ثلاثة، هم الآب والابن والروح القدس(م).

إله واحد، هو الآب، وأن الآب هو الذي ولد، وتألم ومات. وكان يتهم المسيحيين المستقيمي الرأي بـ "عبادة إلهين". وقد اجتمع كهنة الرعايا في إزمير حوالي العام 200 لأجل إدانة نويت، ولكن احد تلامذة هذا الأخير، المدعو إيبيغون جاء بالعقيدة الجديدة إلى روما. وقد دافع عنها أيضاً المدعو براكسياس، الذي كان يعلّم، وفقاً لما أورده ترتليانوس، أن الآب والإبن شيء واحد، وأنه ليس لكلمة الله(Le Verbe) وجود شخصي، وأنه ليس غير اسم، وصوت، **flatus vocis**[1]. وقد صاغ اللاهوتي المجيد في هذا الصدد العقيدة التي كرسها من بعده خلفاؤه على الشكل التالي : يتضمن الثالوث ثلاثة أشخاص ليس من حيث الماهية، بل بالدرجة ؛ ليس من حيث الجوهر، بل بالشكل ؛ ليس بالقوة بل المظهر.

إن الواقع المتمثل في أن الوحدانيين كانوا يُخضعون الآب بالذات للآلام أتاح تسميتهم احياناً بالـ **patri-passiens**، أو باليونانية **théopaschites**. كما أن الوحدانية تسمى أيضا احياناً بالمودالية (**modalisme**)، نظراً إلى أن الحالات الثلاث للجوهر الفرد (الموناد monade) الإلهي ليست سوى مظاهر، كيفيات (modalités).

لقد اكتسبت الهرطقة الوحدانية قدراً عظيماً من الرواج والحظوة في روما إلى حد أن مؤلّف كتاب الـ**Philosophoumena** اتهم البابا زيفيرين بالوقوع في أسرها. فلقد كان المستشار المعتاد للحبر الأعظم، كاليستوس، هو نفسه تحت تأثير سابيليوس، مؤسس إحدى البدع المودالية التي ذاع صيتها في ذلك العصر. وبعد وفاة زيفيرين انتُخب كاليستوس بابا، ولأسباب بقيت غامضة أدان السابيليوسية. ويبدو أن هذه البدعة بقيت قائمة في آسيا الصغرى ومصر.

---

[1] باللاتينية في النص (م).

لم يَصُغْ سابيليوس منظومة كاملة لسر التثليث، ولكن عقيدته تتحاشى بصورة دقيقة جداً الخطأ الباتريباسياني (أي الذي يقرن الله الآب بالآلام): لقد تعرض الإبن حقاً للآلام، ولكنه ليس شخصياً، على غرار كلمة الله، غير إحدى الحالات المتعاقبة للجوهر الفرد البسيط وغير المنقسم الذي يسميه Uniopatôr، الآب - الإبن، وأحد مظاهره. وفي يسوع المسيح، الذي ليس سوى كائن واحد، يكون الإبن العنصر المرئي والبشري، والآب العنصر غير المنقسم والإلهي.

ويمكن تقريب الوحدانية من التَّبَنِّية، او العقيدة التي لا تجعل من يسوع المسيح ابن الله الطبيعي، بل ابنه بالتبني بفضل النعمة. وقد كان الحاثّ عليها مُطَرِّي جلد من بيزنطة يدعى تيودوتس أُلقي عليه الحرم، بعد أن استقر في روما، وذلك بقرار من البابا فيكتور، حوالى العام 190. وقد كان يعلّم أن يسوع لم يكن غير إنسان مولود من عذراء، نقل إليه المسيح المتخذ شكل حمامة، خلال اعتماده في نهر الأردن، القوة التي كان يحتاج إليها للاضطلاع برسالته. كان تيودوتس قد أسس مدرسة، اكثر مما كنيسة، وطبق تلامذته نظاماً عقلانياً لأجل تفسير الكتب المقدسة. وقد أسس أحدهم، وكان يسمّى هو أيضاً تيودوتس، بدعة الملكيصادقيين الغريبة، وكان أتباعها يماثلون بين الملك الكنعاني ملكيصادق والمسيح، تحت تسمية "الفضيلة السماوية والنعمة الرئيسية".

في اواسط القرن الثالث، حرَّض على قيام هرطقة تبنِّيَّة أخرى بولس الساموزاتي، أسقف انطاكيا. وكانت ساموزات (المدينة السورية القديمة) مركزاً لاهوتياً هامّاً في القرون الأولى. ولكون بولس السامزاتي ذكياً وبليغاً تمكن من أن يحظى بهيبة كبرى ونفوذ عظيم. ولقد كان احد المقرَّبين من

زنوبيا المشهورة، ملكة تدمر، التي كان امين الصندوق في بلاطها. وقد عاش حياة مترفة، وكان يحيط نفسه بنساء، مثل مونتان، ومثله أيضاً كان يزعم أن الروح القدس يوحي إليه. حتى انه كان يقول : "يمكن أن أكون المسيح، إذا شئتُ ذلك، لأننا نحن الاثنين من طبيعة واحدة". وقد انعقد مجمعان في انطاكيا لمحاولة إقناع مبتدع تلك الهرطقة، وألقى المجمع الثاني الحرم عليه. أما أتباعه، وكانوا يُدْعَون بالـ"بولسيين" (أو البولينيين)، فيبدو أنهم زالوا في نهاية القرن الرابع. وإذ فصَّلت عقيدته تبَنِّيَّة تيودوتس البيزنطي، بشَّرت بالأريوسية والنسطورية. فبالفعل، هي تعتبر أنه لا يوجد غير واقع شخصي لله، وأن كلمة الله والروح القدس ليسا غير مجرد صفتين لهذا الكائن الملموس الواحد، وتسمّي هاتين الصفتين الكلمة (**logos**) والحكمة (**Sophia**). وليس يسوع سوى إنسان، ولد من العذراء بفعل اللوغوس، الذي يسكن في يسوع "كما في هيكل"، ولكن من دون أن يجعل منه الله بشخصه.

## هرطقات اخرى

بين الحركات الانشقاقية الأقل أهمية، نذكر الأنكراتية، والألفية، والنوفاسيانية.

ونطلق تسمية الانكراتيين (من اليونانية **encratéia**، أي العفة) على الهراطقة الذين كانوا يبالغون بهذا الزهد الذي لا تدينه الكنيسة من حيث المبدأ، لا بل تشجعه ولكنها لا تؤيد مبالغاته. والحال أن الانكراتية لم تكن تشجب فقط تناول اللحم والخمر، بل حتى الزواج. ونحن نقرأ في كتب هذه البدعة، وهي أناجيل مزيَّفة منسوبة إلى رسل متنوعين، ما يلي، على سبيل

المثال : " لا يمكن أن تكون لكم قيامة من الموت إلا اذا بقيتم أعفّاء، وبدلاً من تلطيخ جسدكم احتفظتم به نقياً". وتُبعد امرأة زوجها عنها قائلة : " لم يعد لك مكان بقربي، فالرب يسوع أقوى منك وهو يستريح فيَّ". وتطلب امرأة أخرى من يسوع أن يوضح لها كيف تصل الى الكمال فيجيب : " حين تضعين تحت قدميك لباس العار، وحين لا يعود هناك ذكر أو أنثى". وقد كان منظرٌ البدعة الرئيسي **تاسيان**، المولود في افريقيا، والذي اهتدى إلى المسيحية في روما، وكان تلميذاً للشهيد يوستنيانوس. وقد أصيب بعدوى الغنوصية وكان ينظر إلى المادة على أنها مقام الشر وعمل الإله الصانع. وكان يعتبر أن كلمة الله المتجسد ليس سوى ظاهر؛ وهو ينكر خلاص آدم؛ ويرى في المعاشرة الزوجية عملاً من اعمال الشيطان. ومن الواضح أن الانكراتية تتعقد هنا بعناصر من الثنوية والدوسيتية. كما أن عقيدة تاسيان عرفت أيضاً مبالغات يُسأل عنها تلامذته : **فالأبوتكتيون**( أو " الزاهدون") كانوا يرفضون كل ملذات الدنيا؛ **والأكواريون** لم يكونوا يستعينون بغير الماء للأفخارستيا أو الاحتفال بسر القربان المقدس؛ **والساكوفوريون** كانوا يرتدون كيساً.

أما **الألفية**، اي الايمان بُمْلك المسيح على الأرض لمدة الف سنة، فانتقلت من اليهودية الى المسيحية بواسطة سِفْر الرؤيا[1]، وبالتالي لا تشكل العقيدة إذاً هرطقة حقيقية. ولقد تدعمت، فضلاً عن ذلك، بسلطة كل من القديس إيرينيوس وترتليانوس. وكتب القديس يوستينيانوس: "بالنسبة إليَّ وإلى المسيحيين المستقيمي الرأي تماماً، وطالما هم على هذه الحال، نعرف أن قيامةً للجسد ستحصل خلال الف عام في أورشليم المزينة والموسعة، كما يؤكد ذلك النبيَّان حزقيال واسحق وغيرهما". وقد اكتست النظرية بطابع

[1] سفر الرؤيا Apocalypse وضعه القديس يوحنا الإنجيلي عن نهاية العالم (م).

مادي مبتذل لدى سيرينتوس، الذي رأى في الميلينيوم (أو فسحة الألف سنة) الإباحة الممنوحة لكل أشكال المتعة، وتلبية رغبات" البطن وما تحت البطن". ولكن الألفية لم تصمد لما بعد القرن الخامس؛ والقديس اغسطينس، الذي كان اعتنقها لبعض الوقت، هدم أسسها بإعطائه شرحاً مستقيم العقيدة لسفر الرؤيا. وقد عادت هذه العقيدة إلى الظهور في العصر الوسيط لدى بعض أصحاب الرؤى.

وثمة هرطقة نظامية هي تلك الخاصة بنوفاسيان، وهو فيلسوف رواقي اهتدى الى المسيحية. وقد كان يؤكد أن الـ **lapsi** ( أي "المتعثرين")، المسيحيين الذين عادوا الى الوثنية خوفاً من الاضطهاد، لا يمكنهم تلقّي الغفران، وإن تابوا. فلقد كان الامبراطور داس(Dèce) أصدر قراراً يجبر بموجبه كل المواطنين الرومان على إعلان وثنيتهم. كان ينبغي لكل شخص أن يحصل على وثيقة اعتراف متصوَّرة على الشكل التالي : " لقد كنت دائماً متفانياً في خدمة الآلهة، والآن أيضاً، وبحضوركم وبموجب القرار(الامبراطوري)، لقد بخّرت المذبح، وقمت بإراقة الخمر، واكلت اللحم المقدس، وأتوسل إليكم أن تعطوني التوقيع". وبالطبع، كان هناك شهداء بين المسيحيين، "مقاومون"، ولكن الكثيرين انصاعوا خشية الموت ، وكان بينهم حتى أساقفة. وبعد انتهاء الاضطهاد، تاب المرتدُّون المؤقتون، فانطرحت عندئذ مسألة منحهم الغفران. وقد أدان النوفاسيانية مجمع انعقد في روما عام 251، ولكنها صمدت طويلاً بعد ذلك في قرطاجة، بشكل كنيسة منشقّة.

وقد أشير، في القرن السابع أيضاً، الى وجود نوفاسيانيين في بلدان الشرق. ولنُشِرْ أخيراً الى أن هؤلاء الهراطقة كانوا يسمون أنفسهم **Catharoi** ( أي "الأتقياء")، وهو تعبير بات مشهوراً في تاريخ البدع.

## ثانياً ـ الحقبة النيقية وما بعد النيقية

في مواجهة التوفيقية، و" التشوُّشية" الدينية اللتين تسمان القرون الثلاثة الأولى من تقويمنا، وفي مواجهة هذا الفيض من النظريات المتنافرة والمتفلّتة، لم تستطع المسيحية أن تَرُدَّ إلا بالحاجز الضعيف الذي مثلته أورثوذكسية كانت لا تزال غير دقيقة. ولكن الوضع تبدل في القرن الرابع، إذ فتح مجمع نيقية ما يمكن تسميته الفترة اللاهوتية الأولى، الطور الأول من تطور الفكر المسيحي. وهذا الفكر يتصدى منذ البداية لأكثر المشكلات إلحاحاً: مشكلة تثبيت مبادئ الايمان.

هذا ويتميز القرن الرابع بحدث هام آخر، هو مجمع نيقية الأول الذي دعا لانعقاده الامبراطور قسطنطين بالذات، وكان قد أخذ على عاتقه صيانة وحدة الكنيسة، بالطريقة نفسها لصيانة وحدة الامبراطورية. وهكذا لم تعد تُعتبر الهرطقة مجرد جرم ديني، بل باتت جرماً عاماً، واعتداء على النظام المدني. أصبحت السلطة المدنية في خدمة الكنيسة، فهل زاد ذلك من سلطة هذه الأخيرة الاخلاقية؟ إنها مسألة تدعو كثيراً للنقاش، وكنا تحدثنا عنها في مقدمتنا وسوف يتسنى لنا أن نعود إليها لاحقاً. في كل حال، من المؤكد أنه مثلما لم توقف اعمال الاضطهاد التي مارسها ديوقليشيانوس تقدم المسيحية، لم يتوصل سيف الدولة، ولا صواعق الكنيسة، لمنع ولادة هرطقات متجددة باستمرار وانتشارها.

أما بدع العصر الذي نصل إليه فيمكن أن تتوزَّع الى أربع مجموعات، تبعاً لما إذا كان الجانب الرئيسي من عقيدتها يتعلق بـ:

**1 ـ مبدأ التثليث الإيماني** : أريوسيون، مقدونيون؛

2 ـ الطبيعة المزدوجة ليسوع المسيح : أبوليناريون، مونوفيزيون، مونوتيليتيون، أوتيشيون، نسطوريون ؛

3 ـ عقيدة النعمة : بيلاجيون ؛

4 ـ نظام الكنيسة : دوناتيون، أوديون، مساليون.

## الأريوسية

تحتل الأريوسية، من بين كل الانشقاقات التي هددت حتى فترة الإصلاح الديني وحدة العالم المسيحي، المقام الأول من حيث قوتها، واتساعها وديمومتها. فلقد كانت اكثر من هرطقة، واكثر من بدعة، كانت كنيسة مستقلة كبرى، مع أساقفة ولاهوتيين ومجامع خاصة هزّت سلطتها احياناً سلطة المجامع مستقيمة الرأي. لقد ظهرت الأريوسية مجدداً ـ هي التي كانت قد ولدت في بدايات القرن الرابع، واستؤصلت من الامبراطورية الرومانية قبل نهاية القرن عينه ـ في الممالك البربرية الأولى في ايطاليا، وبلاد الغال، واسبانيا وافريقيا، ولم تختف كلياً إلا في الثلث الأخير من القرن السابع.

كان أريوس، الذي أبصر النور في ليبيا في النصف الثاني من القرن الثالث، وسيم كاهناً في الاسكندرية، رجلاً صارم المظهر الخارجي ويلتزم بعادات متقشفة، كما كان مثقفاً جداً وماهراً للغاية في الجدل، ولكنه شديد الاعتزاز بنفسه وممتلئ حنكة في آن معاً. وقد أمكنت مقارنته بكالفن. ويبدو أنه حوالى العام 318، وخلال جدال تواجه خلاله مع أسقفه الاسكندر، وضع أسس عقيدته، وبالتحديد أنه إذا كان الآب ولد الإبن، فلقد كانت

لكينونة هذا الأخير بداية، وبالتالي ليس كلمة الله المتجسد أبدياً. وسرعان ما انتشرت الهرطقة، فأحلَّ سينودسٌ، في العام 320 على الأرجح، وكان يضم حوالى مئة أسقف مصري وليبي، أحلَّ اللعنة على أريوس وأتباعه، أي أسقفين وخمسة كهنة وستة شمامسة. كان الاسكندر قد عارض حجج أريوس بعقيدة الابن الأبدي، الذي لا يتغير، والذي هو صورةٌ كاملةٌ عن الآب، وهو الله مثله.

وبدلاً من أن يستسلم مبتدع الهرطقة عرف كيف يستقطب أتباعاً جداً سرعان ما بات في عدادهم الأسقف المشهور أوزيب النيقوميدي. وهذا الأخير وكان حبراً طموحاً، مقرَّباً من بلاط الامبراطور قسطنطين، أصبح القائد المناضل للبدعة الجديدة، التي حازت في الوقت عينه تعاطف أوزيب آخر، كان أسقفاً للقيصرية، وأول مؤرخي الكنيسة. وحوالى العام 321، غادر أريوس الاسكندرية لأجل متابعة دعاوته في آسيا الصغرى وسوريا، وهما منطقتان نجح فيهما في كسب العديد من الأساقفة، ونساء كثيرات.

إن نجاح الهرطقة الأريوسية في أوساط رجال الكنيسة يفسِّره واقع أن المبدأ الإيماني المتمثل بالتثليث لم يكن قد وُضع بدقةٍ بعد، في تلك الحقبة. ومعروف أن تعبير "الثالوث" لم يكن موجوداً مادياً في العهد الجديد، ولا لدى الآباء الرسوليين. بيد أنه، في إنجيل القديس متى، يقول يسوع المسيح لتلاميذه : "امضوا إذاً، علّموا كل الأمم، معمّدين إياهم باسم الآب، والابن والروح القدس". وبحسب القديس يوحنا، قال يسوع من جهة اخرى: "أنا في الآب والآب فيَّ". والقديس يوحنا ذاته يتحدث عن الكلمة الذي كان "في البدء"، والذي كان الله، وصار جسدا. وينجم عن هذه النصوص، ونصوص أخرى أيضاً، أنه يمكن التوفيق بين الوحدانية اليهودية

ووجود ثلاثة أشخاص إلهيين بصورة متساوية، أي بناء مبدأ التثليث الإيماني. وقد كان ذلك عمل اللاهوتيين الأوائل، وهو عمل ساهم فيه، عبر رد الفعل الذي تسبب به، الانحراف الأريوسي. كان أحد أوائل أساقفة روما، وأحد الآباء الرسوليين، القديس كليمان، قد كتب في رسالته الى القورنثيين ما يلي : "فليحْيَ الله، وليحْيَ ربنا يسوع المسيح والروح القدس، إيمان المختارين وأملهم! "ثم استخلص أوريجان، في القرن الثالث، من الاستخدام الطقسي لتغطيس ثلاثي أو نفشٍ عمادي، النتيجة القائلة إن الروح القدس إلهي بالتساوي مع الله والإبن. وقد استُخدمت هذه الحجة بشكل واسع ضد الأريوسيين، الذين جرى الرد عليهم بأنه لو كانوا على حق لكان العماد يكرِّس الطفل في آن معاً للخالق ومخلوقَيْن اثنين، وهو ما يتعارض مع مجرد العقل السليم. وسوف نرى أن مجمع نيقية هو الذي ثبّت عقيدة التثليث الكاثوليكية، ثم استكملها القديس أغسطينس (في بحثه De Trinitate - الثالوث- ، المكتوب في السنوات الأولى من القرن الخامس). ومذاك بقي هذا المبدأ الإيماني في أساس معتقد كل الجماعات المسيحية، بما فيها معظم الجماعات البروتستانتية.

لم تكن عقيدة أريوس جديدة تماماً، وهي استلهمت على الأرجح عقيدة لوسيان الانطاكي التي لم تكن، في القرن الثالث، ومع أوريجان المشهور من جهة ثانية، قد أضفت على الإبن اكثر من ألوهة ثانوية. كان لوسيان يقود شارحي أنطاكيا (للكتاب المقدس) الذين ، بسبب تشبثهم بالمعنى الحرفي للكتاب المقدس، كانوا يتميزون من زملائهم في الاسكندرية، الأكثر ميلاً الى تفسير رمزي وصوفي للنصوص المقدسة.

إن مفهوم الأريوسية الأساسي يتمثل في القول إن الله agennêtos، غير

مخلوق، غير مولود، و anarchos، لا بداية له. وكان يقول أريوس إنه، بعد طرح ذلك، لا يكون الإبن منبثقاً عن الأب، كما كان يريد فالنتينوس الغنوصي، وليس الابن والآب مختلطَيْن وفقاً لنظرية سابيليوس، لأن الاستدلال هكذا يعني أن يجعل من الآب كائناً مركباً، ومنقسماً ومتغيراً، اي جسداً. هذا وقد تأثر أريوس رغم كل شيء بلوغوس فيلون اليهودي حين أعلن :" حين أراد الله ان يخلقنا، صنع أولاً كائناً سماه كلمة (لوغوس) وحكمةً وابناً، لكي يخلقنا بواسطته. هنالك إذاً حكمتان : إحداهما هي حكمة الله الخاصة به وهي توجد معه ؛ اما الإبن فقد صُنع في هذه الحكمة، ولأنه من نوعها فهو يدعى حكمة وكلمة، ولكن بالاسم فقط". وبالتالي فالإبن ليس مساوياً للآب ولا هو مشارك له في الجوهر. أما الثالوث فيتضمن، بحسب أريوس، ثلاثة أقانيم، ولكن هذه الأقانيم جواهر متمايزة ومنفصلة، واكثر من ذلك مختلفة من حيث طبيعتها.

لقد كانت العقيدة الأريوسية قائمة بصورة حاذقة على نصوص توراتية تقدم الآب بوصفه وحده إلهاً حقيقياً، في حين أن المسيح يدعى فيها ربّاً وحسب ؛ وعلى آراء بعض آباء الكنيسة، مثل دونيز الاسكندراني وأوريجان، وهي آراء تشوبها "الائتمارية" (أو الخضوعية)، إذا إن الابن يخضع للآب ؛ وعلى الاتجاهات العقلانية للمسيحيين الذين ظلوا تحت تأثير الفلسفة اليونانية ؛ وأخيراً على حجج تبسيطية كتلك التي كانت تُستخدم مع النساء : "هل كان لديك ابن قبل أن تنجبي واحداً؟ بالطبع لا ؛ الأمر نفسه يقال بالنسبة لله قبل أن ينجب". لما كان أريوس دعاوياً ماهراً، كان يؤلف كُتيِّبات، وقصائد، وأغاني شعبية للدفاع عن أفكاره. ويبدأ أحد نصوصه على الشكل التالي :

وفقا لإيمان مختاري الله

الذين يفهمون الله

الأطفال القديسين،

مستقيمي المعتقد،

الذين تلقوا روح قدس الله،

هاكم ما تعلمت

ممن يملكون الحكمة.

وكان يعلّم : "إن ماهيات الآب، والابن والروح القدس منفصلة بطبيعتها، غريبة، منقطعة، لا احتكاك ولا تواصل في ما بينها؛ هي مختلفة من حيث الماهية والمجد حتى اللانهاية. والكلمة إذاً مختلفٌ في كل شيء، سواء عن الآب، أو عن الروح القدس. هو موجود على حدة، لا شيء يشترك فيه الابن مع الآب".

لقد كانت الهرطقة الأريوسية خطيرة بوجه خاص، بفعل توفيقيتها الفلسفية- الدينية الحاذقة، ودعاوة كان يدعمها ذكاء مؤسسها الثاقب وحماس أنصارها. وهو ما شعرت به الكنيسة بقوة، ولأجل مكافحته كان من حظها أنها حظيت بدعم السلطة المدنية. فالمسيحية كانت قد اصبحت تقريباً دين دولة، ذلك أن قسطنطين الكبير، الذي بات سيد الامبراطورية بعد انتصاره على ماكسانس (312م)، كان قد أجاز في العام التالي، بالقرار الذي أصدره في ميلانو، الاحتفال بالعبادة المسيحية. ثم شارك هو شخصياً في النقاشات اللاهوتية، ودعا في العام 314، إلى انعقاد مجمع في آرل

يتدارس عقيدة الدوناتيين. وأخيراً، لما كان شديد الاهتمام بأن يستحق لقب معيد السلام إلى الكنيسة، التي كانت تشهد بلبلة عميقة آنذاك بفعل الهرطقة الأريوسية، جمع في نيقية في العام 325 اول مجمع مسكوني.

لقد اجتمع اكثر من ثلاثمئة اسقف، معظمهم من اسقفيات الشرق ومصر؛ وكان حوالى العشرين من بينهم يدافعون عن أفكار أريوس. وقد ألقى الامبراطور شخصياً خطاب الافتتاح، الذي أعلن فيه ما يلي: " في رأيي أنه ليس هنالك حرب أو معركة أشد رهبة من الصراع الداخلي في كنيسة الله، ذلك أن هذا الصراع عدوٌّ ألدُّ من أعداء الخارج". ثم دعا الاحبار لـ "دراسة أسباب خلافاتهم ولحل كل عُقد السجال وفقاً لشريعة السلام". ولقد كانت تكمن الصعوبة في العثور على نص يمكن أن يثبّت مبدأ التثليث الإيماني بالاستعانة بعبارات مأخوذة من الكتاب المقدس، وبوجه خاص أن يعرِّف التماثل في الماهية بين الآب والإبن.

كانت المجادلات عنيفة، وقد اقترح أوزيب الذي من القيصرية[1]، وكان ميالاً للتساهل والتوفيق، أن يتم تبني " قانون الإيمان" المعتمد في كنيسته، حيث مشاركة الابن (للآب) في الجوهر ليست موضحة بدقة. إلا أن المجمع لم يأخذ برأيه وكتب، مستعيناً بلاهوتي شاب سوف يصبح لاحقاً أتاناسيوس الاسكندراني المشهور، الوثيقة المعروفة بقانون إيمان نيقية. وهاكمُ المقطع الرئيسي فيها :

"نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى؛ وبربٍ واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من

[1] مدينة كابادوكيا القديمة، وكانت حاضرة من حواضر المسيحية في القرن الرابع، في آسيا الصغرى(م).

الآب، الذي هو من جوهر الآب، اله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، به كان كل شيء في السماء وعلى الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن اجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد وصار إنساناً".

كانت الكلمة الهامة هي " مساوٍ في الجوهر " (باليونانية **homoousios**، من **omos**، ذات، و **ousia**، جوهر)، وكانت اللعنة الملقاة على الأريوسيين تؤكد قيمتها: "أما اولئك الذين يقولون : كان هناك وقت لم يكن الابن موجوداً فيه، أو أنه لم يكن موجوداً حين لم يكن قد ولد بعد، أو أنه صُنع من العدم، او أولئك الذين يقولون عن ابن الله إنه من اقنوم آخر، أو جوهر، أو مخلوق، او متغير وغير ثابت، فالكنيسة الكاثوليكية تلعنهم". أما خطر الوقوع في خطأ سابيليوس بالخلط بين الآب والإبن، فالكلمات " مساوٍ في الجوهر " كانت تتحاشاه. كانت تدل في آن معاً على الجوهر ذاته وأشخاص متمايزين، لأنه ليس هنالك شيء مساوٍ لنفسه في الجوهر، بل لشيء آخر دائماً. كان التعبير جديداً، لكنه كان متضمناً، قبل نصف قرن، في رسالة كتبها البابا دونيز الى دونيز الاسكندراني لتحذيره من الواحدية السابيليوسية ومن خضوعية اولئك الذين كانوا يؤكدون أن الكلمة مخلوق وأنه كان هناك فسحة من الزمن وُجِد فيها الآب قبل الإبن. وهكذا كانت روما تقف بدقة في الوسط بين التوحيدية والإيمان بثلاثة آلهة، عبر التوفيق بين " الوحدة" الإلهية والتثليث (أو الثالوث).

أضاف قسطنطين، إلى اللعنة التي تلفظ بها المجمع ضد الهراطقة، منعه أريوس من العودة الى الاسكندرية، وبعد أشهرٍ نفى إلى بلاد الغال كُلاً من أوزيب النيقوميدي وتيوغنيس النيقي، اللذين سقطا مجدداً في الهرطقة بعد

أن وافقا على قانون الايمان المتبنَّى. فضلاً عن ذلك، فإن هذه الهرطقات كانت أبعد ما تكون عن الاخضاع، ولا سيما أن الامبراطور قسطنطين، الذي غير موقفه، بات متعاطفاً معها. لقد أرجع من المنفى الأسقفين المطرودين وعفا حتى عن أريوس، الذي كانت تحميه شقيقته، الأميرة قسطنطيا. من جهة اخرى، كان أوزيب الذي من القيصرية يناقش تعبير **homoousios**، ويرى فيه فكرة انقسام في الجوهر الإلهي، وبالتالي تذكيراً بالمودالية وبالهرطقة السابيليوسية. وسرعان ما وجد الفريق الأوزيبي نفسه قوياً كفايةً للحصول على عزل العديد من الأساقفة الشرقيين، إما بقرار المجامع التي كان يجمعها، أو بأمر مباشر من الامبراطور. وقد جرى إحلال أريوسيين محلهم، أو متعاطفين أو فقط اناس مرني الطبع. كما ان خصم الأريوسية الأشد خطراً، بطريرك الاسكندرية الحازم اتاناسيوس، الذي أدى تصلبه في الأخير إلى إضجار الامبراطور وإنهاكه، مع أنه كان وُدِّياً تجاهه، تعرَّض للعزل بقرار من سينودس انعقد في صور في العام 335. وفي السنة نفسها، رفع سينودس أورشليم، الذي جمعه "الأوزيبيون" بمناسبة تكريس كنيسة الضريح الأقدس، التي بنيت بأمر من قسطنطين، رفع الحرم عن أريوس وأتباعه. وقد جرى استدعاء مبتدع الهرطقة الحاظي بالغفران - بعد أن وافق على صيغة مستقيمة الرأي في الظاهر، ولكن استُبعدت منها عبارة "مساوٍ في الجوهر" - إلى القسطنطينية ولكن عشية اليوم الذي كان سيعاد فيه الاعتبار له بصورة رسمية، مات فجأة عن عمر ثمانين عاماً، وذلك في العام 336.

توفي قسطنطين بعد عام على ذلك التاريخ، وبعد أن عمَّده أوزيب النيقوميدي، فأصبح ابنه كونستانس الثاني "معظَّماً" (أي إمبراطوراً)

للشرق. وبما أن الاوزيبيين كسبوه الى جانب قضيتهم، فقد عملوا على عزل العديد من الأساقفة "النيقيين" وطردوا من الاسكندرية بالقوة البطريرك أتاناسيتون، الذي كان قد عاد إلى مقره بعد وفاة الامبراطور قسطنطين. وفي العام 341، حرَّر سينودس انعقد في انطاكيا أربع " صيغ" أقامت، بصور شتى، وعبر إسقاط الكلمة **homoousios** (اي مساوٍ في الجوهر)، نوعاً من التوازن بين الأريوسية وإيمان مجمع نيقية. ولكن الأساقفة الشرقيين ثابروا في انشقاقهم والتقوا في مجمع انشقاقي في فيليبوبوليس في تراقية، حيث ألقوا الحرم على أتناسيوس والأساقفة الغربيين الذين كانوا يدعمونه. لا بل أدانوا حتى البابا يوليوس الأول، المدافع عن الأورثوذكسية المناهضة للأريوسية.

بيد أن كونستانس كان يأخذ على الاورويين ما كانوا يمارسونه من اعمال انتقامية ضد خصومهم، وإذ كان يرغب في الوقوف على مسافة واحدة من الطرفين، دعا أتاناسيوس للعودة إلى الاسكندرية. فاستعاد البطريرك مقره بصورة مظفَّرة ونجح في أن يستأصل من البلد آخر آثار الهرطقة. وقد أمكنه أن يكتب في العام 349 : "ما من أحد بين أساقفة مصر المئة يتهمني، وما من كاهن يوجِّه مآخذ إليَّ وما من عامِّيٍّ يتمرد عليَّ" ؛ وقد كتب بحثاً بعنوان دفاع بوجه الأريوسيين.

وفي بلاط كونستانس، كان أعداء أتاناسيوس يحبكون الدسائس، مصوِّرينه كما لو كان عاصياً ؛ وقد استحصلوا على إدانته في مجمع انعقد في آرل. وفي العام 355، وبأمر من الامبراطور، طوَّق خمسة آلاف جندي الكنيسة التي كان يحتفل البطريرك فيها بالقداس. إلا أنه تمكن، بفضل المخلصين له من اهل الاسكندرية، من أن يفلت من الحصار، وعاش مذاك متشرداً، إما على مركب في نهر النيل، أو في مغارة، أو بين نسَّاك الصحراء.

وقد استمر في المساجلة كتابةً، وقدم البراهين على ألوهة المسيح بالاستناد الى حجة الفداء : "لو لم يكن شخصياً صورة الآب الجوهرية، لو لم يكن الله إلا عَرَضاً وبالمشاركة، لما كان في وسعه أن يتحدى يوماً أحداً، بما أنه ليس بذاته غير كائنٍ مؤلّه".

وبما أن الأريوسية باتت تستقوي بالدعم الامبراطوري، رفعت رأسها من جديد. كان كونستانس يقيم عموماً في بانونيا، وكان أتباع هذه الفرقة الدينية الأشد حماساً يوجدون في المناطق التي يمر فيها نهر الدانوب. وقد كان يرافق الامبراطور أحبار مخلصون له، يشكلون نوعاً من السينودس المتجول، الذي يحوز عقيدة أمكن وصفها، حين استقر البلاط في سيرميوم(ميتروفيستا حالياً)، بالإيليرية[1]، بالتعارض مع اللاهوت المصري الذي دافع عنه أثاناسيوس. أما هذا الأخير فكان يحميه البابا ليبير، الذي عارض ـ في مجمع ميلانو المنعقد برئاسة كونستانس بالذات في العام 335 ـ أيَّ إساءة يتعرض لها الـ**Nicaenum** (أي قانون الإيمان المقر في مجمع نيقية)، وفضّل النفي على العدول عنه.

كان السجال، في غضون ذلك، قد تعقّد بما كان يمكن تسميته مشادة حرف الياء (مشادّة الـ iota[2])، فلأجل التوفيق بين الأطروحتين، كان بعض اللاهوتيين قد أحلّوا محل الـ**homoousios** ("من الجوهر عينه") عبارة homoiousios ("من جوهر مشابه"). وقد اعتبروا أنهم يتحاشون بذلك تفسيراً سابيليوسياً للمساوي في الجوهر. ولكنهم إذ فعلوا ذلك، لم يكونوا يسلّمون إطلاقاً بالتماهي في الجوهر بين الآب والابن؛ وكان يمكن اتهامهم

---

[1] نسبة إلى إيليريا، وهي منطقة بلقانية جبلية قريبة من البحر الادرياتيكي (م).

[2] اليوتا (iota) هو الحرف التاسع في الابجدية اليونانية الذي يقابل حرف الـ I في الابجدية اللاتينية(م).

بالانتقال من التوحيد الى الايمان بثلاثة آلهة، وبأنهم يصنعون، بدلاً من إله واحد بثلاثة أقانيم، ثلاثة آلهة مختلفين، وإن كانوا متشابهين. ومن الواضح أن " للحرف"، في اللاهوت، قيمة روحانية كبرى غالباً.

في العام 337، انعقد مجمع في سيرميوم كتب قانون إيمان قريباً من الأريوسية. فمن دون التوصل الى القول، مع اريوس، إن كلمة الله المتجسد ليس أبدياً، اعلن ما يلي : "ليس من شك في أن الآب أكبر، وأن الآب يتفوق على الابن شرفاً، وكرامة، وبهاء، وجلالاً، وذلك باسم الآب بالذات". أما بخصوص الـ homoousios والـ homoiousios، فكان قانون الايمان يقول : " لقد أثارت هاتان الصيغتان الكثير من الاضطراب، لذا من الأفضل عدم استخدامهما، لأنهما ليستا موجودتين في الكتاب المقدس، وتتجاوزان علم الانسان، لأنه لا أحد يستطيع، بحسب الكتاب المقدس، أن " يروي ولادة ابن الله". الآب وحده يعرف كيف ولد ابنه، والابن وحده يعرف كيف ولد من الآب".

إن لا أدرِّيةً كهذه لم تكن قادرة على إرضاء المشغوفين بالتعريفات اللاهوتية. لقد اجتمع في أنسير (التي باتت حاليا أنقره) عدة أساقفة شرقيين، وأعلنوا تأييدهم للـ homoiousios ونددوا بالأريوسية الايليرية ؛ وقد نجحوا في كسب كونستانس الى جانب اطروحتهم وكتب مجمعٌ جديد انعقد في سيرميوم صيغة جديدة نقرأ فيها ما يلي: "نؤمن بإله واحد وحقيقي، الآب كليّ القدرة، خالق الكون وصانعه، وبابن وحيد لله، ولد من دون ألم، قبل كل الدهور... هو إله من إله، شبيه بالآب الذي ولده، وفقاً للكتب المقدسة ؛ لا أحد يعرف ولادته سوى الآب الذي ولده... أما كلمة **Ousia** التي استخدمها الآباء بكل بساطة، ولكن التي لا يعرفها عامة

الشعب، فيما هي تهدد بإثارة الشكوك لأنها غير موجودة في الكتب، بدا حسناً إلغاؤها... ونحن نقول فضلاً عن ذلك إن الابن شبيه بالآب في كل شيء، كما تقول الكتب وتعلّم". ومن الواضح أنه لم يُعط أي جواب حاسم عن السؤال الذي كان أثاره أريوس: هل المسيح مخلوق، نعم أم لا؟

بيد أن أتناسيوس كان يميل الآن الى المصالحة فكتب: " أما أولئك الذين يسلمون بكل ما تبقّى في وثائق (مجمع) نيقية، ولكنهم يترددون أمام كلمة homoiousios وحدها، فلا يجب اعتبارهم أعداء؛ فنحن أنفسنا لا نقاتلهم كأريوسيين أو كأعداء لآباء الكنيسة؛ إننا نتعامل معهم كإخوة مع إخوة لديهم الفكرة نفسها التي لدينا ولا يناقشون إلا بخصوص كلمة واحدة. لأنهم إذ يعترفون بأن الابن هو من ماهيّة الآب وليس من جوهر آخر، وبأنه ليس مخلوقاً ولا صنيعاً، بل مولود أصيل وطبيعي، حاضر إلى الأبد ككلمة وكحكمة، فهم ليسوا بعيدين من التسليم بكلمة **homoousios**". لقد كان مجرِّدون آخرون للجوهر يرفضون هذه الكلمة، مقتصرين على القول إن الابن شبيه (**homoios**) بالآب، وهم يسمون مشبِّهين (**homéens**).

لقد ظن كونستانس أن في وسعه إعادة وحدة الامبراطورية الدينية تلك، التي كان والده قسطنطين رغب فيها جداً، وذلك عن طريق الدعوة الى مجمعين في آن معاً، أحدهما شرقي في سلوقيا، في منطقة كيليكيا، والآخر غربي في ريميني بإيطاليا. وبناء على إلحاحه، تبنى الثاني من هذين المجمعين، في العام 359، الصيغة التي كتبها الشرقيون: "إن ابن الله شبيه بوالده جوهراً وماهيةً"؛ أما كلمة "مساوٍ في الجوهر، او من الجوهر ذاته" فلم تكن موجودة فيها. ولقد جرى تكريس هذه الصيغة "المشبِّهة" في العام التالي، بقرار اتخذه مجمع انعقد في القسطنطينية، حيث تجلى، مرة أخرى، تذلُّل الأكليروس

الشرقي واتجاهات الحكم المطلق القائم على سلطة الدين التي انتصرت لاحقاً في بيزنطة.

لقد بدا أن الأريوسية سجلت نصراً، ولكن بما أن كونستانس توفي في العام 361، فقد فقدت الهرطقة دعامتها الرئيسية. ذلك أن الامبراطور الجديد جوليانوس الكافر لم يكن كثير الاهتمام بخلافات رعاياه المسيحيين. ولقد واصل الأحبار الغربيون الدفاع عن العقيدة القويمة، وكان مجمع انعقد في باريس سبق أن أعلن في العام 360: "هنالك بين الآب والابن وحدة ألوهة وليس اتحاد ألوهة". وفي الاسكندرية كان أتناسيوس قد عاد مظفَّراً من المنفى في العام 362 وعقد مجمعاً في الحال، جرى فيه حل سوء فهم لغوي كان يفصل اليونانيين عن اللاتين: في حين كان الأولون يستخدمون تعبير "أقنوم" بمعنى "شخص"، الامر الذي كان يمكن ان يتيح افتراض أنهم يؤمنون بثلاث طبائع، اي ثلاثة آلهة، كان اللاتين يجعلون من هذه الكلمة مرادفاً لـ " جوهر"؛ وبالتالي .فإن "أقنومهم الواحد" كانت تفوح منه رائحة السابيليوسية. ولقد قرر المجمع انه يمكن الكلام في المستقبل، من دون الظهور بمظهر الهراطقة، على ثلاثة اقانيم، وفي حين قدم بعض التنازلات اللفظية أبقى على قوانين (مجمع) نيقية الكنسية من دون مساس بها. فضلاً عن ذلك، كان الوفاق في ادنى مستوياته بين الهراطقة: فالأريوسيون بصورة نصفية، أنصار الـ **homoiousios**، كانوا يكتفون برفض المساواة في الجوهر، في حين أن " الانقياء" كانوا يحاولون إعادة المسيحية الى الوحدانية. وكان هراطقة آخرون مناهضون للتثليث يرفضون عقيدة ألوهة الروح القدس، وهو ما أتاح تسميتهم **Pneumatomaques**؛ وبما أن رئيسهم كان مقدونيوس، أسقف القسطنطينية، جرت تسميتهم عموماً بالمقدونيين.

ويبدو أنهم توزعوا إلى اتجاهين، احدهما يفكر بشكل سليم بخصوص الابن ويقبل بمبدأ المساواة في الجوهر النيقية، وآخر يتمسك بتعبير homoiousios، نصف الأريوسي، لكن الاتجاهين كانا متحدين في انكارهما لألوهة الروح القدس.

من بين خلفاء كونستانس، حاول جوليانوس الكافر عبثاً إعادة النشاط للوثنية المحتضرة، واضطهد فالتنيانوس الهراطقة، وساندهم فالنس، وأبدى تيودوسيوس الكبير، وكان نصيراً مقتنعاً لمقررات مجمع نيقية، القسوة نفسها في اضطهاد كل من الأريوسيين والوثنيين. فقد عومل الأولون كمتمردين، وصودرت منهم كنائسهم، وحرموا من حق عقد جمعيات. وقد انعقد مجمع في اسطمبول عام 380، ولعنهم بصورة نهائية. وقد بدا أن الهرطقة استؤصلت ولم يبق منها سوى القليل في إيليريا.

بيد أنه، في تغير غريب مفاجئ للأوضاع، شهدت الكنيسة الأريوسية، في طور ثانٍ لوجودها، اتساعاً أعظم أيضاً مما في الطور الأول. ويعود سبب ذلك إلى أن المرسلين الأريوسيين هم الذين نصّروا البرابرة الجرمان المعسكرين في التخوم الشمالية للامبراطورية: الأوستروقوطيين، والويزيقوطيين، والبورغونديين، واللومبارديين، والفانداليين. والمتنصّرون هؤلاء لم يختاروا عقيدة أريوس، بل تبنوها لسبب بسيط هو انهم لم يكونوا يعرفون غيرها، ولما كانوا محاربين اكثر مما لاهوتيين، فقد نشروها على حد السيف والفأس، وفرضوها على الشعوب التي أخضعوها، أكانت هذه مسيحية أو وثنية.

إن الملوك الديزيقوطيين الذين استقروا في الأكيتان واسبانيا منذ بدايات

القرن الخامس أظهروا المودة تارة والعداء طوراً للاكليروس مستقيم الرأي في مناطق سيطرتهم؛ وقرر أحدهم، الملك ريكاريد، التخلي نهائياً عن هراطقة آبائه، ودعا في العام 589 إلى انعقاد مجمع في طليطلة أطلق 23 لعنة ضد الأخطاء الأريوسية.

أما البورغونديون، الذين وصلوا الى بلاد الغال في بداية القرن الخامس، فقد أسَّسُوا فيها مملكة قوية في وادي الرون والسون. وتحت تأثير ويزيقوطيي الأكيتان، اهتدى ملوكهم الى المسيحية وتبنوا الايمان الأريوسي. وكان احدهم، غوندويو، هزم وأعدم اخاه شيلبيريك، الذي كان قد بقي مخلصاً للكثلكة. وقد زوَّج ابنة اخيه المقتول، كلوتيلد، لكلوفيس ملك فرنسا، ثم خلص هو شخصياً إلى التخلي عن الهرطقة. وقد عجز خلفاؤه عن الدفاع عن استقلال مملكتهم فقضى عليها الفرنجة في العام 534 وزالت معها مملكة الغال الأريوسية.

وفي افريقيا، التي كان الفانداليون قد دخلوها عن طريق اسبانيا في العام 429، حاول ملكهم جنسيريك أن يفرض الأريوسية بالقوة على رعاياه الجدد، وسقط شهداء عديدون للإيمان مستقيم الرأي. ولكن خلفاء جنسيريك أبدوا قساوة أقل، ولكن حين حاول احدهم، جيليمير، تجديد عصر الاضطهاد، أرسل الامبراطور جوستنيانوس لإخضاعه الجنرال بيليزار، فتم تدمير مملكة الفنداليين، واستئصال الأريوسية من الأرض الافريقية.

لقد كانت إيطاليا هي المكان الذي صمدت فيه الكنيسة الأريوسية أطول مما في اي مكان آخر. كانت قد دخلت اليها في العام 489 مع الاوستروقوطيين. وإذا كان الأشهر بين ملوكهم، تيودوريك الكبير، أبدى

تسامحاً عظيماً مع " النيقيين"، فإن احد خلفائه توتيلا، اضطهدهم بقسوة. وبما أن سيطرة الاوستروقوطيين انتهت عام 553، فقد عرفت الأريوسية المصير نفسه؛ بيد أنها ظهرت مجدداً، بعد وقت قصير، مع غزو بربري جديد هو ذلك الذي قام به اللومبارديون. إن هؤلاء الجرمان نصف الوثنيين ونصف الأريوسيين وصلوا إلى ايطاليا في العام 568 وأخضعوها بالدم والنار. وقد دفع العديد من الكهنة حياتهم ثمناً لتشبثهم بالإيمان النيقي. بيد انه شيئاً فشيئاً، وبوجه خاص بفضل حذاقة البابا غريغوريوس الكبير، زالت الهرطقة الأريوسية، حوالي 670، من إيطاليا، وبصورة نهائية من مناطق انتشار الدين المسيحي.

إذا نظرنا إلى الأريوسية الجرمانية من الزاوية الدينية البحتة نجد أنها لا تثير كبير اهتمام، فلقد كانت مجموعة من الديانات القومية أكثر مما فرقة دينية هرطوقية. وقد انهارت قوتها مع انهيار قوة الشعوب التي كانت قد تبنتها.

وفي الازمنة الحديثة، سوف نرى الأريوسية تظهر مجدداً، في أشكال مختلفة تماماً من جهة ثانية، في بعض البدع البروتستانتية المناهضة للتثليث، ولا سيما لدى السوسينيين.

## النسطورية

في حين كانت مدرسة أنطاكيا اللاهوتية تفكر بوجه خاص في الطبيعة البشرية للمسيح، الذي كانت تصفه بالانسان ـ الله، كانت مدرسة الاسكندرية، الاكثر مثالية، تنظر بشكل خاص الى ألوهة المسيح، معرِّفةً إياه بالإله المتجسد. والحال ان الاتجاه الذي كان لدى الانطاكيين لتمييز شخصين مستقلين مادياً في يسوع، سوف يفضي ذات يوم الى هرطقة

نسطوريوس. وقد كان هذا من اصل سوري، وعُيّن بطريركاً للقسطنطينية في العام 482، بفضل حماية امبراطور الشرق تيودوسيوس الثاني. كان خطيباً مفوّهاً، ولاهوتياً متفقهاً وثاقباً، وقد اشتهر أول ما اشتهر بالعنف الذي قاتل به الأريوسيين، ولكنه سرعان ما وقع هو نفسه في تنويع آخر من الانحراف في دراسته للمسيح. وقد توصل إلى الإيمان بأن يسوع المسيح ليس سوى انسان، أقام فيه كلمة الله " كما في هيكل" ؛ وهو بالتالي ليس إنساناً ـ إلهاً، بل فقط حاملٌ لله (**théophore**). فضلاً عن ذلك، كان نسطوريوس يميز في يسوع المسيح شخصين، احدهما إلهي، والآخر بشري : على نقيض بدعة الطبيعة الواحدة (المونوفيزية)، كان ما كان يسميه لاهوتيو ذلك الزمان ثنائي الطبيعة(ديوفيزياً). فلكي يصون مبتدع الهرطقة الوحدة الإلهية كان يتذرع بالنص اليوهاني القائل : " الآب وأنا واحد"، وكان يستنتج من ذلك أنه إذا كانت الطبيعتان منفصلتين من حيث الماهية، فهما متصلتان في المحبة.

اخيراً، فالعذراء، أم بشرية الابن لا ألوهته، لم تكن تلزم تسميتها أم الله (**theotokos**)، بل فقط أم المسيح (**christotokos**). لم يكن ممكناً، في الواقع، أن تلد من هو أقدم منها، أن تنجب الإله الذي صنع الأزمنة ؛ لم يكن يمكنها أن تكون أماً إلا لإنسان (كان **Antropotokos** الاسم الآخر الذي يعطيه إياه نسطوريوس). لقد فصّل نظريته على الشكل التالي :" أليس القول إن لكلمة الله، الأقنوم الثاني في الثالوث، أمّاً، تبريراً لجنود الوثنيين الذين يعطون أمهاتٍ لآلهتهم؟! لا يمكن الجسد أن ينجب إلا الجسد، والله، وهو روح خالصة، لا يمكن أن يكون وُلد من امرأة : لم يتمكن المخلوق من إنجاب الخالق، ومريم لم تلد إلا الانسان الذي تجسَّدَ

فيه كلمةُ الله. لقد تجسد كلمة الله في إنسانٍ فانٍ، ولكنه هو نفسه لم يمت، وهو بعثَ حيّاً ذلك الذي تجسد فيه. انا اعبد الإناء بسبب محتواه، واللباس لأجل ما يغطيه، ما يظهر لي في الخارج بسبب الله المختبئ الذي لا أفصله عنه".

كان النسطوريون قد أصبحوا اكثر فأكثر عدداً وتهديداً، لأن رئيسهم، وفقاً لكلام بولشيريا، شقيقة الامبراطور، كان "مشعلاً مضرماً للحرائق". وقد انفعل الأحبار مستقيمو الرأي، ولا سيما كيريلوس، بطريرك الاسكندرية. لقد نشر كيريلوس اثني عشر "نصًّا لاستمطار اللعنة" تدين نسطوريوس ومن ثم، بوصفه قاصداً رسولياً ينتدبه البابا سيلستينوس، ترأس عام 431 مجمع أفسس المسكوني؛ وقد عزلت تلك الجمعية مبتدع الهرطقة، بعد ان أيّدت رسالةً من كيريلس إلى نسطوريوس، بوصفها "تعبيراً عن الإيمان الكاثوليكي"، كانت تثبت أن الطبيعتين متحدتان أقنومياً في يسوع المسيح، أي أنهما لا تشكلاّن إلا شخصاً واحداً، تجمعان فيه صفات الألوهة وصفات الإنسانية. وكانت الرسالة تؤكد فضلاً عن ذلك أن مريم العذراء، مع أنها أم الانسان، من حقها أن تسمّى أيضاً أم الله، لكونها أم شخص إلهي. وقد هلل سكان أفسس لهذا القرار : فأم الله (**Theotokos**) كانت قد اصبحت الـ**Panagia**، أي "كلية القداسة"، تلك التي سوف يعظّمها الورع البيزنطي، ثم الروسي، باحترام خاص.

وكما كانت الحال بالنسبة لمعظم مبتدعي الهرطقات في بداية تقويمنا، لم تؤد إدانة نسطوريوس رسمياً الى قهره، وإذلاله. حتى أن أحد أنصاره، بطريرك أنطاكيا يوحنا، استحصل من تيودوسيوس الثاني على عزل كيريلوس الاسكندراني، ولكن الامبراطور، الذي سرعان ما كفَّ عن

تشجيع تلك الهرطقة الغى هذا التدبير، ونفى نسطوريوس في العام 435 إلى واحة في صحراء ليبيا، حيث توفي بعد سنوات قليلة.

كان النسطوريون قد لجأوا إلى إيدس (الرها لاحقاً) حيث علّموا عقيدتهم وقتاً طويلاً في مدرسة أغلقها في العام 489 قرارٌ أصدره الإمبراطور زينون. وفي عهد يوستنيانوس، تجدد نشاط الهرطقة، وعمد المجمع المسكوني الخامس، المجتمع في القسطنطينية في العام 558، إلى إدانة الاطروحات النسطورية المتضّمنة في المؤلّف المسمّى الفصول الثلاثة.

إلا أن العقيدة (النسطورية) وجدت ملجأ أخيراً في بلاد فارس. وقد شكل أتباعها، الملتقون في مجمع في سلوقيا، كنيسة مستقلة، يقودها كاثوليكوس. لقد لقي الايمان النسطوري في آسيا، حظوة واسعة : انتقل من فارس إلى الجزيرة العربية، فالهند، وحتى الصين، والعديد من خانات المغول الكبار حموا أتباعه. ومن المثير للفضول أن هنالك إلى اليوم كنيسة نسطورية صغيرة في ما بين النهرين[1].

## الهرطقات المونوفيزية[2]

رداً على النسطورية، التي كانت ترى شخصين في يسوع المسيح، شكلت المونوفيزية هرطقة جديدة. وكان رائد هذه الفرقة الدينية أبوليناريوس الشاب، أسقف لاودكية الذي أعلن، في النصف الثاني من القرن الرابع، عقيدة إذا لم تكن تنكر على الفادي جسماً بشرياً تنفخ فيه الحياة نفسٌ محسوسة فقد أنكرت على الأقل نفساً عاقلة (**nous** أو

[1] أي العراق حالياً(م).

[2] أي القائلة بطبيعة واحدة (م).

Pneuma)، لأن ألوهته الخاصة به تقوم مقامها. لقد كان أريوس قال إن كلمة الله اتحد بجسم بشري باستثناء النفس العاقلة. أما أبوليناريوس فأوضح بمزيد من الدقة قائلاً: "إن الألوهة والجسد جزآن مكونان لطبيعة واحدة، مثلما توجد في الانسان العادي طبيعة واحدة مكونة من جزأين ناقصين، النفس والجسد". كانت كريستولوجيا (دراسة المسيح) الإنجيل تندمج هكذا بفلسفة أرسطو : من جهة، الشكل، أو العنصر الروحاني والفاعل، الذي هو ألوهة الكلمة؛ ومن جهة اخرى، المادة، وهي عنصر سلبي، هو الجسد. وإذ لم يكن مبتدع هذه الهرطقة يترك للإنسان ـ الإله غير جسد بلا نفس، فهو لم يكن يمنحه إلا إنسانية ملتبسة، ناقصة، وبما أنها ليست من جوهر إنسانيتنا نحن، فلقد كانت تفسد عمل الفداء بالذات. صحيح أن أبوليناريوس وجد، لأجل تفادي الاعتراضات التي كان يواجه بها، مَخْرجاً عن طريق نظريته القائمة على " التفريع الثلاثي": كانت إنسانية المسيح مؤلفة من جسد ونفس حيوانية (Psychè). ولقد أدانت الهرطقةَ الأبوليناريوسيةَ عدةُ مجامع، ولا سيما في القسطنطينية في العام 381.

كانت التحليلات الدقيقة التي انصرف لها أبوليناريوس تبشر مذاك بالمونوفيزية، العقيدة التي لا تعترف بأنه يوجد في يسوع المسيح اكثر من طبيعة (physis) واحدة ووحيدة، والتي أثار دحضها خلافاتٍ لا تحصى في القرن الخامس.

لقد كان المحرك الحقيقي للهرطقة المونوفيزية أوتيشيس، وكان رئيس دير في القسطنطينية (برتبة ارشيمندريت). وقد عمد سينودس انعقد في تلك المدينة في العام 448 إلى صب اللعنة عليه لكونه أعلن أن للمسيح طبيعتين قبل التجسد، ولكن ليس بعده، وأن العذراء مساوية لنا في الجوهر، ولكن

ليس المسيح. هذا ولم يعترف مبتدع الهرطقة بالهزيمة ونجح في أن يستحصل من امبراطور الشرق تيودوسيوس الثاني على أن ينعقد مجمع في العام 449 مكلّف بدراسة عقيدته مجدداً. ولقد كان الاجتماع صاخباً: "اللعنة - صرخ الأوتيشيون - على من يعتبر أن للمسيح طبيعتين. فليُطْرَدْ، فليُذْبَحْ". ولقد وصل الأمر إلى حد التضارب؛ وعومل بطريرك القسطنطينية معاملة سيئة، ومات في السجن. وقد أعلن هذا المجمع الانشقاقي، الذي ندد به البابا ليون الأول مطلقاً عليه اسم "قُطاع طرق أفسس"، أن أوتيشيس مستقيم الرأي، وأعاده إلى وظائفه، وعزل الأحبار الذين كانوا قد وجهوا الاتهام إليه، ولعن كل من يعترف بوجود طبيعتين ليسوع المسيح بعد التجسد.

إلا أن مجمعاً ثانياً جمع في خلقيدونية، في العام 451، اكثر من 520 أسقفاً، أقر بعد مناقشات طويلة وصعبة إعلان إيمان من بين ما جاء فيه: "إننا نعلّم جميعُنا ان هناك ابناً "واحداً" ووحيداً، سيدنا يسوع المسيح، الكامل من حيث الألوهة، والكامل من حيث الإنسانية، الإله الحق، والإنسان الحق، المؤلف من نفس عاقلة وجسد، والمساوي الآب في الجوهر، والمساوي لنا في الجوهر وفقاً للإنسانية، والشبيه بنا ما عدا الخطيئة، والمولود من الآب قبل كل الدهور وفقاً للألوهة، والمولود، وفق الانسانية، لأجلنا ولأجل خلاصنا في آخر الدهر، من العذراء مريم أم الله؛ مسيحاً واحداً ووحيداً، إبناً سيداً، إبناً وحيداً بطبيعتين، من دون خلط، ومن دون تحوُّل، ومن دون انقسام، ومن دون انفصال؛ لأن الاتحاد لم يلغ الفرق في الطبيعتين، فلقد احتفظت كل منهما بطريقتها لأن تكون خاصة، وتلاقت مع الطبيعة الأخرى في شخص وأقنوم واحد".

لم تضع قرارات خلقيدونية حداً للهرطقة، التي ظلت تعتنقها عموماً

الكنيسة اليونانية على الرغم من الـHénotique (أي "قرار الاتحاد") الذي أصدره الامبراطور زينون. وقد افضت، في العام 484، إلى انشقاق فصلها عن كنيسة روما حتى العام 518. في ذلك العام، حل محل امبراطور الشرق أناستازيوس، وكان نصيراً متحمساً للطبيعة الواحدة، الامبراطور يوستنيانوس الذي دعم، هو وخلفاؤه من بعده، الاورثوذكسية الخلقيدونية. ولقد بدا أن الهرطقة منيت بالهزيمة، ولكن لما كان أسقف أدس يعقوب باراداي قد نشرها بحماس، فقد صمدت في بلدان شرقية متنوعة. اكثر من ذلك، لا تزال موجودة الى اليوم في سوريا باسم الكنيسة اليعقوبية، مع بطريرك يقيم في ضواحي الموصل؛ وفي أرمينيا، مع " كاثوليكوس" في ايتشميادزن؛ وفي مصر، مع بطريرك الاسكندرية للأقباط. فالكنيسة القبطية التي تشتق لغتها الطقسية من المصرية القديمة، نشرت العقيدة المونوفيزية حتى الحبشة، التي تعد كنيستها حوالى ثلاثة ملايين مؤمن. وإذا اهملنا بعض بقايا النسطورية التي لا يعبأ بها، يمكن ان نعتبر المونوفيزية كالوحيدة بين الهرطقات الكبرى القديمة التي بقيت حتى يومنا هذا، مثل البقية المتحجرة لحيوان من حقبة ما قبل التاريخ.

فضلاً عن ذلك، كانت المونوفيزية اليونانية أبعد ما تكون عن الوحدة العقيدية، وكانت تنطوي على تباينات واضحة. فالساويروسيون، على اسم أسقف انطاكيا ساويروس، كانوا يؤكدون أنه إذا قسمنا المسيح الى طبيعتين، نحصل بذلك على اقنومين أو شخصين، الأمر الذي يعني السقوط في الهرطقة النسطورية. إلا أنهم كانوا يسلّمون بأن الكلمة بات مساوياً لنا في الجوهر بالإنسانية الكاملة التي أخذها من العذراء؛ لذا فعقيدتهم، المسماة احياناً "مونوفيزية كلمية" يمكن اعتبارها

ابتداعية(hétérodoxe) اكثر مما هرطوقية. ولقد رأينا ان الأوتيشيين كانوا اكثر جذرية، فمونوفيزيتهم كانت مطلقة، لأن الـ **Physis**، في نظرهم، هي طبيعة، وماهية وشخص في آن معاً. ولقد ولدَّت الأوتيشسية بحد ذاتها، فضلاً عن ذلك، شتى البدع، وهاكم عدة امثلة على الطريقة التي كانت تفسَّر بها، كلٌّ على طريقتها، المشكلة موضع الجدال: إن الانسانية في يسوع المسيح إنما تمتصها الألوهة؛ ولقد اختلط المبدآن ليشكلا نوعاً من المركَّب الإلهي- الانساني؛ تحوَّل الكلمة حقاً الى جسد، أو أن التحول ليس سوى تحول ظاهري، أو أيضاً أن الكلمة "اضمحل" في الانسانية؛ إن كلمة الله والإنسانية يتحدان من دون أن يمتزجا او يختلطا. تلك كانت المماحكة الغريبة التي كان يستمتع بها المفكرون ذوو التكوين اليوناني، في حين كانت الكنيسة الرومانية، الاكثر منطقاً وروحاً عملية في آن معاً، تفضل على التنظيرات غير المجدية الاهتمام بأن تعرِّف بتعابير واضحة قدر الامكان ما كانت تعتبر تعليمه لعامة المؤمنين أمراً ضرورياً.

ويمكن ان نُلحق بالمونوفيزية المونوتيلية، وهي هرطقة أثارت اضطراب الكنيسة على امتداد ثلثي القرن السابع( من 619 الى 679). وكانت هذه العقيدة الجديدة تحاول التوفيق بين الكاثوليك مستقيمي الرأي والمونوفيزيين، بتعليمها أنه إذا كانت هناك طبيعتان في يسوع المسيح، فليس فيه غير إرادة (**thélêsis** باليونانية) واحدة. وكانت قد اكدت في البدء أن في المسيح، بعد التجسد، قوة (أو طاقة) واحدة، ثم انتقلت إلى وحدة الإرادة بحصر المعنى، التي أدانها نهائياً مجمع القسطنطينية المسكوني الثالث (681). فبعد أن كرس هذا المجمع قانون الايمان الخلقيدوني، نادى " بإرادتين طبيعيتين في يسوع المسيح، وعمليتين طبيعيتين، من دون انقسام، أو

تبديل، أو تقاسم، أو ارتباك". وقد كان يذكرٌ، فضلاً عن ذلك، بصيغة البابا ليون الأول : " كل واحد من الشكلين يعمل مستعيناً بالآخرِ ما هو خاص به، فينجز الكلمة ما يعود إلى الكلمة، والجسد ما يتعلق بالجسد".

## البيلاجيوسية

إن المسألة التي لم تكن قد أثارت الأذهان بعدُ، والتي سوف تفسح في المجال، على مدى القرون، امام نقاشات لا تنتهي، كانت مسألة النعمة. ولقد انطلقت من الغرب الشرارة التي ألهبت السجال، وسوف نلاحظ أن هذا السجال إنما كان، في الغرب، بالضبط، الأكثرَ تواتراً والأشدٌ اتقاداً.

وتتسم النعمة، كما يشير إلى ذلك اسمها، بمجانيتها قبل كل شيء. فهي معطاة بفعل عطف الله الصرف. وقد كتب القديس بولس في رسالته الى اهل روما، وفي معرض كلامه على الاسرائيليين الذين قادهم خيار إلهي إلى المسيحية، ما يلي : " إذا كان ذلك بفضل النعمة، فلم يعد ذلك بالأعمال، وإلا لكفّت النعمة عن ان تكون نعمة". واللاهوتيون يعرّفونها على الشكل التالي: عطاء فائق للطبيعة يمنحه الله لمخلوقٍ موهوبٍ فطنةً بُغْيَة الخلاص الابدي. والنعمة، بالنسبة للشخص الذي يتلقاها، خارجيةٌ حين لا تكون من ذات الانسان ( وتلك، على سبيل المثال، هي حال الشريعة الإلهية التي أوحى بها الله، وحال الأمثلةِ عن القديسين، وحال المعجزات)، وداخليةٌ حين يكون العطاء فائقُ الطبيعة هو الموجود في الشخص الذي يتلقاها. وتسمّى حاليةً حين تكون نجدةً انتقالية هي التي تحفز الإنسان على عملية ملائمة، ومعتادةً حين يتعلق الأمر بالعطاء الفطري في النفس، التي تصبح

صفة دائمة لها. إن يسوع المسيح يعلّم أنه لا شيء ممكن في نظام الخلاص من دون النعمة، ولقد شدَّد آباء الكنيسة الأولون على هذه الضرورة، عموماً. وبهذا الخصوص وُلد الانحراف العقيدي الأول في شأن النعمة.

لقد نشر راهب من الجزر البريطانية يدعى مورغان (أي باللغة السلتية "رجل البحر"، وهو تعبير تُرجم إلى اليونانية فصار "بيلاج" Pélage)، استقر في روما حيث كان يتميز بحياته المتقشفة، نشر، في بداية القرن الخامس، عقيدة ابتداعية تتعلق بالنعمة. ثم جاب، مع تلميذه سيلستيوس، افريقيا الشمالية حيث كسب العديد من المتنصرين، على الرغم من المعارضة الشديدة للقديس أغسطينس، أسقف هيبون المجيد. وقد استحصل هذا الأخير من البابا إينوسان الأول، في العام 417، على إلقاء الحرم على بيلاج وسيلستيوس؛ وقد دعم بابا جديد، هو البابا زوزيم، المحكوم عليهما أولاً، ثم وافق على قرارات مجمع انعقد في قرطاجة في العام 418 عبّر في تسعة قوانين كنسية عن موقف صارم ضد الهرطقة البيلاجية. وقد ساندت السلطة المدنية جهود الكنيسة، وحكم قرار اتخذه الامبراطور أونوريوس على المنشقين بالنفي ومصادرة املاكهم. ولكن ذلك لم يؤد إلى زوال البيلاجية، التي إذا كانت قد صمدت حتى نهاية القرن الخامس، فلقد تم ذلك بشكل أقل جذرية، ومن هنا اسم النصف – بيلاجية الذي أعطي لها احياناً.

لما كان بيلاج متقشفاً في عاداته، فقد احتج على عقيدة النعمة الرسمية، التي وجدها متساهلة مع نقاط ضعفنا، لأنها تضعف في ذاتنا الشعور بمسؤولينا وتجعل منا " لعُبَاً بين يدي الله". وفي رأيه ان الانسان خلق حراً، ويمكنه إذاً، بإرادته، أن يرتكب الشر أو يتحاشاه. فالحرية البشرية ميزان لا

يمكن أن تحرك كفتيه المتوازنتين تماماً إلا الإرادة. ويمكن الانسان أن يعيش إذاً من دون الوقوع في الخطيئة الأصلية. وغلطة آدم لم تسئ إلا إليه وحده، لا إلى الجنس البشري، ويكون الأطفال عند ولادتهم في حالة آدم نفسها في لحظة الخلق. لذا ليس للعماد، لدى البيلاجيين، نتيجة هي غفران الخطايا (التي يكون الطفل براءً منها)، وليس له قيمة إلا تقديسه في يسوع ذلك الذي يتلقاه.

كانت الهرطقة تلغي مفهوم الفداء مستقيم الرأي، زاعمة أنه اذا كان في وسع الافراد ان يكونوا بحاجة الى الفداء، فالطبيعة البشرية لا تحتاج لذلك، لأنها لم تكن ساقطة في أبينا الأول. واذا كان بعض انصار بيلاج قد انكروا ضرورة النعمة، فهو كان يريد التسليم بها حقاً، ولكن هذه النعمة لم تكن، بالنسبة إليه، نعمة سابقة وداخلية، كما تعلّم الكنيسة؛ لم تكن غير العون الخارجي الذي يقدمه لنا الدين، ويوجه أخص مثال يسوع المسيح. وقد بيَّن القديس اغسطينس كل هذه الانحرافات العقيدية في عدة بحوث جعلته يستحق لقب "حبر النعمة": لقد دافع فيها عن وجود النعمة، وضرورتها، وكونها فوق الطبيعة، وتوافقها مع الحرية البشرية.

## البريسيليانية

لقد كان مصير مبتدع الهرطقة الإسباني بريسيليانوس فريداً. فبعد أن عُيِّن أسقفاً لمدينة أفيلا بفضل مواهبه الخطابية وتقشفه، أسس جمعية مُطلَعين على أسرار الديانة مدَّت شبكتها لتشمل جزءاً من اسبانيا والأكيتان. إلا أن الآراء الابتداعية التي كان قد أوحى بها إلى أتباعه أدانها مجمع انعقد

في بوردو، في العام 384؛ فاعترض أمام الإمبراطور مكسيموس، الذي كان يقيم في مدينة تريف؛ وقد استُقدم إلى هذه المدينة وبما أنه جرى الاقتناع فضلاً عن اقترافه الهرطقة بأنه مسؤول أيضاً عن رُقى مؤذية وأفعال لا أخلاقية، فقد جرى إعدامه هو وستة من تلامذته. إلا أن بريسيليانوس، الذي أعاد بعض المؤمنين بتعاليمه جثمانه إلى إسبانيا، كُرِّم فيها كشهيد للإيمان. وقد تردد مجمع انعقد في طليطلة في العام 400 في إدانة أتباع هذه الهرطقة، وسوف يتم انتظار مجمع براغا، الذي اجتمع في العام 563، للاستحصال على إدانة البريسيليانية نهائياً.

إن العقيدة البريسيليانية تبقى بالنسبة إلينا غامضة بقدر ما كانت سرية. ويبدو أنها دمجت بين الثنوية المانوية والغنوصية والسابيليوسية والدوسيتية. فلقد كانت تشجب الزواج وتنصح بالتقشف والزهد. وكانت ترى أن الشياطين والأبالسة هم الذين يكوِّنون جسم الطفل في أحشاء الأم، في حين أن النفوس البشرية تنبثق من الجوهر الإلهي. وعلى غرار مونتان كان بريسيليانوس يعتبر أن في وسع كل واحد أن يتنبأ، فالله الذي يقيم، بحسب رأيه، في قلب الإنسان المتديِّن، يتكلم أيضاً مخاطباً مختاريه.

### هرطقات متعلقة بالنظام

لقد قلنا، في مقدمتنا، كلمة عن الدوناتية التي جرى اعتبارها في البداية انشقاقاً، ولكنها أُدينت في الأخير كهرطقة.

لقد أعطى شخصان يحملان اسم دونا (أو دوناتيوس) اسمهما لهذه

الحركة. والأول، وكان مطراناً للكازنوار[1] في أفريقيا حين انتهت أعمال الاضطهاد التي مارسها ديوقليسيانوس ضد المسيحيين (في العام 304)، اتهم مطران قرطاجة بإبداء الكثير من الرحمة حيال الإكليروس والعاميين الذين كانوا يلقّبون بالمسلّمين، لأنهم، بغية إنقاذ حياتهم، كانوا قد سلّموا الوثنيين الكتب المقدسة ليتولوا حرقها. وقد أدانه البابا، ثم مجمع آرل الذي كان قد دعا الإمبراطور قسطنطين إلى انعقاده في العام 314. أما دوناتيوس الثاني فانتخبه مطراناً لقرطاجة أولئك الذين كانوا يتبعون المبدأ الصارم الذي وضعه سَمِيُّه على صعيد النظام الكنسي، أي أولئك الذين اشترطوا عزل الأساقفة المذنبين بالعجز والضعف، وحتى عزل الكهنة الذين تولى هؤلاء سيامتهم، وكانوا يعيدون عمادة من سبق أن عمَّدهم المسلّمون. فلْنُضِفْ مع ذلك أنه تبيّن بنتيجة دراسات حديثة أن هذين الشخصين كانا شخصاً واحداً، وقد عمد الدوناتيون إلى "تثنية[2]" زعيمهم لتحرير ذكراه من التجاوزات التي طبعت بدايات الحركة.

لقد كانت المسألة التي قسمت الكنيسة الأفريقية هامة: هل تتوقف فعالية الوظيفة الكهنوتية على الصفات الشخصية للكاهن؟ وهل يمكن تحميل الكاهن مسؤولية الأخطاء التي ارتكبها الشخص الذي تولّى سيامته؟ لقد رأت الكنيسة الخطر ولأجل تفاديه استحصلت بسهولة على دعم الدولة ولا سيما أن الدوناتية حصلت، بسبب معارضتها لكبار رجال الإكليروس، على تعاطف الطبقات المضطَهدة، واتخذت هكذا طابع تمرد اجتماعي بالغ العنف. لقد كانت، فضلاً عن ذلك، تجلياً لنوع من "الانفصالية" الإفريقية ولتلك الطهرانية التي كان ترتليانوس مدافعاً شديد الحماس عنها. ولقد نفى الإمبراطور كونستان دوناتيوسَ القرطاجي، الذي كان قاوم مع ذلك، على

---

[1] اسمها الحرفي الأكواخ السوداء (م)

[2] أي جعله اثنين بدلاً من واحد (م)

امتداد ثلاثين عاماً، كلا السلطتين، المدنية والدينية. وقد تعرض أنصاره للاضطهاد والمذابح، ولكن بقي منهم ما يكفي بحيث توسعت الحركة، في عهد الإمبراطور يوليانوس، الذي كان قد أعاد إليهم حرية العبادة، لتشمل كل المقاطعة الإفريقية تقريباً. وقد كافحها القديس أغسطينوس طويلاً بكتاباته واستحصل على إدانتهم من جانب مجمع انعقد في قرطاجة في العام 411. وقد عاقبت قرارات إمبراطورية بقسوة بقايا هذه البدعة، التي استمرت، وإنْ في حالة من الخمول والضعف، في ظل الفانداليين[1]، وحتى بدء الفتح الإسلامي.

وقد تصدَّت بدعتان بصورة أخص لتجاوزات الإكليروس. والبدعة الأولى هي بدعة الأوديين، الذين سُمّوا هكذا نسبةً إلى محرِّضهم أودي القادم من بين النهرين، والذي نفاه الإمبراطور قسطنطين إلى سيتيا[2] في القرن الرابع. وكان الأوديون يمارسون صرامة شديدة في التقاليد والأعراف، ويحتفلون بالفصح في يوم واحد مع اليهود؛ وكانوا تجسيميين، أي أنهم كانوا يعطون الله جسماً، مع أحاسيس وأهواء. أما البدعة الثانية فكانت الفيجيلانسية، التي جسَّدت مقدّماً الحركات الإنجيلية التي ستظهر في أواخر القرون الوسطى. لقد احتج كاهن غاسكوني يدعى فيجيلانس على عبادة الصور والذخائر، وعلى العزوبية التي باتت تُطلب أكثر فأكثر من الكهنة، وعلى ترف الأحبار وفخامة الاحتفالات الدينية. وكان ينكر المعجزات وضرورة الصلاة للموتى. وقد قاتله القديس جيروم بعنف، وتوفي مغموراً في العام 420. وكان هرطوقيٌّ آخر يدعى جوفينيانوس، يؤكد أن الإفراط في النعمة الإلهية يسمح بكل التجاوزات؛ وكان ينكر عذرية مريم. وقد ألقى

(1) قبائل جرمانية اجتاحت فرنسا وإسبانيا في القرن الخامس واحتلت روما ونهبتها(م)

(2) منطقة بين نهري الدانوب والدون، شمالي البحر الأسود (م)

عليه الحرم مجمعٌ انعقد في روما في العام 390، بصفته "عدواً للحشمة، والصيام والعفة، وواحداً من أسياد الفسق". وكان القديس جيروم قد كتب له: "إن أنصارك هم المكتنزون، والمتغذّون جيداً، والمغتسلون بعناية. كل الأولاد الحلوين، وكل ذوي الشعر الأجعد، والشعر المسرَّح جيداً الذين ألحهم، كل هؤلاء هم قطيعك، أو بالأحرى كلهم يقبعون[2] بين خنازيرك".

فلنُشِر أيضاً إلى بدعة مثيرة للفضول، مع أنها مغمورة جداً، هي بدعة الأوشيتيين، أو المصاليين، (هاتان الكلمتان تعنيان "المصلّين" باليونانية وبالسريانية). فبما أنهم كانوا يستندون إلى نصيحة القديس بولس "صَلّوا بلا انقطاع"، كانوا يجتمعون في كنائس صغيرة يرددون فيها بلا توقّفٍ الصلاة الربانية بهدف أن يطردوا، بلعاب فمهم ومخاط أنفهم، الإبليس الذي كان وضعه في روحهم الشيطانُ، ابنُ الله البكر. أما المسيح فلم يكن، في نظرهم، إلا ابن الله الأصغر، وهي نظرية تذكّر بثنويَّة بعض الغنوصيين. لقد كانوا يرفضون سر العماد، فضلاً عن سر الزواج، وهذا ما جعلهم يُتَّهمون بالفجور. وقد حقق الأوشيتيون بعضَ النجاحات في آسيا الصغرى، ولكن أدانهم هم والنسطوريون، بصفة هراطقةٍ، المجمعُ المسكوني الثالث الذي انعقد في أفسس في العام 431. إلا أنه جرت الإشارة إلى استمرارهم في الوجود في القرنين السادس والسابع، وحتى في القرن التاسع.

---

[2] القباع، من قَبَع، هو صوت الخنازير (م)

# الفصل الثاني

## البدع الهرطوقية في القرون الوسطى

كانت الهرطقات الكبرى في القرون الأولى (الميلادية) قد هددت جدياً، بقوتها واتساعها، وحدة الكنيسة. وقد تمكنت هذه الأخيرة، وإن بمشقة، من إخضاعها، لتتمتع مذاك براحة نسبية. فمن القرن الخامس إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أي حتى العصيانات التي أثارها ويكلف وجان هوس، لم تتعرض سلطة الكنيسة يوماً، على الأقل في الغرب، لهجمات شبيهة بتلك التي درسناها للتو. لا بل يمكن القول – إذا استثنينا حرب الألبيين[1] (أو الألبيجيين) – إنها واجهت هراطقة أكثر مما بدعاً هرطوقية، وكان عليها أن تقاتل خصوماً معزولين أكثر مما قوات كبيرة العدد ومنظمة.

فعلى امتداد حوالى ألف سنة، كانت الكنيسة الرومانية "كاثوليكية" حقاً بالمعنى الاشتقاقي للكلمة، أي "جامعة"، وحتى بعد انشقاق الشرق الكبير، ظلت تدير بلا جدال كل أوروبا الجنوبية، والغربية، والوسطى والشمالية. كانت قد فرضت الإيمان في كل مكان ونظمت الآداب والسلوك. كانت "توتاليتارية" مقبولةً من الجميع تلغي الحدود، وإذا تم السفر سيراً على الأقدام أو على متن عربة، كانت المسافة بين البلدان المتنوعة أقل طولاً، من الناحية الأخلاقية، مما بواسطة طائراتنا اليوم. فالقديس غال، وكان راهباً إيرلندياً، نصَّر الألامان[2] السويسريين، والقديس توما الأكويني خضع

---

[1] بدعة الألبيين بدعة مانوية انتشرت منذ القرن الثاني عشر في جنوبي فرنسا، على مقربة من مدينة ألبي، وأمر البابا إينوسان الثالث بشن حرب صليبية ضدها (عام 1209)(م).

[2] قبائل جرمانية في القرن الثالث الميلادي(م).

لامتحان الدكتوراه[1] في باريس ودرّس هناك عشر سنوات؛ وتابع الإنكليزي روجر بيكون هناك أيضاً دروسه؛ وهَدى إنكليزيٌّ آخر إلى المسيحية سكان فنلندا البعيدة. وكانت لغة واحدة، هي اللاتينية، تستخدم لنقل الأفكار؛ ويمكن أستاذاً في اللاهوت أو في علم الكلام[2] أن يمارس التدريس سواء في جامعة بولونيا أو في جامعة أوكسفورد. وكان الحجاج يمضون في مجموعات، تضم أناساً من أمم شتى، على امتداد طرق لا تنتهي تفضي إلى سان جاك دو كومبوستيل في إسبانيا، أو إلى سانتا كازا دو لوريت، أو إلى المون سان ميشال.

وفوق سلطة الملوك المدنية، التي كانت تفسدها كثيراً عصيانات السادة الإقطاعيين الكبار الدائمة، كانت ترتفع سلطة البابا الروحية التي لا يجادل فيها أحد. فكل ملوك أوروبا كانوا يحترمونه ويلتمسون الحظوة لديه. وقد حصل ملك فرنسا منه على تسميته بصاحب الجلالة المسيحي جداً، وملك إسبانيا على لقب صاحب الجلالة الكاثوليكي جداً، وملك البرتغال على لقب صاحب الجلالة المخلص للغاية. أما من كانوا يحتقرون سلطان رئيس الكنيسة فكانوا يتعرضون لعقوبات تُرْهب رعاياهم: فروبير التقي ملك فرنسا تعرّض للحرم لأنه تزوج "عرَّابته"، وإمبراطور ألمانيا هنري الرابع، الذي رفض أن يتولى غريغوريوس السابع تنصيب أساقفة ممتلكاته، كان عليه أن يذهب إلى كانوسا فيركع في الثلج أمام البابا.

---

[1] المقصود بالدكتوراه هنا الدراسات العليا في اللاهوت. ولقب دكتور يُعطى لدارس اللاهوت الذي ينجز دراسات متميزة فيه وأبحاثاً لافتة.(م)

[2] أي العلم المدرسي، أو السكولاستيكا Scolastique، وذلك نسبة إلى مدارس العصر الوسيط وطريقتها في التعليم القائمة على التراث واستخدام القياس(م)

كانت الدولة تقدم من دون تحفظ خدمات السلطة المدنية لكنيسة كلية القدرة أخلاقياً. وإذا كان الملوك البرابرة الأوائل احتفظوا لبعض الوقت بأريوسية الذين هدوهم إلى المسيحية، فقد كان لخلفائهم، على غرار شارلمان، مستشارون من رجال الإكليروس الكاثوليك، وقد دافعوا مثله عن سلامة الإيمان. أما الهراطقة فعملوا بقسوة اتخذت أقصى الأشكال في إسبانيا، حيث رأينا الملك والملكة، في أيام محاكم التفتيش، يحضران الإعدامات بالحرق، ويرمزان بحضورهما، على ضوء المحارق، إلى التعاون الوثيق بين السلطتين.

ويمكن تصنيف الانحرافات التي تعرض لها الإيمان المسيحي في القرون الوسطى، بصورة إجمالية، في ثلاث مجموعات:

1- الهرطقات الدوغمائية (أو المتعلقة بمبادئ الإيمان) : البوغوميليون، والألبيجيون أو الكاتاريون، إلخ.

2- الهرطقات المناهضة للكهنوت، المرتبطة بأسماء كل من أرنو دو بريسيا، وترانشلان، وبيير دو بروي وإيون دو ليتول.

3- الهرطقات البيزنطية، التي يسمح طابعها الخاص بوضعها على حدة.

## البوغوميليون

تروي لنا وثيقة سلافونية[1] عائدة إلى نهاية القرن العاشر بعنوان ما قاله

[1] السلافونية لغة مصطنعة جرى تطويرها انطلاقاً من السلافية القديمة واستخدامها في العصور القديمة كلغة دينية وأدبية في روسيا، وصربيا وبلغاريا(م).

قُزْما أنه، في أيام بطرس قيصر بلغاريا، الذي مَلَك من العام 927 إلى العام 969، كان كاهنٌ يدعى بوغوميل (أو باللغة السلافية "حبيب الله") أول من نشر عقائد زائفة في بلغاريا. وهذا تقريباً كل ما نعرفه عن مبتدع هرطقة بقيت أفكاره على مدى قرون، وانتقل اسمه، بلعب على الكلمات طبيعي تماماً، إلى أتباع بدعة انتشرت في العديد من المقاطعات الأوروبية.

لقد نشر البوغوميليون عقيدتهم في بيزنطة بالذات، حيث جرى إحراق أحد قادتهم، بازيل البلغاري، حيّاً في ميدان الخيل، في العام 1118، بأمر من الإمبراطور ألكسيس كومنان. وفي عهد مانويل الأول، لعن سينودسٌ "أسقفين زائفين"، وحكم سينودس آخر على راهب يدعى نيفون بالانعزال[1]؛ وبما أن البطريرك كوم أتيكوس تضامن معه، جرى عزله في العام (1147) وجرى نشر سينوديكون (نص مجمعي) يشهِّر بالخطأ البوغوميلي. إلا أن البوغوميلية بقيت ناشطة، مع ذلك، وانتقلت من بيزنطة إلى الغرب، وحتى إلى جنوب فرنسا.

ونحن نعرف معتقدات البوغوموليين انطلاقاً من ما قاله قزما ومن مجموعة الإيمان الأورثوذكسي، وهو مؤلَّف كتبه الراهب أوتيم زيغابين، وكان لاهوتياً ملتحقاً ببلاط ألكسيس كومان. وبحسب ما قاله قزما، كان هؤلاء الهراطقة ثنويين وينسبون إلى الشيطان خلق العالم. كانوا يرفضون العهد القديم ولا يعطون عجائب المسيح غير معنى رمزي؛ وهم لم يكونوا يقبلون التعبد للعذراء، والأسرار، والصور؛ وكان ينبغي كره الصليب بوصفه أداة موت المسيح، وكانت الصلاة الربانية صلاتهم الوحيدة. ويضيف ما قاله قزما أنهم لم يكونوا يأكلون اللحم أو يشربون الخمر،

[1] عزل عن العالم الخارجي، يشبه السجن(م)

وأنهم كانوا يحتقرون الأغنياء والنبلاء ويرفضون طاعة الإمبراطور.

وإذا صدقنا زيغابين، فالبوغوميليون لم يكونوا ثنويّين بل وحدانيين، نظراً إلى أنهم لم يكونوا يسلّمون بوجود أكثر من شخص واحد في الله: كان الآب قد كوّن الابن بشكل الروح القدس، وهذا الأخير كان قد كوّن الرسل الإثني عشر. وكان هناك ابن آخر للآب يدعى شيطانئيل. ولما كان هذا الأخير قد تمرد على الله، فقد طرده هذا من السماء، ثم خلق العالم المرئي وعجن آدم من التراب والماء؛ والحال أنه لما كان بعض هذا الماء قد سال من إبهام آدم وقدمه، فقد ولدت الحية منه. وبناء على طلب شيطانئيل، نفخ الله الحياة في آدم وحواء، وكان أمكن الزوجين أن يعيشا سعيدين على الأرض لولا ان الحية أغرت حواء، التي ولدت قايين بنتيجة أعمالها. وتحت تأثير الغيرة، حذا آدم حذو الحية، فولدت حواء هابيل وشيت. وبعد مرور خمسة آلاف وخمسمئة عام، أرسل الله ابنه إلى العالم. وكلمة الله[1]، الذي دخل العذراءَ عبر أذنها[2]، اتخذ جسماً له فيها وخرج منها عبر الطريق عينها.أما العذراء فلم تعلم بذلك ووجدت الطفل في مغارة بيت لحم.

وبخصوص طقوس البوغوميليين، يروي زيغابين أن عمادهم – بواسطة الروح لا بواسطة الماء – كان نوعاً من الإطلاع على الدين، أو التنصير (أي الإدخال إلى النصرانية أو المسيحية). فبعد أن يعترف المرشّح ويعد أن يصلي

---

[1] أو الكلمة فقط وهي ترجمة الكلمة Verbe الفرنسية، وليست الكلمة نفسها التي تجيء تعريباً لـmot. وهي في الحالة الأخيرة مؤنثة، بينما في الحالة الأولى مذكرة، كما نرى في أول إنجيل يوحنا: "في البدء كان الكلمة، والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا(م)

[2] الأذن هي المدخل الطبيعي للكلمة: وثمة كلام من الفرض الكنسي (المردّ repons) في كتاب الزياح الروماني احتفظ بالصورة: نزل من السماء... ودخل أذن العذراء.

طويلاً، كان يجد إنجيل يوحنا وقد وُضع على رأسه، في حين كان يجري الابتهال إلى الروح القدس وتُتلى الصلاة الربانية. وخلال بعض الوقت، كان المرشح ينصرف إلى الصلاة والعفة، قبل أن يعمَّد مجدداً بواسطة الإنجيل. ومن كانوا يصبحون هكذا مختارين، يروي زيغابين باستهوال أن كلاً منهم كان يعتقد أنه بات يستحق لقب أم الله، لأن الروح القدس بات يسكن فيه؛ وأنهم كانوا يتبجحون بكونهم يرون بعينيهم هم الله الآب، وهو عجوزٌ ملتحٍ، والابن، وهو شاب يافع، والروح القدس، وهو فتىً لم تنبت لحيته بعد.

فلْنُضِفْ أنه يبدو أن البوغوميليين رفضوا الزواج، وهو ما يفسر كون أنّا كومنان، في المديح الذي كتبته لأبيها ألكسيس، تقول إنها بوصفها امرأة وأميرة، لا يمكنها أن تصف عاداتهم السافلة. ولكن هذا اتهامٌ لم يُمَلَّ يوماً — كما سبق أن رأينا وسوف نرى لاحقاً — من توجيهه للهراطقة، وإن كانوا لا يستحقونه.

لقد أعلن إيطالي يدعى رينيه ساكوني، حوالى العام 1230، أن الهرطقة البلغارية كانت ثنوية في البداية، ثم صارت وحدانية، وهو ما جعل التناقض المشار إليه أعلاه قابلاً للفهم. ويقول إيطالي آخر، هو مونيتا، إن الله آب أرسل، وفقاً "للسلافيين"، ثلاثة ملائكة إلى العالم، هم: العذراء، المسيح والقديس يوحنا. والمؤلف الوحيد الذي تمكن نسبته إلى البوغوميليين، مع بعض القناعة بصحة ذلك، هو ذلك الذي نسخه المسؤولون عن التفتيش في جنوبي فرنسا حاملاً العنوان التالي:

Hoc est secretum haereticorum de Concorezio[1] portatuim de

[1] كونكوريسو هي مدينة في لومبارديا كان المدعو نازير مطرانا كاتارياً عليها.

Bulgaria a Nazario suo episcopo plenum erroribus.[1]

إنه حوار بين القديس يوحنا الإنجيلي والمسيح حول بدايات العالم: كان الشيطان هو الأول بعد الله، قبل سقوطه، وكانت مريم ملاكاً مرسلاً إلى الأرض، وكان المسيح قد دخل فيها عبر الأذن؛ وللإنسان روح مقدسة بسبب الملائكة المحبوسين في داخله.

هذا وإذا كانت العقيدة البوغوميلية غير واضحة بالنسبة إلينا حتى الآن، فبإمكاننا مع ذلك أن نكتشف مصادرها، وهي التالية: تبنِّيّة بولس الساموراتي، وثنوية البوليسيانيين (بدعة شرقية سنتحدث عنها لاحقاً)، والدوسيتية، والغنوصية والمصلِّيّة، من دون أن نتمكن، بسبب افتقاد المعلومات الكافية، من تحديد الحصة الدقيقة لكل من هذه المساهمات في هرطقةٍ كان نشاطها سرِّياً تقريباً، على الأقل في الغرب.

إن البوغوميلية، التي أبصرت النور في بلغاريا، اكتسبت فيها طابع ديانة وطنية، حاظيةٍ حتى بحماية بعض ملوك ذلك البلد. لكن مجمعين للكنيسة البلغارية انعقدا في عامي 1350 و1353، أدانا هذه الهرطقة والبدع التي كانت ترتبط بها. ويمكن أن نشير، من بين هذه البدع، إلى واحدة كانت تنادي بعري أجدادنا الأولين وبالخصاء، وإلى أخرى كانت تكافح عبادة الأيقونات، وإلى ثالثة كانت تشجع أتباعها على ارتكاب الخطايا لأجل الاستمتاع بالنعمة الممنوحة للتائبين. في غضون ذلك، اجتاح الأتراك بلغاريا وباتت الديانة اليونانية الأورثوذكسية الحصن الوحيد للشعور الوطني. ولم تبق البوغوميلية حيَّة إلا في الأساطير التي تناقلتها إلى اليوم أجيال من الفلاحين.

---

[1] باللاتينية في النص (م).

في اندفاع الموجة البوغوميلية نحو الغرب، وصلت بادئ ذي بدء إلى صربيا. ومع أن مجمعاً وطنياً أدانها منذ نهاية القرن الثاني عشر، فقد بقيت هذه البدعة مع ذلك، وفي أواسط القرن الرابع عشر أصاب قانون الملك إتيان دوشان الهراطقة بغرامة مقدارها مئة قطعة ذهبية بالنسبة للنبلاء، وعشر قطع بالنسبة للعاميّين، بالإضافة إلى الجَلْد بالمقرعة. أما أولئك الذين كانوا يصرون على موقفهم، فكانوا يوسمون بالحديد المحمّى ويُنفون.

بعد صربيا، كانت البوسنة هي التي اهتدت إلى البوغوميلية، على الأقل جزئياً. لا بل إن ملكها، البان[1] كولان، اعترف بها كدين للدولة في العام 1199. وهو ما أقلق كثيراً الكرسي الرسولي، الذي كان عليه أن يناضل في تلك المناطق ضد الأورثوذكسية اليونانية؛ وقد استحصل البابا النشيط أينوسان الثالث، في العام 1203، من البان على الارتداد عن الهرطقة، والوعد بإعادة المذابح والصلبان، واستخدام القصاص والمناولة. وقد أبدى ابن كولان إتيان تسامحاً أكبر حيال رعاياه من الهراطقة، ولكن هؤلاء أطاحوه عام 1232 واستبدلوه بواحد من جماعتهم، المدعو نينوسلاف، الذي جعل البوغوميلية مجدداً ديناً للدولة. وهذه الهرطقة، التي تمددت إلى موانئ دلماسيا، بقيت موجودة في البوسنة حتى اجتياح الأتراك لهذا البلد (1463). وقد اهتدى نبلاء البلد إلى الإسلام، توخياً للمصلحة، ولحق بهم جمهور الشعب لاحقاً. ونعرف أن البوسنة بقيت إسلامية حتى أيامنا هذه. وقد كانت، على امتداد ثلاثة قرون أو أربعة، معقل البوغوميلية، استجابةً لغريزة البقاء الوطني أكثر مما بفعل القناعة الدينية، هي الواقعة آنذاك بين ضغط الصربيين الأورثوذكس وضغط الهنغاريين الكاثوليك.

---

[1] لقب لكبار الإقطاعيين في العديد من بلدان أوروبا الوسطى(م)

وغالباً ما تمت الإشارة إلى الهراطقة البوسنيين باسم الباتارينيين، وهو تعبير يطبقه مؤلّفو العصر الوسيط على أتباع بدع متنوعين من ذوي الاتجاه الثنوي، ولا سيما على الكاتاريين. ويبدو أن هذا الاسم يشتق من الكلمة اللاتينية **patera**، أو الكأس، أو من الكلمة الطليانية **patarri**، وهو اسمُ حيٍّ في ميلانو استقر فيه في القرن الحادي عشر المانويون القادمون من بلغاريا. ولنلاحظ في هذا الصدد أن كلمة **bulgare**، أو **boulgre** أو **bougre** كانت مرادفة تقريباً لهرطوقي، وأن كلمة **bougrerie**، في لغتنا القديمة، كانت تعني اللواط، وهو عيب كان يؤخذ على أتباع البدع التي من أصل شرقي.

## الكاتاريون

بعد البوسنة، كانت فرنسا هي التي شهدت الازدهار الأهم للعقائد الثنوية، وهي عقائد سوف تكون سبباً، في ما بعد، لاضطرابات دينية كبرى، سياسية واجتماعية، وسوف تفضي إلى خلق مؤسسةٍ مخصصةٍ تحديداً لمكافحة غير الامتثاليين، عنينا مؤسسة التفتيش.

إن كلمة **Cathare** تأتي من اليونانية **Catharos**، أي نقي، ويبدو أنها دلّت في البدء على "الكاملين" في بعض البدع الشرقية. وقد تسللت هذه الأخيرة إلى الغرب في عهود قديمة جداً، بأشكال متنوعة في كل حال. ففي أيام شارلمان، جرى عزل أسقف أو رجل، اسمه فيليكس، لأنه اعتنق التبنِّيَة واحتج على تجاوزات كبار رجال الإكليروس؛ وفي نهاية القرن العاشر، أبدى رئيس أساقفة رايمز، جيلبير دورِيَّاك، أفكاراً مانوية ورفض

العهد القديم؛ وفي العام 1022، عمد روبير التقي، في أورليان، إلى حرق بعض المؤمنين بـ"قوانين الصليب المقدس" الذين كانوا يدافعون عن أفكار ثنوية ودوسيتية[1] في آن معاً، وهم أحياء. وفي السنة عينها أُعدم "مانويون" في تولوز. وقد كانت العقائد الزائفة تدخل حتى إلى أسقفية أرّاس، بواسطة مُرْسلين قادمين من إيطاليا والبلقان أو بواسطة حجّاج عائدين من فلسطين وتلوثوا خلال عودتهم بآراء ابتداعية.

وفي العام 1147، عندما أتى البابا أوجين الثالث إلى فرنسا للدعوة إلى الحرب الصليبية الثانية، صُدِم بعدد الهراطقة الذين كانوا يملأون الجنوب وكلّف القديس برنار دو كليرفو بإعادتهم إلى كنف الكنيسة.وقد وعظ الراهب المشهور بالإيمان الحقيقي، ولكن من دون تحقيق الكثير من النجاح، على ما يبدو، في مناطق ألبي، حيث كان المنشقون كثيرين بوجه خاص. وكان ذلك هو السبب في إطلاق تسمية الألبيجيين، التي أُعطيت عموماً لكاتاريي الجنوب، مع أن مركزهم الرئيسي كان تولوز، في ما بعد.

لقد بلغت الهرطقة نمواً مهدِّداً في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وقد دعا البابا إسكندر الثالث، في العام 1163، إلى انعقادِ مجمع في تور، وأطلق بناء على طلب الملك لويس السابع اللعنة ضد هراطقة غاسكونيا ومنطقة تولوز. وبعد عامين، اجتمع أساقفة الجنوب في لومبيز لمناقشة المنشقين، لكن ممثل هؤلاء الأخيرين، أوليفييه، دافع عنهم ببلاغةٍ كانت من القوة بحيث لم تُتّخذ اي إجراءات ضدهم. حتى أنهم تمكنوا من عقد مجمع خاص بهم، في العام 1167، في سان فيليكس دو كارامان، بالقرب من تولوز. وقد كان حاضراً ثلاثة أساقفة، واحد من ألبي واثنان من

(1) يبدو أن تلك كانت المحرقة الأولى التي أشعلها الكفاح ضد الهرطقة.

إيطاليا، في حين كان رئيس المجمع يونانياً من القسطنطينية، يدعى نيكيتا أو نيسيتا. وبما أن اليوناني كان ثنوياً مقتنعاً، انتقد الاتجاه الواحداني لبعض إخوته الفرنسيين في الدين، ثم كرَّس ثلاثة أساقفة لمقرات كل من تولوز، وكاركاسون وفال داران.

وقد سيطرت تلك الهرطقة في اللانغدوك[1] انطلاقاً من مجمع سان فيليكس. وقد كانت تلك المقاطعة كاتارية بصورة شبه كاملة على امتداد نصف قرن، ولم تستعدها الكنيسة الرومانية إلا بعد حرب حقيقية. فالانشقاق كان قد كسب لصالحه، بالإضافة إلى الجماهير الشعبية، السادة الاقطاعيين أيضاً، الذين أحسوا بالغيرة بسبب الممتلكات الواسعة التي أعطيت لرؤساء الأساقفة والأساقفة. وقد شجع انتشاره واقع أن البابوية كانت في صراع آنذاك مع الإمبراطور فريدريك بربروسه، وأن ملوك فرنسا وانكلترا كانوا في صراع في ما بينهم، وأن ملك إسبانيا لم يكن قد تمكن بعد من الإجهاز على المغاربة[2]. وعلى الرغم من العناصر الغنوصية في الكاتارية، وبسبب طابعها المناهض للإكليروس، كانت عقيدة شعبية، وقد جعل منها حماس الجماهير ومصالح النبلاء الهرطقة الأقوى التي حدث أن وُجدت منذ زمن الأريوسية الذي بات بعيداً.

وهذه العقيدة معروفة لدينا بالتفصيل، بفضل محاضر محاكم التفتيش، وبفضل "كتاب طقوس ليون"، باللغة البروفانسالية، و"كتاب طقوس فلورنسا"، باللاتينية. وقد كانت تنقسم إلى اتجاهين: الاتجاه الأول، .وهو

---

[1] مقاطعة فرنسية قديمة كانت تمتد جنوبي الغويانا وشمالي روسّيون، وعاصمتها تولوز. وهي تضم حالياً، من الناحية الإدارية كلاً من المحافظات التالية: أود، وغار، وهيرو، ولوزير، والبيرنيه الشرقية(م)

[2] المقصود العرب والبربر الذين احتلوا إسبانيا حتى أواخر القرن الخامس عشر(م).

ثنوي تماماً، كان يعتبر الشيطان باقياً إلى الأبد؛ والثاني، وهو وحداني بالأحرى، كان يقول إن الشيطان، وهو ملاك ساقط، سيجري القضاء عليه ما أن ينتهي العالم المادي. وكان بعض أفراد هذه البدعة يعلّمون أن الأرض خليقة الشيطان بالكامل، بينما يعلّم آخرون أن الشيطان استخدم مواد موجودة سلفاً. وكان البعض يعلّمون أنه إذا كان الشيطان سجن النفوس في عالمه، فلأن الله كان قد وافق على ما خلقه؛ بينما يرى آخرون أن الشيطان كان قد احتجز ملاكاً ساقطاً في جسدي آدم وحواء، اللذين ورث أولادهما هكذا شرارة من الألوهة. لقد أنتج الناسَ الإلهُ الطيِّب، خالقُ الأرواح، والإله الشرير، خالق المادة: هنالك تعارض لا يُقهَر بين جسدهم، اللباس الذي من وحل، ونفسهم، وهي أسيرة متأوهة على الأرض.

وكأثرٍ باقٍ من الغنوصية، تربط سلسلةُ أيوناتِ اللهَ بالعالم المادي؛ فلقد انبثق الروح القدس من الله لأجل تقطير الألوهة في المخلوقات؛ أما الإبن فهو رئيس الأيونات، جرى إرساله إلى الأرض لمكافحة الشيطان وتحرير النار الإلهية الأسيرة في المخلوقات، ولكن جسده ليس سوى ظاهر. ولقد كانت العذراء بالنسبة للبعض رمزاً للكنيسة، وبالنسبة لغيرهم أيوناً مرَّ عبره الإبن، وبالنسبة لآخرين مجرد امرأة كان المسيح — الأيون قد اختارها للدخول إلى عالم المادة (عبر المرور بأذنها والخروج منها). ومن بيت لحم إلى الجلجلة، ليست حياة المسيح سوى سراب، وهي لا تنطوي لا على وحدة أقنومية ولا على تضحية إلهية.

وبالتوافق مع التراث الغنوصي، أيضاً وأيضاً، كان الكاتاريون يَحْذَرون العهد القديم، ويماهون يهوه مع الشيطان ويسمون إبراهيم وموسى "ابني

الشيطان". وفي الكتاب الذي ألفه بيار دو فو – سيرني، بعنوان **Historia albigensis**[1]، يروى حتى أنهم كانوا يتعاملون مع إله إسرائيل على أنه قاتلٌ لكونه دمّر سدوم وعموره، وفرعون وجيوشه. ولكنهم كانوا يسلّمون بالأنبياء والمزامير، وكتب سليمان، لأنها تبشّر بالعهد الجديد. ومن هذا الأخير، كانوا يستبعدون مع ذلك يوحنا المعمدان، كنبيٍّ كاذب يعمّد بالماء، لا بالروح.

ويختفي (لديهم) الجحيم والمطهر، لأن العالم الأرضي هو ميدان الشيطان وفقط الجزء المادي من الإنسان سيبقى فيه، في حين أن نفسه ستصعد مجدداً، بصورة نهائية إلى العالم السماوي. ولأجل ذلك، على الإنسان أن يتطهر، أن يعيش مَطْهره في هذه الدنيا. لقد كان الكاتاري المثالي يعيش العفة المطلقة؛ لم يكن يأكل اللحم لأن هذا الأخير يمكن أن يتضمن شذرة من نفسٍ بقيت مرتبطة بالأرض وانتقلت بالتقمص إلى جسم حيوان؛ وكان يرفض الزواج وإنجاب الأولاد، لأن ذلك قد يعني توسيع مملكة الشيطان وأن تُسجن في مادة نجسة نفوسٌ كانت تعيش هانئة في السماء. كانوا يقولون **Matrimonium est lupanar**[2]، وكان ينبغي تحاشي الاحتكاك حتى بأداة التناسل: "إذا لمستك امرأة، عليك أن تصوم ثلاثة أيام على الخبز والماء، وإذا لمستَ امرأة، عليك القيام بذلك لمدة تسعة أيام". وكانت إحدى طهرانيات البدعة قد نصحت امرأة تاجر خشب من تولوز في وضع الحمْل بما يلي: "صلي لله كي يخلصك من الشيطان الذي في أحشائك". ويضيف فو – سيرني أن الألبيجيين كانوا يعتبرون أنه لا يمكن

---

[1] تاريخ الألبيجيين(م)

[2] الزواج بيت دعارة(م)

اقتراف خطايا عن طريق قسم من الجسم يقع تحت السرة؛ في كل حال، يبدو أن الكثير من هؤلاء الهراطقة فضلوا الفسق على الزواج واستحقوا أحياناً تجريمهم بـ"السدومية، أو اللواط".

لقد كان "كاملو" البدعة طهرانيين مطلقين. أما الآخرون، أي "المؤمنون"، فكانوا معفيين من واجب الامتناع عن الزواج وعن الملكية. إلا أنهم كانوا يتعهدون، خلال احتفال يدعى **Convenientia**، بتكريم "الكاملين" (الذين كانوا يسمونهم عادة "الأناس الطيبين") وبوضع أنفسهم دائماً في تصرفهم، ولقاء ذلك كان في وسعهم أن يتطلعوا، وهم على سرير موتهم أو حتى قبل ذلك، إلى الـ**Consolamentum** التي تمنحهم درجة "الكمال".

وثمة كتاب طقوس كاثاري خاص بمدينة ليون، بقي لنا، يعطي تفاصيل هذا الطقس الأسمى، الذي هو إطلاع على الدين، واعتراف، واعتناق، وسيامة في آن معاً. وقد كان الاحتفال يبدأ بالـ**Servitium**، أو الاعتراف الجماعي الذي يقوم به جميع الحضور؛ ثم يجلس المرشح أمام طاولة وُضع عليها الإنجيل، ويجيب عن الأسئلة التي يطرحها عميد "الكاملين"؛ على سبيل المثال: "إذا أردت، أيها الصديق، أن تكون واحداً منا، عليك أن تتخلى عن كل إيمان كنيسة روما. — أتخلى عنه — هل تتخلى عن هذا الصليب الذي صنعه لك الكاهن مع مَيْرون العماد على الصدر، والرأس والكتفين؟ - أتخلى عنه. — هل تؤمن بأن ماء العماد يعمل لأجل الخلاص؟ - كلا، لا أؤمن بذلك". ثم كان يجري الانتقال إلى الـ**melioramentum**، الذي كان يتمثّل بالنسبة للمرشح باتهام نفسه بكل الخطايا المقترفة. وقد كان العميد يسلمه بعدئذ الإنجيل ويؤنّبه تأنيباً طويلاً باللغة العامية، ثم كان الإثنان يتلوان معاً الصلاة الربانية، وهي صلاة كان

العضو الجديد يتعهد بتلاوتها دائماً قبل الأكل والشرب؛ وأخيراً، كان يتلو، هو و"الكامل"، الصلاة الربانية ست عشرة مرة، وينفذ ما كانوا يسمونه الـvenia، أي الركوع المعبِّر عن التوبة. وتجدر الإشارة إلى أن كلمتي "الخبز اليومي" في الصلاة الربانية كان يحل محلهما "الخبز ما فوق الجوهري". ثم كان يأتي الـConsolamentum بالذات، وهو أولاً حوار بين "الكاملين" والمتنصِّر الجديد، ثم تعهُّد هذا الأخير بالتخلي عن أكل اللحم والبيض، وعن الكذب، والقَسَم، والفسق، وبألا يرتدَّ عن الإيمان الكاتاري، وإن تعرّض للتهديد بالموت. وبعد عظةٍ طويلة يلقيها "الكامل"، يردد المرشح الـmelioramentumy الخاص به، ويركع أمام "الكامل" الذي يضع على رأسه الإنجيل المفتوح، فيما يضع باقي "الكاملين" يدهم اليمنى، وهم يتلون بعض الصلوات، التي كان يرددها كل الحاضرين قبل تبادل قبلة السلام التي تضع حداً للاحتفال. وكان المتنصر الجديد يرتدي عندئذ لباس البدعة الأسود، الذي كان في وسعه استبداله، في زمن الاضطهاد، بحبل من الصوف الأسود يعقده الرجال على قميصهم، بينما ترتديه النساء ملاصقاً للجسد.

كان طقس التنصير المسمَّى Consolamentum متماثلاً بالنسبة لكلا الجنسين، مع فرق واحد هو أن "الكاملين" كانوا يتحاشون، خلال الاحتفال، لمس المرشحة الأنثى، و"الكاملات" لمس المرشح الذكر. أما بالنسبة للمحتَضَرين، فكان يجري تبسيط الاحتفال وتقصيره.

كانت تتضمن العبادة بوجه الحصر لدى الكاتاريين ما يلي: المأدبة الطقسية، التي يقوم خلالها "كامل" بمباركة الخبز وتقسيمه على الحاضرين؛ والـmelioramentum، وهو فرض شهري يتمثل في الاعتراف العام

(بالخطايا)، وتليه ثلاثة أيام من الصيام مع مئة **veniae** (أي ركعة). وكان كل احتفال ينتهي بقبلة السلام التي يتبادلها الحضور على الخدين. إلا أن "الكامل" لم يكن يلمس امرأة إطلاقاً، بل كان يعطيها الإنجيل لتقبّله بعد أن يكون قبّله سلفاً. والأمر نفسه كانت تفعله "الكاملات" مع الرجال.

ولقد كانت عادة رهيبة، مع أنها استثنائية، تجبر "كاملا"، راغباً في الوصول بالعقيدة المتشائمة الخاصة بالبدعة إلى حدها الأقصى المنطقي، على ترك نفسه يموت جوعاً، أو تجرُّع السم أو قطع أوردته. وكانت هذه الممارسة تسمى **endura**. وتذكر الوثائق أن المرأة جانتيليس توفيت بعد ستة أيام من الصيام المطلق؛ وأن المدعو غْوِيُوم ساباتييه لم يمت إلا بعد سبعة أسابيع من الصيام عن كل شيء إلا الماء؛ وقد عرّضت غْوِيُومات التي من تولوز نفسها للفصد مراراً، وابتلعت نباتات سامة، وخلصت إلى ابتلاع الزجاج الذي ثقب أحشائها. وقد تلقت إحدى الأمهات من "كامل" الأمر بحجب الطعام تماماً عن ابنتها، فقالت: "ولكن إذا طلبت أن تأكل لن يكون لي قلبٌ للرفض". فرد "الكامل" قائلاً: احترسي من ذلك تماماً، فقد يعني العمل ضد روحها".

ونحن نرى كم كان هامّاً الدور الذي يلعبه "الكاملون" في الجمعيات الدينية الكاتارية. لقد كانوا أكثر من كهنة، وكانوا يملكون في ذاتهم الروح القدس، وبصفتهم هذه، كانوا موضوع عبادة حقيقية من جانب المؤمنين البسطاء. فلقد اصطحبت وصيفة شرف لكونتة تولوز معها إلى روما "كاملاً" لكي تستمتع بالعمل الخارق للقدسيات المتمثل بعبادته في مُصَلّى البابا بالذات. ولقد كان "الكاملون"، رجالاً ونساءً، يرتدون ثوباً أسود، ويمشون حفاة، ويحملون كيساً من الجلد يحتوي الإنجيل. وكانوا يعيشون أحياناً في

جماعات، يَسدّون رمقهم ويلبون حاجاتهم معتمدين في ذلك على أعمال البر من جانب "المؤمنين" أو كانوا يجوبون البلاد واعظين ومانحين الـ[1] **Consolamentum in extremis** للمحتضرين. وكان هذا السر يُمنح أحياناً لأقوياء العالم؛ هكذا تلقت ايسكلارموند دو فوا، عام 1205، الـ**Consolamentum in sanitate**[2]، بحضور أخيها الكونت ريمون – روجيه وكل نبلاء البلاد.

لقد كانت الكنيسة الكاتارية منظّمة بقوة. فبالإضافة إلى "الكاملين" كان هنالك الأساقفة، الذين يبدو أنه لم تكن لهم غير وظائف إدارية؛ وكان يساعدهم عدد من الشمامسة. لا بل تتحدث وثائق من تلك الفترة عن بابا كاتاري يقيم في بلغاريا، ولكن يبدو أن هنالك مجرد خلط مع كلمة **pope** التي تعني الكاهن بالبلغارية، تماماً كما بالروسية. وكانت الجماعة الكاتارية تدعي أنها وحدها كنيسة يسوع المسيح، بينما كنيسة روما هي "أم أعمال الفسق" و"بابل الكبرى"، و"كاتدرائية الشيطان".

## الكفاح ضد الكاتارية وحرب الألبيجيين الصليبية

لقد حاولت الكنيسة الرومانية في البدء أن تقضي بالإقناع على هرطقة كانت قوتها ناجمة عن حماس الجماهير ودعم طبقة نبلاء غنية ومثقفة.

ولقد رأينا أعلاه المحاولات الأولى التي قام بها في هذا الصّدد كل من البابا أوجين الثالث والبابا إسكندر الثالث. وفي العام 1178، أرسل هذا

---

[1] التصير قبل الوفاة(م)

[2] التصير في وضع الصحة(م)

الأخير إلى تولوز بعثة يقودها عالمُ دينٍ سيسترسي[1]، هو الكاردينال بيار دو سان – كريزوغون، وتضم رئيس أساقفة بورج وأسقف بواتييه. وقد استقبل ريمون الخامس كونت تولوز الكاردينال بصورة لائقة، ولكن عامة الناس هتفوا ضده في الشوارع فاضطر لمغادرة المدينة بسرعة من دون الاستحصال على الشيء الكثير. وفي السنة التالية، خلال انعقاد مجمع لاتران، أدان اسكندر الثالث عقائد "الكاتاريين"، أكانوا باتريين أو بوبليكانيين[2]"، الذين "بلغوا في غاسكونيا، والألبيجوا، ومنطقة تولوز واماكن أخرى، درجة عالية من الانحراف، بحيث لم يعودوا يمارسون الشر خِفْيةً، بل علانية، مجتذبين نحوهم البسطاء والمرضى". ثم أرسل البابا إلى جنوبي فرنسا بعثة جديدة كلّف بقيادتها هنري دو كليرفو الذي كان قد وعظ على امتداد سنوات عديدة في أنحاء اللانغدوك، ولكن من دون الكثير من النجاح. وفي العام 1195، أصبح ريمون السادس كونت تولوز وحَمى الهراطقة علانية؛ وكان يُرى كهنةٌ رؤساء أديرة ينتمون إلى عائلات كاتارية. أما خوارنة القرى فكانوا يبدون، بالطبع، قليلي الاهتمام بالابقاء على الإيمان الحقيقي.

في أثناء ذلك، وُضع تاج البابوية على رأسٍ قادر ونشيط، هو رأس إينوسان الثالث. ومنذ السنة الثانية من بابويته (1199)، أرسل إلى ريمون السادس بعثة يقودها القاصد الرسولي بيار دو كاستلنو، وبعد مفاوضات طويلة، استحصل من الكونت على الوعد بوقف كل علاقة بالهراطقة. وقد

---

[1] منتسب إلى رهبانية سيتو Citeaux في منطقة الـCôte – d'or الفرنسية، وقد أدخل إليها القديس برنار إصلاحاً في العام 1113، هو الذي اتخذ تسمية سيتو، وجعل أعضاءها يوصفون بالسيسترسيين(م)

[2] يبدو أن تعبير "Publicains" أو "populicains"، الذي غالباً ما استخدم آنذاك للدلالة على أعضاء بدع كاتارية شتى، يشتق من اليونانية pavlikianoi، أو البوليسيانيين، وهو اسم بدعة سنتحدث عنها لاحقاً.

كانت التعليمات التي أعطاها لسفرائه، في البدايات، منوَّعة كفاية: "التأثير في بارونات اللانغدوك كي يساندوا الكنيسة ويُرهبوا الكفّار؛ إصلاح عادات الأساقفة، وإيقاظ حماسهم الديني، وإجبارهم على أن يطبقوا التشريع الخاص بالهرطقة؛ القيام أخيراً بحملة وعظ ومواصلة هذه الحملة من دون انقطاع بحيث يتم كسب الضالين مجدداً عن طريق البلاغة وحدها". إلا أنه بعد أن حاول مبعوثو البابا أن يفرضوا على كبار رجل الإكليروس المحليين الإصلاحات التي كان يتحدث عنها إينوسان الثالث، عاد سادة البلاد إلى الهرطقة بصورة جماعية، معتمدين على دعم أساقفتهم. وقد ألقى كاستلنو الحرم على ريمون السادس واستحصل على تثبيت البابا لهذا الحكم؛ وكان الحظر يمتد ليشمل "البيطار الذي يسمح لنفسه عن سابق علم ببيطرة أحصنته وأحصنة رجاله وجيشه". وقد زعم الكونت بأنه مستعد للتراجع، ورجا القاصد الرسولي أن يأتي لرؤيته في مقامه في سان جيل؛ فذهب كاستلنو إلى هناك، وبعد نقاش عاصف، ابتعد (عن المكان)؛ وفي الغد، اغتاله أحد عملاء ريمون (1208). ورداً على جريمة على هذه الدرجة من استباحة الحرمات، اعتقد البابا أنه لا يمكن فعل ما هو أقل من دعوة أمراء أوروبا لشن حرب صليبية على الهراطقة.

كان الملك فيليب – أوغست بحاجة لكل أتباعه من النبلاء في صراعه ضد الإنكليز، فتنصّل دائماً حتى ذلك الحين من إلحاحات البابا إينوسان الثالث، الذي كان يضغط عليه لأخذ موقف ضد إقطاعيي الجنوب الكبار، حماة الهرطقة. ولكنه لم يعد قادراً على التراجع هذه المرة، فلقد أثار اغتيال قاصد رسولي للبابا استنكار كل العالم المسيحي.

لقد كان فرسان شمالي فرنسا متحمسين بلا ريب للانتقام للكنيسة

المهدَّدة بالهرطقة والمرتدية الحداد بسبب جريمة لا مثيل لها، ولكن يمكن افتراض أن خماسهم لم يكن خِلْواً من حسابٍ ما: لقد كانت الحرب الصليبية التي يُطالبون بها أقرب مسافةً وأقل احتمالية من تلك التي كانوا يشنونها على قبر المسيح، وكانت تضع في متناول أيديهم الغليظة والجشعة مقاطعات خصبة وإقطاعات مزدهرة، ومناخاً ساحراً، وخمرة صهباء وسيدات أصيلات. وقد عثروا على قائد متوقد وماهر في شخص سيمون دو مونفور، وكان نبيلاً صغيراً من ليل دو فرانس أصبح دوق لايسستر حين اقترن بوريثة هذه العائلة الإنكليزية العريقة. كما أن قاصداً رسولياً جديداً، هو أرنو دو سيتو، أثار حماسهم أيضاً، وفي خريف 1208، تحركت كوكبة كبيرة من الفرسان للقيام بأشرس الحروب الأهلية التي يرويها تاريخ فرنسا.

دامت المرحلة الأولى من الصراع عشرين عاماً، من دون أن تصل إلى نهاية. فلقد كان بارونات الشمال يواجهون خصماً قوياً، ذلك أن أسياد اللانغدوك الكبار كانوا أغنياء وحاذقين، وكان النبلاء الصغار مخلصين لهم، والشعب منشداً بعمق إلى بدعته. وكان قصرا سيرفيان بالقرب من بيزييه، ومينيرفا بالقرب من ناربون حصنين منيعين؛ أما مدينة مونسيغور، في كونتية فوا، فكانت أصلب حصن للألبيجيين.

بيد أن ريمون السادس، كونت تولوز، أعلن استسلامه، بعد أن أرعبه الجهاز العسكري الذي كان يهدد ممتلكاته: أمام صيوان كنيسة سان ـ جيل، وعارياً حتى الوسط، جرى جلده بالمقارع قبل أن يتلقى الغفران؛ وبعد أن دخل الكنيسة، كان عليه أن يركع أمام قبر ضحيته، بيار دو كاستلنو. ولأجل ضمان تراجعه، كان عليه أن يرهن سبعة من أفضل مواقعه "للكنيسة الرومانية ولسيادة البابا". وقد انضم بادئ ذي بدء إلى جيش

الصليبيين، ثم مضى إلى روما؛ واستنح سيمون دو مونفور الفرصة ليستولي على أراضيه وعلى لقبه. وقد جرى الاستيلاء على بيزييه، أحد المراكز الرئيسية للهرطقة، ونهبها في العام 1209، في حين تم أعمال السيف من دون رحمة برقاب سكانها. وسقطت كاركاسون في السنة ذاتها، وعمد سيمون الجشع إلى ضم المدينتين، وكانتا ملكاً للكونت ريمون – روجيه دو فوا، إلى ممتلكاته. وفي السنة التالية، استسلمت قلعة مينرفا، وعلى الرغم من بنود الاستسلام، جرى ذبح المدافعين عنها بيد المرتزقة المنفلتين من عقالهم أو اندفعوا هم أنفسهم نحو المحرقة الكبرى التي أُعِدت لهم. أما البابا إينوسان الثالث، الذي كان استهجن في البدء الطريقة التي كان قاصده الرسولي يجيز بها أو حتى يشجع هذا القدر من الفظاعات، فخلَصَ إلى الرضوخ للقوة الظافرة للصليبيين، واعترف لهم في المجمع الذي انعقد في مونبلييه في العام 1211 بحقهم في استئصال الهرطقة بالحديد والنار.

وعلى غرار كل الحروب الصليبية، كانت الحرب على الألبيجيين تمزج القسوة، بالإيمان. وهاكم كيف وصف لنا بيار دو فو – سيرنيه استيلاء سيمون دو مونفور على مواساك، في العام 1212: "في لحظة الهجوم الحاسم، كان كل رجال الإكليروس، أساقفةً، ورهباناً، وكهنةً، بثياب الخدمة وحفاةً، وصليب الرب والذخائر المقدسة أمامهم، يقفون عند منحدر التلة التي تواجه القصر وهم ينشدون بحماس، وبصوت هادر، الـ**Veni Creator**[1]، ملتمسين النجدة من الأعالي. لم يتركهم البارقليط الإلهي، لأنه ما أن وصلوا إلى المقطع القائل **Hostem repellas longius**، والذي تكرر ثلاث مرات، حتى كان العدو المرتعب يترك المواقع المتقدمة،

[1] مجيء الخالق(م)

ويلجأ إلى قلب المدينة التي استسلم سكانها". ويصف لنا مؤرخون آخرون الفرسان الأعداء "المشنوقين على أشجار الزيتون المزهرة" والدم المراق إلى حد أن "عشب الحقول صار لأجل ذلك أحمر كشجيرة الورد"؛ ويهتف آخر: "بحبور يفوق الوصف، أحرق حُجّاجنا عدداً كبيراً من الهراطقة". إلا أن غضب الغزاة الشرس أفضى إلى إنعاش المقاومة. فريمون دو تولوز، الذي عاد من روما من دون أن يكون تائباً، وبيار ملك أراغون، وريمون روجيه دو فوا، جمعوا محاربيهم الذين بلغ تعدادهم قرابة مئة ألف رجل، والتقوا محاربي سيمون دو مونفور قرب قصر موريه وهُزموا شر هزيمة (عام 1213). وقد فرّ كونتا تولوز ودوفوا إلى غويانا الإنكليزية، وقُتل ملك أراغون في ساحة الوغى. وقد اعترف مجمع لاتران الجديد المنعقد في العام 1215 بكونتية تولوز لسيمون دو مونفور، ولكن هذا الأخير ألب ضده، بسبب قسوته وعنفه، مشاعر السكان، وأمكن ريمون السابع، ابن ريمون السادس، أن يعود إلى عاصمته مظفّراً. فحاول سيمون استعادة المدينة، ولكنه قُتل في العام 1218، أمام الأسوار بطلقة "منجنيق" كانت تشغّله نساء، وهي طلقة أصابته في جبينه وصرعته "دامياً وكالح السواد".

وقد استحصل خليفة إينوسان الثالث، هونوريوس الثالث، في العام 1226، على أن يقود الملك لويس الثامن بالذات حرباً صليبية ضد الألبيجيين. فاستؤنفت الحرب ثلاث سنوات وانتهت بخضوع ريمون السابع، الذي وقّع، في العام 1220، معاهدة باريس مع الملك الشاب لويس التاسع وأمه بلانش دوكاستيل. وقد انتهت المرحلة الأولى من الحرب الصليبية على الألبيجيين بركام من الخراب، ولم تُزلْ من الهرطقة إلا الناس الذين قضت عليهم عبثاً.

انطبعت المرحلة الثانية من الصراع بتجديدٍ هام على صعيد الصراع ضد

الهرطقة، تمثّل بخلق محاكم التفتيش. فمنذ عام 1184، كان البابا لوسيوس الثالث، عبر "دستور" فيرونا الذي وضعه، قد أوجب على المطارنة أن يختاروا، من الأبرشيات المشبوهة بانحرافات عقيدية، أناساً شرفاء يتعهدون بأن يبوحوا، بعد القسم، بأسماء الهراطقة، الذين ينبغي تسليمهم إلى السلطة المدنية، في حال تشبثهم بمواقفهم. إلا أنه لا هذه التدابير، ولا جهود إينوسان الثالث المثابرة، نجحت في وقف تقدم الكاتارية. لذا قرر مجمع انعقد في تولوز في العام 1229 أن يخلق في هذه المدينة محكمة يتم تكليفها، بمساعدة السلطة المدنية، بالبحث عن الهراطقة ومعاقبتهم. وقد نظّم البابا غريغوريوس التاسع التفتيش ووسّعه ليشمل كل العالم المسيحي، وذلك عبر قرارات ثلاثة تم إصدارها في السنوات التي تلت.

لقد كان الآباء الدومينيكيون هم من كلفتهم البابوية بخوض "مسألة الإيمان"، وبوجه أخص بمكافحة الهرطقة الكاتارية. وكان مؤسس رهبانيتهم، الاسباني دومينيك، أقام في اللانغدوك ووعظ هناك، في بداية القرن، جنباً إلى جنب مع القاصد الرسولي، بيار دو كاستلنو. وبسبب انصرافه بقلب متوقد لنشاطه الرسالي، رفض مطرانية بيزييه، التي عُرضت عليه وأسس بالقرب من تولوز أول دير للرهبانية التي حصلت في ما بعد على تأييد إينوسان الثالث لها، باسم الإخوة الواعظين. وهي رهبانية سوف تصبح مشهورة وتظهر من صفوفها شخصيات مميَّزة بصورة متنوعة كتوما الأكويني، وفرا أنجيليكو، وتوركيمادا.

ولا زال التفتيش إلى الآن موضوع نقاشات محتدمة. فلقد كان، في الواقع، تشريعاً لقساوةٍ شكلت طابع العصر، وجهداً لكي يُدخَل في إطار قانوني ذلك الحق الأعمى الذي كان يوحي به للشعب ارتداد غير

الامثاليين. ففي العام 1078 ، وبعد أن أدان مطران كامبري أحد الكاتاريين ، أمسك به الجمهور ومضى به إلى خارج المدينة حيث أحرقه. وفي العام 1114 اقتحم أهل بوفيه أبواب السجن وأضرموا النيران في الهراطقة الذين كانوا محتجزين فيه. وقد وردت حالات عديدة لأحبار حاولوا إنقاذ متهمين من الغضب الشعبي. وقد كان اللاهوتيون، من جهة ثانية، أبعد ما يكونون عن الاتفاق في هذا الصدد. فغيبير دو نوجان يرى في هذه الأحكام من دون محاكمة "الحماس العادل لشعب الله"، ولكن كثيرين غيره وقفوا ضد الإعدام الذي كان يتم تنفيذه بحق الهراطقة. وقد كتب القديس برنار بصدد "قضايا الدم": "إننا نؤيد حماس الشعب، لكننا لا نؤيد إطلاقاً ما فعله، لأن الإيمان يتم بالإقناع، وليس بالاضطهاد (fide suadenda, "non imponenda")؛ وهو لا يجيز ضد المتشبثين بموقفهم إلا إلقاء الحرم والسجن.

أما الملوك فكانوا أقل توسوساً وكانوا يعتقدون بأنهم يربحون السماء حين يعاملون الهراطقة بالشدة: ففي عام 1051، شنق الإمبراطور هنري الثالث عدة مانويين؛ وفي النص الذي كتبه غويوم لو بروتون، بعنوان الـ**Philippide**، يمتدح فيليب أوغوست لأنه أرسل الكاتاريين إلى المحرقة، التي هي "الشعور الأولي بنيران الجحيم". وقد عقد البابا إسكندر الثالث، الذي لجأ إلى فرنسا، مجمعاً في تور لم يأمر بأن يُستخدم ضد الهراطقة إلا السجن ومصادرة الأموال. لقد وجد التفتيش مخرجاً للمأزق الذي كان يصطدم به الدفاع عن الإيمان: بعد استنفاد كل وسائل الإقناع، كان يسلّم المعاند إلى السلطة المدنية. ومذاك، كانت البابوية والملكية تسيران متفقتين. فمجموعة القوانين المسماة مؤسسة الملك القديس لويس تحدِّد بوضوح النهاية التي ينبغي إعطاؤها لحالة هرطقة: "في تلك الحالة يجب أن تساعد

العدالة الزمنية الكنيسة المقدسة؛ لأنه حين تحكم الكنيسة المقدسة على أحدهم بأنه هرطوقي، عليها أن تتركه للعدالة الزمنية، وعلى العدالة الزمنية أن تقرر، لأنه لا ينبغي أن تنفذ العدالة الروحية الإعدام بأحد من الناس".

كان المحقق (في محاكم التفتيش)، بعد أن يتسلّم من البابا "رسائل تكليف"، يختار مقرّه، ثم يصدر "مرسوم إيمان" يجبر المؤمنين على كشف الهراطقة، و"مرسوم عفو" يمنح مهلة 15 إلى 30 يوماً للمذنبين كي يتراجعوا (عن هرطقتهم). وفي حال الرفض، هنالك السجن، والحرمان من الطعام، والتعذيب إذا اقتضى الأمر. بعد الاستحصال على الاعترافات بهذه الطريقة، كان المحقق، الذي يستعين بكتّاب وحقوقيين زمنيين، يصدر الحكم الذي كان يتم إعلانه خلال جمعية عامة تسمّى "الموعظة العامة". وكان التائبون، الراكعون، يجحدون قناعاتهم (الهرطوقية) ويدهم على الإنجيل، ويستمعون إلى قراءة العقوبات التي يتوجب عليهم تنفيذها: صلوات، صيام، هبات للكنائس، حج إلى روما، وسان جاك دو كومبوستيل، وسان توما دو كانتربري. وتضاف إلى هذه الأعمال الصالحة العقوبات المسمّاة **penitentiae confusibiles**: بعد أن يسمع الجاني القداس، حافياً وبالقميص، يجلده الكاهن؛ أو يكون عليه، لمدة من الزمن قد تطول أو تقصر، أن يحمل صليباً أحمر أو أصفر على ردائه، الأمر الذي يعرّضه لكل شتائم العامّة من الناس. فلنشِرْ أيضاً، من بين العقوبات إلى ما يلي: النفي، مصادرة الأملاك، "الاحتجاز الجسدي"، أو الحبس بمدى الحياة في زنزانة.

وأخيراً، فإن الهراطقة الذين رفضوا أي تراجع أو الذين سقطوا مجدداً في الخطأ والضلال، بعد أن كانوا جحدوا معتقداتهم — ونحن نقصد المتشبثين

والمرتدّين – أولئك الذين لم يعد في وسع الكنيسة أن تفعل شيئاً لهم، كانوا يسلّمون، وفقاً للصيغة المعتمدة، إلى السلطة المدنية ويصعدون إلى المحرقة. وقد كان الإمبراطور فريدريك الثاني أول من أصدر، في العام 1224، دستوراً لمنطقة لومبارديا يتم بموجبه الحكم على الكاتاريين بأن يُحرقوا. وبعد سبع سنوات، أقر غريغوريوس التاسع التدبير عينه في الولايات البابوية، واشتعلت المحارق في كل أنحاء إيطاليا. وقد برر القديس توما الأكويني هذه الفظاعات مدعياً أنه إذا كان يتم الحكم بالموت على مزوري العملة، فإن إفساد الإيمان أخطر بكثير من تزوير العملات.

في العام 1232 بالذات، أنشأ الدومينيكيون أولى محاكم التفتيش في تولوز، وألبي وناربون. وفي العام 1235، عُين البابا غريغوريوس التاسع في منصب محقق عام **per universum regimen Franciae** الدومينيكي روبير لو بوغر، الذي سُمّي هكذا لأنه كان كاتارياً هو ذاته سابقاً؛ وكانت الشراسة التي عامل بها إخوته السابقين في الدين قد بلغت حدّاً جعل البابا يعزله ويضعه في السجن. وفي منطقتي لانغدوك وغاسكونيا، أوقف المحققون آلاف المشبوهين، وعذبوا المئات منهم، وأحرقوا العشرات. إلا أن تشدد الرهبان الوحشي أدى إلى إنعاش الهرطقة. وكان العديد من النبلاء قد واصلوا حماية "الأناس الطيبين[1]"؛ وكان في المدن جماعات من "الكاملين" الذي يرسلون المرسلين إلى الأرياف، وكان مثال شهداء الإيمان الكاتاري يشجع مقاومة الكنيسة الكاثوليكية.

بيد أنه، بعد أن تردد كونت تولوز ريمون السابع طويلاً، أعلن عن نفسه، في الأخير، ابناً خاضعاً للبابا، وبما أن فريقاً من المونسيغوريين[2]

[1] المقصود بهذا التعبير من بقوا على إيمانهم الهرطوقي(م).

[2] نسبة إلى قلعة مونسيغور، أحد آخر حصون الألبيجيين وقد باتت مهدمة حالياً(م).

عمد في العام 1242 إلى قتل محققين كانوا قد جاؤوا لتولي مهمتهم في أفينيون، فقد أخذ على عاتقه هو شخصياً مطاردة الهراطقة. ومن جديد اشتعلت المحارق في كل مكان، ولم توفّر حتى النبلاء والنبيلات، من مثل روبير دو ميروبوا والشابة إيسكلارموند دو بيريل. ومن كانوا ينجحون في الإفلات من براثن التفتيش كانوا يلجأون إما إلى وديان البيرينيه العالية، أو إلى اللومبارديا أو حتى إلى البوسنة.

والحال أن قلعة مونسيغور كانت لا تزال صامدة. وقد كُلّف بالدفاع عنها سيّد بيريل المقدام وغيّوبير دو كاستر، أحد الأساقفة الكاتاريين الأكثر مدعاة للتوقير والاحترام. وحين بدا أنه لم يعد هنالك أي أمل، تلقى معظم المحاصَرين الـ**Consolamentum**، وتحت جنح الظلام في إحدى ليالي آذار/مارس 1238، نجح أربعة "كاملين" في الخروج من الأسوار آخذين معهم الكتب المقدسة وثروة كنيستهم. وفي اليوم التالي، استسلمت القلعة لكونت تولوز، فجرى دكّها والتهمت النيران حوالي مئتي "كامل".

بعد سقوط آخر حصون البدعة (الكاتارية)، انتقلت كلياً إلى ممارسة إيمانها في الخفاء. وعلى امتداد نصف قرن، بقي محققو (التفتيش) يفتشون المدن والأرياف، حارقين من يجدونهم من الهراطقة، أو ساجنين إياهم أو فارضين عليهم غرامات كبرى. وفي العام 1274، أمكنهم الإعلان عن أنه لم يعد هناك أسقف كاتاري واحد في مملكة فرنسا. فبالفعل، بات "المؤمنون" الراغبون في أن يصبحوا "كاملين" يُجبرون على الذهاب إلى إيطاليا للخضوع إلى الامتحان الطقسي. بيد أنه حوالى نهاية القرن، عاد أساقفة كاتاريون من لومبارديا وشعر الهراطقة بأنفسهم أقوياء إلى حد التمكن من طرد محققين من مدينتي بيزييه وكاركاسون. إلا أن النُبلاء المحليين

لم يعودوا يدعمون الحركة؛ كانوا يشعرون تماماً بأن هذه الأخيرة، سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الديني، كان لا بد من أن تخضع للاتجاه المركزي الذي سيضع حدّاً للإقطاع. وفي عهد فيليب الرابع، استؤنف[1] اضطهاد الألبيجيين وامتد حتى العام 1330. وفي ذلك العام، أشعلت آخر محرقة، واستؤصلت بذلك الهرطقة الكاتارية نهائياً من فرنسا[2].

إن نجاح الكاتارية زمناً طويلاً في جنوبي فرنسا يطرح مشكلة علم نفس إثني: كيف نفسر أن تكون مقاطعة تسهل فيها الحياة ويميل سكانها إلى المرح قد تحمست لعقيدةٍ نظريتُها متشائمةٌ إلى حد إدانة الحفاظ على النوع، وطقوسُها بسيطة وصارمة، وأخلاقها تميل إلى التقشف والزهد؟ كيف يمكن التوفيق بين رفاهية عيش التروبادور[3]، ومغازلاتهم و"معرفتهم البهيجة"، من جهة، والتعصُّب القاتم، من جهة أخرى، لأنصار بدعة يفضلون الموت على المحرقة على الارتداد عن معتقدهم؟ وهو تناقض لافت بوجه خاص لأننا نجده في أيام الإصلاح الديني، حين انضم جزء من اللانغدوك إلى البدعة البروتستانتية الأكثر صرامة وطهرانية، أي الكالفينية. ويمكن أن نفسِّر استمرار هذا "التحفظ" الديني بواقع أن جنوب فرنسا، الأكثر عراقة في تحضُّره من الوسط أو الشمال، كان يطيب له أن يبدي حيال باقي المملكة

---

(1) كان أحياناً من العنف بحيث أرسل البابا كليمان الخامس في العام 1306 كاردينالين لتخفيف حماس محققي كاركاسون وألبي. وقد زار هذان السجون التي كان الهراطقة يلدوون فيها، واستحصلا على أن يعامل هؤلاء بقسوة أقل.

(2) بقي تعبير كاتاري إلى اليوم في اللغة الألمانية (Ketzer)، وفي الهولندية (Ketter) للدلالة على أي هرطوقي إلى أي بدعة انتمى.

(3) التروبادور شعراء جوّالون غنائيون اشتهروا في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر(م)

استقلالاً فكرياً كان يمضي به عن قصد إلى حدوده القصوى.

هذه النزعة الانفصالية الدينية تميل اليوم[1] إلى الانبعاث، فضلاً عن ذلك. وهي تعبر عن نفسها بحركةٍ – ربما اصطناعية تقريباً – سبق ان أطلقها ديودا روشيه، الذي كتب في العام 1925: "ثمة تقليد نقله شعراؤنا بورع وحماس، وهو يرى أن الجنوب يستيقظ بعد نوم يدوم سبعة قرون. إن يقظة شعب كرس نفسه للروح يجب أن تكون انبعاثاً روحياً". وفي "مؤتمر الدراسات الكاثارية"، الذي انعقد في العام 1948 في أوسًا ـ ليه ـ بان، ـ في منطقة الكهوف التي كان يلجأ إليها الألبيجيون المضطَهَدون ـ جرى إعلان أن معرفة العقائد "المانوية الجديدة" هي بالنسبة لأهل الجنوب "أفضل طريقة للاتصال بالثوابت العميقة لعبقرية أهل الأوك[2]"؛ وأنه وسط الأهوال التي نعيشها، تستدعي مشكلة النشر البحث عن حل ثنوي؛ وأنه "يشرِّف جنوبي فرنسا أن يكون عرف كيف يستقبل، ضمن الغرب الهمجي، هذا النور الشرقي الخالص". هذا وإن التروبادور الفرحين يجري إلحاقهم هم بالذات بالكاثارية، لأنهم "كانوا يسعون"، عبر الشكل الجميل لنفس (المرأة) المختارة غير المادية، للألتحاق بتلك النفس". وهذا على الأقل ما يؤكده دفتر الدراسات الكاثارية، الذي يحمل العدد الاول منه تاريخ كانون الثاني/يناير – آذار/ مارس 1949. وهذه المجلة، التي أصدرها "معهد الدراسات الأوكسيتانية" في تولوز، سوف تهتم بشتى الجوانب التاريخية أو الحديثة للثنوية لكي "نعد أنفسنا ـ حسبما تقول ـ نحن وقراؤنا، لتلقين

---

[1] المقصودة هي الفترة التي صدر فيها هذا الكتاب، تحديداً، أي أواسط القرن السابق(م).

[2] من سكان فرنسا القديمة، وبالتحديد في الجنوب، الذي كان يتكلم سكانه لهجة خاصة بهم، هي ما كان يعرف بلغة الأوك، التي أعطت اسمها بالضبط لمنطقة اللانغدوك(م).

داخلي يحثنا جميعاً على التحقيق التدريجي لمثل أعلى إنساني ـ إلهي صرف". من جهة ثانية، تتجاوز الكاتارية الجديدة إطار الإقليمية الفكرية لأننا نجد في سيفر (Sèvres) فرع أخوية بيضاء، تأسست في بلغاريا لأجل الحفاظ على الإرث البوغوميلي.

## هرطقات أخرى متعلقة بمبادئ الإيمان

إذا استثنينا الكاتارية، قليلةٌ نسبياً هي الانحرافات عن العقيدة الكاثوليكية في القرون الوسطى. ونحن سوف نذكرها باختصار، لأنها أبعد ما تكون عن اكتساب أهمية الانشقاقات الكبرى للعصور المسيحية القديمة واتساعها.

حوالى نهاية القرن الثامن، عمد رئيس أساقفة طليطلة إيليبان (Elipand)، لأجل مكافحة انبعاثٍ إسباني للهرطقة السابليوسية القديمة، إلى بعث تبنيَّة النسطوريين؛ لقد أكد أنه يعترف بوحدة الشخص في المسيح، من دون أن يمنعه هذا من أن يميز فيه ذلك الذي خلق اللهُ به الأشياء المرئية، والذي هو ابنٌ بطبيعته، والذي إذ وُلد من العذراء فهو ابنٌ بالنعمة والتبنّي. وكما نرى، فالثنوية تأتي هنا لتعقّد التبنّيّة. ولقد دافع عن هرطقة إيليبان أسقفُ أورجيل، فيليكس، الذي عزّز فيها الاتجاه الثنوي. هذا وقد كافح ألكوين (Alcuin)، اللاهوتي المتفقه الذي كان مستشاراً لشارلمان، التبنّيّة الاسبانية، ليعود فيدينها مجمع فرانكفورت المنعقد في العام 794.

لقد ظهرت التبنّيّة مجدداً في القرن الثاني عشر وأفسحت في المجال أمام

مساجلات سكولاستيكية[1] كبرى. فمن دون أن يؤكد أبيلار الكبير رسمياً أن يسوع المسيح كان ابن الله بالتبني، راح يعلّم أن جسمه وروحه ليسا سوى لباس لكلمة الله (le verbe) أو أداة له، من دون أن يكونا واحداً معه. وكان يقول إن يسوع المسيح، بوصفه إنساناً، ليس واقعاً جوهرياً. وقد سمِّيت هذه العقيدة "عدميةً كريستولوجية" أو "نسطورية نصفية"؛ وتمت إدانتها في الأخير بقرار من البابا اسكندر الثالث في العام 1177. وسوف نتحدث مجدداً عن أبيلار في معرض الحديث عما سنسميه "الابتداعية السكولاستيكية".

وقد دافع أستاذ آخر من بين الأساتذة ذائعي الصيت في جامعة باريس، هو آموري دو بان Amaury de Bène، بعد وقت غير طويل، وبمهارة ديالكتيكية كبرى، عن نوع من الحلولية المسيحية: بما أن الله هو كينونة كل شيء، فكل الكائنات هي كائن واحد وكل الكائنات هي الله. وكان يضيف أن تمييز الجنسين ناجم عن الخطيئة الأصلية؛ وأنه، لولا الخطيئة، لكان الناس تكاثروا بصورة فائقة للطبيعة كالملائكة، وأن الجنسين سوف يجتمعان مجدداً بعد القيامة. وقد توفي أموري في العام 1205، ولكن تلامذته، المدعوين ألماريسيين، طوروا عقيدته وبنوا، بوجه خاص، نظرية مثيرة للفضول عن الثالوث: في الأصل، تصرَّف الآب، المتجسد في إبراهيم، لوحده في العالم؛ ثم تجسد الإبن في المسيح، الذي ليس الله بقدر ما لم يكن ابراهيم الله، هو أيضاً؛ وأخيراً، يتجسد الروح القدس في كل من المسيحيين

---

[1] من كلمة سخولا (أو مدرسة) اليونانية، وتتعلق بمدارس العصر الوسيط وطريقة تعليمها المؤسسة على التراث واستخدام القياس. كما تعني أيضاً أي عقيدة دوغمائية ومتحجرة. وسوف نستخدم كلمة "سكولاستيكي" في تعريب الصفة، على أن نستخدم "علم الكلام" في تعريب الاسم (م).

المتألهين حلولياً. لذا فإن الأسرار غير مجدية والكنيسة بالذات يجب أن تزول. وقد أدان الأماريسيين مجمعٌ انعقد في باريس في العام 1210 : جرى نبش جثمان آموري والإلقاء به في تربة غير مباركة ، وأُحرق العديد من الهراطقة في الساحة العامة بالقرب من مقبرة الأبرياء.

وفي القرن الثالث عشر تم اعتناق حلولية أكثر إطلاقاً ، وذلك من جانب بدعة ألمانية تدعى بدعة إخوة الروح الحرة: بما أن الإنسان يملك نفساً مستمدة من جوهر الله وهي بالتالي أبدية ، يمكنه أن يصبح هو نفسه الله ؛ هو مساوٍ للمسيح وليس مضطراً لتوقير الله ؛ كل ما يفعله الإنسان قرره الله ؛ والخطيئة ليست خطيئة ؛ وكل إنسان متحد بالله يمكنه أن يُشبع بلا تحفظ شهواتِ جسده. وهذه البدعة ، التي أبصرت النور في سواب[1] ، يبدو أنها انبثقت من تلك التي كان قد أسسها أورتليب دو ستراسبور عن طريق تطوير أفكار الأماريسيين. وقد انتشرت في ألمانيا ، وهولندا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، ولكن بما أنها كانت مضطرة ، بحكم عاداتها وممارساتها ، للحفاظ على أقصى السرية ، لا تزال تقلبات تاريخها غامضة بالنسبة إلينا. وغالباً ما جرى اضطهاد طوائف المتصوفين الابتداعيين لأنها آمنت بهرطقة الروح الحرة.

وفي السياق الفكري عينه ، نشرت بدعة أناس العقل ، التي ظهرت في بروكسل في نهاية القرن الرابع عشر ، عقيدة حلولية في الفلاندر ، كانت ممارستها تبيح الحرية الجنسية باسم "متع الفردوس". وكان المؤمنون بهذه البدعة يعتنقون مطابقة الله ، والنفس والمادة ؛ بما أن الله في كل مكان ، وبما

[1] بالألمانية سوابن ، بلد كان يسكنه السوابيون ، وهو يشكل اليوم الجزء الجنوبي الغربي من البافيير ، وعاصمته أوغسبورغ(م).

أنه كل شيء، فمقاومة الخطيئة هي مقاومة له. وقد كان مؤسس البدعة، جيل لوشانتر يتجول عارياً تماماً في شوارع بروكسل ويعظ على المكشوف بأسوأ أعمال المجون. وقد عمد أسقف كامبريه، في العام 1412، إلى إدانة غويوم ديلدرناس، أحد تلامذة جيل، ولم تدم هرطقة "أناس العقل" مدةً أطول.

وثمة بدعة تذكّر بفرادتها بالشرق أكثر مما بالغرب، إنها بدعة الغويّلْميين. فلقد وصلت إلى ميلانو، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر غجرية تدعى غْوِيّلْما (Guillelma)، كانت تزعم أنها من سلالة ملكية. وقد أتاح لها جمالها، وسحرها وتقاها أن تجمع حولها مجموعة من المعجبين، رجال دين وعلمانيين، أقنعتهم بأنها الكلمةُ مجسَّداً، إذ إن جسد المسيح بات جسدها؛ وقد أثبتت ذلك عبر إظهار الندوب التي كانت تنزف في يديها وقدميها. وكانت تؤكد بأنها سوف تتألم وتموت لأجل خلاص الناس، ثم تصعد إلى السماء تاركةً على الأرض نائبةً لها، في شخص راهبة هي الأخت مانفريدا، التي ستكون حبراً أعظم وتقيم في روما، بانتظار الدينونة، محاطةً بمجمع "كاردينالات". وبعدما توفيت غويّلما حوالى العام 1282، بات قبرها ملتقى حجاج متحمسين. وقد أثار ذلك قلق محكمة تفتيش ميلانو، فعمدت في العام 1300 إلى محاكمة الهراطقة، وبموجب الحكم الصادر، تم إخراج عظام غويلما وإحراقها، وصعد إلى المحرقة كل من الأخت مانفريدا وعضوين آخرين في البدعة المشار إليها.

وثمة مشكلة كان قد أهملها اللاهوتيون المسيحيون الأوائل، ولكنها أسالت الكثير من الحبر في العصر الوسيط وزمن الإصلاح الديني؛ إنها مشكلة تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. ففي القرن الحادي عشر،

حاول بيرانجيه دوتور، وكان ذهناً ثاقباً مهتماً بالنقاش السكولاستيكي، أن يهز بعمق المبدأ الإيماني حول الحضور الفعلي: المسيح لا ينقسم، وإذا كان كله في قربان، لا يمكنه أن يكون حاضراً في مليون مذبح آخر وفي السماء؛ وبالتالي، يبقى خبز المناولة وخمرها ما يكونانه بالذات من حيث الجوهر. ولما كان بيرانجيه متشبثاً بالعقيدة التي كان قد بلورها بمساندة عدد كبير من الحجج الفلسفية، وكان يعلّمها في مدرسة شارتر، التي كان صيتها ذائعاً جداً آنذاك، أدانته عدة مجامع، وسُجن بأمر من الملك هنري الأول، ولم يخضع لسلطة الكنيسة إلا حوالى نهاية حياته. وهو أحد أوائل المجددين الذي هاجموا المبدأ الإيماني باسم "العقل". وقد حذا أبيلار حذوه، هو الذي كان يقول، بوصفه الرائد البعيد للعقلانية الفرنسية: "لا يمكن الإيمان إلا بما يكون المرء فهمه من قبل".

## الهرطقات ضد الكهنوت

لقد رأينا الكاتاريين يحتجون، باسم أخلاقهم المتقشفة، ضد ترف كبار رجال الإكليرس، وضد المثل السيِّيء الذي كان يعطيه في أغلب الاحيان، في جنوبي فرنسا، أحبار سمعانيون[1] أو ماجنون. وكان هراطقة آخرون أكثر دقة في الاتهامات التي كانت تغذّي دعاوتهم.

فمنذ القرن الحادي عشر، كان قد احتج الكاردينال بيار داميان، أسقف أوستيا، بتعابير حادة وواقعية، على فساد رجال الدين، من دون أن يثير،

[1] أي ملوّثون بالسمعانية، نسبةً إلى سمعان الساحر، والسمعانية هي الإرادة المتعمدة شراء أشياء روحية أو بيعها، كالرتب الكهنوتية وما شابه(م)

من جهة ثانية، أي شبهة بالهرطقة؛ إنه يصف لنا أسقف فيزول "محاطاً بحشد من العابثين"، وأسقف بليزانس "الأكثر خبرة في الحكم على الجمال مما على صفات مرشح للكهنوت". وهو يرغي ويزبد أيضاً ضد السمعانية، وهي آفة كان يميِّز ثلاثة مظاهر لها: مظهر اليد، المتمثل في شراء رتبة كهنوتية؛ ومظهر التذلل والزُّلفى، المتمثل في تقديم خدمات للأقوياء؛ ومظهر اللسان، المتمثل في تملقهم.

وفي القرن التالي، ذهب أرنو دو بريسيا أبعد بكثير، حين اعتبر أن الكنيسة، الفاسدة بشخص الكهنة، والأساقفة والكرادلة، المتعطشين كلهم تقريباً إلى الثروات، لم تعد الكنيسة الحقيقية، وأن البابا لم يعد البابا الحقيقي؛ وأنه لم يعد ثمة ما يدعو لتلقي الأسرار (المقدسة) من أيدي رجال دين فاقدي الأهلية، وبات من الأفضل، على سبيل المثال، تبادل الاعتراف في ما بين المؤمنين؛ وأخيراً، أن الكنيسة لم يعد لها الحق في أن تمتلك أراضي، وأن البابا لا يمتلك سلطة زمنية. وبعد أن أدانه مجمع لاتران المسكوني الثاني، في العام 1139، ذهب إلى فرنسا، وأيَّد موقف أبيلار في الخلافات السكولاستيكية وعلَّم على جبل القديسة جنفياف. وبعد عودته إلى روما، قاد النبلاء الذين كانوا يحاولون استعادة المدينة من البابوية، وكان شبيهاً بخطيب شعبي في جمهورية رومانية سريع الزوال. وقد تمكن البابا أدريان الرابع من استعادة المقر البابوي في العام (1155)، فحُكم على أرنو بالشنق، وأُحرق جثمانه وأُلقي برماده في نهر التيبر.

وفي دوفينيه وبروفانس، كان المدعو بيار دو بروي (Pierre de Bruys) يكرز بالعقيدة نفسها التي كان يكرز بها أرنو دو بريسيا؛ وكان يضيف أنه ينبغي تدمير أماكن العبادة، لأن الله في كل مكان، والصلبان أيضاً، لأنها

أدوات تعذيب المسيح. لا بل إن بعض أتباعه أشعلوا، في يوم جمعة آلام، كدسة صلبان وشووا على تلك المحرقة لحماً أكلوه بعدئذ. وحوالى العام 1140، استشاط الجمهور غيظاً، في سان جيل، وهم يرون بيار دو بروي يحرق صلباناً، وجعلوه طُعْماً للنيران. وقد جاب أحد تلامذته، هنري دو لوزان، البروفانس والأكيتان، محرضاً الشعب على رجال الدين، وداعياً إلى دين من دون كهنة، أو كنائس أو أسرار مقدسة. ولما كان طهرانياً متقشفاً، وخطيباً صارماً، لقيت دعاوته نجاحاً عظيماً بحيث عهد سفيرُ البابا في اللانغدوك إلى برنار دو سيتو المشهور بالمهمة المتمثلة في أن يوقف، بنفوذه وبلاغته، الأمواج المهددة لعداءٍ للإكليروس سوف يولد من جديدٍ، بعد قليل، في المناطق عينها، متخذاً شكل الكاتارية.

في الفترة عينها، وفي منطقة الفلاندر، كان المدعو تانشولان (أو تانشليم) يدعو إلى مقاطعة المؤمنين للكهنة فاقدي الجدارة؛ وكان يقول عن نفسه إن الروح القدس يلهمه؛ وكانت النسوة اللواتي فَتَنَهنَّ وعظُه يتنازعون الأشياء التي استخدمها ويستعملون الماء الذي اغتسل به كعلاج. وقد اغتاله أحد الكهنة حوالى العام 1115.

وقد عمد إيون دو ليتوال، من مقاطعة بروتاني، إلى خداع متسوِّلي سان مالو: كان يزعم أنه ابن الله، المدعو لمحاكمة جميع البشر، وفي حين أوحى إلى أنصاره الساذجين بمبادئ شيوعيةٍ فظةٍ، انصرف معهم إلى النهب والمجون. وقد أدانه مجمع انعقد في رايمز في العام 1148 كمانويٍ وساحر، وتوفي بعد ذلك بقليل في السجن.

وحوالى العام 1116، كان قد أضلّ مدينة لومان Le Mans ناسكٌ يدعى هنري، مع أنه زعم أن الله أوحى له كان يمارس عادات فضائحية؛ وقد

ظهر أحد تلامذته، المدعو بون Pons، في بيريغو، مع حاشية من اثني عشر رسولاً، كانوا نباتيين ولا يملكون شيئاً؛ وكانوا يسمون أنفسهم رسوليين؛ وكان يُروى أنهم سحرة، وأن الشيطان جاء وحررهم من السجن الذي كانوا محتجزين فيه. وحوالى العام 1125، كان فلاح من ضواحي سواسون، اسمه كليمان، يعلّم أن المسيح شبح، وأن المذبح هو فم الجحيم، وأنه لا ينبغي الزواج ولا الإنجاب. ويُروى أن تلاميذه كانوا يمارسون في ما بينهم أعمال المجون، والأطفال الذين كانوا يولدون بنتيجة ذلك كانوا يُحرقون منذ ولادتهم ويُمزج رمادهم بخبز المناولة.

لقد انتشر هذا الاختمار الصوفي ذو الاتجاه الإنجيلي في كل مكان تقريباً، من دون أن نتمكن من أن نتتبع بالضبط المسار الخفي لتلك البدع الشعبية، المشدودة من بلد إلى بلد بخيوط سرية. هؤلاء الهراطقة، "الرسوليون" في إيطاليا، و"الحائكون" في ضفاف الراين، و"المتصاوفون" في الفلاندر، كانوا يميلون، على الرغم من غرابة أحلامهم الرؤيوية، إلى الكمال الأخلاقي في دعوتهم إلى الفقر والعفة. وغالباً ما كانوا يرفضون الزواج، وهو ما أخذه عليهم القديس برنار بقوله: "يجب أن يكون المرء من طينة حيوانية لكي لا يلاحظ أن إدانة الزواج الصحيح يعني إطلاق العنان لكل أنواع الفحش والمجون".

مهما تكن الحدود التي بلغتها تجاوزات هذه الهرطقات المناهضة للإكليروس في الممارسة، فإن هذه الهرطقات لم تكن عديمة الفائدة بالنسبة للكنيسة. فلقد كانت انتقدت تجاوزاتها الفعلية، وكرد فعل، رسم القرن الثاني عشر حركة قوية لتجديد المؤسسات الرهبانية. هكذا فالبندكتيون، والشارتريون، والسيسترسيون، والفرنسيسكانيون بوجه خاص، سوف

يُظهرون لشعب المؤمنين المصاب بالذعر أن الفقر، والتواضع والعفة ليست دائماً مبادئ يجري تعليمها للآخرين من دون تطبيقها ذاتياً. ولكن للأسف، فالإكليروس غير النظامي لم يغيِّره إطلاقاً مثال الرهبان، وبقي كهنة الريف يعيشون مع "كاهنتـ"هم، وانصرف الأحبار المالكون لمغانم كبرى، بسهولة شديدة، إلى متع المائدة، أو الصيد أو حتى المتع الجسدية. لذا لا يجب أن ندهش إذا شوهدت، بعد ذلك بوقت قصير، في إنكلترا وبوهيميا، حركات ذات اتساع لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين وهي تنتفض باسم الإنجيل، ضد "عيوب السلطة البابوية".

ويمكن أن نقرِّب من البدع المناهضة للإكليروس بدعة "المتسوِّطين"، الذين كانوا يَعْزون إلى الإماتة الجسدية فضائل كبرى، ويعطون بعضهم بعضاً الحَلّة[1] بعد أن استغنوا عن الإكليروس. وقد شوهد من هؤلاء في القرن الثالث عشر، في إيطاليا، من كانوا يجوبون البلاد، مسلحين بسوط مجهز بثلاثة أو أربعة سيور جلدية يضربون به كتفيهم وجذعهم حتى يسيل دمهم. وفي القرن التالي، بعد ان أصاب الطاعون الأسود أوروبا، عاد المتسوِّطون إلى الظهور في بلدان عديدة، ولا سيما في فالونيا. وقد كانوا يدخلون في مواكب إلى مدينة أو قرية، ويمضون إلى الكنيسة لأجل الصلاة، ساجدين كلياً وأذرعهم متصالبة، ثم بعد أن يشكّلوا دائرة كبيرة في الساحة العامة، كانوا يعرُّون أنفسهم حتى الزنّار، ويجلدون أنفسهم فيما هم ينشدون الأناشيد الدينية. وكانوا يكررون هذه الممارسة ثلاث مرات في اليوم: في الصباح، وفي المساء، وعند منتصف الليل. وفي ألمانيا، جرى في القرن الخامس عشر أيضاً حرق العديد من المتسوِّطين على أساس أنهم هراطقة.

[1] أي غفران الخطايا(م)

وقد بقيت محفوظة لنا النسخة الفرنسية لإحدى أغاني المتسوِّطين:

فلنضرب جثثنا بقوة...

لنمتدح الله ونضرب صدورنا....

لنركع على سبيل العقاب.

ولنمتدح الله. مُدوا ذراعيكم

وحبّاً بآلامه

لنقع أرضاً متصالبين من كل الجهات...

ليركع الجميع من دون انقطاع

ولنسقط متصالبين من جديد وبلا توازن.

ولننهض بشجاعة

ولننظر إلى أمام السماء.

## الهرطقات البيزنطية

قبل وقت طويل من انفصال بيزنطة عن روما بفعل انشقاق الشرق، كانت قد تصرفت بمفردها في المجال الديني، إذا أمكن القول. فلأسباب جغرافية، وإثنية، ولغوية، وسياسية بوجه خاص، كانت منفردةً، بانتظار التخلص نهائياً من نير البابوية، في إيمان خاص ويتميز بشكل محسوس من إيمان الغرب.

ومعروف أن الدين في الشرق كان دائماً أمراً وطنياً، وإلى اليوم نحصي

فيه عدداً من الكنائس "التي تقود نفسها بنفسها" ويتناسب استقلالها الذاتي مع سيادة البلد الذي توجد فيه. ولقد كان قسطنطين الكبير، الذي أسس مسيحية رسمية، قد أسس كنيسة بمقدار ما كانت تبتعد عن روما كانت تكتسب طابعاً سياسياً أكثر فأكثر. لقد كان البيزنطيون يدعون أنهم رومان (روم) ويسمّون عاصمتهم "روما الجديدة"، ولكنهم كانوا، في الواقع، يونانيين وشرقيين، على صعيد الديانة. كانوا يونانيين بطريقة ذهنية تجعلهم يميلون إلى المساجلة اللاهوتية الأكثر دقة وبغرور يجعلهم ينظرون إلى الغربيين على أنهم همج؛ وشرقيين بالاحترام المبالغ به الذي يمنحونه للأشكال المادية للعبادة، وبخنوع تجاه السلطة المدنية يصل إلى حدود إسباغهم على الإمبراطور لقب "علاّمة الإيمان الاورثوذكسي"، أو حتى لقب إيزابوستولوس (أي مساوٍ للرسل).

لقد رأينا، في القرون الأولى لتقويمنا تكاثر الهرطقات ونجاحها العجيب في مناطق البحر المتوسط الشرقي: الأريوسية، والنسطورية، والمونوفيزية. وهي هرطقات ساندها الأباطرة أحياناً لأسباب غالباً ما كانت سياسية أكثر مما دينية، وغالباً ما استخدمتها الأقاليم التي ينتمي سكانها إلى أعراق أخرى — مصر، وسوريا، وأرمينيا، وما بين النهرين — بهدف التخلص من النير البيزنطي.

لقد أثارت خصومةٌ كبرى اضطراب العالم البيزنطي في القرن الثامن الميلادي، إنها تلك المتعلقة بالصور. فلقد كانت هذه تلعب دوراً كبيراً في حياة البلد، وكان كل بيت يمتلك منها، وكانت تزيّن كل قاعات القصر الأقدس[1]، وكانت تتصدَّر حفلات سباق الخيل، وتُرى في الحوانيت،

[1] قصر الإمبراطور(م)

وعلى الألبسة، وعلى أدوات المطبخ؛ وكان يتوصل بعض الكهنة إلى حكّ ألوانها لمزجها بخبز المناولة وخمرها، أو إلى الاحتفال بالقداس، في بيوت أفراد، على صُوَرٍ تقوم مقام المذبح. وأخيراً وبوجه خاص، كانت عبادة الصور تؤمّن لرجال الإكليروس، ولا سيما الرهبان، موارد مالية تشعر بالغيرة حيالها خزينة الإمبراطور [1].لذا أصدر ليون الثالث الإيزوري، في العام 725، مرسوماً يمنع التعبُّد للصور. وكان يدشن بذلك ظهور سلسلة الأباطرة المعروفين بمكافحي الأيقونات؛ والأباطرة اللاهوتيين أيضاً، لأنه كتب إلى البابا غريغوريوس الثاني: "اعلم أني إمبراطور وكاهن في شخص واحد".

لقد كان الاعتراض على عبادة الصور أو حتى استخدامها أمراً ليس بجديد، فضلاً عن ذلك. فلقد سبق أن لوحظ في الغرب، وكان أحد أساقفة مرسيليا، بعد أن أزال الصور من كنيسته، في القرن السادس، سبّب لنفسه تعنيف البابا غريغوريوس الكبير، الذي كتب له قائلاً: "إن عبادةَ صورةٍ شيءٌ، والتعلم بواسطتها إلى من يجب أن تتوجه عباداتنا شيءٌ آخر. والحال أن ما تكونه الكتابة بالنسبة لمن يعرفون القراءة تكونه الصور بالنسبة لمن لا يعرفون". ولكن محاربة الأيقونات ازدهرت في الشرق، كرد فعل على تجاوزات ورعٍ شكلي تماماً؛ وربما يكون شجع هذه الظاهرة، فضلاً عن ذلك، المثال الذي أعطاه المسلمون عن إيمان لا علاقة له بالمادة إطلاقاً. وكانت بدعة مانوية، بدعة البوليسيانيين [2]، قد تعرضت للإدانة بسبب

[1] جرى إحصاء 175 ديراً في مدينة القسطنطينية وحدها.

[2] ليس معروفاً إذا كان هذا الاسم يذكّر باسم مبتدع البرطقة البنيّة بولس الساموزاتي أو باسم بولس الرسول، الذي كان البوليسيانيون يكنّون له احتراماً عظيماً.

ذلك من جانب مجمع أرمني، في العام 719؛ وقد اتُّهم أتباعها فضلاً عن ذلك بعبادة الشمس، وبعرض موتاهم على سطوح بيوتهم، وبالقَسَم فيما هم يمسكون بيد ولد بكر ويقولون: "أقسم بالابن الوحيد"، وحتى بمزج خبز المناولة وخمرها بدم طفل. وقد بلغت تلك البدعة مقداراً كافياً من القوة، بحيث أقامت على ضفاف نهر الفرات نوعاً من الجمهورية العسكرية التي اضطرت بيزنطة لتسيير جيش ضدها. إلا أن بعض الأباطرة المحاربين للايقونات كانوا يحمون البوليسيانيين وأرسلوهم ليستعمروا تراقية؛ وربما يفسر هذا أن يكون اسم البوليسيانيين غالباً ما استخدم في الغرب للدلالة على الكاتاريين، وهم أنفسهم من أصل بلقاني.

لقد حفّزت مقاومة أنصار الصور ليون الثالث، ثم ابنه قسطنطين الخامس كوبرونيم، ليأمرا بشن أعمال اضطهاد قاسية ضدهم. وقد أمر الثاني من بين هذين الإمبراطورين، الراغب في معاقبة البطريرك قسطنطين الذي كان تخلى عن هذه الهرطقة، بجلده في الساحة العامة، وبالركوب بالمقلوب على ظهر حمار كان عليه أن يمسك بذيله؛ وهو ما لم يحل من جهة ثانية دون أن يشغل رجل الدين عالي المقام هذا، المتآلف مع الارتداد، كرسيَّه من جديد إلى اليوم الذي فقد فيه مجدداً حظوة الإمبراطور فنفي ثم قُطع رأسه.

وقد خَلَص مَجْمعٌ "معادٍ للأيقونات"، انعقد في القسطنطينية في العام 753، إلى ما يلي: "نقرر أن كل صورة مادية وكل رسم يجب أن ينتزع من كنائس المسيحيين كشيء كريه ومخْزٍ"؛ وأضاف قانونٌ كنسي: كل من يتجرأ في المستقبل على صنع أيقونة، أو عبادتها، أو وضعها في كنيسة، أو إخفائها في مسكن خاص، يتم عزله إذا كان أسقفاً أو كاهناً، ولعنه إذا كان علمانياً

أو راهباً؛ وينزل به عقاب القوانين الإمبراطورية كمتمرد على الوصايا الإلهية وعدو لعقيدة الآباء الرسل". وقد تلقى الباسيليوس[1] في الأخير تحية الأحبار الأذلاء على الشكل التالي: "لقد حل السلام في العالم اليوم، لأنك أيها الإمبراطور، خلصتنا من الأوثان". وبعد انتهاء المجمع، أطلق محاربو الأيقونات العنان لغضبهم، فجرى نهب العديد من الأديرة، وحرق الأيقونات، وقتل الرهبان، أو سجنهم أو نفيهم أو أيضاً تزويجهم عنوةً من راهبات؛ وهذا مثال سوف يحذو حذوه ذات يوم هوغنوتنا[2] وفي ما بعد يعاقبتنا[3].

بعد وفاة قسطنطين الخامس في العام 775، أبدى ابنه ليون الرابع قسوة أقل حيال الرهبان، ولكنه لم يحكم أكثر من خمس سنوات. وقد حمت أرملته إيرين، الوصية على ابنه قسطنطين السادس، الأساقفة المحبين للأيقونات، والتمست من البابا أدريان الأول الدعوة إلى انعقاد مجمع يحاكم الهراطقة. وقد كان المجمع المسكوني السابع، الذي انعقد في نيقية في العام 787، وصاغ العقيدة المطلوب اعتمادها في هذا الصدد بالشكل التالي: "كل من يُكرِّم صورة، يُكرِّم الشخص الممثَّل فيها. وإذا فكر أحدهم وعلَّم بشكل مختلف وأدان ما تكرسه الكنيسة، سواء الإنجيل أو صورة الصليب، أو أي صورة أخرى، أو ذخائر شهيد... يتم عزله إذا كان أسقفاً أو رجل دين؛ وإذا كان راهباً أو علمانياً، يتم إلقاء الحرم عليه". وقد أوضح قرار المجمع من جهة ثانية أنه يجب أن تؤدى للصور "عبادة شرف" وليس "عبادة الله

---

[1] إمبراطور بيزنطة(م)

[2] الهوغنوت تسمية كان يطلقها الكاثوليك على الكالفينيين(م)

[3] اليعاقبة أعضاء نادٍ جمهوري كان يعقد جلساته خلال الثورة الفرنسية في دير اليعقوبيين سابقاً (أي أعضاء رهبنة القديس دومينيك، الذين كان ديرُهم الأول في شارع القديس يعقوب)(م).

الواحد" التي لا تؤدى إلا إلى الله. لقد انتصرت الأطروحة البابوية، ولكن كان ذلك هو النصر الأخير الذي أحرزته روما في عالم يفلت من سيطرتها.

لما كان قسطنطين السادس قد طلّق امرأته ليقترن بوصيفة الشرف تيودوتا، استفاد حزب الرهبان من هذه الفضيحة لتعزيز موقعه، ولكن بما أن انقلاباً عسكرياً رفع إلى العرش ليون الأرمني، أعاد هذا الأخير، بعد بعض التردد، الاضطهاد المعادي للأيقونات: استؤنف تدمير الصور، والأعمال الفنية، والآنية المقدسة، والثياب الطقسية، ونهب الأديرة، وإدخال محبي الأيقونات المتمردين في أكياس يتم تخييطها والإلقاء بها في البحر. وإذا كان الاضطهاد قد خفَّ كثيراً في عهد الباسيليوس ميشال المفأفئ، قاتل ليون وخلفه، فقد استؤنف بصورة أشد عنفاً في ظل ابنه تيوفيلوس، ولكن بعد أن توفي هذا الأخير في العام 824، سرعان ما أعادت أرملته، الإمبراطورة الورعة جداً تيودورا، عبادة الصور إلى ازدهارها السابق. أكثر من ذلك، استمر تعبُّد المؤمنين اليونانيين في نسبته فضيلةً صوفيةً إلى الأيقونات، وقدرةً شبيهة تقريباً بقدرة الأسرار المقدسة، وهو لا يزال يفعل ذلك إلى الآن. لا بل شوهد الفلاح الروسي يقول، بدلاً من "أيقوناتي"، moï boghi ("آلهتي").

وتتميز محاربة الأيقونات بصورة أساسية من الانشقاقات الدينية التي سبق أن درسناها. إنها إذا أمكن القول هرطقة في الاتجاه المعاكس: بدلاً من رؤية مجموعة من المؤمنين رافعين راية التمرد ضد وحدة الكنيسة، نرى هذه مضطرة، على العكس، عبر قائدها الزمني، للتسبب بنفسها بانعدام الوحدة ضمن القطيع المكلفة بحراسته. وبالطبع فإن المسألة كانت سياسية أكثر بكثير مما دينية. كانت التجلي الباهر لهذا الحكم المطلق القائم على

الدين الذي كان قسطنطين الكبير قد أسسه والذي سوف يفضي، بعد قرنين، إلى الانشقاق الكامل عن روما.

إن القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية، التي تحددها كتب التاريخ في العم 1054، كانت قد بدأت قبل هذا التاريخ بكثير، وامتدت إلى ما بعده بزمن طويل. والأمر لا يتعلق بانشقاق مفاجئ، بحدث معزول، بل بسيرورة تمايز غير محسوسة ولا مفر منها. ويمكن تقريباً إرجاع أصل الانشقاق إلى العام 330، حين أعطى قسطنطين الكبير اسمه لبلدة بيزنطة المتواضعة، التي جعل منها عاصمة إمبراطورية الشرق الفتيّة. وقد كانت تلك شهرة سياسية سرعان ما باتت دينية. فمنذ العام 451، كان مجمع خلقيدونية المسكوني يضع أسقف القسطنطينية مباشرة بعد الحبر الأعظم الروماني ويمنحه سلطة على أسقفيات تراقية، وآسية والبون. وفي ما بعد، استحصل مطران القسطنطينية على رتبة بطريرك، ثم بطريرك مسكوني. وفي العام 733، فرض سلطته على جنوبي إيطاليا وصقلية، اللتين احتلتهما القوات البيزنطية. وقد كان النزاع محتوماً بين مركزين دينيين يمتلك أحدهما قوة مادية لم يكن في وسع الآخر أن يواجهها إلا بسلطة خليفة القديس بطرس، المتنازع فيها.

وسرعان ما أدى جدال لاهوتي إلى إثارة الأذهان. لقد ولد في إسبانيا في القرن الخامس أو القرن السادس مبدأ إيماني جديد يبدو أن مجمع جانْتِّيي المنعقد في العام 767 قد تبناه، وكان يجعل الروح القدس ينبثق من الآب والابن. وسوف تصبح كلمة، هي كلمة filioque[1]، شهيرة وتتسبَّب على

[1] أي انبثاق الروح القدس من الآب والابن (م).

مدى قرون بمساجلات لم يضمحل صداها. فضلاً عن ذلك، لم يكن كل اللاهوتيين الغربيين مؤيدين لهذا التجديد. وقد عرض شارلمان المسألة على مجمع إيكس – لا – شابيل لدراستها، فتبنى هذا المجمع الـfilioque في العام 809. بيد أن البابا ليون الثالث، الخائف من ظهور هرطقات جديدة، نصح بعدم إدخال الصيغة في معرض إنشاد ملخص حقائق الدين الأساسية. ويبدو أن هذا الإدخال لم يتم إلا في ظل الحبر الأعظم بونوا الثامن، حوالى العام 1020.

في غضون ذلك، رأينا أن الأباطرة المحاربين للأيقونات كانوا قد انتزعوا حقوق بابوات. وهو ادعاء صاغه، حوالى نهاية القرن التاسع، البطريرك الهائج فوتيوس حين أكد أن البابا لم يحصل على أولويته إلا لأنه كان أسقف عاصمة الإمبراطورية وأنه فقدها خلال انتقال تلك العاصمة إلى ضفاف البوسفور. ولم يفت فوتيوس أن يذكر الـfilioque، وفي رسالة بابوية موجهة إلى البطاركة الشرقيين، اعتبر إدراجه في ملخص حقائق الدين الأساسية هرطقة. ولكن السجال بين الشرق والغرب كان عقيدياً أقل مما طقسياً أو نظامياً: كان يتناول بالأحرى استخدام الخبز الفطير لأجل المناولة، وصيام السبت، وعزوبية الكهنة. وهذه هي النقاط التي كان يشدد عليها البطريرك ميشال سيرولار حين لعن في 20 تموز/يوليو 1054 صانعي قرار الحرم الذي كان ثلاثة مبعوثين للبابا قد وضعوه قبل ذلك بخمسة أيام على مذبح القديسة صوفيا. كان انفصال الشرق قد بات ناجزاً، من دون أن يكون أيٌّ من كتّاب الحوليات البيزنطيين قد شدّد على أهمية ذلك الحدث؛ وإذا كان كتّاب الحوليات الغربيون تحدثوا عنه فقد كان ذلك فقط بصفته عملاً شريراً اقترفه أحد أولئك الهراطقة الذين كان الشرق يمتلئ بهم.

لقد بقيت روما زمناً طويلاً ترفض اعتبار القطيعة نهائية، وقامت بالعديد من محاولات التقارب، وكانت المحاولة الرئيسية تتمثل بالاتفاق الذي انعقد بين الإمبراطور اليوناني والحبر الأعظم الروماني بغية إعادة توحيد الكنيستين. ولكن فعل التوحيد، الذي تكرّس في العام 1439 بمجمع فلورنسا، لم يحصل على اعتراف أمير موسكو الكبير فاسيلي الثاني به؛ وقد بات ابن هذا الأخير، القيصر إيفان الثالث، بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية، الملك الاورثوذكسي الوحيد. ومذاك جعلت النزعة القومية الروسية مشروع إعادة توحيد الجماعتين المسيحيتين الكبريين أكثر مدعاة للشك.

بيد أن اللاهوتيين اليونانيين استمروا في المنازعة في موضوع الـfilioque. كانوا يتهمون اللاتين بتجزئة الثالوث، وبجعله — بدلاً من "سلطة للواحد" — "سلطةَ اثنين"، ثم "سلطة ثلاثة"، لا بل "سلطة أربعة"، لأن الروح قد قُسم إلى شخصين عن طريق الانبثاق المزدوج[1]. وهذا يعني إذاً السقوط في تعدد الآلهة وهو، بحسب قول أحد المجادلين المزّاحين جَعْل الروح القدس حفيد الله. وعلينا أن نكرر، من جهة ثانية، أن هذا ليس السبب الحقيقي للانشقاق، إذ إن الغربيين كانوا قد تبنوا نظرية الـfilioque منذ زمن بعيد من دون أن يثير ذلك غيظ بيزنطة. وكما كتب نيكولا أمفرازيس اليوناني في العام 1902: "لو لم يَضِلَّ البابوات بسبب الكبرياء، والطمع والتعطش للسلطة، من المرجّح جداً أنه ما كان جرى إيلاء الاهتمام لهذه التباينات". وهذا هو، في الواقع، السبب العميق الكامن وراء هذا النزاع، وهو مدني أكثر مما هو ديني، وسياسي أكثر مما هو لاهوتي. وقد أظهرت لنا أحداث

---

(1) أي من الآب والابن في آنٍ معاً(م)

قريبة أن موسكو أحيت، في هذا المجال، بيزنطة، وإنها لمفارقة غير بسيطة، بين مفارقات عصرنا، أن نرى الكرملين الشيوعي يلعب تقريباً الدور عينه الذي لعبه سابقاً قصر الباسيليوس الأقدس.

إن الانشقاق الكبير الوحيد الذي أثار، منذ محاربة الأيقونات، اضطراب الكنيسة الشرقية هو انشقاق الهيزيشاستيين أو البالاميين. وكان يشار باسم هيزيشاست إلى الراهب الذي بات يلتزم بالوحدة التأملية في حجرة أو خلوة قائمة في ضواحي الدير، بعد أن كان سينوبياً، أي بعد أن عاش عيشة مشتركة مع رهبان آخرين. وكان غريغوار بالاماس، رئيس أساقفة تسالونيكي في القرن الرابع عشر، قد دافع، في الفترة التي لم يكن فيها بعد غير واحد من نسّاك جبل آتوس، عن الهيزيشاستيين، الذين سبق أن وشى بهم لبطريرك القسطنطينية راهب كلبري[1] متبحر في العلوم الدينية اسمه برلعام. كان هذا قد اتهمهم بالانصراف إلى ممارسة ذميمة تتمثل في حبس أنفاسهم أطول وقت ممكن وترداد الكلام التالي بلا انقطاع: "سيدي يسوع المسيح، يا ابن الله، إرحمني[2]"، فيما هم يسندون ذقنهم إلى الصدر ويحدقون بالسرّة؛ وبما أن البطن مركز النفس، كان الهيزيشاستي يتوصل خلال انخطافه إلى العثور على مملكة الله المستورة داخل جسمه ويرى عندئذ سطوع نور كان المسيح قد أشرق به فوق جبل ثابور في يوم تجليه. وكان برلعام يندد بهؤلاء الصوفيين الغريبين واصفاً إياهم بجماعة السرّة.

---

(1) أي من كلبريا في إيطاليا(م)

(2) يُذكُر أن المصلين، أو الأوشيتيين، كانوا يمارسون عادة مشابهة، وتجدر الإشارة أيضاً إلى الأهمية المعطاة، في الكنيسة اليونانية ـ الروسية الحالية، إلى ترداد الـ Gospodi pomiloui (يارب ارحمني)، التي تقال أربعين مرة في عيد ارتفاع الصليب المقدس.

بيد أن بالاماس، في دفاعه عن الرهبنة التأملية، كان يقارب الهرطقة: ففي معرض كلامه على النور الثابوري، كان يصفه بالطاقة، بالعملية الإلهية، الفطرية والأبدية، بالنعمة المؤلّهة التي تنتشر في المخلوقات من دون أن تنقسم هي ذاتها؛ ويسمح تأليه المخلوقات هذا بواسطة قوى غير مخلوقة بأن تُنسب إليها ميّزات هذه القوى بالذات، وهذه نظرية شبه حلولية لأنها تماثِلُ الاتحاد بالله بواسطة النعمة بالاتحاد الأقنومي؛ وقد كان أقلَّ أورثوذكسية أيضاً التمييزُ الذي كان يقيمه بالاماس بين ماهية الله وطبيعته، بحيث كانت الأولى العنصر الأسمى، والثانيةُ العنصرَ الأدنى والتابع.

لقد أثارت المساجلة البالامية الأذهان وحركت الأهواء على امتداد سنوات طوال؛ وعلى غرار اللاهوتيين، أراد كل واحد أن يتدخل في الأمر، ويُروى أن أهل القسطنطينية كانوا يناقشون في الساحات العامة، وهم يلهثون تعباً وانفعالاً بخصوص نور ثابور غير المخلوق. وفي الأخير، انعقد مجمع في العاصمة برئاسة الإمبراطور يوحنا كانتاكوزان، فأدان البرلعاميين وأعلن، في العام 1351، أن لاهوت بالاماس مطابق لعقيدة الكنيسة التقليدية؛ وقد بقي ساري المفعول إلى اليوم في كل الطوائف الأورثوذكسية. إلا أن المسألة غالباً ما انطرحت أيضاً خلال النقاشات العقيدية المتعلقة بالتمييز المتوجب إجراؤه بين الماهية والعمل الإلهيين، وهو تمييز يعتبره اليونانيون فعلياً، فيما يعتبره اللاتين منطقياً.

ولإعطاء مَثَلٍ على ما سُمِّي "العبقرية النظرية" لدى الإغريق، دعونا نورد مقطعاً من نص كتبه البالامي جورج سكولاريوس يقول فيه: "إن ماهية الله لا متناهية شكلياً، ولكن فعله ليس لامتناهياً شكلياً، لأن عدة لامتناهيات مستحيلة. ولكن بما أن للفعل وجوداً واحداً مع الماهية التي

تكون لامتناهية، يكون هو لامتناهياً أيضاً؛ بحيث أن الماهية والفعل، المنظور إليهما بما هما كذلك، يختلفان في ما بينهما على غرار اللامتناهي وغير اللامتناهي. فاللامتناهي لا يأتي، في الواقع، إلى طبيعة الله من مفهوم الفعل؛ وعلى العكس، فإن اللاتناهي يأتي إلى ماهية الله بذاته وبسبب ذاته. ولكن لأن لهذا ولذاك طريقة الوجود عينها، وهو ما تتطلبه البساطة الإلهية، يشكل كلاهما لا متناهياً واحداً وإلهاً واحداً، إذ إن التمييز الشكلي لا يمكن أن يُدخل هنا قسمةً للوقائع ولا تركيباً للوقائع، نظراً لكون الطبيعة الإلهية، تقوم على ذات وحيدة وبسيطة جداً".

ومن الواضح أنه كان في وسع علم الكلام البيزنطي أن يسجِّل نقاطاً، على صعيد الرهافة الغائمة، لصالح علم الكلام الخاص بغربنا. مع ذلك، ولما كان محافظاً بطبيعته، وبعد أن تأسست العقيدة التي التزم بها بصرامة منذ المجمع المسكوني السابع، اكتفى بالمماحكة بخصوص نقاط تفصيلية ولم يثر تلك المشكلات الفلسفية الكبرى التي أوضحها عندنا أمثال ألبير الكبير، وتوما الأكويني، ودانز سكوت. إلا أنه لما كان لاهوتيو بيزنطة ورثة للسفسطائيين الأثينيين، فهم لم يكفُّوا يوماً عن المجادلة في النوافل. وفي بعض الأحيان بخصوص ترّهات، حتى أنه يُذكر أن أهل المدينة الواقعين في العام 1453.

تحت حصار الأتراك، الذين كانوا قد بلغوا أسوارها، كانوا يتجادلون حول عدد أجنحة ملائكة الساروفيم[1].

---

[1] روح سماوي من هرمية الملائكة الأولى، في التوراة وفي اللاهوت المسيحي.

## الابتداعية[1] السكولاستيكية

لقد دوّى العصر الوسيط بكامله بصيحات المدرسة، وصخب الخلافات، والتصادم متنافر الأصوات في ما بين القياسات (Syllogismes)، والاستنجاد بسلطة أرسطو. وكان على علم الكلام (أو السكولاستيكا) أن يكون، مبدئياً، "خادم اللاهوت" وحسب. ولقد بقي كذلك في بيزنطة حيث كان ترقّق، تحت تأثيرات غربية، الفكر الحر لفلاسفة العصر القديم اليونانيين. بالمقابل، فإن علم الكلام الغربي، أعاد إلى الحياة، قبل عصر النهضة بوقت طويل، روح الحرية هذا، وفي الوقت نفسه الذي اعتقد فيه أنه لا يخرج من إطار العقيدة الكاثوليكية، انزلق أحياناً، فيما هو يود التوفيق بين العقل والإيمان، نحو الابتداعية على الأقل، إذا لم يكن نحو الهرطقة بحصر المعنى. وإذ تخلى اللاهوت عن المدارس الرهبانية لصالح المدارس الأسقفية، ثم لصالح الجامعات، كان يتنشق الهواء الطلق، ويسكر به أحياناً.

هكذا منذ القرن التاسع، مال سكوت إيريجان، مستشار شارل الأصلع[2] وعشيره، إلى العقلانية في شرحه الكتب المقدسة على طريقته، وإلى الحلولية بقوله إن الله هو كينونة كل الأشياء، وبأن كل الأشياء الخارجة منه تعود إليه. وبلغت به الأمور حدَّ اللاأدرية، بتأكيده أننا لا نعرف شيئاً عن الله، إذ الكلمات البشرية عاجزة عن التعبير عن كل الواقع الإلهي.

---

[1] الابتداعية هنا تعريب لـhétorodoxie، التي هي عكس Orthodoxie، وتعني عدم استقامة الرأي أو المعتقد(م).

[2] ملك فرنسا (840- 877)، وإمبراطور الغرب (875- 877). تميز ملكه بالغزوات النورماندية والحروب الفرنسية – الجرمانية وتقدم الإقطاع(م)

ومؤلفاته غالباً ما كانت غامضة وأفكاره متناقضة. وقد أدانت عدة مجامع بحثاً عن الأفخارستيا (سر القربان المقدس) يُنسب إليه. لقد كان إيريجان، المتقدم كثيراً على زمنه، فيلسوفاً أكثر بكثير مما لاهوتياً.

وعمله **De divisione naturae**[1] يعرض عقيدة أفلاطونية جديدة حول "الطبائع" الأربع التي يتألف منها الكون: الطبيعة الخالقة، من دون أن تكون مخلوقة، أي الله؛ والطبيعة الخالقة والمخلوقة، أي النماذج الفكرية الأصلية؛ والطبيعة المخلوقة والتي لا تَخْلُق، أي الكون المرئي؛ وأخيراً الطبيعة غير المخلوقة والتي لا تَخْلق أيضاً، أي الله الذي يعود كل شيء إليه، الله الذي هو بدء كل الكون ووسطه ونهايته.

لقد اندلعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالضبط خصومةُ المدرسةِ الرئيسية، أو خصومة الكليات، أي الاصطلاحات، أو المعاني العامة التي تصنِّف الكائنات والأفكار. وكان الفيلسوف الإسكندراني فرفوريوس قد ميّز، في معرض شرحه لـ"مقولات" أرسطو، خمسة معانٍ عامة، هي الجنس والنوع والفصل والخاصّة والعَرَض. ويصعب علينا أن نتخيل اليوم أيَّ جدالاتٍ محمومة ولا نهاية لها ولّدها ما يسميه بوسوييه Bossuet[2] في كتابه علم المنطق "انقسام الكلّيات الرسمية هذا". وفي حين كان يسلّم الواقعيون تحت تأثير النظريات الأفلاطونية، بواقع الأفكار العامة، التي يعتبرونها مثالاتٍ للأشياء، كلامَ الله الداخلي، كان الإسمانيون يرون، على العكس، أنه ليس ثمة واقع ملموس ما خلا ما هو

---

[1] حول انقسام الطبيعة(م)

[2] أسقف ومفكر فرنسي (1627- 1704). كان خطيباً مفوّهاً ومدرّساً لولي العهد في أثناء حكم لويس الرابع عشر، وكاتباً مشهوراً(م).

فردي وأنه لا شيء يستجيب الكلي. ولقد كان فرفوريوس طرح المشكلة من جهة ثانية، على الشكل التالي: "هل توجد الأجناس والأنواع في ذاتها أم فقط في العقل"؟ وهو ما كان يجيب عنه الإسمانيون بقولهم إنه ليس للأجناس والأنواع أكثر من وجود اسمي. مهما بدت هذه المماحكة للوهلة الأولى مجردة وعبثية، ليست عديمة القيمة على المستوى الأخلاقي. فإذا كان "الجنس" البشري حقيقياً، في الواقع، فالإنسان خاضع له إلى حد فقدانه حرية الاختيار؛ وإذا كان إسمياً، لا يكون الإنسان خاضعاً لأي قانون. ونحن نرى أن كلاً من هاتين النظريتين خطيرة من وجهة النظر المسيحية حين يجري دفعها إلى أقصى حدودها. واللاهوت بالذات تحمَّل عواقب هذا التخمر الفكري: يعطي القديس آنسيليم Anselme، بوصفه "واقعياً" بالضبط، البرهان الأونطولوجي على وجود الله (نحن نتصور الكمال، والحال أن الكمال يستتبع الوجود، إذاً يوجد كائن كامل)؛ ويدفع غويوم دو شامبو الواقعية تقريباً نحو الحلولية حين يعلن أن الفرد لا يتميز إلا بـ"أعراض"؛ أما الإسمانيون فقد استدلَّ زعيمهم روسولان إلى حد حلِّ مبدأ الثالوث الإيماني والسقوط في الهرطقة القائلة بثلاثة آلهة؛ ولقد بيَّن غويوم دوكّام أن الكليات ليست سوى "كائنات عقلية"، علماً بأن كل شيء حقيقي هو شيء فردي، أي شيء لا تمكننا معرفته إلا إذا أخذنا الإحساس كنقطة انطلاق؛ ويرد الفعل هذا على المنطق الصوري، تبشر الإسمانية بتجريبية الفلاسفة الحديثين.

لقد كان أبيلار أكبر اسم في علم الكلام الفرنسي، وهو أحد مفكري القرون الوسطى الأكثر فرادة. لقد روى لنا هو ذاته قصة بداياته، قائلاً: "أنا قادم من دسكرة تقع عند مدخل مقاطعة بروتانيا... وإذا كنت أدين لفضيلة

مسقط رأسي وللدم الذي يجري في عروقي بنوع من خفة الروح، فقد أخذت منهما في آن معاً تذوُّق الثقافة الأدبية... لقد وصلت إلى باريس حيث كان الديالكتيك مزدهراً منذ زمن بعيد. كان هنالك غويوم دو شامبو، الذي جرى اعتباره بحق أستاذي الرئيسي... ولم أتأخر في إزعاجه بسبب اهتمامي بدحض بعض أفكاره... ولما كنت أعتقد أني أسبق بذهني إمكانات عمري، تجرأت، وأنا بعدُ فتىً، على التطلع إلى أن أصبح زعيم مدرسة". وهو يروي لنا بعد ذلك، باعتزازتعذره عبقريته، كيف هزم غويوم دو شامبو، بخصوص مسألة الكليات، إلى حد أن "خصومي الأشد عنفاً، على ما يقول، تركوه على عجل ليلتحقوا بالدروس التي كنت أعطيها".

وبعد انفصال أبيلار عن تلميذته الشابة هيلوييز، بسبب المغامرة الحزينة التي نعرفها، دخل مكلّل الرأس إلى دير سان دوني المَلَكي. وقد اجتذب بقوة فكره وكلامه العديد من الطلاب المتحمسين. بيد أنه، في دحضه لفكرة الآلهة الثلاثة التي كان يأخذها على خصمه روسولان **Roscelin**، مال إلى السابليوسية، وأدانه مجمع انعقد في سواسون. ومع ذلك، فلقد واصل تعليمه، وفي مؤلَّفٍ بعنوان **Sic et non** (أو المع والضد، تقريباً)، يقارن استشهادات من الآباء الرسل تتعارض في ما بينها، وذلك ليس لتوجيه ضربة قاسية لسلطانهم، بل لحفز ذهن التلاميذ لاكتشاف الحكمة: "بواسطة الشك بالذات، كتب يقول، نجد أنفسنا مدفوعين إلى البحث، وبالبحث الفلسفي نصل إلى الحقيقة. وقد بقيت هرطقة المعرفة الأرسططاليسية هذه أساس مدرسة باريس للاهوت.

بيد أن أبيلار كان قد مضى بعيداً جداً في تجرؤ ذهنه المستقل. وكما كان يقول القديس برنار: "متصوراً أنه يعرف كل شيء، ما عدا كلمة "لا

أعرف"، نظر أبيلار إلى كل شيء، وتفحص كل الأسرار، حتى أسرار الله، وجاء بعد استقصاآته ينقل إلينا أموراً ليس مسموحاً لأي لغة بأن تعبر عنها". ألم يكن كتب، بالفعل: "الآب هو القوة الكاملة، والابن هو نوع من القوة، أما الروح القدس فليس قوة إطلاقاً"؟ وفي مكان آخر: "ليس الروح القدس من جوهر الآب والابن". وقد هاجم أبيلار من جهة أخرى سلطة رجال الدين وكتب: "لقد أُعطيت سلطة الربط والحل للرسل فقط وليس لخلفائهم". وبناء على اتهام القديس برنار لأبيلار، أدانه البابا إينوسان الثاني كهرطوقي وفرض عليه الصمت الدائم (1140). وقد استقبل رئيس دير كلوني، بيار الوقور، المذنب الذي بعد أن تراجع عن أخطائه مات متصالحاً مع الكنيسة (1147).

ولقد استمر تلامذة ابيلار في نشر عقائده، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الذي كان، على الصعيد الفكري، ما يشبه عصر "ما قبل النهضة". وقد كتب الإيطالي بيار لومبار، على غرار **Sic et non**، أربعة كتب حِكم **Sentences** استعملها تلامذة جبل القديسة جنفييف كوجيز زمناً طويلاً. فثمة كانت موجودة، بحسب كلام إينوسان الثالث، "قلعة النظام المقدس المشهورة"، ومشتل اللاهوتيين الذي سوف يتخذ لاحقاً اسم جامعة. وقد استقر هناك فرنسيسكانيون ودومينيكانيون، وأزاحوا نهائياً خطر عقلانية أبيلار، عبر إعادة أرسطو، شيئاً فشيئاً، إلى الفكر المسيحي.

# الفصل الثالث

## البدع الإنجيلية قبل الإصلاح الديني

بيد أن العصر الوسيط كان يقترب من نهايته. والعمارة الجميلة، التي كانت بنتها الكنيسة الرومانية لمسيحيةٍ مُجْمِعَةٍ على ورعها الطفولي، كانت قد بدأت تتصدع. كانت تذمرات صامتة تزعزع أسسها وتنذر سلفاً بالكارثة التي سوف تنتزع من روما قرابة نصف المؤمنين الذين تركتهم لها بيزنطة. فلقد شكّل مجدِّدان جسوران، هما ويكلف وجان هوس، ما يمكن تسميته إصلاحاً قَبْلِيّاً، أو بعبارات أخرى إصلاحاً ناقصاً. وهما أيضاً سبقتهما في هذا السبيل بدعة ولدت في فرنسا وكان مصيرها مثيراً جداً للفضول، هي بدعة الفوديين.

### الفوديون

حوالى العام 1160، شرع بيار فالدو (أو فالديز)، وكان تاجراً غنياً من مدينة ليون جعله نشاطه التجاري مُطّلعاً على كل الحركات الفكرية، يكرز بعقيدة قريبة إلى عقيدة كاتاريي إيطاليا وعقيدة الهراطقة الذين كانوا قد لجأوا إلى جبال الدوفينيه. وكان هؤلاء قد سُمُّوا، بسبب الوديان العالية التي كانوا يسكنونها، بالفالِنسيين أو الفالدنسيين. وهذا مصدر لقب فالدو، الذي أطلق على بيار، إلا إذا كان فالدو هو الذي أُخِذَ منه التعبير فوديّ (Vaudois)، بحسب رأي كُتّاب آخرين.

أيّاً يكن، فمبتدع الهرطقة الذي كان قد وزّع ثروته على بؤساء المدينة،

سرعان ما بات له أنصار سمّاهم فقراء ليون. وفي مواعظه، كان يقرأ كتب الأنبياء والرسل التي استحصل على ترجمتها إلى العاميّة؛ ثم راح يعلّم أن الكنيسة الرومانية "عاهرة" بابل، وأن البابوات والأساقفة قَتَلة، بسبب حروبهم، وأن الرهبان فرّيسيون، ولا أحد في الكنيسة أرفع مقاماً من الآخرين، وأنه يجب رفض دفع العشور. وهي أطروحات من شأنها إثارة حماس أبناء الشعب، الخاضعين في الوقت نفسه لاستغلال أسيادٍ متحجري القلوب، ورجال دينٍ غالباً ما كانوا أميل إلى الكسب المادي مما إلى المحبة. وهكذا فإن هذه البدعة، ذات الصبغة الاجتماعية بقدر ما هي دينية، كانت تحكم على نفسها بالتعرض للاضطهاد.

وقد رُفعت القضية إلى مجمع لاتران في العام 1179، بنتيجة شكوى قدمها رئيس أساقفة ليون جيهان ذو الأيادي البيض. وقد لقي فالدو استقبالاً طيباً من جانب البابا إسكندر الثالث، الذي كان يقدّر ورعه وروح المحبة لديه. إلا أنه بعد استجواب المندوبين الفوديين، حظّر عليهم المجمع أن يكرزوا بالإنجيل على طريقتهم، وفي السنة التالية، طُرد فالدو وأتباعه من ليون. فتفرقوا في بروفانس واللانغدوك، وبوجه خاص في خلوات سلسلة جبال الألب، إما في الدوفينيه أو في البيامون. ومن أعالي ذلك الحصن الطبيعي، كانوا يؤمّنون الصلات السرية بكاتاريي وادي الرون، وبـ"مُهاني" اللومبارديا، وبمتصاوفي هولندا، والمانيا، وبوهيميا، وبـ"البوبليكانيين" الإنكليز وحتى ببوغوميليي البلقان.

كان بيار فالدو قد مضى إلى بيكارديا حيث بات له أنصار كثيرون. ونقرأ في تاريخ الفوديين لبيرّين (Perrin) أنه "بعد بعض الوقت، عمد الملك فيليب أوغوست، بتحريض من رجال الإكليروس، إلى حمل السلاح ضد فوديي

البيكارديا، وهدم ثلاثمئة بيت لنبلاء كانوا يتبعون طائفتهم ودمَّر عدة مدن مسوَّرة، وطاردهم حتى الفلاندر إلى حيث هربوا، وحرق عدداً كبيراً منهم". أما فالدو فأفلت من الاضطهاد وانسحب إلى بوهيميا حيث توفي في تاريخ مجهول.

ويمكن تلخيص العقيدة الفودية كالتالي: سلطة التوراة المطلقة وإلهامها، والثالوث في الله، وحالة الخطيئة لدى الإنسان، والخلاص المجاني على يد يسوع المسيح، والإيمان الفاعل بالمحبة. وكما نرى، فقد كان ذلك التجسيد المسبق للإيمان الإنجيلي، ومن الخطأ أن نخلط بين الفوديين والألبيجيين، كما حصل غالباً. فهؤلاء الأخيرون كانوا، بنظرياتهم الثنوية، مناهضين عمداً للمسيحية؛ أما الأولون فكانوا يكتفون بالعودة إلى مصادر المسيحية، وكما كتب بيار دو فو – سيرنيه بسذاجة: "كان الفوديون أشراراً؛ ولكن إذا قورنوا بغيرهم، فقد كانوا أقل انحرافاً بكثير". كما أن سجلاً لمحققي التفتيش في كاركاسونا يورد عن الفوديين أنهم "كانوا يتفقون معنا في أمور كثيرة ولا يختلفون إلا في بعضها... كان خطأهم يكمن بصورة رئيسية في أربع نقاط: في أنهم ينتعلون صنادل على طريقة الرسل؛ ويقولون إنه ممنوع منعاً باتاً الحلف أو القتل؛ وبوجه خاص في أنه يمكن أول قادم منهم، عند الحاجة، وشرط أن يكون منتعلاً صندلاً، ومن دون أن يكون تلقى السيامة من يد الأسقف، أن يقدّس جسد يسوع المسيح[1]. وبعد أن لاحظ أسقف متز وجود فوديين في أسقفيته، شرح له البابا إينوسان الثالث أن هؤلاء "بسطاء، مساكين غير متعلمين"، وأنه يجب الوعظ وليس إنزال العقاب، وأضاف:

[1] إن الصنادل التي يتحدث عنها النص اللاتيني لذلك السجل كانت قباقيب، في الواقع، لذا كان يُطلق أحياناً على الفوديين لقب "منتعلي القباقيب".

"فلنغفر لمن يتوبون ولنحث المذنبين بعناد على التوبة". وكنا قد أشرنا، في معرض الحديث عن الألبيجيين، إلى أن هذا الحبر العظيم، الحريص جداً على وحدة الكنيسة، كان مع ذلك نصيراً "للين" مع الهراطقة، وكان يقبل على مضض ممارسة أعمال قمع ضدهم كانت قسوتها انعكاساً لتقاليد تلك الحقبة.

وإذا كان هنالك من شيء مشترك بين الألبيجيين والفوديين، فقد كان حقدهم على التسلط الإكليروسي والبابوي. وكان هذا الحقد يتلازم لدى الفوديين مع حلم المساواة الاجتماعية، ولا ريب أن هذا العنصر الثوري هو الذي أدى إلى اضطهادهم بالقدر نفسه من القساوة التي مورست ضد الأولين.

لقد بدأ القمع في إيطاليا، بعد أن استحصل أسقف تورينو، في العام 1210، من الإمبراطور أوتون الرابع، على مرسوم يوجه إليه الأمر "بأن يطرد من كل الأسقفية الهراطقة الفوديين". إلا أن المناطق التي كان قد لجأ إليها "إسرائيل جبال الألب" كانت صعبة البلوغ، ولأجل مقاتلة أولئك المعاندين، اضطرت المجامع والبابوات إلى الاكتفاء زمناً طويلاً بالإدانة الشديدة لهم أو بالإعلان، على طريقة أحد قرارات البابا غريغوريوس التاسع، أن أولادهم سوف يُعتبرون سافلين ومجللين بالعار حتى الجيل الثاني. أما على السفح الفرنسي لجبال الألب، فكان قضاة التفتيش أكثر نجاحاً: ففي أسقفيتي آمبرون وبريانسون، حُكم على العديد من الهراطقة بالغرامة، أو السجن أو المحرقة. وكان ولي العهد هومبير الثاني، المحتاج دوماً إلى المال، يتقاسم معهم ناتج المصادرات التي كانت تصيب أملاك المحكوم عليهم. وقد حذا خلفه شارل الثاني حذوه، وعلى سبيل المثال، أمر بنبش

جثث 12 فودياً كانت قد عُرفت عنهم قناعتهم بالهرطقة، وبحرق تلك الجثث والإلقاء برمادها في الريح، من دون نسيان مصادرة أملاكهم. أما أولئك الذين فضلوا الارتداد على المقاومة، فكانوا يجبرون على أن يحملوا فوق ألبستهم صليباً من القماش الأصفر على الصدر وآخر على الظهر.

حوالى نهاية القرن الرابع عشر، أظهر المحقق بوريلي، من مواليد الغاب، قساوة خاصة وأمر بحرق مئات الضحايا أو شنقهم؛ وقد صودرت أملاكهم لصالح ولي العهد، وصاحب قصر آمبرون (Embrun)، وأعيان الكنيسة، والمحققين، والجنود والفلاحين الذين قدموا الحطب للمحارق. وقد ذهب ذلك كله عبثاً، لأنه كما كتب رئيس أساقفة آمبرون: "كان مثيراً للشفقة أن تلك النبتة الرديئة المنتزعة كانت تعود إلى الظهور فجأة ما أن يشيح المرء بوجهه". ولم يكن الإقناع يحرز نتائج أفضل من تلك التي يحرزها القمع. وقد أنفق الدومينيكاني الإسباني المشهور، فينسان فيريبه، الذي انتدبه البابا إلى الدوفينيه، كنوز بلاغته من دون أن يحرز أي نجاح. فبعد رحيله، عاد الـbarbes[1] (أو الأعمام) فقضوا على حججه.

إلا أن الوديان الفودية ستشهد أياماً مرعبة. فبناء على طلب رئيس أساقفة آمبرون، أطلق إينوسان الثامن، في العام 1487، قراراً بابوياً ضد "أولاد البغي والفساد، المنتسبين إلى البدعة المؤذية والمخزية جداً للأشرار المدعوين فقراء ليون أو الفوديين"؛ وقد أعطي الغفران الكامل، بموجب ذلك القرار، للذين يشاركون في "إبادة على هذه الدرجة من القداسة والضرورة". وقد وُضع القاصد الرسولي كاتانيه، رئيس شمامسة كريمونا،

---

[1] تلك هي التسمية التي كان الفوديون يطلقونها على خادمي رعاياهم ومصدرها كلمة barba ("العم") في لهجتهم العامية الدوفينية.

على رأس تلك الحملة الصليبية؛ وبعد أن فشل في أن يعيد إلى الإيمان الحقيقي الهراطقة في منطقة آمبرون، أرسل جنوداً لمطاردتهم بين صخورهم. وقد تتالت مشاهد النهب والاغتصاب والمذابح؛ والهراطقة الذين لجأوا إلى المغاور، اختنقوا فيها بدخان الحرائق التي أشعلها المهاجمون.

وبعد أن غادر كاتانيه البلد في العام 1488، خف الاضطهاد. فلقد أبدى الملك لويس الثاني عشر، "أبو الشعب"، استعدادات طيبة حيال الفوديين، وحلّهم البابا اسكندر السادس، في العام 1501، من "كل أنواع الجرائم والخطايا، ولا سيما من خطيئة الهرطقة". إلا أن أيام الإصلاح الديني كانت قريبة، وكان من الطبيعي جداً أن يعتنق الفوديون عقيدة لم تكن، باختصار، إلا يناعاً للبذرة التي سبق أن زرعوها. ولقد أبدى فاريل (Farel)، وكان مثل بوريلي من منطقة الغال، في مهاجمة الإيمان الروماني، القدر نفسه من الحماس الذي أبداه الآخر في الدفاع عنه، وحمل إلى أعماق الوديان الدوفينية الحركة التي أطلقها راهب ألماني. حتى أن سينودساً فودياً تبنى في العام 1532، إعلان إيمان لوثرياً بالكامل، ووضع بعد معارضةٍ تغلّب عليها فاريل مبادئ التقدير[1] (الإلهي) الدقيقة.

هكذا تورط الفوديون في الحروب الدينية التي أدمت فرنسا آنذاك. ولكن بما أنهم كانوا مزارعين متواضعين يعملون في أرض قليلة الخصب، موزَّعين في وديان معزولٍ بعضها عن البعض الآخر، لم يكونوا قادرين على تكوين قوة عسكرية جدية. إلا أن مقاومتهم، الاخلاقية أكثر مما هي مادية، لم توقف ضربات المرتزقة الذين أرسلهم ضدهم برلمان إيكس (Aix): هكذا خُرِّبت قصبات كابرير وميرندول، وذُبح ثلاثة آلاف فودي جرى إحراقهم

---

[1] Prédestination، أي تحديد الله منذ الأزل مصير، أو قدر، كل نفس بشرية من حيث الخلاص أو الهلاك(م).

مع كنائسهم، أو خنقهم بالدخان في المغاور، كما جرى إعدام 650 شخصاً في الساحة العامة[1]. أما من الجانب الإيطالي فقد دافع الفوديون عن أنفسهم ببسالة أشد وهزموا مراراً القوات البيامونتية[2] المرسلة ضدهم.

وفي عهد الملك هنري الرابع والملك لويس الثالث عشر، تمكن فوديو فرنسا من استعادة أنفاسهم، لكن بعد إلغاء مرسوم نانت[3]، تفاهم لويس الرابع عشر مع فيكتور – أميدي دو سافوا على استئناف الاضطهاد. وقد اصطدمت القوات الفرنسية، بقيادة كاتينا المشهور، بمقاومة شديدة هذه المرة، جرى سحقها باللجوء إلى شتى الفظاعات. وأخيراً، جرى سجن آلاف الفوديين؛ ولم يتم إطلاق سراحهم إلا للسماح لهم بالانتقال إلى المناطق البروتستانتية في سويسرا وألمانيا.

ونضيف هنا أن العديد من القصائد الفودية بقيت لنا، وقد تم تأليفها باللهجة البروفانسية المحكية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. والأشهر بينها بعنوان La Nobla Leyczon[4]، وهذا مطلعها:

يا إخوتي، اسمعوا درساً نبيلاً:
علينا غالباً أن نسهر ونأخذ وضع الصلاة،
لأننا نرى هذا العالم قريباً من الخراب.
علينا أن نرغب في القيام بأعمال صالحة،

---

(1) أصدر راعي الكنيسة جان ليجيه في لايدن، عام 1669، كتاباً يروي فيه بالتفصيل تلك الحملة الرهيبة، مع محفورات تظهر لنا المضطهدين وهم يقطعون أعضاء الرجال ويخوزقون النساء، ويفسخون الأطفال ويلقون بالعجزة من أعالي حائط من الصخور.

(2) نسبة إلى الـPiémont وهي منطقة في شمال غرب إيطاليا(م)

(3) مرسوم أصدره هنري الرابع، عام 1598، لتسوية وضع الكنيسة الكالفينية في فرنسا(م).

(4) الدرس النبيل(م)

لأننا نرى هذا العالم يقترب من نهايته.
لقد مر ألف وخمسمئة عام بالتمام والكمال
على الساعة التي كتب فيها أننا في الزمن الأخير.

ولنذكرْ أيضاً بيتاً يختصر العقيدة الفودية:
L'Escriptura di, e nos creire ho deven[1].

ولا تزال الكنيسة الفودية موجودة إلى اليوم في منطقة تورينو، ولا سيما في فال دوست، حيث يحتفظ السكان حتى الآن بتعلُّق مؤثِّر باللغة الفرنسية. وهذه الكنيسة تشكل ظاهرة فريدة لبدعة هرطوقية من القرون الوسطى بقيت موجودة على الرغم من شتى أشكال الاضطهاد. لا بل لها أتباع على السفح الفرنسي بجبال الألب الكوتيّة: في عام 1927، حكم المجلس الحربي في مدينة ليون على رجلين من جبال الألب العليا، هما الأخوان بيرتالون، اللذان غادرا ساحة القتال عام 1914، لأسباب تتعلق برفض الحرب. كانا متحدرين من الفوديين القدامى، وقد خبأهما إخوتهما في الدين ثلاثة عشر عاماً. أليس مثيراً للفضول أن نرى كيف تستمر إلى الآن روح الدوفينيه غير الامتثالية، تلك المنطقة التي قدمت الملجأ دائماً للهراطقة المطاردين والتي كانت الأولى، في مجال آخر، التي أعطت إشارة الثورة الفرنسية؟

وإذا كان يمكن اعتبار بيار فالدو الجد الأبعد للبروتستانتية، فويكلف، وجان هوس بوجه خاص، هما رائداها المباشران والأصيلان.

## ويكلف واللولارديون

يأتي التعبير لولارد من الكلمة الألمانية Lüllen، أو الرندحة بصوت

---

[1] تقول الكتب المقدسة، وعلينا الإيمان بما تقول(م)

خافت؛ وكان يدل، في منطقتي الراين وبرابان، على أعضاء واحدة من تلك الجمعيات الدينية التي كانت، في أزمنةٍ تتكرر فيها الأوبئة باستمرار ويسقط ضحايا كثيرون، تعتني بالمرضى وتدفن الموتى. ولقد بات اللولارديون مشهورين في انكلترا بالضبط، لأنه جرى إطلاق اسمهم على الواعظين الأوائل، ثم على كل أتباع العقائد الويكلفية.

وفي حوالي العام 1360، كانت تُتداول ضمن الشعب الإنكليزي قصيدة بعنوان **رؤيا الفلاح بطرس**، يتم التنديد فيها ببخل رجال الإكليروس وجشع مبعوثي الكرسي الرسولي. وقد صاغ ويكلف، وكان أستاذاً في جامعة أوكسفورد، هذه الشكاوى بصورة منهجية، ثم أضاف إليها بعدئذ نقداً لمبدأ الأفخارستيا الإيماني. ولأجل نشر أفكاره، أسس هيئة من "الكهنة الفقراء" أو "الرجال الرسوليين" الذي كانوا يمضون، حفاةً وبرداء من الصوف الخشن، ليكرزوا بالإنجيل (الذي كان قد ترجمه إلى الإنكليزية) ويغتابوا الإكليروس الرسمي. وفي العام 1377، أرسل أسقف لندن، غويوم دو كورتناي، إلى البابا غريغوريوس الحادي عشر تسع عشرة قضية لويكلف اعتبرها مشبوهة؛ فأدانها البابا، ولكن لما كان ويكلف يحظى بحماية دوق لانكستر، الوصي على المملكة، أفلت من العقاب.

وقد دفع ويكلف نشر القرار البابوي الذي يشجب آراءه إلى توضيحها. وقد فعل ذلك في بحث سجالي بعنوان De ecclesia[1]، حيث يقول إن الكنيسة المناضلة هي مجمل المختارين، الناس الوحيدين الذين سيجدون الخلاص؛ لذا لا أحد، وإن كان البابا، يعرف إذا كان ينتسب حقاً إلى

[1] بخصوص الكنيسة(م)

الكنيسة. إن سلطة الحبر الأعظم والأحبار (الآخرين) هي سلطة مشروطة وكل مؤمن من حقه المجادلة فيها. وهو يمكنه وعليه فعل ذلك، مستنداً إلى نص الإنجيل. والخلاص مستقل عن وساطة الكاهن؛ والمختارون[1] (praedestinati) يمكنهم الوصول إلى الله بحرية وبصورة مباشرة. وبالطبع، فالغفرانات والحجوج والذخائر مدانة. وهذه جسارة فكرية لن يتجاوزها المصلحون الكبار. وجسارة في اللغة ايضاً تُنبئ بلوثر: البابا هو "المسيح الدجال متجسداً"، و"رجُل الخطيئة الذي يعظّم نفسه فوق الله"، "قائد جيش الجحيم"؛ يسكن في سدوم وعمورة، "في قصر رائع بني بمال الفقراء وميراث المصلوب". وقد مضى ويكلف بعدائه لجماعة الإكليروس إلى حد السؤال "لماذا لا يمكن أن يصعد إلى مركب بطرس علمانيون حصراً"؟

ولما كان سابقاً لهنري الثامن، أكد في كتابه **De officio regis** أن الأمير قائد أعلى في الكنيسة مثلما في الدولة وأن الحق الإلهي للملك أعلى من سلطة البابا والأساقفة القابلة للنقاش.

وعلى صعيد مبادئ الإيمان، لم يكن ويكلف ثورياً بالقدر الذي كانه بخصوص النظام (أو الانضباط). فهو ينتقد، في كتابه **De Eucharistia**، التصور "الوثني" للخبز والخمر اللذين يصبحان، بعد التقديس، مظاهر خالصة. فبالنسبة إليه، يكون خبز الذبيحة المقدس شيئين في آن معاً: خبزاً من حيث الطبيعة، وروحياً جسد المسيح؛ يبقى خبز الذبيحة خبزاً من حيث الجوهر، ولكن جسد المسيح موجود فيه بالقوة وعلى أساس السر المقدس، من دون أن ينزل مع ذلك من السماء حيث مستقرُّه. وقد أدان هذه النظرية دكاترة أوكسفورد وأنصار ويكلف عام 1381.

[1] أي الذين اختارهم الله منذ الأزل للخلاص(م)

والحال أن تمرداً فلاحياً اندلع في ذلك العام بالذات في انكلترا، وقد تسبّب به بؤس الأقنان كما تحريض أولئك الواعظين المتجولين الذي كانوا يهتفون بالجمهور على غرار الراهب المتمرد جان بال:

When Adam delved and Eve span
Who was then the gentleman?[1]

وقد روى لنا صاحبنا الطيب فرواسار، في الكتاب الثاني من جولياته (Chroniques)، "كيف أن كاهناً اسمه جان بال أحدث صدمة عنيفة لدى شعب إنكلترا العادي" : "ثمة عُرْفٌ في إنكلترا، وفي بلدان عديدة أيضاً، أن للنبلاء حقوقاً كبرى على رجالهم وهم يبقونهم في حالة القنانة؛ وهذا يعني أن عليهم قانوناً وعرفاً حراثة أراضي النبلاء... وهؤلاء الناس الأشرار بدأوا يحتجون لأنه، حسبما يقولون، يتم فرض عبودية كبرى عليهم، وفي بداية العالم لم يكن هناك أي أقنان... وقد حاك هذه الدسائس كاهن مجنون من كونتية كينت (Kent) يدعى جون بال... ففي أيام الاحد بعد القداس، حين يخرج كل الناس من الدير، كان يأتي إلى الدير أو إلى المقبرة، فيعظ هناك ويجمع الناس حوله ويقول لهم: أيها الناس الطيبون، لا يمكن أن تسير الأمور سيراً حسناً في انكلترا، طالما لم تصبح الأملاك مشتركة، وطالما بقي هناك فلاحون ونبلاء، ولم نصبح متوحدين جميعاً... فلنمض إلى الملك، فهو شاب؛ ولنظهر له عبوديتنا، ولنقل له إننا نريد أن تتغير الأمور أو نقدم لها العلاج. فإذا ذهبنا إلى هناك بالفعل وكلنا معاً، سوف يتبعنا كل الناس المعتبرين أقناناً، لكي يتحرروا". وبالفعل، فإن "الشعب العادي" بقيادة جون

[1] حين كان آدم يعزق (الأرض) وتغزل حواء من كان النبيل آنذاك؟

بال سار إلى لندن، ودخل البرج، وقتل العديد من الأعيان الكبار، ومن بينهم رئيس أساقفة لندن، الذي حُمل رأسه بصورة مظفّرة في الشوارع، فيما قبعة الحبر مسمّرةٌ على جمجمته. بيد أن السلطات تمالكت نفسها بسرعة؛ فشنق جون بال، ومعه ألف وخمسمائة متمرد. وكما سيفعل لوثر ذات يوم، في ذروة حرب الفلاحين، فإن ويكلف شجب التمرد، ولكن غويوم دو كورتناي، الذي أصبح رئيس أساقفة كانتربري، عقد في لندن، في العام 1382، مجمعاً أدان الاقتراحات التي دعا إليها "الكهنة الفقراء". أما ويكلف الذي تخلى عنه حاميه دوق لانكستر، فاضطر لترك كرسي الأستاذية الخاص به في أوكسفورد؛ ولكنهم تركوا له الأبرشية الغنية التي كان راعيها. وقد توفي بعد عامين، بعد أن أصيب بالفالج فيما هو يحتفل بالقداس.

بيد أن الهرطقة لم تختف إطلاقاً. وقد كتب أحد مدوّني الاخبار في ذلك الزمن ما يلي: "لا يمكنكم رؤية خمسة رجال يتكلمون معاً من دون أن يكون ثلاثة منهم لولارديين". لذا نشر الملك هنري الرابع في العام 1401 قانوناً للهراطقة (Statute of Heretics) يجيز للأساقفة ليس فقط أن يسجنوا كل من كانوا يكرزون بعقائد زائفة، أو يكتبون أو يقرأون كتباً تعرضها، بل أيضاً، في حال رفض المساجين أن يتراجعوا (عن تلك العقائد)، أن يسلموهم إلى ضباط التاج ليتم حرقهم في الساحة العامة. ولقد كانت مقاومة الهراطقة أعظم عناداً وتصلباً كلما كانت تقودهم شخصيات سامية المقام، على سبيل المثال كونت سالزبوري. لقد كانت هناك حالات تمرد ومؤامرات؛ وقد أفضت إحداها إلى إدانة 39 قيادياً لولاردياً وإعدامهم.

هذا وبالإضافة إلى عناصر هرطوقية بحصر المعنى — كنفي استحالة

القربان (إلى جسد المسيح ودمه)، وإدانة الغفرانات، والتعبدِ للصور والذخائر، وحتى للقديسين – اتخذت الويكلفية شكلاً اجتماعياً. ولهذا السبب بوجه خاص، جرى اضطهادها، لأن عقيدة زعيمها (الدينية) لم تكن لتزعج عموماً الطبقات السائدة في إنكلترا، التي كانت قد أصبحت ميّالة آنذاك إلى مناهضة البابوية.

وبخصوص تمرد اللولارديين على السلطات المدنية، تنطرح مسألة تُناقش باستمرار في أيامنا هذه، ألا وهي مسألة "الخمير الثوري" في الإنجيل. ومن دون الدخول في تفاصيل مساجلة رائجة إلى الآن، سوف نورد فقط كلمة ناقد ألماني يبدو أنه يلخصها ويختمها. لقد كتب هذا المؤلّف: "ليس الإنجيل ضد المجتمع، إنه فوق المجتمع". فبالفعل، إذا كان تعليم يسوع يذكّر أحياناً بابيونيّة[1] الأنبياء اليهود (ويلٌ لكم، أيها الأغنياء"! ـ "لا يمكنكم أن تخدموا الله ومُمون[2]". ـ "النبأ السار يُبشَّر به الفقراء"، فهو لا يقول في أي مكان إنه يجب إرساء المساواة عبر قلب البناء الاجتماعي. ما يشترطه إنما هو إصلاح أخلاقي، وهذا يظهر بوضوح في المثل المشهور: "إنه لأسهل على جملٍ أن يمر في خرم الإبرة من أن يدخل غني في ملكوت الله". وليس الغنى سيئاً إلا لأنه يفسد النفس. لذا يَضِلُّ، في رأينا، من يرتأون، على غرار الإنكليزي مورِّس (Morris) في كتابه الصادر حديثاً[3] بعنوان الأصول المسيحية للتمرد الاجتماعي (The Christian Origins of social revolt)، إرجاع الاشتراكية وحتى الماركسية إلى الهرطقات المساواتية في القرون الوسطى.

---

(1) تسمية أطلقت على بدع مسيحية ويهودية متنوعة كانت منتشرة في آسيا بوجه خاص في القرنين الثاني والثالث(م)

(2) كلمة آرامية مستخدمة في الإنجيل لتجسيد الثروات ذات المصادر المشبوهة(م)

(3) مجدداً، يجب الانتباه إلى أن الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي صدر في العام 1950(م).

فهذا المؤلّف يسجّل أن جان دون بارم، الرئيس العام للآباء الفرنسيسكانيين، ، عُزل في العام 1254 لأنه ساند "يسار" الرهبانية، أي أنصار الفقر الكلي؛ وأن "الإخوة الرسوليين" تعرّضوا، في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، للاضطهاد في إيطاليا لأسباب مماثلة، وهكذا دواليك. كل ذلك صحيح، ولكنه لا يبرهن إطلاقاً على أن المسيحية كانت سبباً لحركات التمرد. لقد كانت فقط أداتها، وذلك بتقديمها لقادة تلك الحركات حججاً ووسائل تأثير في روح الجماهير.

فضلاً عن ذلك، فتلك الجماهير كانت تنتفض ضد ملكية الإكليروس، وضد ملكية النبلاء وليس ضد مبدأ الملكية بالذات. وفي ذلك، تختلف مطالبها بشكل جوهري عن مطالب دعاة الملكية الجماعية في أيامنا هذه. لذا ثمة مخاطرةٌ في الوقوع في مفارقة تاريخية محفوفة بالأخطار حين يجري خلط اسم كارل ماركس بأسماء أرنولد دو بريسيا، أو بيار فالدو أو ويكلف. ولا يعني ذلك أننا ننكر أن صراع الطبقات لعب دوراً في حوليات الدين المسيحي وأن مؤرِّخ الكنيسة العلاّمة دولينجر كان على حق حين كتب: "لقد كان لكل العقائد الهرطوقية التي ظهرت في القرون الوسطى، بصراحةٍ وبصورة ضمنية، طابعٌ ثوري". ولكن حركة التمرد الاجتماعي هذه إذا كانت موازية لغليان الابتداعية العقيدية، فهي لم تكن تمتُّ إليه عضوياً بصلة نسب. فصراع الطبقات ظاهرة دائمة في التاريخ البشري، وُجِدت قبل المسيحية، وعلى سبيل المثال في المدن الإغريقية وفي الجمهورية الرومانية، ولا تزال موجودة. لقد ولد سبارتاكوس قبل قرن من يسوع، وهذا الأخير يتجاهله اتحاد الشغيلة العامُّ الحالي، إذا لم يكن يشنِّع عليه. ودعونا نكرر أنه إذا كانت الفكرة المسيحية خدمت الثورة أحياناً، فهي لم تكن سببها ولا أصلها.

## جان هوس والحركة الهوسِّية

سبق أن رأينا ان بيار فالدو، الهارب من محققي محكمة التفتيش في بيكارديا، انتقل إلى بوهيميا حوالى نهاية القرن الثاني عشر. في ذلك البلد السلافي، ذي الورع القلِق والغزيرة المساواتية، الذي كانت الكاثارية قد دخلت إليه منذ زمن بعيد، سرعان ما بات لمبتدع الهرطقة أتباع باسم "إخوة الفقر الطوعي وأخواته"، أو "إخوة الروح الحرة". وكان أولئك البدعيون يجمعون إلى ازدراء الثروات ازدراء كبار رجال الإكليروس وحتى ازدراء الأسرار. لذا اهتمت محكمة التفتيش بهم مراراً، ولا سيما في العام 1318، حين تم إحراق بعض "الفوديين" في براغ.

كانت الهرطقة البوهيمية تتعقد، من جهة ثانية، بالنزعة القومية؛ فلقد كانت ضد رجال الكنيسة، ولكنها كانت مناهضة أيضاً للجرمانية. ذلك أن الألمان كانوا يتصدَّرون في المملكة، والبلاط، والإدارة وجامعة براغ. وكان عامة الشعب والبرجوازية الصغيرة، وهم تشيكيون عِرْقاً ولغةً وشعوراً، يتحملون على مضض ملكاً ونبلاء وكبار رجال دين متحوِّلين إلى الجرمانية. ولم تكن المعارضة تنتظر سوى قائد لتنتظم وتقاتل علانية؛ ولقد وجدته في شخص أحد ألد خصوم الكنيسة الرومانية الذين صادفتهم في طريقها.

كان جان هوس[1]، المولود حوالي العام 1370 لعائلة فلاحين تشيكيين، قد أصبح كاهناً منذ العام 1402، ورئيساً لجامعة براغ. ولما كان واعظاً مفعماً بالحرارة والحماس قدر ما كان لاهوتياً حاذقاً، كان يجتذب الجمهور إلى كنيسة بيت لحم في المدينة القديمة، حيث يلقي عظاته باللغة العامية، وكان

[1] تعني كلمة hus "الإوزة" باللغة التشيكية، لذا كان مبتدع الهرطقة يوقّع باسم Auca (أوكا) كتابته اللاتينية(م)

يعلم طلابه الواقعية، وحقيقة الأجناس والأنواع، متخذاً موقفاً واضحاً في النزاع السكولاستيكي بخصوص الكليات والأفكار العامة، في حين كان الأساتذة الألمان، ذوو الروح التجريبية أكثر مما هي مهتمة بالماورائيات، يدافعون عن الإسمانية، منكرين إمكانية أن يكون الكون ملموساً. ويبدو أن هوس تأثر هنا بنظريات ويكلف الذي كان سائد، في نزاعات المدرسة، واقعية تقارب الحلولية.

كانت الويكلفية قد نالت، في الواقع، حظوة كبيرة جداً في بوهيميا إلى حد أن الأساتذة الأورثوذكسيين في جامعة براغ وجدوا أنفسهم مضطرين لإدانة أطروحاتها في العام 1408. أما جان هوس فلم يعر ذلك أي اهتمام وترجم إلى التشيكية الـ**Trialogus**، النتاج الأساسي لمبتدع الهرطقة الإنكليزي. وقد بات النزاع حاداً واتخذ مظهراً سياسياً حين عمد الملك وينشسلاس، الذي التحق بالنزعة القومية المحيطة، إلى طرد الأساتذة والطلاب الألمان من الجامعة. فثار الفاتيكان، وانفجر قرار صادر عن البابا اسكندر الخامس في وجه الهراطقة، وأمر رئيس أساقفة براغ بحرق كتبهم وحرم جان هوس. فاحتج هذا الأخير معلناً ما يلي: "كل الشعب البوهيمي متعطش إلى الحقيقة، وهو لا يريد أن يعرف غير الإنجيل والرسائل... إن ملكنا، وكل بلاطه، والبارونات والشعب العادي يؤيدون كلام المسيح". وهو تصريح يبدو لنا واضحاً أنه يجسِّد سلفاً المظهرين النوعيين الخاصين اللذين سيتخذهما الإصلاح الديني: الديني والسياسي، (أو) الإنجيلي والوطني. وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن هوس كان اللاهوتي الأول في الغرب، الذي كتب أبحاثاً تتعلق بمبادئ الإيمان باللغة العامية؛ وقد كان ذلك تجديداً جريئاً.

إلا أن مبتدع الهرطقة تعرَّض في العام 1411 للحرم البابوي. وهو ما لم يمنعه، في العام التالي، من المشاركة بنشاط في نزاع الغفرانات الذي كان يثير الاضطراب في بوهيميا آنذاك. كان الشعب الهائج ضد الكهنة، يصرخ: "علينا طاعة المعلم الصادق هوس لا عصابة الدجالين، والزناة والسمعانيين". وقد جرى قطع رؤوس ثلاثة شبان معترضين، كانوا الشهداء الأوائل للكنسية الهوسية اللاحقة. وبناء على نصيحة الملك ونشسلاس وزوجته، الملكة صوفيا، غادر هوس العاصمة وعاش لدى سادة متنوعين في الضواحي، حيث كتب عدة أبحاث لاهوتية، من بينها De Ecclesia[1]، الذي يقلّد فيه كتاب ويكلف الذي يحمل العنوان عينه. لقد بلغت تلك الهرطقة أحجاماً دفعت البابوية لاتخاذ القرار بعقد مجمع مسكوني كبير، في العام 1414، في كونستانس، من شأنه إعادة وحدة العقيدة والنظام إلى الكنيسة. وقد دعي جان هوس للذهاب إلى هناك، وسلّمه الإمبراطور سيجيسموند جواز مرور لهذه الغاية. فذهب، كما قال، لأجل فرض "الاعتراف بالمسيح علانية، أو إذا اقتضى الأمر الموت هناك لأجل شريعته". ومن الواضح أنه لم تكن لديه أوهام بخصوص المصير الذي كان ينتظره. فبالفعل، ما إن وصل إلى كونستانس حتى جرى توقيفه والإلقاء به في زنزانة في دير الدومينيكانيين، ثم في قلعةٍ أُخرج منها بعد ستة أشهر لجعله يمثل أمام قضاته.

كان المجمع يضم 29 كاردينالاً، و33 رئيس أساقفة، و150 أسقفاً، و500 راهب، و1800 كاهن. وكانت الجامعات قد أرسلت دكاترتها الأكثر علماً، وجامعة باريس جرسون الشهير. وقد دام تفحص عقائد هوس

---

[1] بخصوص الكنيسة(م)

خمسة أسابيع. وهي عقائد دافع عنها بموهبة وشجاعة وعناد، ويمكن تلخيصها على الشكل التالي: ليست الكنيسة سوى "مجتمع المختارين منذ الأزل"، وأولئك الذين قضى الله بهلاكهم لا يمكنهم أن يكونوا جزءاً من الكنيسة، جسد يسوع المسيح الروحاني؛ الإيمان وحده يخلّص؛ ليس القديس بطرس حجر الأساس، ولا هو رأس الكنيسة الحقيقي؛ ويمكن أن تقاد هذه من دون نائب ليسوع المسيح؛ الكتاب المقدس وشريعة المسيح هما قاعدة الإيمان الوحيدة؛ أما مراسيم البابوات فلا تستحق الطاعة إلا إذا كانت تتوافق مع هذه الشريعة، وكل واحد حر في الحكم على ذلك؛ تنبغي المناولة بتلقي الخبز والخمر كليهما؛ يجب رفض الاعتراف السماعي، لأن توبة القلب كافية للخلاص. وهي أطروحات كانت تبشّر، عبر الأهمية التي توليها للفكر النقدي، بعصر النهضة، كما بالإصلاح الديني.

كان رئيس المحكمة الكنسية، العلاّمة في السوربون بيار دايّي، إسمانياً متحمساً تتضاعف صرامته اللاهوتية بحقد سكولاستيكي. وكان التحقيق على درجة من التحيز بحيث كان القضاة، الذين يجهلون اللغة التشيكية، يعتمدون على أعداء شخصيين للمتهم لأجل ترجمة تصريحات الشهود العلمانيين. وفي الاخير، أدان المجمع الطروحات الويكلفية (لم يكن يقال بعد "هوسية")؛ وقد صدر الأمر بحرق المؤلفات التي كتبها جان هوس، ثم جرى عزله وتسليمه للسلطة المدنية. فأقام حاكم كونستانس محرقة في إحدى ساحات المدينة صعد إليها جان هوس، من دون أن يتخلى لحظة واحدة عن شجاعته المدهشة، وذلك في 6 تموز/ يوليو 1415. وقد هتف ثلاث مرات قبل أن يموت: "أيها المسيح، ابن الله الحي، ارحمنا". وقد ألقي برماد مبتدع الهرطقة في نهر الراين، والأمر نفسه حصل مع رماد تلميذه وصديقه

الفارس جيروم دو براغ، الذي صدر الحكم بحقه وجرى إحراقه بعد أشهر. وكان جيروم هذا قد حصل من السوربون على درجة أستاذ في الفنون واطلع في أوكسفورد على عقائد ويكلف. وهو الذي تمتم، قبل وفاته، وهو يرى عجوزاً تقدِّم حزمة حطب للمحرقة، من أجل كسب الغفران الموعود به لهذه الغاية: Sancta simplicitas[1]؛ وهي كلمة تحدد تماماً الإيمان الساذج لدى من لا يناقش، لدى "مؤمن الشارع". فلننشر أيضاً إلى ما كتبه الكاردينال بيكوليميني، الذي سيصبح لاحقاً البابا بيوس الثاني، وكان شاهداً لكل تلك المشاهد: "لقد سار هوس وجيروم إلى التعذيب كما لو كانا يسيران إلى مأدبة دعيا إليها". أثارت محاكمة جان هوس ووفاته، بالطبع، استنكاراً عنيفاً في كل أنحاء بوهيميا. لقد خسرت زعيماً دينياً وسياسياً، مدافعاً عن إيمانها وعرقها، وكانت البابوية هي التي تتحمل مسؤولية موت بطلها الوطني. وبعد أن كانت الهرطقة ويكلفية أصبحت هوسية، ولما كانت تهددها قوات الإمبراطور سيجيسموند، سرعان ما انتقلت من الصعيد اللاهوتي إلى الصعيد العسكري.

كانت قد تشكّلت بدعتان في بوهيميا: إحداهما، وهي الاكثر اعتدالاً، كان ينتسب إليها نبلاء وبرجوازيون أغنياء، كانوا يسمون كاليكستيين أو أوتراكيين لأنهم كانوا يطالبون بالمناولة **in utraque specie**، أي والخمرة موضوعة في كأس (**calix**)؛ والأخرى، وهي اكثر جرأة، هي بدعة التابوريين، المدعوين هكذا انطلاقاً من مركزهم، تابور[2]. في تلك المدينة

---

[1] يا للسذاجة المقدسة(م)

[2] Tabor كلمة شرقية تعني "المكان المحصَّن"، ولكن بسبب مصادفة موفّقة، كانت قلعة الهوسيين تذكّر، باسمها، بجبل ثابور الذي تجلّى فوقه المسيح.

بالذات، وكانت قلعة وعرة، نظّم جان زيزكا، تلميذ جان هوس المستبسل، القيادة العامة لمقاومة القوات الإمبراطورية. فمنذ محرقة كونستانس، كان قد بات قائد الهرطقة الهوسية قائداً عسكرياً بوجه خاص، لأنه كان مخططاً عسكرياً مرموقاً. وقد اخترع عربات حرب من النوع الحديث، ودافع بنجاح عن بيلسن في وجه جنود الإمبراطور في العام 1419، وفي العام السابق، كان قد لجأ إلى أول "قذف من النافذة في براغ": كان أنصاره قد استولوا على مبنى البرلمان، وألقوا من النوافذ بالمستشارين الكاثوليك للملك وينشسلاس، الذين قتلهم بعد ذلك عامة الشعب. وبما أن وينشلاس قضى نحبه بعد أيام قليلة، خلفه أخوه الإمبراطور سيجيموند كملك لبوهيميا، وعهد بالوصاية إلى الملكة صوفيا. وفي كانون الأول/ديسمبر 1419، استقبل سيجيسموند في برون وفداً رسمياً هوسياً طلب منه القبول بالنقاط الاربع التالية: حرية الوعظ، المناولة على أساس الخبز والخمر، الفقر الرسولي للإكليروس، إنزال العقاب بالخطايا المميتة كالسمعانية والإخلال بالواجب (في الوظيفة). فكان جواب الإمبراطور مراوغاً، ثم مضى إلى بريسلو، حيث كان قد حدث تمرد شعبي ضد الإدارة الملكية، وأمر بإعدام علني لـ23 متمرداً. وبعد قليل، أعلن بصورة جازمة وقوفه ضد الهرطقة التي تهدد وحدة ولاياته؛ وقد حكم على أحد الهوسيين بالموت على المحرقة، وأمر بأن يُقرأ في الكنائس قرار البابا مارتينوس الخامس الذي يدعو المؤمنين للقيام بحملة صليبية ضد المتمردين. وقد توحَّد إزاء الخطر الكاليكستيون والتابوريون. وتحت القيادة الحاذقة لزيزكا المقدام، هزمت قواتهم في تشرين الثاني/نوفمبر 1420، الجيش الإمبراطوري الذي كان تعداده ثمانين ألف رجل. وفي شهر شباط/فبراير التالي، جرى رد حملة جديدة ضد بوهيميا بامتياز. كان التابوريون

يهاجمون الآن ويستولون مجدداً على العديد من المدن والبلدات التي كانت قد بقيت كاثوليكية. وفي أيلول/ سبتمبر 1421، ظهر سيجيسموند مجدداً على رأس جيش من 200 الف رجل، ولكن بعد أن منيت قواته بخسائر فادحة اضطرت للارتداد ما وراء الحدود من جديد.

تلت ذلك فترة هدوء. وقد مات زيزكا بالطاعون في العام 1424. أما خليفته، بروكوبيوس الأصلع فكان مساوياً له في الموهبة العسكرية وراح يثير الرعب في صفوف أنصار الإمبراطور. وقد هزمهم مراراً، واستولى على التوالي على هنغاريا، والساكس وسيليزيا. وفي حين كان سيجسموند منشغلاً بحربه ضد الأتراك، بادر أمراء الإمبراطورية الآخرون في العام 1427 إلى حملة صليبية جديدة ضد أولئك الساخطين الذين يهددون النظام الديني والنظام الاجتماعي في آنٍ معاً، فهزمهم التابوريون بصورة مخجلة. وفي العام 1431، بعد أن دعا مارتين الخامس إلى إنعقاد مجمع عام في بال، ذهب بروكوبيوس إلى هناك ودافع في المجمع عن الاطروحات الهوسية: إصلاح عادات رجال الإكليروس؛ إلغاء الأرباح الكنسية؛ المناولة على أساس الخبز والخمر في آنٍ معاً. ولكن فشل المجتمعون في الاتفاق، وحمل بروكوبيوس السلاح من جديد. ومن جديد، هزم الألمان وبدا يهدد كل العالم المسيحي. ولكن حدث انشقاق بين الكاليكستيين والتابوريين: فنبلاء بوهيميا الذين كانوا قد ساندوا الحركة في البدء على أمل أن ينتزعوا من الكنيسة لمصلحتهم أملاك الوقف، أرعبهم آنذاك منحى الأحداث الثوري. وكان التابوريون منقسمين هم أيضاً، فالنظريات الشيوعية التي كان يقول بها بعض قادتهم لم تكن تروق إطلاقاً للطبقة الوسطى والفلاحين. كما أن قواتهم كانت قد فقدت معنوياتها، من جهة أخرى، بسبب الاعتياد على

الحرب والنهب. كما أن أصحاب بدع راحوا يشكّلون، أخيراً، حالات انشقاق داخل الحركة الهوسية، من أمثال الألفيين والآداميين الذين كانوا ينصرفون إلى شتى أنواع الفجور، الأولون لأن نهاية العالم كانت تقترب، والآخرون لأجل بلوغ الكمال. وفي الأخير، بعد أن هُزم التابوريون في العام 1434، خلال معركة قُتل فيها بروكوبيوس، اضطروا لأن يعقدوا معاهدة مع سيجسموند إذ تضمن لهم بعض الامتيازات، تضع حداً (في الوقت نفسه) للهرطقة. أما الأوتراكيون، الذين كانوا قد حصلوا من مجمع بال على السماح لهم بالمناولة على أساس الخبز والخمر، فقد ذابوا في الأخير في الكاثوليكية.

لقد كانت الهوسية، مثلها مثل الويكلفية، حركة انتقلت، بواسطة الآفاق الإنجيلية التي كانت تفتحها أمام تطلعات الطبقات المستَغَلّة، من الصعيد الديني إلى الصعيد الاجتماعي. ولقد كانت أيضاً حركة وطنية، ردَّ فعل للشعور التشيكي ضد النير الألماني، وحلقة من الصراع الألفي بين السلافيين والجرمان. لقد كانت الهوسية تبشر، عبر هذا المظهر الوطني، بالطريقة التي سوف يُستخدم بها الإصلاح الديني، في ما بعد، لأهداف سياسية، وذلك في بلدان عديدة.

ويمكن أن نُلحِق بالتيارات الإنجيلية لما قبل الإصلاح الديني، محاولة سافونارولا، في القرن الخامس عشر، أن يخلق في فلورنسا جمهورية تيوقراطية وطهرانية. كان راهباً دومينيكانياً، وكان طبعه الحاد يدفعه لأن ينتقد بعنف عادات عصره الفاسقة وذلك الفساد الذي لم يكن يوفر كبار الاحبار. وقد جعلته مواعظه البليغة، المزروعة بنبؤات رؤيوية، معبود الجمهور الفلورانسي. وقد وصف لنا أحد تلامذته المشهد كالتالي: "غالباً ما

رأيت الشعب معلقاً على شفتيه، كما لو كان يجتذبه نَفَسُهما الجبار، مرتعشاً من الحمّى والخوف، ذارفاً الدموع، مطلقاً أحياناً صرخات قلق إزاء النبرات الرهيبة التي كات تعبر له عن الغضب الإلهي". ومفهومٌ أن خطيباً، وحامياً شعبياً من طينةٍ كهذه تمكّن من أن يصبح، في غليان النهضة الإيطالية، ديكتاتور المدينة المشهورة التي اعقب الحريةَ الفرِحةَ التي كانت تصنع شهرتها طغيانُ نظام عفةٍ قسرية. ولقد حظر البابا اسكندر السادس، غير المهتم كثيراً بالطهرانية، بلا ريب، على سافونارولا أن يعظ، وبوجه خاص أن يتنبأ. إلا أن هذا لم يعر ذلك اهتماماً وانفجر، في الصوم الكبير للعام (1497)، باللعنات: "هي ذي الكنيسة، العاهرةُ الجالسة على عرش سليمان، تومئ لكل المارَّة؛ وكل من لديه المال يدخل ويصنع كل ما يحلو له؛ ولكن من يريد الخبز يُلقى به في الخارج". وقد ألقى البابا عليه الحرم عند ذاك، فرد سافونارولا على ذلك قائلاً: "إن أعمال الحرم رخيصة في أيامنا هذه، وفي وسع كل واحد لقاء أربع ليرات، أن يستصدر حرماً ضد من يحلو له فعل ذلك ضده". وواصل قائلاً: "تذهب العاهرات علانية إلى القديس بطرس. فلكل كاهن خليلته". وخلص إلى القول: "ذلك الذي تعاملونه كابن للهلاك الأبدي لا ينفق على عشيقة ولا على غلام، إنه يعظ بإنجيل المسيح". وقد كان ذلك صحيحاً، باختصار، ويعترف المؤرخون الكاثوليك بأنفسهم بأن سافونارولا لم يعتنق هرطقات وأن التجاوزات التي كان ينتقدها في الكنيسة لم تكن، للأسف! إلا الحقيقة بعينها. وبما أن رسالة بابوية هددت فلورنسا بالحظر، تخلى قسم من السكان عن سافونارولا. وكان لديه، فضلاً عن ذلك، الفرانسيسكان والسلطات المدنية كخصوم. وقد ألقي به في السجن، وبعد التعذيب أقر بأن نبوءاته تأتي من إلهامه

الخاص به وليس من الله. وقد حُكم عليه بالموت، وأُحرق في 24 أيار/مايو 1498، وألقي برماده في نهر الأرنو[1]. وقد ترك لنا الرسام فرا بارتولوميو صورة مؤثرة للطهراني المتمرد الكبير.

[1] نهر يمر في فلورنسا (في إيطاليا) ويصب في البحر المتوسط ويبلغ طوله 241 كيلومتراً(م)

# الفصل الرابع

## البدع البروتستانتية

مع أن المصلحين الدينيين الكبار في القرن السادس عشر والبروتستانت الأوائل وُصفوا بالهراطقة وعاملهم الكاثوليك كهراطقة، ومع أن الكنيسة الرومانية لا تزال تطلق هذا التعبير على البروتستانت، لا يسعنا، في كتاب كهذا، أن نعتبر الطوائف البروتستانتية الكبرى بدعاً. إنها كنائس حقيقية تمثل بهذه الصفة سلطة إذا كان البعض يجادل فيها، فالكثيرون يقبلون بها. ولكن بسبب أنها ولدت من مبدأ حرية التفكير، فهي تصطدم، أكثر بكثير من الكنيسة الرومانية، بهجمات غير الامتثاليين؛ لذا فقد ولّدت انشقاقات لا تحصى، أكانت عقيدية أو طقسية. وهذه الانشقاقات وحدها سوف نطلق عليها اسم "بدع بروتستانتية[1]".

وسواء تعلق الأمر بكنيسة أو بدعة، تتميز الطوائف البروتستانتية بملمح كان قد بات واضحاً في الهوسية، ولكنه كان شبه مجهول في هرطقات العصر الوسيط بحصر المعنى والقرون الأولى: إنه طابعها الوطني. لم يعد الدين ظاهرة كوسموبوليتية، ولم يعد المعتقد مجموعة أفكار ومشاعر مستقلة عن شروط المكان، إنه طريقة للتفكير في الأمور الإلهية تستجيب متطلبات جغرافية، أو عرقية أو سياسية. وباختصار، لم يعد الدين كاثوليكياً، بمعنى الكلمة.

هذا الطابع الوطني يظهر في شخصية المطلقَيْن الكبيرين للإصلاح الديني

---

[1] لقد كتب بوسوييه هو نفسه تاريخ التغيُّرات في الكنائس البروتستانتية، وهو لا يعطي اسم بدع إلا للجماعات التي انفصلت عنها.

بحد ذاتها. فأي تناقض، في الواقع، بين لوثر وكالفن! الأول ألماني، ابن فلاحين تورنجيين، راهب ضخم أحمر كالدم وفظ يرمي محبرته، وهو في حجرته، في وجه الشيطان، وما أن يطلّق حياة الترهب حتى يقسو على نفسه، ويصرخ ويكيل الشتائم. أما الثاني، وكان فرنسياً من الشمال[1]، نحيل الجسم وبارد الأعصاب، ولحيته الصغيرة ضامرة كحد الشفرة، فكان كله عقل وكله صرامة ودقة.

وبصورة أشد وضوحاً أيضاً، تعكس البدع البروتستانتية طبع الشعوب التي أبصرت فيها النور: "إذا كانت صوفية أو تقوية في ألمانيا، وطهرانية أو ذات ميول اشتراكية في إنكلترا، فهي تترك نفسها تُفتتن، في الولايات المتحدة، بكل تفسيرات الكتاب المقدس الممكنة، تماماً كما كان رواد الغرب البعيد (الـFar West) يُفتتنون بنداء البراري اللامحدود. (بينما) تختلف تماماً اللوحة التي تقدمها لنا الأمم اللاتينية: بما أنها اقل ميلاً من الأمم الجرمانية إلى الفردية الدينية، فإن جسمها أفرغ، طوعاً، بذور الانشقاق التي كانت دخلت إليه بفعل الاضطراب الاخلاقي للنصف الأول من القرن السادس عشر. ففي إسبانيا، كان طرد العناصر الدخيلة عنيفاً وقضت محارق التفتيش في الوقت ذاته على البروتستانت واليهود والمغاربة. وفي إيطاليا، استخدم محققو التفتيش قدراً أقل من الهوى الجارف، ولا سيما أن مهمتهم كانت أسهل: فالشعب، هو نفسه، فضّل بسبب طبيعته المحبّبة والفنانة الجمال الحنون للعبادة الكاثوليكية على التصلب الحزين للموعظة البروتستانتية. وفي

[1] هل لاحظ أحد القرابة العرقية والسيكولوجية بين كالفن، اليكاردي، وروبسيار، الأرتيزياني؟ كلاهما، وهما مثالان لذلك التعصب الفرنسي الذي يوحي به شغف فكري تماماً، يدفعان بمنطقهما إلى خلاصات لا رحمة فيها: التقدير prédestination (أو حتمية المصير بالنسبة للنفس من جهة الخلاص والهلاك) والمقصلة.

فرنسا، لم يكن يمكن روح النهضة والإصلاح الديني أن تزعج شعباً سريع التوجه إلى النقد ، ولو أن البلد كان منقسماً كألمانيا إلى عدة دول سيدة، لكان أمكن أن نرى أكيتان[1] تشكل الكالفينية إيمانها الرسمي. ولكن الوحدة السياسية كانت تتطلب، في أفكار تلك الحقبة، الوحدة الدينية. وقد نتجت من ذلك حروب مريعة، وإذا كان هنري الرابع، الهرطوقي التائب الذي صار كاثوليكياً فاتراً، نجح في تهدئتها، فقد حاول حفيده لويس الرابع عشر أن يجددها، بتأثير من مدام دو مانتونون، وكانت هرطوقية تائبة أصبحت كاثوليكية شديدة الحماس. إلا أنه، على رغم الاضطهادات، نجحت البروتستانتية في البقاء؛ ولكن لما كانت نصف سرية، التزمت بدقةٍ بعقيدتها ولم تتجزأ إلى بدع.

بعد أن درس بوسوييه، لوقتٍ طويل، "التغيرات" التي ولّدتها مسجالات اللوثريين، والكالفينيين، و"الزوينغليين" والأنغليكانيين، خلص إلى ما يلي: "كانت هذه الحقائق العامة بخصوص الانقسام أساس الإصلاح الديني، لأن هذا الإصلاح تم عن طريق قطيعة شاملة؛ ولم يتم التعرف فيه إطلاقاً إلى وحدة الكنيسة. لذا فإن تبدلاته ، التي أنجزنا الحديث عن تاريخها، أظهرت لنا ماذا كان، وبالتحديد مملكةً فاقدة الوحدة، منقسمة على نفسها، وهو ما سيسقط عاجلاً أم آجلاً". لم يكن علم النفس الإثني موجوداً في أيام بوسويه، وإلا لكان أمكنه أن يفترض أن "مملكة فاقدة للوحدة"، لدى الشعوب ذات الأصل الجرماني ولا سيما الأنغلو – ساكسوني، يمكن أن يكون لها رعايا مخلصون.

[1] منطقة فرنسية كانت تمتد في البدء من اللوار إلى جبال البيرنيه ومن المحيط الأطلسي إلى السيفين (م)

## هراطقة البروتستانتية

لقد اشرنا في المقدمة إلى أن الإصلاح الديني وجد نفسه منذ البداية إزاء مشكلة الهرطقة: هل كان عليه في هذا الصدد أن يواصل تصلّب العصر الوسيط أو أنه سيرضخ لنسمة الحرية التي كانت تعطي الرأي الفردي حقوقاً لم تكن معروفة سابقاً؟ لقد تردد لبعض الوقت، وهذا لم يكن أكثر وضوحاً، في أي مكان، مما في سلوك لوثر في أيام حركة تجديد العماد.

إن جماعة تجديد العماد منشقّون من أنصار الإصلاح الديني كانوا يؤكدون أنه بما أن على الإيمان أن يسبق العماد، فمن سبق أن عُمدوا في طفولتهم يجب أن يتلقوا العماد مجدداً بعد أن يبلغوا السنّ التي يكونون فيها قادرين على الإيمان. هذا وإن أصل عقيدتهم غامض، وهم معروفون بوجه خاص بالدور الذي لعبوه في حرب الفلاحين في ألمانيا، وكان دوراً اجتماعياً أكثر مما دينياً.

ففي بلد كانت الروح الاقتصادية قد أبقت فيه من دون قيود سلطة الأسياد العلمانيين والكنسيين، كان شعب الأقنان في قمة البؤس؛ لذا كان يسهل إغراؤه بخُطب أولئك الذين كانوا يتنبأون بمملكة الله في شكل نظام حكم لا يعود فيه أغنياء أو فقراء. وقبل وقت طويل من الهزة التي أحدثها الاصلاح الديني في النفوس، كانت قد وقعت تمردات فلاحية في ألمانيا، وقد تعقدت دائماً تقريباً بالهرطقة الدينية. فحوالي العام 1476، كان راعٍ شاب، هو هانز عازف الناي، يروي للشحاذين في أسقفية ووتزبورغ أن العذراء ظهرت له وبشرته بأنه لن يكون هناك بعد الآن أقنان أو سادة، وأن كل الناس سيكونون إخوة؛ وقد توصّل إلى جمع جيش بلغ تعداده حوالى 30 ألف فلاح كانوا يستعدون، وفي إحدى يديهم مشعل وفي الأخرى

سلاح، للانتقال إلى "العمل المباشر"؛ بيد أن أسقف وورتزبورغ نجح في اعتقال هانز عازف الناي وفي أن يهدّئ أنصاره البسطاء بمعسول الوعود. وحوالي نهاية القرن الخامس عشر، شكل فلاحو الألزاس رابطة الـBundschuh، (أو "القبقاب[1]")، التي كانت تطالب في آنٍ معاً بإبادة المرابين اليهود، وإلغاء الديون المتأخرة، والاعتراف السماعي، والمحاكم الكنسية والإمبراطورية. وفي عيد الفصح في العام 1493، كان تمرّد على وشك الاندلاع، ولكن جرى اكتشاف المحرضين عليه، وتعذيبهم وإعدامهم. بيد أن البدعة واصلت عملها السري في ألمانيا الجنوبية وسويسرا؛ ومن المثير للفضول أنها كانت تطالب بإلغاء الولايات الإقطاعية وتوحيد ألمانيا سياسياً. وكان أتباعها يحملون رايات رُسم عليها قبقاب؛ وبما أن قادتها حاولوا الاستيلاء على فريبورغ – آن – بريسغو، جرى اعتقالهم، ثم إعدامهم في العام 1513. وفي العام التالي، تسببت بدعة أخرى، تدعى بدعة كونراد الفقير، باضطرابات في وورتمبرغ. لم يكن كل ذلك سوى تمهيد لحرب الفلاحين الرهيبة، أكبر تمرد اجتماعي حصل في أوروبا منذ ثورة سبارتاكوس. فقد انتفض الفلاحون، المسحوقون بضريبة الحرب والسخرة، ضد مستغليهم، وشوهد الكثير من خوارنة الارياف، كما الحال في أيام اللولارديين الإنكليز، يشاركون في الصراع ضد الأوتوقراطية الأكليريكية. وقد كان منظّر التمرد الاجتماعي هو توماس مونزر، المولود عام 1498؛ وكان دكتوراً في اللاهوت، وكاهناً لدير نساء في هال، وسبق أن أقام علاقات مع نيكولا ستورش، زعيم جماعة مجددي العماد في زويكو بالساكس. وقد شرع يكرز في تورينج بالنضال ضد الكنيسة

---

[1] حذاء الفلاح، وكان شبيهاً بحذاء "منتعلي القبقاب" الفودبين.

الرومانية: "إذا شئتم أن تكونوا خُدّام الله، عليكم انتزاع الزؤان من كرمة الرب". وكان يستشهد بسفر التثنية[1]: "ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم، وتكسّرون أنصابهم، وتقطّعون سواريهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار". وكان يصل فضلاً عن ذلك إلى أسوأ الهرطقات منكراً أن التوراة هي الوحي الوحيد، ومؤكداً أن العقل وحيٌ أيضاً؛ ويضيف أن المسيح لم يكن أكثر من نبي، وأنه يجب البحث عن السماء في هذه الدنيا وأن الهلاك لا وجود له. وعلى المستوى الاجتماعي، كان يعظ بإلغاء الطبقات والملكية الخاصة؛ حتى أن إنجلس منحه، في كتابه حرب الفلاحين في ألمانيا، شهادة شيوعي حقيقي. وكان أنصاره يجوبون ألمانيا ناشرين أفكارهم، غير عابئين بالتعذيب والمحارق. وقد حرضوا الجمهور، في مالرباخ، في الساكس، على تدمير مُصلّى للعذراء. وقد اضطر مونزر لمغادرة البلد والمضي للوعظ في سواب وفي فرنكونيا بالتمرد الكبير الذي فجّره في تشرين الأول/أكتوبر 1525، بعد عودته من تورنج.

بدأت العمليات بالقرب من الحدود السويسرية، في منطقة والدشوت. كان الفلاحون ينهبون ويحرقون القصور والأديرة ("أعشاش الكهنة"، كما كانوا يسمونها). أما النبلاء فلم يكن لديهم متسع من الوقت لتنظيم المقاومة، ولكن التمرد، الذي بقي مشتتاً بسبب طابعه الزراعي، أتاح لهم التوحّد وعرض الصلح على المتمردين. وقد طالت المفاوضات، والفلاحون، الذين عيل صبرهم وكانوا قد جمعوا في غضون ذلك جيشاً يتراوح تعداد عناصره بين 30 و 40 ألف رجل، في تسعة معسكرات، عرضوا على الأمراء والأسياد شروطاً عُرفت بالبنود الإثني عشر، طالبوا

[1] السفر الخامس من التوراة(م)

فيها بإلغاء القنانة والحقوق الإقطاعية، وفضلاً عن ذلك بحق أبناء الرعية في انتخاب خوري الرعية وعزله، وخلصوا إلى التأكيد بأن أياً من شروطهم لا يتعارض مع كلام الله.

في حين كان الفلاحون يترددون هكذا، كان خصومهم قد جمعوا قوات كافية لسحق التمرد "بالمفرَّق". ولقد كان القمع شرساً، بحيث أمكن أحد الأمراء أن يقول: "لعبنا برؤوس الفلاحين بالطابة". قُتل آلاف المتمردين وأُحرقت مئات القرى. وكان مونزر، الذي أقام مركز قيادته العامة في مولهاوزن في تورينج، يصنع معجزات في جهوده لإثارة حماس قواته التي أبيد القسم الأكبر منها. وقد نجح في جمع ثمانية آلاف رجل في فرانكنهاوزن، ولكن جيش الأمراء هزمهم وأعمل التقتيل فيهم. وقد تعرض قائد الانتفاضة للتعذيب بحضور الامراء المشار إليهم، ثم قُطع رأسه؛ وهو واجه الموت بشجاعة.

لقد كانت حرب الفلاحين، أكثر أيضاً من انتفاضات اللولارديين، حركة اجتماعية عن سابق تصور وتصميم. ولم يكن للعنصر الديني أكثر من دور ثانوي فيها. ولكن في عصر كان لا يزال فيه الإيمان لدى البسطاء مصدر كل فكر وإطاره، كان لا بد من أن تنال إيديولوجيا المتمردين من مبادئ إيمان الكنائس، أو طقوسها أو نظامها، سواء الكاثوليكية منها أو البروتستانتية.

كانت الحروب الرهيبة التي دمّرت ألمانيا قد وضعت لوثر في موقف حساس. فبعد أن علّق، في العام 1517، أطروحاته الخمس والتسعين، بخصوص صكوك الغفران، على باب مصلّى قصر ويتنبرغ، شعر المجدِّد

الجسور، المنتشي بنجاح احتجاجه غير المتوقع، بأنه مدعو لإطاحة "المسيح الدجال الحقيقي الذي يحكم في الإدارة البابوية في روما". وقد انصرف إلى هذه المهمة بكل حدة مزاجه وكل فظاظة لغته: فالرهبان خنازير، والكهنة حمير والكنيسة بيت دعارة. أكثر من ذلك، لقد دعا إلى العمل العنيف: "إذا كان السارقون يعاقبون بالسيف، والقتلة بحبل المشنقة، والهراطقة بالنار، فلماذا لا تمضون ممتشقين السلاح للقبض على كل أسياد الهلاك الأبدي الأشرار هؤلاء، على البابوات، والأساقفة، والكرادلة، وكل عصابة سدوم الرومانية؟"

ونحن نفهم كيف أن لوثر، الذي سبق أن أدانه قرار البابا ليون العاشر بسبب أطروحاته حول الإيمان من دون الأعمال وضد سلطان الكنيسة، أدانه في العام 1521 مرسوم صادر عن دييت[1] وورمز، كمحتقر للقانون المدني. كان يمكن فهم الدعوات إلى النضال ضد الأحبار وضد رؤساء الأديرة ذوي المداخيل العالية، في بلد كانت الثورة كامنة فيه، كدعوة للتخلص من الأسياد الاقطاعيين. ولكن كان لوثر بحاجة لدعم أولئك الأسياد، المتعطشين هم أيضاً للاستيلاء على الأملاك الكنسية. وحين أثار ستورش ومونزر حالات تمرد في الساكس، أدان بشدة من كانوا يُسَمُّون "أنبياء زويكو"، ثم حاول بواسطة نصه، الحض على السلام، التوفيق بين الخصوم، داعياً إياهم للخضوع لمبادئ الإنجيل. وبخصوص القنانة، التي كان الفلاحون يطالبون بإلغائها، أبدى الملاحظة التالية: "ألم يكن ثمة عبيدٌ لإبراهيم، والبطاركة[2] الآخرين، والأنبياء"؟ وحين هددت الانتفاضة تورينج والساكس، أطلق منشوره ضد عصابات الفلاحين القَتَلة والنَّهابين،

---

[1] مجلس تشريعي في العديد من بلدان أوروبا، ومن ضمنها ألمانيا(م)

[2] المقصود هنا بالبطاركة رؤساء العائلات الكبار لدى اليهود القدامى، الوارد ذكرهم في التوراة(م).

حيث نقرأ: "يجب وقف الفلاحين، وذبحهم، وقتلهم بالسيف، سراً وجهاراً. ليس ثمة من هو أكثر شبهاً بالشيطان من متمرد. إنه ككلب مسعور، إذ لم تقتله قتلك، ومعك بلد بكامله".

ومعروف أن الأمراء والأسياد نفذوا حرفياً نصيحة المصلح الديني المتقلب الذي كتب ذات يوم، بعد أن كان بشّر بـ"الحرية المسيحية": "الحمار بحاجة للضرب، والرعاع لأن يقادوا بالشدة والعنف". هل كان مجددو العماد هراطقة في نظر لوثر؟ يبدو أنه أدانهم بوجه خاص كمتمردين مدنيين، وذلك بلا ريب لكي لا يناقض نفسه بصورة مكشوفة تماماً: ألم يكن قد أعلن، في إحدى الأطروحات التي أدانها ليون العاشر، أنه لا ينبغي حرق الهراطقة؟ وكتب في رسالة عائدة إلى العام 1528: "لا يسعني إطلاقاً القبول بقتل اللاهوتيين الزائفين". إلا أن الانسجام في الأفكار لم يكن امتياز لوثر؛ ففي العام 1563، وقّع منع ميلانكتون ولاهوتيين آخرين "استشارة ويتنبرغ" التي كانت تشدد على حق الأمير في إعدام دعاة الانشقاق في الإيمان. وفي سويسرا الألمانية، حيث كانت حركة تجديد العماد قد اجتذبت الكثير من الأتباع، كانت النظرية بصرامة الممارسة: فسواء في الكانتونات الكاثوليكية أو في الكانتونات البروتستانتية، انضمت السلطة الكنسية إلى السلطة المدنية لإدانة الـWiedertaüfer (أي "مجددي العماد")، الذين لم يكتفوا برفض طقوس الكنائس وسلطتها العقائدية بل رفضوا أيضاً الخدمة العسكرية. وفي زوريخ، جرى إعدام زعيمهم، فيليكس مانز، في العام 1527، مع أحد عشر رفيقاً له؛ وفي المدينة عينها، أُعدم مجدد للعماد أيضاً، في العام 1614. وفي برن، تعرض أربعون هرطقياً للتعذيب، بين العامين 1528 و 1571. وعلى غرار لوثر، أيّد زوينغلر أعمال الاضطهاد.

كانت المجازر الرهيبة بحق الفلاحين قد أعطت الانطباع بأنه تم اجتثاث

الهرطقة القائلة بتجديد العماد. إلا أنها ستفسح في المجال أمام أحد الفصول الأكثر إثارة للفضول في تاريخ البدع المسيحية.

لم تكن حركة تجديد العماد قد شكلت كنيسة منظمة، بل كانت تتألف من تنويعة لا نهاية لها من التجمعات، بعضها ضد الإكليروس، والبعض الآخر إنجيلي، وغيرها شيوعي. هذه التجمعات الأخيرة، التي لجأت إلى وستفاليا وهولندا، سعت لأن تطبق على المستوى السياسي نظرياتها المساواتية؛ وأولئك الذين كانوا يسكنون في مونستر وجدوا قائداً لهم نشيطاً ومتعصباً بالقدر نفسه في شخص يوحنا اللايدني[1]. فحين كان هذا الأخير في مقتبل شبابه، كان قد جاب أوروبا "من لوبك إلى ليشبونة" بصفة مساعد خياط، ثم بعد أن عمل كصاحب حان في لايدن، أصبح واحداً من الرسل الاثني عشر الذين بعث بهم مجدِّدُ العماد يوحنا ماتيس ليعظوا في البلدان المجاورة. وقد جرى تحديد مونستر ليعظ فيها سكاناً ممزَّقين بين الكاثوليكية واللوثرية، وبالتالي مستعدين لاستقبال عقيدة ثالثة. وما إن وصل إليها في كانون الثاني/يناير 1534، حتى بات له العديد من الأنصار، ولا سيما بين النساء، تعزَّزوا بتدفق بدعيين هولنديين، على رأسهم ماتيس. وقد جرى انتخاب أحد أنصارهم، كنيبر دولينك، عُمدةً للمدينة، فطُرد غير المنتمين إلى بدعة تجديد العماد وبدأ "مُلْكُ القديسين".

كان مجددو العماد في مونستر يزعمون العودة إلى بساطة المسيحيين الأوائل، ولقد أرسوا مشاعية الأملاك، ونظرياً على الأقل مشاعية النساء[2]، وهو تدبير أفضى في الممارسة إلى تعدد الزوجات. وعلى المستوى

---

[1] Jean de leyde، نسبةً إلى مدينة لايدن التي أبصر فيها النور(م)

[2] بحسب علمنا، كان أحد سوفيتات المقاطعات قد أصدر مرسوماً، في بدايات حكم البلاشفة، ينص على التدبير عينه، وذلك في لحظة ضلال.

الديني، كانوا يستمدون إلهامهم من سفر الرؤيا، وكانت "أورشليم الجديدة" الخاصة بهم تزدحم بالأنبياء والرائين؛ وفي الكنائس، كانوا يدمرون الصور، والتماثيل، وآلات الموسيقى.

أرعب تجددُ الخطر الاجتماعي هذا الأمراءَ الألمان فحاصروا المدينة التي جرى الدفاع عنها بشجاعة مستمدة من التعصب، فقاومت خلال ثمانية عشر شهراً. وقد سقط ماتيس قتيلاً خلال إحدى الهجمات. فحل محله يوحنا اللايدني على رأس الحركة وأعلن أن الله كان قد جعله ملكاً على المملكة الخامسة لسفر الرؤيا، تلك التي كان ينبغي أن تأتي بعد أشور، وفارس واليونان وروما. وكان يوقّع قراراته على الشكل التالي: "يوحنا العادل، ملك الهيكل الجديد، خادم الله كلي القداسة". وقد ردَّ بنجاح هجوماً عنيفاً شنه المحاصرون وأرسل 28 رسولاً يعظون في المدن المجاورة بمجيء المسيح الثاني؛ وقد اعتُقل العديد من هؤلاء وأعدموا؛ وكانت بينهم شابة خططت، بوصفها يهوديت[1] جديدة، لاغتيال أسقف مونستر، الذي كان يحاول على رأس قوات الأمراء استعادة المدينة التي سبق أن طُرد منها. وكان بعض "الرسل" نجحوا في الوصول إلى أمستردام وفجروا فيها ثورة جرى إغراقها في الدم. وعلى الرغم من بطولة "قديسي"مونستر فقد اضطروا للاستسلام أمام تحالف جمع ضدهم، في كراهية واحدة، الكاثوليك والبروتستانت. ففي حزيران/يونيو 1535، سقطت مونستر، وقد أُعدم كلٌّ من يوحنا اللايدني وكنيبر دولينك، في ساحة السوق، بواسطة كمّاشات محمّاة بالنار حتى الاحمرار، كما جرى القضاء على أنصارهم من دون رحمة. لم تعد المدينة مدينة إمبراطورية وأعيدت إليها العبادة الكاثوليكية.

[1] كانت يهوديت الأصلية امرأة يهودية باسلة خلّصت شعبها من يد إليفانا قائد جيوش الأشوريين، على ما جاء في الكتاب المقدس(م)

التجأ آخر مجددي العماد إلى هولندا، حيث بات للمدعو مينُّو Menno العديد من الأتباع، وقد بقي هؤلاء، المدعوون مينّويين، حتى أيامنا هذه في هولندا، وألمانيا، وروسيا الجنوبية، وأميركا الشمالية. فضلاً عن ذلك، لقد انقسم جماعة تجديد العماد إلى تجمعات متنوعة لها أعراف وتقاليد بالغة الغرابة: فالرسوليون كانوا يعظون على السطوح؛ والصامتون يسكتون حين يُسألون عن معتقداتهم؛ والكاملون لا يبتسمون أبداً؛ والسبتيون يعيِّدون يوم السبت لا يوم الأحد؛ والباكون يأكلون خبزهم بعد أن يرووه بدموعهم. أما محاولة يوحنا اللايدني أن يخلق مجتمعاً تسود فيه المساواة والبساطة الإنجيليتان، فتذكّر بالضبط بمحاولة سافوناريولا. ولقد أخفق الاثنان، وكلاهما جرت تصفيتهما كهرطوقيين. وقد أُعطي لرأس كنيسة بروتستانتية أن يقيم بنجاح نظاماً سياسياً في ظل تيوقراطية مساواتية، والمقصود هو كالفن الذي جعل من مدينة جنيف نوعاً من الدير المختلط، حيث كانت المثابرة على العبادة مسألة إلزامية جداً، وكانت القوانين التي تحدد النفقات الكمالية تحظر أي ترف في اللباس واي تسلية دنيوية، كالرقص أو الموسيقى.

ومع أن كالفن كان غير متسامح، فقد كان ذكياً وعقلانياً، إلا أنه اقترف غلطة لا تزال تثلم ذكراه، حتى في صفوف أخلص المعجبين به، ألا وهي أمره بحرق ميشال سيرفيه حيّاً. فهذا الأخير، وكان اسبانياً درس الطب في سرقسطة واللاهوت في تولوز، كان ذهناً جسوراً وصاحب طبع مهتاج ومحب للخصام. وقد استشفَّ دورة الدم الرئوية قبل الإنكليزي هارفي. أما ما أدى إلى هلاكه فكان شغفه بالمساجلة اللاهوتية. كانت مسألة الثالوث تشغل باله بشكل خاص، وقد أنكر أن يكون مبدأُ الثالوث الإيمانيُّ موجوداً، وإن

بصورة ضمنية، في الكتاب المقدس؛ وخلال استقراره في بال، ثم في ستراسبورغ، نشر عدة مؤلفات لإثبات ذلك، وهي كتب أثارت الاستنكار في الأوساط البروتستانتية. وقد عرف كيف يأمن الصرامة الكاثوليكية، وحين عاد إلى فرنسا، تمكّن، خلال 12 عاماً، من أن يكون حتى طبيباً لرئيس أساقفة فيينا. إلا أنه كان يوصل كتاباته اللاهوتية إلى كالفن بواسطة صاحب مكتبةٍ في ليون كتب إليه المصلح الديني في الأخير ما يلي: "إذا بقي مواظباً على الأسلوب الذي يعتمده الآن، سوف تُضيِّع وقتك في التماس أن اعمل معه، لأن لديَّ أموراً أخرى تضغط عليَّ بصورة أكثر حدة. وسأعرف كيف لا أعود أنشغل به بعد الآن، إذ ليس لدي شك في أنه شيطان يحرف انتباهي عن القراءات الاخرى الأكثر نفعاً". وفي رسالة في العام نفسه 1547، كتب كالفن إلى فاريل، باللاتينية: "إنه يعلن أنه سيأتي إلى هنا، إذا كان هذا يروق لي. ولكنني لا أريد أن أعطيه وعدي، لأنه إذا أتى، وأمكن أن تتغلب سلطتي، لن أتحمل ذهابه حياً من هنا".

ومن الواضح أن عداء كالفن لسيرفيه بدا شديداً جداً. وقد أضاف إليه الحيلة والنفاق. الحيلة، لأنه فضح، عبر شخص ثالث، أمام محققي التفتيش في ليون الأطروحات غير الكاثوليكية التي كان يتضمنها المؤلَّف الذي نشره سيرفيه في فيينا في العام 1553 بعنوان: **Christianismi Restitutio**[1]. والنفاق، بتسليمه سيرفيه إلى سلطات جنيف المدنية، بعد أن هرب من السجن الذي كان قد احتُجز فيه، ووصل إلى تلك المدينة. وربما كانت تدغدغه الآمال بأن يحصل فيها على حماية حزب الأحرار (**Libertins**)، خصوم الطغيان الطهراني الذي كان المصلح الديني (أي كالفن) يطمح إلى

---

[1] استعادة المسيحية(م)

إرسائه. لقد استفاد هذا الأخير، على العكس، من المناسبة لكي يؤكد في آنٍ معاً سلطته وحماسه الإيماني. ولقد وشى سكرتيره لافونتان بسيرفيه للمجلس الصغير، الجهاز التنفيذي للجمهورية الصغيرة، معلناً أنه "ناشر لهرطقات كبرى". فقدّم المتهم للمجلس التماساً يعرض فيه أن تلك ممارسةٌ لم تكن معروفة لدى الكنيسة الأولى أن يتم تحويل الأشخاص المشبوهين بالهرطقة إلى محاكم غير دينية. وبتحريض من كالفن، الواثق من عمله، طلب المجلس رأي الكنائس البروتستانتية في سويسرا الألمانية وبتاريخ 2 تشرين الاول/اكتوبر 1553، أورد سجل المجمع الديني ما يلي: "بعد أن تلقى السادة (أي المجلس الصغير) رأي كنائس برن، وبال، وزوريخ وشافوز (شافهاوس) بخصوص سيرفيه، حكموا عليه بأخذه إلى شامباي (اليوم شاميل) وإحراقه حياً هناك. وهو ما جرى بالفعل من دون أن يصدر عن سيرفيه المذكور لدى وفاته أي إشارة ندم على أخطائه". وتظهر عدوانية كالفن الماكرة، في هذه الحالة، في رسالتين وجههما إلى فاريل؛ وهو يقول في الأولى، المكتوبة قبل شهرين من محرقة شامبل: "آمل أن يتم الحكم عليه، ولكنني أرغب في عدم تعريضه لعقوبة قاسية"؛ وفي الرسالة الثانية، المؤرخة عشية إعدامه، نقرأ ما يلي: "سوف يتم اقتياده غداً إلى التعذيب؛ ولقد بذلنا جهودنا لتغيير طريقة موته، ولكن عبثاً".

ولقد كانت محرقة سيرفيه موضوع مساجلات في الأوساط البروتستانتية في تلك الفترة، سبق أن تحدثنا عنها في المقدمة. أما مفهوم الهرطقة بالذات فيبقى لدى كالفن على الدرجة نفسها من التردد تقريباً التي نجدها لدى لوثر. وقد جرى تخفيفه أيضاً، في كنيسة جنيف، بعد وفاته في العام 1564؛ وفي القوانين الكنسية للعام 1576، لم يعد يُطبَّق، على ما يبدو، إلا على الكهنة

والرؤساء الدينيين. إلا أنه بقي، في تلك الحالة، جرماً مميتاً: في العام 1632 أيضاً، وبخصوص نيكولا أنطوان، من اللورين، الذي بعد أن كان تلميذاً لليسوعيين، انتقل إلى "الدين" وجرت رسامته كاهناً في جنيف، حكم عليه مجلس هذه المدينة، بناء على رأي القسس وأساتذة اللاهوت، بأن "يوثق ويؤخذ إلى ساحة بلانباليه، ليُربط إلى عمود على محرقة ويتم خنقه بالطريقة المعهودة، ثم حرق جثمانه وتحويله إلى رماد"؛ كان قد سقط في ديانة اليهود، واحتقر العهد الجديد، ووصف الثالوث بـ"الوحش ذي الرؤوس الثلاثة". ومن الواضح أن المحارق كانت قد أصبحت شيئاً من الماضي، أما محرقة أنطوان، الرمزية، فلم تلتهم غير جثة.

لم يُرَ مذاك، في البروتستانتية، إلا قُسُسٌ عوقبوا بسبب انحراف عقيدي، ولم يتعرضوا لأكثر من العزل. أما قُسس جنيف الذين مالوا، حوالى نهاية القرن الثامن عشر، إلى السوسينية (مذهب "سوسين" القاضي بإنكار الثالوث وألوهية المسيح)، فلم يتم حتى إزعاجهم، وكانوا أبعد ما يكونون عن معاملتهم كهراطقة. وإذا كان شارل بيز شُطب، في أيامنا هذه، من لائحة قُسس بدعة بروتستانتية بلجيكية لأنه اعتنق آراء مشبوهة حول عمل المسيح الفادي، فقلد اكتفى باعتماد "أسلوب المجادلة الكلامية البائدة في العنوان الذي أعطاه للكراس الذي أصدره بهذا الخصوص: دعوى هرطقة في العام 1882.

وبالعودة إلى بدايات الإصلاح الديني تجدر الإشارة إلى مساجلة عقيدية حادة، تلك المتعلقة بالأسرار المقدسة. وقد أشعلها أحد خصوم لوثر، المدعو كارلستادت، الذي بدأ حوالى العام 1522 بنشر مؤلفات حول الأفخارستيا. ففي معرض شرحه كلام المسيح: "هذا هو جسدي، المعطى

لكم"، اعتبر أن كلمة"هذا" يجب أن تنطبق على الجسد وليس على الخبز، الذي أكله الرسل ولم تتم التضحية به لأجلنا؛ وأن المسيح، من جهة أخرى، أمر فقط بأكل الخبز وشرب الخمر "تذكاراً له" وليس تقديس جسمه ودمه. "الجسد لا يفيد في شيء" : ولكي يكون هناك سرٌّ مقدَّس، يكفي الخبز والخمر، مثلما يكفي الماء لأجل العماد. وكما نرى، كان ذلك النفي الجازم للحضور الفعلي[1]. وقد رد لوثر على كارلستادت بالكتيِّب الذي يحمل العنوان التالي، **ضد الأنبياء الأرضيين**، حيث يسخر من هذيانات شرحٍ متجاسرٍ للكتاب المقدس: "كما لو لم نكن نعرف أن العقل هو مومس الشيطان وأنه لا يمكنه إلا أن يلوم كل ما يقوله ويفعله الله، وإلا أن يلطخه ويلوِّثه". ولقد زاد من حدة الخصومة تدخُّلُ المصلح الديني الذي من زوريخ، زوينغلي، الذي أدلى بدلوه في هذا الموضوع في العام 1525. وقد قال في محاجَّته إن المسيح يجلس إلى يمين الآب وسيجلس هناك حتى يوم الدينونة؛ وبالتالي ليس في وسعه أن يكون جسدياً في الخبز والخمر؛ ثُمَّ ألم يقل: "لن أشرب بعد الآن من ثمر الكرمة هذا، إلى حين أشرب معكم مجدداً في مملكة أبي؟" وقد هُرع للنجدة صديقٌ لزوينغلي، هو الألماني إيكولامباد، وبعد أن عدَّد آراء جمهرة من آباء الكنيسة، ختم قائلاً: "سوف تجدون أن الجميع يفسِّرون جسد المسيح بقولهم أن هذا سر مقدس أو صورة مقدسة لجسد المسيح، أو سرٌّ غامض، وكل ذلك هو الشيء عينه". وبينات أفكاره هذه، كان يعزز فضلاً عن ذلك العقلانية الزوينغلية، عبر تبيانه أن الحضور الكلي للأفخارستيا لا يمكن أن يوجد إلا في الله وأن بشرية المسيح، لكونه مخلوقاً، لها حدود وهي عاجزة عن الحضور الكلي. وقد أضاف بصراحة:

[1] أي وجود المسيح الحي في القربان المقدس، وبالتحديد في الخبز والخمر بعد تقديس الكاهن لهما(م)

"الشيطان وحده يمكن أن يكون ذلك الذي اخترع فكرة الحضور الفعلي".

وقد رد لوثر على من كان يسميهم جماعة الأسرار المقدسة مُظهراً تنوُّع آراء قادتهم الثلاثة: "هنالك ثلاثة بدع في هذا الخطأ بخصوص السر المقدس... والتباينات في ما بينها تثبت أن ما تعلّمه يأتي من الشيطان، لأن روح الله ليس إله شقاق، بل سلام". إلا أن النزاع، كان يلهب اللاهوتيين البروتستانت في سويسرا الألمانية، وألمانيا الجنوبية، والألزاس. لقد كان يضع الحرارة الصوفية لدى شخص كلوثر في وجه برودة زوينغلي العقلانية. وقد قام اللاندغراف[1] فيليب دو هيس، ثم الإمبراطور شارلكان، بمساعٍ للمصالحة، نجحت في ألمانيا وستراسبور وبال وبرن ، ولكن زوينغلي بقي مصراً على مواقفه، في زوريخ. كان كالفن الشاب يتابع دروسه آنذاك في باريس، وقد ذكّر، في ما بعد، بشيء بقي في ذاكرته عن الخصومة المتعلقة بموضوع الأسرار: "إذ كنت بدأت أخرج قليلاً من ظلمات البابوية وبما أني اهتممت بعض الشيء بالعقيدة المقدسة، فأنا أعترف بأنني حين كنت أقرأ في كتابات لوثر أن أوكولامباد وزوينغلي لم يكونا يتركان من الأسرار المقدسة إلا رسوماً عارية وتصوراتٍ تفتقر إلى الحقيقة، حرفني ذلك عن كتبهما وجعلني أهملها". ومعروف أن كالفن يسلّم بالحضور الفعلي (للمسيح في القربان المقدس)، ولكن من دون أن يجعل منه حضوراً مكانياً: فالخبز والخمر "يمثّلان" جسد المسيح ودمه، وهما "يقدمانهما[2]" لنا، وذلك بفضل الروح الذي "يجمع الأشياء المنفصلة بعضها عن بعض بالمسافة المكانية"، بصورة يستحيل فهمها. هكذا تتضافر الواقعية والرمزية في تفسير كالفن لسر الأفخارستيا.

---

[1] كونت ألماني في القرون الوسطى له سلطة على أرض واسعة وعلى ملاكي أراضٍ دونه أهمية(م).

[2] أو لمزيد من الدقة يجعلانهما حاضرين أو موجودين بالنسبة إلينا(م)

## الانشقاقات الألمانية

لما كان الألمان يخضعون بصورة طبيعية للسلطة أيّاً تكن، فهم لم يشعروا يوماً بكبير ميل إلى الانشقاق، سواء في الدين أو في السياسة. ففي القرون الوسطى وفي الفترة التي سبقت الإصلاح الديني، لم يكن لديهم مبتدعو هرطقة كبار: فبيار فالدو فرنسي، وويكلف إنكليزي، وجان هوس تشيكي. كما أنهم كانوا قليلي الاستعداد لتقبل الهرطقات الأجنبية، ولم تمتد الكاتارية لديهم إلى أبعد من بلدان الراين.

صحيح أن لوثر كان بالنسبة لروما الهرطقةَ نفسها وقد اتخذت شكل رجل. فلقد قلبت جسارةُ تجديداته أوروبا رأساً على عقب وافتتحت فيها حقبة تاريخية جديدة. ولكن كان لافتاً أن نجاح عقيدته نجم في بلده بالذات عن أسباب مادية أكثر بكثير مما عن ضرورات الوعي الديني. كما أن الأمراء هم الذين كانوا السبّاقين إلى اعتناقها ثم اجتذبوا الشعوب لتحذو حذوهم. هذا وغالباً ما كان اهتداؤهم ناتج قرار سياسي؛ وذلك ليكرسوا بصورة ساطعة التعارض الدهري بين الجرمانية والرومانية، وبصورة أكثر عملية لأجل الاستيلاء على الممتلكات الشاسعة للأسياد الكنسيين. وعموماً، حذت الجماهير القطيعية حذو قادتها السياسيين: في حين بقيت كاثوليكية في بافيير، وورتمبرغ، وريتانيا، تحولت إلى البروتستانتية في بروسيا، والساكس والهيس.

كما أن الامتثالية الوراثية لدى الألمان حالت دون تجزئة عقيدة الإصلاح الديني إلى سلسلة لا نهاية لها من البدع، كما حصل في إنكلترا، وفي ما بعد في الولايات المتحدة. ولا يعني ذلك أن اللوثرية لم تتطور منذ أيام مؤسسها، وأن العقلانية لم تتناول بالنقد كل المبادئ الإيمانية، ويمكن أن

نقول كل آيات الإنجيل والأنبياء، ولكن تلك الانحرافات، والنقاشات والشروح لم تكن تخرج إطلاقاً من إطار نقاش أكاديمي. لم تكن تثير اهتمام أحد سوى القسم الأكثر ثقافة بين المؤمنين، ولم تكن تؤثّر في الجمهور.

وثمة تيار اجتذب بشكلٍ خاص البروتستانت الألمان إلى طريق تفتح آفاقاً جذابة للـSchwaermerei الوطنية، للميل إلى أحلام اليقظة الشاردة: إنه التيار الصوفي. فمنذ القرن السادس عشر، ابتعد القس فايغل بصورة غريبة من الأورثذكسية اللوثرية عبر الإيمان، عبر نوعٍ من الحلولية المثالية، بأن الله يتجسد في كل منا وبأننا نصبح هو ذاته عن طريق تَقَفّي أثره في نفسنا، عن طريق تثبيتنا بالنظرة الداخلية البصمة التي تركها فيها. ويعقوب بوهم المتوفى في العام 1624 لا يقل جسارة، مع أنه غامض كفاية، حين يؤكد ما يلي: "الإبن هو قلب الآب، المشعل الذي يضيء المساحات شاسعة الأبعاد في الكائن الإلهي، الدائرة الأبدية التي يرسمها الله حول ذاته، وجسد الله في النجوم تَكُونُهُ الأجسام، جملة الأشكال التي تتضمنها السماء والأرض، الطبيعة الغامضة التي تحيا، وتتألم وتموت وتُبعث فينا". وواضح من هذا الكلام المقتطف أن بوهم استحق تماماً لقبه كـ"فيلسوف توتوني[1]". وقد توصَّل شيفلر، المسمّى ملاك سيليزيا، إلى القول: "لا يوجد سوى الله وأنا. ولا يمكن أحدنا أن يكون فوق الآخر أو تحته". وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الصوفيين الذين كانوا يُحِلُّون بسهولة فائقةٍ حَدْسَهم الشخصي محل تعاليم اللاهوت، لم يتعرضوا إطلاقاً لأي إزعاج من جانب سلطان الكنيسة اللوثرية. وربما يكون سبب ذلك عائداً إلى أنهم كانوا يدفعون إلى الحد الأقصى بالمبدأ الفردي، الذي يشكل أساس الإصلاح الديني وأصله. كما

---

[1] نسبة إلى توتونيا، أو جرمانيا الشمالية(م)

أن الفلاسفة أيضاً تعاطوا، في ألمانيا، باللاهوت. ففي القرن الثامن عشر، أعطى ليسينغ الأولوية للتقوى، وليس للعقيدة؛ فالمسيحية لم تكن، بالنسبة إليه، مبدأ إيمانياً، بل حياة، لم تكن معتقداً ثابتاً بل حركة النفس في اتجاه الله. ونشر شلايرماشر، في بداية القرن التاسع عشر، عقيدة مماثلة: فالتجربة الدينية هي أصل القداسة الحقيقي، والمسيح الحميم الذي يخلقه الإيمان في كلٍّ منا هو حقيقيٌّ أكثر من مسيح التاريخ واللاهوتيين. وفي النصف الثاني من القرن عينه، كان ريتشل يريد إرجاع ذاتوية شلايرماشر إلى موضوعانيةٍ أسّسها على "التوافق الفعلي" بين الكتابين المقدسين[1]، وهما يتألفان من نصوص ينبغي دراستها وتفسيرها "من وجهة نظر الجماعة".

لقد كان لاهوتيو توبنجن، أصحابُ التوجه العقلاني، يدافعون عن البولسية[2]، وهي نظرية تجعل من بولس الرسول مؤسس المسيحية الحقيقي، على أساس أن المسيح بقي يهودياً بمعتقداته وتطلعاته. ومن وجهة نظر معاكسة تماماً، كان وايتلينغ، في كتابه إنجيل الخاطئ المسكين، يسعى لإعطاء قاعدة مسيحية للشيوعية، في حين أننا رأينا، في أيامنا هذه، الهتلرية تضفي على البروتستانتية الألمانية مسحة عنصرية، إذاً مناهضة للمسيحية بسابق تصور وتصميم: فلقد أعلن الـDeutsche Christen، بلسان القس وينيكي، أن "الصليب المعقوف وصليب المسيح على المستوى نفسه". ومن الواضح أن كل ذلك كان ناتج تقديرات شخصية أو اهتمام سياسي. كان لعبة مثقفين ولم يكن حركة جماهيرية. ففي الواقع، لم تشهد اللوثرية، منذ

---

[1] أي العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل وملاحقه)(م)

[2] عقيدة القديس بولس الرسول(م).

مجددي العماد، بدعاً حقيقية؛ والبدع التي تأقلمت في ألمانيا، بمشقة، هي بمجملها ذات أصل أجنبي: الإخوة المورافيون في بوهيميا، ومنونيو هولاندا، والمعمدانيون، والميتوديون والإيرفنجيون في إنكلترا.

وربما يكون الانشقاق الألماني الحقيقي الوحيد هو انشقاق التقويين: فكرد فعل على الشكلانية التي كانت تنذوي فيها الكنيسة اللوثرية، وعلى المماثلة المبالغ بها بين العماد والتجديد، كان التقويون يشددون على التوبة، على جهد المؤمن الشخصي للحصول على النعمة. وقد أحرزوا النجاح انطلاقاً من العام 1670، ولكن التجديد الذي بثّوه في البروتستانتية الألمانية اضمحل حوالى منتصف القرن الثامن عشر. ومن الغرابة بمكان أن التقوية ظهرت مجدداً بعد مئة عام على يد أصدقاء الهيكل، وكانوا بدعة أسسها كريستوف هوفمان، الذي طرد من الكنيسة اللوثرية في العام 1859. وقد كان يحلم بإعادة بناء هيكل أورشليم، ولقد نجح بالفعل في أن يؤسس في فلسطين جماعة وصل عددها إلى الألف والخمسمئة معمّر، وكان يمجّدها بأن أطلق عليها اسم "شعب الله". وفي كتاباته المتعددة، كان يكافح معظم المبادئ الإيمانية المسيحية ويرفض الأسرار المقدسة. ولا تزال هناك بقايا من هذه البدعة في ألمانيا والولايات المتحدة. وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن مصطلح "التقويّ" بقي في الأوساط البروتستانتية في شتى البلدان للدلالة على أولئك الذين يتباهون، بفضل ورع مبالغ به، بأنهم أسمى من المؤمنين العاديين. أما الإخوة المورافيون فقد انبثقوا من نوع من الأخوية الرهبانية التي تكونت من بقايا أتباع هوس، واتخذت في البدء تسمية "الإخوة البوهيميين" أو "إخوة شريعة المسيح". وكان هؤلاء البدعيون، الذين انفصلوا عن الكنيسة الكاثوليكية في العام 1467، يعتنقون زهدية صارمة ولا يقبلون بغير

سلطة الكتاب المقدس. وقد أحرزوا قدراً كبيراً من النجاح، حوالى العام 1500، بحيث كان يمكن تعداد 400 من جماعاتهم في بوهيميا ومورافيا. وقد أقاموا صلات مستمرة مع فوديي فرنسا وإيطاليا، ثم اندمجوا في العام 1627 مع البروتستانت. وبعد أن اضطهدتهم السلطات النمساوية لهذا السبب في القرن التالي، استقبلهم الكونت الساكسوني زيزندورف، الذي جعلهم يستقرون في أراضيه. وقد أسسوا هنالك مركزهم باسم **Herrnhut** ("حرس السيد"). وأعاد زيزندورف، باسم اتحاد الإخوة، تشكيل الكنيسة المورافية، التي أصبح أسقفها. وهذه البدعة، بوصفها انشقاقاً عن اللوثرية، لا تزال موجودة إلى اليوم باسم **Brûder gemeine** في ألمانيا، و**Brother's Unity** في إنكلترا، و**Moravian Church** في أميركا. والإخوة المورافيون يمارسون نشاطاً إرسالياً مكثفاً، ويديرون معاهد مشهورة.

أما البدع الأجنبية الأخرى التي سبق أن ذكرناها أعلاه فلم تلعب يوماً في ألمانيا أكثر من دور تافه.

## البدع الإنكليزية

تتميز الذهنية الإنكليزية بملمحين خاصين جداً: مزيج متوازن من المثالية والواقعية، ومزيج متوازن من الفردية والحس الاجتماعي. هذا المزيج الخارق من الصفات المتناقضة في الظاهر يفسر الطابع الفريد جداً الذي يتّسم به تاريخ إنكلترا والدور الراجح الذي يلعبه الدين فيه. فالسياسة بالنسبة للإنكليزي هي مادة إيمان تقريباً، وليس بالتأكيد كما لدى الروسي بسبب دغمائية زائدة، بل بفعل شعور عميق بالشراكة في الوطن وفي الواجبات

التي تتحتّم على الفرد في نظر الدولة، والملك، والوطن. إلا أن احترام الحرية الإنسانية يحظر أي توجه إلى التوتاليتارية، سواء على الصعيد السياسي، أو على الصعيد الديني بوجه خاص. ومنذ زمن الإصلاح الديني، كانت البدع عديدة في إنكلترا وأثبتت دائماً وجود حيوية فائقة. وقد كانت لها، بوجه خاص، مشاركة فعالة في الحياة العامة. وكانت إنكليزية قبل كل شيء. ولم يحدث للانشقاقات المسيحية (بما فيها الانشقاق عن روما) أن كانت ذات طابع وطني إلى هذا الحد، لا بل ذات طابع متعلق بحب الوطن.

إنه لتعبيرٌ بكلام بارع أن نردد بعد فولتير: "معروف أنّ إنكلترا انفصلت عن روما لأن الملك هنري الثامن كان عاشقاً". وبالطبع، فأسباب الانشقاق الإنكليزي أشد عمقاً: "إن الواقع المتمثل في أنه منذ القرن الرابع عشر لم تتم إدانة ويكلف بالهرطقة يثبت أن مناهضته للبابوية كانت تستجيب اتجاهاً عاماً. اتجاهاً ذا طابع وطني، لا بل قومي. فبما أن البابا كليمان السابع رفض إعلان بطلان زواج الملك بكاترين داراغون، عمد رئيس أساقفة كانتربري، كرانمر، إلى إعلانه واستحصل على تواقيع جمعية رجال الإكليروس على بيان جاء فيه: "لا نجد في الكتاب المقدس أن الحبر الأعظم الروماني تلقى من الله سلطاناً وصلاحيات في هذه المملكة أكثر من تلك التي يتلقاها أي أسقف أجنبي آخر. وهذه الكلمات in this realm[1] تشير بامتياز إلى المظهر الذي سيتخذه النشاط الديني في إنكلترا.

فضلاً عن ذلك، لم يكن هنري الثامن، في الحقيقة، بروتستانتياً أكثر مما

---

(1) أي في هذه المملكة(م)

كاثوليكياً، وربما كان أقل. وكان يتباهى بتعاطي اللاهوت، وسبق أن كتب بحثاً باللاتينية ضد لوثر، وهو بحث جعل البابا ليون العاشر يمنحه لقب "المدافع عن الإيمان". ولقد أمر، خلال اندفاعاته الاستبدادية، بحرق بروتستانت، بالدرجة نفسها من الراحة التي جعلته يأمر أيضاً بشنق كاثوليك؛ وفيما كان على وشك الموت، طلب أن يُربّى ابنه على أساس الإيمان الروماني. بيد أن شعبه لم تكن لديه مآخذ سياسية ووطنية فقط ضد البابوية، بل كان يتهمها أيضاً، بفضل نزعته الفردية الوراثية، بالطغيان الذي كانت ترغب في ممارسته على النفوس. وقد كانت تلك النزعة الفردية من القوة بحيث أن الكنيسة الأنغليكانية بالذات، الكنيسة المعترف بها رسمياً، رأت سلطتها، منذ البداية، تُواجَهُ باعتراض منشقّين. وقد بدأ انقسام البروتستانتية الإنكليزية، بحيث أمكن فولتير أن يقول، وهو على حق هذه المرة: "كل بروتستانتي هو بابا، بيده توراة".

في تلك التوراة، كان القسم الأول، الأكثر يهودية. يتخذ أهمية لم يسبق أن اتخذها يوما مذ وُجد الدين المسيحي. فالعهد القديم، الذي ازدراه الغنوصيون والكاتاريون كثيراً، واعتبرته الكنيسة الرومانية، زمناً طويلاً، قراءةً قليلة الفائدة وحتى خطيرة أحياناً بالنسبة لرعاياها، باتت الأمم الأنغلوسكسونية تضعه، منذ الإصلاح الديني، على قدم المساواة تقريباً مع العهد الجديد. هذا وإنّ قراءته ودراسته المستمرة لم تدفعها إطلاقاً لتعريضه لنقد دقيق وعنيد، كما حصل في ألمانيا، بل أكسبتا لغة رجال الإكليروس لديها، وكتّابها وحتى رجال السياسة فيها، تلك المفردات التوراتية التي يسميها البروتستانت أنفسهم، مازحين، "لهجة كنعان العامية". وطالما منح الأهل الورعون أبناءهم أسماء عبرانية، كجوناثان، وآدم، وسارة، واستير.

لقد كان أول انشقاق هام أصاب الأنغليكانية هو انشقاق الكالفنيين (أو البرسبيتاريين): وكان هذا الانشقاق يعارض أسقفانية[1] الكنسية الرسمية بنظام، من أصل كالفني، يعهد إلى مجلس مختارين قدامى بقيادة الجماعة؛ فالقدامى في العديد من المجموعات يمكنهم أن يجتمعوا في سينودسات. وقد ازدهرت البرسبيتارية بوجه خاص في اسكوتلندا، حيث جعلها تستقر هناك جون كنوكس، تلميذ كالفن المستبسل. وقد وجد أتباع هذا الاتجاه مصادر دعم بين "طهرانيي" الكنيسة القائمة وتوصلوا، في العام 1643، إلى إلغاء العمل الأسقفي. ولم تتم إعادةُ هذا الأخير إلا بعد ثورة كرومويل، في عهد الملك شارل الثاني. لقد تعرض البرسبيتاريون آنذاك مجدداً للاضطهاد، ولكنهم حصلوا، في العام 1689، على حق العبادة الخاصة. وهم موجودون إلى اليوم باسم كنيسة إنكلترا البرسبيتارية، ويتميزون بعادات صارمة و"تقيُّدٍ بالفضيلة" بالغ التطلُّب. كما أننا نجدهم أيضاً في الولايات المتحدة.

وهناك بدعة أكثر "مناهضة للإكليروس" أيضاً هي بدعة الأبرشانيين أو المستقلين. وقد أسسها "الطهراني" رويرت براون في عهد الملكة أليزابيت، وهي لا تعترف بأسقفية الأنغليكانيين، ولا بسينودسات البرسبيتاريين: لا تخضع أي جماعة إلا لنفسها على صعيدي العقيدة والانضباط (أو النظام). وبما أن الكنيسة "القائمة" (أو الرسمية) اضطهدت الأبرشانيين، فلقد هاجر الكثير منهم إلى إنكلترا الجديدة[2]، ولا ريب في أن تأثيرهم ساهم في منح البروتستانتية الأميركية ذلك الشغف بالاستقلال الذي تعتز به كثيراً.

---

[1] أي النظام الكنسي الذي يعطي الأساقفة الدور الأساسي في قيادة شؤون الكنيسة، وكان الأنغليكانيون يؤيدون هذه الرؤية للحياة الكنسية، على عكس أتباع كالفن(م).

[2] تسمية معطاة للولايات المتحدة الأميركية التالية: ماين، ونيوهامشاير، وفرمونت وماساشوستس، وورود آيلند، وكونكتيكوت، وكانت مستعمرات إنكليزية تم تأسيسها في القرن السابع عشر(م).

ولْنُشِرْ أيضاً إلى المعمدانيين، الذين، مثلهم مثل مجددي العماد في ألمانيا والمنونيين في هولندا، الذين لم يكونوا يمنحون العماد إلا "للمؤمنين"، أي للراشدين، وفضلاً عن ذلك عن طريق التغطيس (في الماء). وقد اضطر أوائل المعمدانيين، في بداية القرن السابع عشر، إلى الهجرة إلى أمستردام، هرباً من الاضطهاد. وسرعان ما عادوا إلى إنكلترا وأسسوا فيها جماعتين تختلفان بخصوص مسألة النعمة، وكانت إحداهما كالفنية والأخرى أرمينيوسية[1]. وقد بقي الاتجاهان حتى العام 1891، حين نشأ الاتحاد المعمداني لبريطانيا العظمى وأيرلندا. هذا وقد استقر المعمدانيون في أميركا الشمالية منذ بدايات الاستعمار، ويشكلون اليوم هناك أقوى الكنائس البروتستانتية. كما أنهم انقسموا إلى عدة جماعات متمايزة، وحتى في فرنسا نجد اليوم "اتحاداً للكنائس الإنجيلية المعمدانية"، فضلاً عن "كنيسة معمدانية مستقلة" مركزها الأساسي في موغماتر.

لقد كان للبدع البروتستانتية إسهام هام في الحركات السياسية التي هزت إنكلترا في أواسط القرن السابع عشر. فقبل وقت طويل من انفجار الثورة التي أفضت إلى إعدام شارل الأول، وفي حين كان الحزب الملكي يضم أنغليكانيين وكاثوليكياً وفقط بعض البرسبيتاريين، كان أنصار البرلمان موجودين بين البرسبيتاريين و"المستقلين". ويقال إنه كان بين هؤلاء الأخيرين مجددو عماد، و"عائليون" (يقال إنهم دعوا إلى مشاعية النساء والأطفال)، و"أناس من المملكة الخامسة" وranters[2] ("ممسوسون")، من أنصار الحب الإباحي. وكان يمين "المستقلين" يضم الـGentelmen Independants

---

[1] نسبة إلى اللاهوتي الهولندي أرمينيوس (1560- 1609)، الذي أسسها(م).

[2] واعظون متشدقون(م)

(المستقلين النبلاء) أو الـGrandees، الذين كان من ضمنهم كرومويل، وكان اليسار يضم الـLevellers ("دعاة المساواة")، بقيادة جون ليلبرون، الذين كان بعضهم عقلانيين[1]. وتذهلنا الرسائل النقدية لـ"دعاة المساواة" باللهجة الحديثة جداً التي يتسم بها التحليل الذي يعطونه للعلاقات بين النظام السياسي ونظام الملكية. وكانت بدعة جذرية أخرى، هي بدعة الـMechanick Preachers (الواعظين الميكانيكيين)، تكافح عقيدة التقدير التي إذ تماهي بين الثروة والخلاص تُسلِم، في نظرها، الفقراء إلى الهلاك الأبدي. ويحدّثنا أحد هجّائي تلك الفترة عن أولئك الواعظين الاجتماعيين – الإنجيليين بالطريقة التالية: "كان ذلك النوع من الرعاع يتفرق مثل اليساريع ويعقد جمعيات سرية في الأهراء وبيوت المؤن. وكان بعضهم يعظون (أو يلغطون) في غابات، وحقول، وزرائب، وأشجار مجوفة، وساحات، وعلى طاولات". وقد باتت دعاوة البدعيين مهددة للنظام القائم إلى حد أن البرلمان اتخذ في العام 1647 قراراً "يتعلق بنمو الأخطاء، والهرطقات والتجديفات وبنشرها"، ويحدد "يوماً للاتضاع العام لأجل طلب العون من الله".

كان التعارض بين "المستقلين" و"دعاة المساواة"، أي بين كرومويل وليلبورن، عنيفاً بعد وفاة شارل الأول (1649)؛ وكان الأخيرون قد كسبوا إلى جانبهم قسماً من الجيش وأحدثوا تمرداً لقي زعيم الأولين صعوبة كبرى في وضع حد له؛ وقد أمر بإعدام ثلاثة من المحرضين. وقد انضم إليه النبلاء والتجار في الصراع ضد أولئك الأشرار الذين لم يكتفوا بإنكار خلود النفس، بل كانوا يطمحون لإلغاء الملكية الخاصة، ويؤلبون "الخادم ضد

(1) كان أحدهم، فالفين، يقول إن سليمان كتب نشيد الأناشيد "بخصوص إحدى عاهراته".

السيد، والمزارع ضد النبيل، والشاري ضد البائع، والمدين ضد الدائن، والفقير ضد الغني"، ويريدون أن "يتمكن أي متسوّل من امتطاء الأحصنة". وثمة بدعة أقل أهمية بكثير من بدعة "دعاة المساواة" ولكن عقيدتها تثير الاهتمام، إنها بدعة الـdiggers (أو "الحفّارين"). وقد نشر زعيمها وينستانلي، في العامين 1649 و 1650 هجائيات مثيرة للفضول نقرأ فيها بين ما نقرأ:

لقد كان آدم الأول "سلطان الجسد في كل رجل"؛ والوحي الإلهي الذي سيتيح السيطرة على هذا الآدم لن ينزل على "رجال العلم" بقدر ما على "المحتقرين، والجَهلة، والفقراء، والذين هم لا شيء في العالم". وللاهوته مظهر عقلاني: "مع أن الناس يعتبرون أن كلمة عقل بالغة الوضاعة بحيث لا يمكن أن تكون اسمًا لله، فهي مع ذلك الاسم الأسمى الذي يمكن إعطاؤه إياه... العقل هو الذي صنع كل شيء والعقل هو الذي يحكم كل الخليقة". وهو يعلن على المستوى الاجتماعي: "الملكية الخاصة هي اللعنة والعبء اللذان تئن تحتهما الخليقة؛ لقد خلق الربُّ الأرض لتكون كنز الجميع المشترك". وهو يضيف: أما بخصوص النساء، "فليكن لكل امرىء زوجه، ولكل امرأةٍ زوجها، وأنا لا اعرف أيًّا من الحفّارين (diggers) يستسلم لانحرافٍ لاعقلاني كمشاعية النساء".

وقد حاول وينستانلي حتى أن ينقل نظرياته الشيوعية إلى الممارسة، ومضى بصحبة حوالى ثلاثين متسوّلاً ليزرع أرضًا بائرة في منطقة سورّاي Surrey، ولكن بناء على شكوى أسياد البلد جرى طرد المعمِّرين بالقوة المسلحة. وقد عاد زعيمهم إلى نشاطه الصحفي، ونشر في العام 1652 شريعة الحرية، وكان مؤلّفاً مهدى إلى كرومويل يلفت فيه نظر الديكتاتور

إلى أنه على الرغم من الإصلاح الديني بقي الإكليروس غير متسامح وجاهلاً، وبقيت القوانين المدنية بقساوة ما كانت عليه سابقاً بالنسبة للشعب المسكين. وهذا الكتاب لافتٌ بما يتضمنه من فهم حديث جداً للظاهرات الاقتصادية، ويبدو وينستانلي، الذي تخلّص تماماً من الشيوعية الصوفية للبدع القروسطية، رائداً للاشتراكية المعاصرة.

وثمة حركة ثالثة للتبسيط الديني والاجتماعي هي حركة الـquakers[1]. وهذه الحركة المشهورة جداً، والباقية حتى اليوم، لها أصل غامض وربما يكون تجديديّ العماد. وقد مضى أحد روادها، الطهراني روجر وليامز، فأسس في أميركا مستعمرة رود آيلاند (1638). أما مؤسسها الحقيقي فكان الإسكافي جورج فوكس، المولود عام 1624، والذي أعطاها اسمها الرسمي جمعية الأصدقاء، وكانت قد عرفت باسم "أولاد النور". وبخصوص كلمة quaker (أو "المرتجف")، فمصدرها يعود إلى واقع أن هؤلاء البدعيين كانوا يصابون أحياناً بالتشنجات خلال اجتماعهم، أو إلى التعنيف التالي: "ارتجفْ حين تسمع اسم الرب"، الذي يخاطب به فوكس القاضي الذي كان يمثل أمامه.

وما يميز الكويكرية، بشكل خاص، إنما هو احتقار الأشكال الخارجية للدين: بما أن الله يتكشف مباشرة للمؤمن، يمكن الاستغناء عن إكليروس محترف؛ ويمكن كل واحد أن يعظ بما يمليه عليه صوت داخلي؛ كما يجب رفض حلف اليمين. وبما أن الناس متساوون جميعاً، يجب مخاطبتهم بصيغة المفرد، وبما أنهم كلهم إخوة، يجب مساعدتهم في الضرّاء، وأن يعيش المرء في البساطة والزهد.

[1] الكوايكرز، أو المرتجفون(م)

وحين استولى كرومويل على السلطة وأقام نظاماً برجوازياً يكاد يكون أقل قسوة بالنسبة للطبقات الدنيا من نظام السادة (النبلاء)، استحوذت خيبة كبرى على من كانوا حلموا الحلم الألفي بمجتمع لا طبقي. وقد اتّسم احتجاجهم بسمة دينية أكثر مما في السابق، وتمكن فوكس بعد العام 1650 من أن يضخّم عدد أتباعه الفعلي إلى أبعد الحدود. وقد ساعده في تبشيره جايمس نايلور، وكان خطيباً مفوّهاً أُلقي به في السجن لأنه ألقى عظة "تجديفية" يقول فيها إن جسد المسيح لم يعد من لحم ودم بعد القيامة بل بات روحانياً. وحين أُطلق سراحه بعد ستة أشهر من الاحتجاز، استأنف وعظه الجوّال؛ وكانت نسوةٌ متحمسات ينظرن إليه على أنه ابن الله الوحيد، وكتب له أحد أنصاره: "لا يجب أن يكون اسمك جايمس بل يسوع". وبعد إقامة جديدة في السجن، استقبله الجمهور في بريستول، بهتافات "هوشعنا في الأعالي" (1658). وقد أوقف مجدداً، وجرى إرساله إلى لندن، حيث درست لجنة برلمانية حالة "التجديف المخزي" التي اتُّهم بها وناقش مجلس العموم المسألة طويلاً. وقد حُكم عليه أخيراً بأن يُرفع على عمود التشهير ويُجلد، وبأن يُثقب لسانه بالحديد المحمّى ويُنقش حرف B على جبينه بالنار. وخلال تعذيبه، كان أنصاره المحتشدون يحيطون بالعمود صارخين، ورفع أحدهم إعلاناً كتب عليه: "هذا هو ملك اليهود". وقد أعيد بعدئذٍ إلى بريستول وتم التجوال به في الشوارع وهو ممتطٍ حصاناً بالمقلوب وكان يجري جلده بقسوة فيما كان كويكرز المدنية يتبعون الموكب وهم ينشدون الأناشيد. وقد خرج من السجن في العام 1659 وتوفي في السنة التالية.

هذا وقد استمر مذهب الكويكرية على الرغم من أعمال الاضطهاد؛ فبين العامين 1651 و 1656 سجن حوالى الألفين من أتباعه، وأكثر من 13

ألفاً بين 1661 و 1697. ولكن بعد الثورة التي رفعت إلى العرش وليم أوف أورانج، صدر قرار في العام 1689 منح جمعية الأصدقاء المساواة المدنية والدينية مع باقي المواطنين، وجرى إعفاؤهم في العام 1695 بموجب قرار آخر من حلف اليمين. وقد حصل أحدهم، المدعو بن (Penn)، من الملك شارل الثاني، في العام 1681، على التنازل (القانوني) عن أرض شاسعة في أميركا، أسس فيها المستعمرة التي تعرف اليوم بولاية بنسلفانيا.

ومنذ بدايات القرن الثامن عشر، كرّس الكويكرز أنفسهم — وكانوا يحظون باحترام الجميع بسبب نقاء حياتهم ووقارهم —لأعمال البرّ ومحبة الغير التي لا تزال تجعل مجدهم مستحقّاً إلى أيامنا هذه. وهم كثيرون في إنكلترا، وأكثر أيضاً في الولايات المتحدة. كما نجد منهم في هولندا، وحتى في بلادنا، في منطقة الغار (Gard) حيث يشتهرون باسم "راجفي السيفين".

وثمة بدعة أخرى قريبة بطبيعتها وعملها من الكويكرية هي بدعة الـShakers ("المهتزّين"). وقد تأسست في أواسط القرن الثامن عشر على يد المدعوة أنّا لي، وتتمثّل طقوسها بحوارات تختلط بظاهرات اختطاف وتصحبها تشنجات لكل الجسم. ولا تخلو عقيدتها من الفرادة: الله كائن مزدوج، فهو ذكر وأنثى في آن معاً، حيث يسوع هو العنصر الذكر وأنّا لي هي العنصر المؤنث. وعلى صعيد البشرية، لم يحصل التمايز الجنسي إلا حين طلب آدم إلى الله إعطاءه رفيقة؛ وتلزم العودة إلى الحالة التي سبقت الخطيئة الأولى والالتزام بالعزوبية الأكثر دقة. وقد كان الـ Shakers يعيشون في جماعات تضم حوالي مئة رجل وامرأة يشكلون "عائلة"؛ ولكي يحافظوا على عددهم، كانوا يستقبلون أرامل محمّلات بالأطفال. وقد هاجرت أنّا لي مع أتباعها إلى إنكلترا الجديدة في العام 1774، وعاد الـ shakers إلى حياة

طبيعية أكثر، وازدهر وضعهم في الولايات المتحدة حيث لا يزالون كثيري العدد إلى الآن.

وضمن الاتجاه عينه إلى تعبُّدٍ يقارب الجنون ، فلنشِرْ أيضاً إلى بدعة الـ jumpers (أو "القافزين")، التي تأسست في كورنوال[1] حوالى العام 1670، وكأن أتباعها يتمرنون بصورة متبادلة على القفز إلى أعلى ما في وسعهم، أو يركضون وهم يصرخون إلى حين يسقطون أرضاً من الإنهاك. وقد هاجرت هذه البدعة إلى أميركا حيث لا يزال لها أتباع إلى الآن.

وهنالك أيضاً بدعة إنجيلية أخرى هي الميثودية، التي كان انتشارها وحيويتها أكبر أيضاً من انتشار الكويكرية وحيويتها. وقد أسسها في القرن الثامن عشر جو ويزلي، القائد الديني الذي ربما كان الأكثر فرادة في تاريخ إنكلترا. وكان يجمع الذكاء إلى الورع، والعبقرية التنظيمية إلى الحماس الرسولي. وقد كان الولد الثالث عشر في عائلة قسٍّ ولد له تسعة عشر طفلاً، ودرس في أوكسفورد وأبدى مع بعض رفاقه مثابرة دقيقة جعلتهم يوصفون "بالميثوديين" (أو "المنهجيين"). وتحت تأثير زينزندورف، الذي كان قد مضى لرؤيته في هيرنهوت، تبنّى لبعض الوقت عقيدة الإخوة المورافيين، ولكن سرعان ما نفر من طمأنينيتهم[2] وشدّد على التبرير بالأعمال، من دون أن ينفصل، مع ذلك، عن الكنيسة الإنكليزية الرسمية، التي باتت تعرف بالكنيسة العليا (High Church). إلا أنه كان يرسم بنفسه واعظيه، ويسافر بلا انقطاع. وكان ينصرف إلى التبشير إلى حد أنه جرى إحصاء 50 ألف عظة ألقاها خلال حياته الطويلة (1703- 1791). وبعد موته انفصل

[1] كونتية في جنوب غرب إنكلترا.

[2] الطمأنينية مذهب صوفي يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح(م)

تلاميذه عن الكنيسة الانغليكانية، ولكنهم امتنعوا عن إعطاء عقيدتهم الإطار الجامد لقانون إيمان. وكان زعيمهم قد أعطاهم المثل على هذا الصعيد، لأنه كتب لأحد أولاد إخوته الذي كان قد اهتدى إلى الكاثوليكية: "كن كما تشاء، بابوياً أو بروتستانتياً، شرط أن تعتنق دين توماس آي كامبيس[1]، وباسكال[2]، وفينيلون[3]." لذا فضل الميثوديون على كل التزام بأصول عقيدة طهارةَ العادات، والمحبةَ، ونعومة الطبع، وعلى الصعيد الطقسي الاعترافَ العلني والمناولة كل أحد. ويلزم الاعتقاد بأن هذا التصور التجريبي جداً للدين يتوافق مع الذهنية الانغلوسكسونية. وثمة اليوم في بريطانيا والولايات المتحدة 30 مليون معتنق للميثودية. وثمة العديد من الجماعات الميثودية في بلادنا، بعضها مرتبط بالكنيسة البروتستانتية في فرنسا، والبعض الآخر لا.

لقد كانت الحركة التي أطلقها ويزلي تشكل انبعاثاً أول، احتجاجاً أول من جانب مسيحيين صادقين ضد المادية المحيطة، ولا سيما ضد إباحيةٍ في العادات كان البلاط وعلية المجتمع يقدمان المثل عليها. وقد عادت الطهرانية إلى الرواج، ليس من دون بعض النفاق، في القرن التاسع عشر، وانطلاقاً من حكم الملكة فيكتوريا وتحت تأثيرها. واستعادت البدع بفعلها قوة جديدة، وكما كانت الحال في القرن السادس عشر، انخرطت بنشاط في الحياة السياسية، وبوجه أخص في أولى تجليات الاشتراكية المعاصرة.

وحين خلق النمو الصناعي في انكلترا بروليتاريا، أي عمالاً أشد بؤساً

---

(1) كاتب صوفي ألماني (1379- 1471) يُنسب إليه كتاب الاقتداء بيسوع المسيح (م)

(2) عالم رياضيات وفيزياء وفيلسوف فرنسي (1623- 1662) (م)

(3) أسقف وكاتب فرنسي (1651- 1715) (م)

من حرفيي الزمن الماضي، ويعملون 17 ساعة يومياً مقابل أجر زهيد، شوهد مسيحيون يسعون، بوصفهم مسيحيين، لتخفيف أهوال الاستغلال الرأسمالي. وذلك عن طريق اشتراكية ليست فكرية وعقلانية كاشتراكية الفرنسيين فورييه وبرودون، بل عاطفية وصوفية؛ ليست حساً بالعدالة بقدر ما هي محبة مسيحية. وبالطبع، كانت البدع الإنجيلية مساهمة فعالة في تلك الحركة.

فبفضل "مُصلّيات" الميثوديين، حيث كانت العظة، والترتيلة والموسيقى تثير انفعال الراشدين، وبفضل "مدارس الأحد"، الخاصة بهم والتي كانت تعلّم الأولاد العقيدة، كان لهم تأثير مباشر في الشعب، من دون أن يدفعه ذلك إلى التمرد؛ كان حلمهم بمجتمع أفضل قد بقي صوفياً على وجه الحصر؛ بينما كانت بدع أخرى أكثر جذرية وساندت حركات وليدة كالشارتية[1] والنقابات العمالية – ففي مدينة روتشدايل الصناعية الصغيرة وحدها، وكانت مهد الحركة التعاونية الانكليزية، كانت توجد بجانب معابد الكنيسة الرسمية وكنيسةٍ كاثوليكية مصلياتٌ أقامها الموحّدون[2] (المسيحيون)، والويسليون[3]، والمعمدانيون، والكويكرز، والميثوديون وغيرهم، لشدة ما كان التخمر الديني في ذلك العصر قوياً، بالتوازي مع التخمر الاجتماعي وبالقرابة معه. ولم تكن السماء تتجاهل إطلاقاً المطالب الأرضية، وحين جرى التصويت، في العام 1843، على الـ Poor Law[4]

[1] حركة عمالية في أوائل القرن التاسع عشر طالبت بإصلاحات ديمقراطية وانتخابية(م)

[2] فرقة دينية مسيحية رفضت الأخذ بفكرة الثالوث واعتمدت التوحيد(م)

[3] أنصار المصلح الديني جون ويسلي، وكان لاهوتياً وقساً بروتستانتياً إنكليزياً ولد في إيبوورث (1703-1791)، وأسس جماعة الميثوديين البروتستانتية. وقد أثار نهضة دينية هامة في إنكلترا(م)

[4] قانون إغاثة الفقراء(م)

الذي كان يكرّس امتيازات مستغلي عمل العمال، أعلن ستيفنس، وكان وسليّاً تحوّل إلى الشارتية، أن هذا العمل "ينتهك كل شرائع الله". وخلال لقاء انعقد في غلاسكو، صرخ الشخص نفسه: "لقد أقسمنا بإلهنا، وبالسماء والأرض والجحيم، بأننا سوف نطوّق بكتلة رهيبة من اللهب مصانع طغاة القطن." وهي رؤية أبوكاليبتية لتلك المسيانية البروليتارية التي لم يكن غريباً عنها روبر أوون بالذات، المصلح "المشاعي" الشهير؛ ألم يبشر، في الواقع، بأن الألفية بدأت في أول أيار/مايو 1833؟

حوالى العام 1848، حلّ محل الشارتيين، الذين قمعت بقساوة محاولاتهم للقيام بانتفاضات، الاشتراكيون المسيحيون. وكان هؤلاء في البدء، مجموعة من رجال الإكليروس والمحامين، الذين وجهوا بياناً إلى العمال يدعونهم فيه إلى ألا يخلطوا بين الإباحة والحرية، وأضافوا: "الله الكلي القدرة ويسوع المسيح، الفقير الذي مات لأجل الفقراء، سيحملان إليكم الحرية، مع أن كل عبدة المال في الأرض هم ضدكم." وبما أن "الاشتراكيين المسيحيين" كانوا محبّين للخير أكثر مما ثوريين، فلقد رأوا في ثورة باريس عام 1848، وفي انعكاساتها في أنحاء أوروبا، تجلياً للقدرة الإلهية، وتساءل أحدهم، موريس، بالأسلوب التوراتي أيضاً وأيضاً، "إذا كان غزو سنحاريب لفلسطين حدثاً أهم من إطاحة كل القوى المدنية والكهنوتية الكبرى في العالم المسيحي". وكان يدين مبدأ سيادة الشعب على أساس أنه إلحادي. ولكنه كتب من جهة أخرى: "نحن نطلب أن تفهم الكنيسة تماماً أساسها الخاص بها، وأن تحقق بالكامل الشيوعية التي يستتبعها وجودها." وقال آخر، هو المدعو لودلوو: لقد كان عليّ أن أتعرف إلى الملكية، والأرستقراطية والاشتراكية، أو الإنسانية بالأحرى، على

أساس أنها العناصر أو الشروط الضرورية لمجتمع مسيحي عضوي." ومن الواضح أن أفكار هؤلاء الحالمين كانت ضبابية بقدر ما هي تتسم بالشهامة والكرم. ولقد أصدروا نشرات عديدة وصحيفة، هي **الاشتراكي المسيحي (The Christian Socialist)**، معدة لـ"نشر مبادئ التعاون بما هو تطبيق عملي للمسيحية في صالح التجارة والصناعة". هذا وإن اهتمامهم – الانكليزي تماماً – بتهذيب أخلاق الحركة الاشتراكية لم يغلق أمامهم إطلاقاً رغبة الجماهير العاملة في الاستماع إليهم، وبالتعاون مع الجمعيات العمالية ساهموا بنشاط في تحسين أوضاع البروليتاريا الصناعية.

وإذا كان يمكن الكلام على اشتراكية حديثة في انكلترا، فذلك قد بدأ انطلاقاً من العام 1850 تقريباً. والحال أن هذه الحركة كانت لا تزال متسمة بالروح الدينية. ففي العام 1877، كانت مجموعة من القسس قد أسست **رابطة نقابات القديس متى**، وكانت جمعيته تستلهم مبدأ أن "المسيحي ليس قادراً وحسب، بل هو ملزم أيضاً بتأييد مطالب الاشتراكي". وقد بقيت وجهة النظر هذه متأصلة حتى أيامنا هذه، وخلال الإضراب العام الرهيب في العام 1926، جاء في نشرة لجنة عمال سكك حديد ما يلي: "اليوم السادس من الإضراب، الأحد 9 أيار/مايو 1926. تذكّرْ أنه يجب تقديس يوم السبت.أحِبَّ الرب من كل قلبك، وكل روحك، وكل فكرك وكل قوتك، وأحْبب قريبك كنفسك." وعلى مقربة منا أيضاً، ألا نرى العديد من قادة حزب العمال الموجود في السلطة يواظبون على حضور قداديس الجماعة التي ينتسبون إلى أسقفيتها؟

وبالعودة إلى المجال الديني الصرف، دعونا نُشِرْ إلى انحراف عقيدي هام، هو ذلك الخاص بالموحدين. فهم إذ يجددون الأريوسية القديمة، ينكرون

الثالوث باسم التوحيد الإلهي. ولقد أدانت الكنيسة القائمة هذه العقيدة بصرامة، وفي العام 1646 أصدر البرلمان مرسوماً يقضي بعقوبة الإعدام بحق الموحدين. وهم عجزوا عن أن يتشكلوا في كنيسة علنية حتى العام 1774. وقد هاجروا إلى الولايات المتحدة، ولا سيما إلى بوسطن، حيث اعتنق التوحيد الشاعر والفيلسوف إيمرسون، الذي كان يُطْلِقُ عليه تسمية "دين المثقفين". ولا تزال هناك إلى الآن جماعات موحِّدة في إنكلترا والولايات المتحدة.

وسوف نشير إلى حركة أوكسفورد، كواحدة من "اليقظات" التي هزت النفوس في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكانت هذه الحركة تطمح إلى أن تبث في الـ **High Church**[1] قدراً أكبر من الدينامية، عبر إزالة التأثيرات الكلفينية منها، ووضع حد للتجاوزات التي تنجرُّ إليها بسهولة كنيسة دولة، والدعوة إلى **Via media**، أو حدٍّ أوسط بين الانغليكانية والإيمان الروماني. ومن عام 1833 إلى العام 1841 غمر الأوكسونيون أو المنشوريون إنكلترا بالمناشير (الدينية)؛ وقد أدان أسقف أوكسفورد الكراس رقم 90؛ وكان هذا الكراس، الذي كتبه نيومان، وكان إكليريكياً شاباً خارق الذكاء، يميل إلى التضحية بالانغليكانية لصالح الكنيسة الرومانية. وبالفعل، اهتدى نيومان بعد أربع سنوات من ذلك الحين إلى الكاثوليكية، وأصبح كاردينالاً وكتب مؤلفات لاهوتية بارعة، ولا سيما حول تطور مبادئ الإيمان.

أما رفيق نضاله، بوزي **Pusey**، وكان أستاذاً للعبرية في جامعة

---

(1) الكنيسة العليا، وهي فرع من الكنيسة الأنغليكانية يراعي الطقوس الدينية ويرفع من مقام الأساقفة والكهنوت(م)

أوكسفورد، فلم تصل به الأمور إلى حدود "الالتحاق بالبابوية"، بل أصبح قائد اتجاه بقي يميل إلى المصالحة مع روما حتى انعقد مجمع الفاتيكان. وحوالي منتصف القرن، تحولت البوزية إلى الطقوسية، الجناح الأيمن في الانغليكانية، والتي تقبل بالصليب ، والشموع، والبخور والثياب الكهنوتية، وعلى صعيد قوانين الإيمان بوجود المسيح الفعلي في القربان المقدس، وبالاعتراف السماعي، وبالتعبد للعذراء. ولا يزال هذا التيار موجوداً إلى اليوم في الـHigh Church، ويمكن أن نردد في هذا الصدد ما كان قد قاله غريغوريوس السادس عشر عن المنشوريين: "إنهم بابويون من دون بابا، وكاثوليك من دون وحدة، وبروتستانت من دون حرية". وبالطبع، لقد أفسدت المناداة بعظمة البابا رغبة التقارب مع روما. على العكس، فقد أقيمت في أيامنا علاقات مع الكنيسة الأورثذكسية الروسية. انعقدت مؤتمرات لنقاش ما سمي الحركة المسكونية، أي إمكانية قيام وحدة بين كل الطوائف المسيحية. وقد أرسل الفاتيكان إليها "مراقبين"، ولكن لا يبدو أنه اتخذ موقفاً بصدد موضوع بهذه الحساسية. ولا ريب أنه باق عند الرأي الذي صاغه في الماضي البابا ليون الثالث عشر، الذي كان الفيلسوف الروسي سولوفييف قد أوصل إليه مشروعه بصدد كنيسة جامعة: "يا لها من فكرة جميلة، ولكنها بحاجة لمعجزة كي تصبح ممكنة".

ومنذ الحرب العالمية الثانية، استعادت الاتجاه "المسكوني" الحركة المسماة إعادة التسلح بالأخلاق أو M.R.A. (Moral Re-Armament). وهي تهدف إلى "معالجة الشقاقات بين الناس، بدفعهم إلى الاعتراف بخطاياهم تحت نظر الله" وإلى إعادة بناء الوحدة المسيحية، من دون أن يؤدي الاهتمام بالإجماع، مع ذلك، إلى الإساءة لمبادئ إيمانية كالثالوث وألوهة المسيح، أو

لأسرار الكنيسة الكاثوليكية. لقد قررت جمعية كرادلة فرنسا ورؤساء أساقفتها عام 1948 أنه لا يمكن للكهنة ورجال الدين أن يحضروا اجتماعات إعادة التسلح بالأخلاق إلا بترخيص من الأسقف أو من رئيسهم.

وبين البدع الانكليزية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، تجدر الإشارة إلى الإيرفنغيين، والداربيين وجماعة جيش الخلاص (أو الخلاصيين).

لقد عمد رجل دين اسكوتلندي، هو إدوارد إيرفنغ، إلى الكرز بنجاح، انطلاقاً من العام 1828، بنوع من الألفية، أما المستمعون إليه، الذين آمنوا بمجيء "الأزمنة الأخيرة"، فكانوا يرون رؤى ويتنبأون. وقد عزل سينودس بروتستانتي إيرفنغ، المذنب لكونه تخطى حدود الكلفينية الرسمية. فأسس عندئذ الكنيسة الرسولية، التي كان يقودها "مجمع رسل". وقد قرر هؤلاء، الذين اجتمعوا بعد وفاة إيرفنغ في قصر مصرفيٍّ غني اقتنع بأفكارهم، فتح العالم. تفرّق "رسل الأيام الأخيرة" في كل بلدان أوروبا وأميركا، وحتى في الهند، ولكنهم لم ينجحوا إطلاقاً في كسب أنصار لبدعتهم إلا في ألمانيا والولايات المتحدة[1]. وهم يستقرون فيهما إلى الآن بقوة، في حين لا يبدو أنهم يتقدمون في انكلترا. والإيرفنغيون يقبلون عموماً بكل ما تسلّم به الطوائف المسيحية الكبرى، ولكنهم يشددون على دور الروح القدس في حياة الكنيسة. وهم يؤمنون بمجيء المسيح شخصياً، الذي سيدشّن ملكوت السلام، على مدى ألف سنة. وجماعاتهم يقودها ما يشبه الأسقف، الذي يسمونه "ملاكاً".

في الفترة نفسها التي ظهر فيها إيرفنغ، تخلى رجل دين آخر، يدعى داربي، عن الكنيسة الانغليكانية، ليلتحق بعقيدة بدعةٍ إنجيلية باسم إخوة

[1] سنرى أنهم كسبوا أيضاً بعض الأنصار في روسيا.

بلايموث. وقد أتاحت له موهبته كواعظ وطموحاته كمتنبئ أن يزيد عدد أتباعها في انكلترا وايرلندا، ويكسب أتباعاً جدداً خلال جولاته في ألمانيا، وسويسرا، والولايات المتحدة وحتى زيلندا الجديدة. والداربيون اليوم، وقد باتوا أقل حماساً من مؤسس بدعتهم، يجتمعون كل أحد ليتناولوا الخبز والخمر، وينشدوا الأناشيد، ويقرأوا الكتابات المقدسة، وينصرفوا إلى التأمل، ثم يتلفظون بحرية بما يلهمهم إياه الروح. وهم لا يعمِّدون إلا في الثالثة عشرة من العمر أو في الرابعة عشرة. كما أنهم ينتظرون مجيء الرب الوشيك بثقة.

أما بخصوص جيش الخلاص، فهو لا يشكِّل بدعة بحصر المعنى. وهو لا يختلف عن الكنيسة الأنغليكانية على صعيد العقيدة، بل يشدِّد على ضرورة الخلاص، وعلى التوبة، والاهتداء والسير نحو القداسة. وما يميزه بوجه خاص من كل الطوائف المسيحية الأخرى، إنما هو طابعه العسكري، ذلك أنه لا بابا على رأسه، أو أسقف أو "رسول"، بل جنرال يقود قواته لإنزال الهزيمة بالشيطان.

لقد كان مؤسسه وليم بوث، واعظاً من جماعة الإحيائيين[1]، في البداية، ملتحقاً بتجمع ميثودي، ثم أسس في لندن إرسالية أصبحت في العام 1878 جيش الخلاص (**Salvation Army**).

وقد نسخ تنظيمه عن تنظيم الجيش البريطاني؛ وأدت المظاهرات الصاخبة التي انصرف إليها هؤلاء المسيحيون بالزي العسكري إلى تدفيعهم الغرامات في البدء، وتعريضهم لعقوبة السجن، ولكن عمل الخير الذي كانوا يقومون به في الأحياء البائسة، في المدن الكبرى، جعل السلطات

[1] جماعة كانت تعقد الاجتماعات لأجل بعث الاهتمام بالدين(م)

تشملهم بحمايتها. وقد دعي الجنرال بوث رسمياً إلى تتويج الملك إدوار السابع؛ وتوفي عام 1912، في سن الثالثة والثمانين، بعد حياة طويلة مكرسة للارتقاء المادي والأخلاقي بالجماهير الشعبية.

وعلى الرغم من طابع جيش الخلاص العسكري (الذي لم يكن يستجيب كثيراً الذهنية الانكليزية، على ما يبدو)، وعلى الرغم من شعاره الحاد "دم ونار"، وعلى الرغم من اسم صحيفته الرسمية The war cry (صيحة الحرب)، فهو قبل كل شيء، عمل محبة وتضامن إنساني. وفي كل مكان نشط فيه، اجتذب التعاطف العام معه بسبب إنكار الذات الذي يكافح به البؤس، ولا أحد يرفض أن يقدم إسهامه لصاحب المعطف الأزرق الصغير الذي يبيع جريدته في المقاهي، غير آبه بما قد يثيره من الهزء. وكما تفعل، في الجانب الكاثوليكي ويقدر أكبر من الكتمان، أخوات الفقراء الصغيرات[1]، تُظهر الخلاصيات الشابات، الجنديات الشجاعات للمسيح – المحبة، تُظهر للمحرومين أن السماء لم تنسهم قط.

ونحن نجد هنا ملمحين إنكليزيين تماماً: الأمر الاجتماعي المنبثق من تعاليم الإنجيل، والدين النازل إلى الشارع، إلى وسط الجمهور، إلى الشعب. وهما مَلْمحان يمكن أن يُختزلا فضلاً عن ذلك إلى ملمح واحد: ليس الإيمان داخل أسوار ما يعلّمه الإكليروس أو عمق أعماق المؤمن، بل يفيض عن ذلك كله لينطبق على أهداف عملية؛ إنه، إذا أمكن القول، ذو منفعة عامة. ويمكننا أن نرى حتى أيامنا هذه، في هايد بارك، صباح الأحد، واعظاً يجثم على سُلّم نقّال ويبشر الحشد الشعبي الذي يصغي إليه بلا

[1] جمعية راهبات أسسها عام 1839 جان جوغان لأجل خدمة العجزة الفقراء.(م)

اعتراض بنهاية مملكة البهيمة (أو الوحش) أو بتأسيس بدعة جديدة. فيا له من شعب غريب، واقعي وصوفيٌ في آن، وفي الوقت نفسه منهمكٍ بالتجارة وواعظ بمحاسن الأخلاق، ولا ينام قبل أن يحاسب نفسه ويقرأ بعض آيات الكتاب المقدس.

ولا نتركنَّ مختبر العقائد الإنجيلية هذا، المتمثل في الجزر البريطانية من دون الإشارة إلى الحركة التي أبصرت النور في بلاد الغال حوالى العام 1904، وتتقدم حالياً في أوروبا وأميركا: حركة عيد العَنْصَرة[1]. وتقوم عقيدة هذه الحركة على الهبات اللدنية، وعددها تسع، وبحسب رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنثية أعطاها الروح للناس، وهي التالية: كلام الحكمة، وكلام المعرفة، والإيمان، وموهبة الشفاء، وموهبة اجتراح المعجزات، والنبوءة، وتمييز الأرواح، وتنوع الألسن، وترجمة الألسن.وجماعة عيد العنصرة ينفون تشكيلهم إحدى بدع البروتستانتية ولا يتميزون من معظم الطوائف الإنجيلية الأخرى إلا بطقس عماد البالغين بالتغطيس، ومن جهة أخرى بشفاء المرضى. وهذا يتم بوضع الأيدي أو بالصلاة، الأمر الذي يتطلب تدخلاً إلهياً، لذا يعتبر جماعة العنصرة العلم المسيحي "مناهضا للمسيحية"، لأنه يزعم إحداث الشفاء بعملية للفكر البشري. وجماعة عيد العنصرة يملكون مكانين للعبادة في باريس.

## البدع الأميركية

حين وصل في العام 1620، على متن الباخرة مايفلاور، الأبرشانيون

[1] عيد العنصرة هو عيد نزول الروح القدس على الرُسل، في اليوم الخمسين بعد الفصح عند المسيحيين(م)

الحاملون اسم رواد الهجرة[1] (Pilgrim Fathers)، إلى سواحل ماساشوستس، لم يكونوا يَشُكُّون، بلا ريب، في أن الطهرانية التي كانوا يحملونها معهم سوف تطبع بقوةٍ دين المستعمرات الانكليزية وأخلاقها في أميركا الشمالية. ولكنهم ما كانوا ليفترضوا بالتأكيد أن هذه الطهرانية لن تعود، مع الوقت، وفي غالب الأحيان، غير ستارٍ منافق يغطي فساد العادات والتقاليد.

إن "رواد الهجرة"، وكانوا هم أيضاً منشقّين، كانوا ينقلون معهم أيضاً مبدأ آخر هو مبدأ حرية الضمير. ولكن هنا أيضاً، كم من النباتات الغريبة، كم من الزهور العجيبة، سوف يخرج من هذا الرُشَيْم الأصلي! فلقد بلغ تكاثر الانشقاقات الدينية في الولايات المتحدة حداً دفع أحد المؤلفات الحديثة إلى إحصاء 143 ملة هي تلك التي يتوزع عليها البروتستانت الأميركيون من العرق الأبيض. ذلك انه، بخصوص السود، يصبح الحساب مستحيلاً.

ففي بلد تذكر فيه مصالح الأحوال الشخصية طائفة كل شخص، وضعت بموجب إحصاء العام 1936 الإحصائية التالية:

| | |
|---|---|
| معمدانيون (19 مِلّة) | 11400000 |
| ميثوديون (19 مِلّة) | 8400000 |
| لوثريون (20 مِلّة) | 4000000 |
| برسبيتاريون (10 ملل) | 2800000 |
| بروتستانت رسوليون | 2100000 |
| تلامذة المسيح | 1700000 |
| مسيحيون أبرشانيون | 1100000 |
| | 31500000 |

[1] المعنى الحرفي للكلمتين هو الآباء الحجاج، ولكن المعنى الفعلي الذي اعتمدناه هو رواد الهجرة، ولا سيما أن هؤلاء كانوا أول من هاجر من إنكلترا إلى الولايات المتحدة(م).

فإذا أضفنا إلى هذا المجموع 23 مليوناً من الكاثوليك، و4.6 مليون يهودي، و1.2 مليون من الأورثوذكس الشرقيين، وأخيرا سبعة ملايين من البروتستانت الذين لا يشملهم الجدول الوارد أعلاه، يصبح لدينا عدد إجمالي هو 67.3 مليوناً وهذا العدد يمثل، من أصل 134 مليون نسمة كانوا مجمل السكان، البالغين الذين أعلنوا انتماءهم إلى جماعة دينية.

لقد كانت أميركا الشمالية، من وجهة النظر هذه، ومنذ بداية الاستيطان الاستعماري تقريباً، فسيفساء: فالمهاجرون القادمون من انكلترا أو من مناطق متنوعة في أوروبا الشمالية والوسطى، كانوا يمثلون بصورة مصغّرة "المملكة فاقدة الوحدة" (أو غير المتحدة) التي تكلم عليها بوسوييه.وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وصل إنكليز رسوليون، أو برسبيتاريون، أو أبرشانيون، أو ميثوديون أو كويكرز، واسكوتلنديون كالفينيون، وهولنديون لوثريون أو منونيون، وألمان لوثريون أو معمدانيون وآخرون كثيرون أيضاً.

ولقد تواصلت الهجرة على امتداد القرن التاسع عشر: من الجزر البريطانية مع "أورشليم الجديدة"، والميثوديين الموصوفين بالبدائيين، والـ**Plymouth Brethern**، وجيش الخلاص؛ ومن ألمانيا مع أصدقاء الهيكل؛ ومن روسيا مع المنونيين، وفي بداية القرن العشرين، مع "مصارعي الروح" (**doukhobory**). وقد بقي العديد من هذه البدع بدعاً "وطنية"، أي منحصرة في الإطار الضيق لجالية أجنبية صغيرة مستقرة في أراضي الولايات المتحدة. بينما ازدهرت بدع أخرى بشكل أفضل، بكسبها أتباعاً بين الأميركيين بالذات. وقد كانت تلك حال تلامذة المسيح، بوجه خاص، وهي بدعة أسسها كاهن برسبيتاري من ايرلندا الشمالية، هو توماس كامبيل، الذي نقلها في العام 1807 إلى بنسيلفانيا. وهي تعظ بالعودة إلى

المسيحية الأولى، وعماد البالغين بالتغطيس، والمناولة الأسبوعية، والتنظيم الأبرشاني للكنيسة. وهي كثيرة الانتشار في الولايات المتحدة، ولها أتباع في إنكلترا، وكندا وأستراليا.

وباختصار، إذا استثنينا بعض الجماعات قليلة الاهمية، والانشقاقات المفرطة في الهوى لزنوج نصف منتقلين إلى المسيحية، لا توجد في الولايات المتحدة إلا ثلاث بدع كبرى محلية حقاً: المورمونيون، والسبتيون، والعلمويون. ولأجل هذا الواقع، وبسبب طابعها الفريد أيضاً، سوف ندرسها عن كثب أكثر قليلاً.

لقد ولدت بدعة المورمونيين من إحدى حالات الضلال الأشد غرابة التي أحدثت انشقاقات مسيحية. ففي العام 1870، صدر في بالماير، في ولاية نيويورك، مجلّد بعنوان كتاب مورمون جاء فيه أن قبائل إسرائيل العشر التي لم تعد إلى اليهودية بعد أسر بابل كانت قد هاجرت إلى أميركا الشمالية وانقسمت هناك إلى شعبين، الزنادقة اللّمنيين، أو الهنود الحمر الأميركيين، والنيفيين الأتقياء. وقد أباد اللمنيون هؤلاء، في القرن الرابع بعد الميلاد، ولكن آخر من بقي منهم على قيد الحياة، النبي مورموند، نقش على لوحات ذهبية احتفالات الماضي الباذخة والأحداث القادمة. وقد آمن بهذا الكلام الفارغ قارئ له يدعى جوزيف سميث ووجد حوله الكثير من الناس الذين آمنوا به بحيث أمكنه أن يجمعهم في جمعية دينية اتخذت في العام 1834 اسم قديسي الأيام الأخيرة. وقبل ذلك التاريخ، كان قد أسس المورمونيون – كانت هذه هي التسمية التي أطلقها عليهم "الوثنيون" – "مطرانية" في منطقة الأوهيو. وبما أن المستوطنين الآخرين كانوا يرفضونهم، نزحوا أكثر إلى الغرب، إلى ضفاف نهر الميسوري ثم إلى ولاية إيلينوي. وهناك أعلن

سميث أن وحياً أمره باتخاذ عدة زوجات، إلا أن المناداة بتعدد الزوجات نبهت السلطات المدنية فأوقف سميث مع أحد أشقائه، وبعد بعض الوقت اكتسح جُمهور خصومه السجن وقتلوا الأخوين سميث.

كان قد أصبح للمورمونية الآن شهداء، فأعطاها ذلك قوة جديدة وعمد قائدها الجديد، بريغام يانغ، وكان منظماً نشيطاً، إلى نقل البدعة عبر الغرب البعيد (الـFar West)، الذي كان حكراً على الهنود الحمر، وما وراء الجبال الصخرية، وصولاً إلى ضفاف بحيرة أوتاه المالحة (1847). في تلك الصحراء المجدبة أسس يانغ نوعاً من الدولة الثيوقراطية التي عاشت مستقلة حتى احتلال القوات الأميركية، في العام 1858، سالت لايك سيتي. وقد توفي يانغ في العام 1877، تاركاً ثروة هائلة لزوجاته السبع عشرة وأولاده الستة والخمسين.

إن عقيدة المورمونيين قليلة الوضوح، ولا سيما أن الوحي مستمر، بالنسبة إليهم، ويمكنه أن يتجلى بلا انقطاع بحضور الله المرئي أو غير المرئي، وبرسائل ينقلها الملائكة، ويعمل الروح القدس على الفكر الإنساني. بيد أنه، بما يخص قيادة الكنيسة، ليس من تأثير إلا للتعليمات المتلقاة من علُ بواسطة رئيسها، "نبي الله والرائي وناقل الوحي". وهذا الرئيس يحظى بعون "كهنوت هارون"، أي أساقفة، وكهنة وشمامسة ولاويين.

وتتضمن الطقوس ما يلي: العماد الذي يُعطى بالتغطيس ويمكن تجديده لغسل الخطيئة، وعبادة مكوّنة من مواعظ، وتراتيل مصحوبة بالأوركسترا، وسرد رؤى وتجليات تثير لدى السامعين الدموع والصرخات التشنجية؛ وخلال تلك اللقاءات، يتم تداول الخبز والخمر الخاصين بالمناولة بين الحضور. أما تعدد الزوجات، الذي اشتهرت به المورمونية عالمياً، فلم يكن

مسموحاً به عملياً إلا للأغنياء، وذك في كل البلدان التي وُجد فيها. ويقال إنه لقي تبريره على صعيد مبادئ الإيمان بفعل وحي نزل على يانغ، يتوق بموجبه عدد لا متناه من الأنفس إلى التجسد. وقد كافحته السلطات الاتحادية بصرامة، ولكنه بقي زمناً طويلاً في مناطق كان إشراف الشرطة فيها عسيراً. وحين جرى القبول بإقليم الأوتاه كولاية بين ولايات الاتحاد، في العام 1896، صوّت برلمانه الجديد على قانون يعترف بشرعية كل الأولاد الذين جرى إنجابهم بنتيجة زواج تعددي. ومذاك، يبدو أن ممارسة تعدد الزوجات قد اختفت، وإذا كانت سالت لايك سيتي لا تزال تقوم بالدعاية في الخارج، فذلك يتم فقط بإرسالها كل أحد، عبر الراديو، أصوات الخورس المورموني المنشد في بيت القربان، الهيكل الكبير الذي يرتفع في إحدى رياض المدينة، وفقاً للطراز القوطي.

أما المجيئيون، أو السبتيون (les adventistes) فهذا هو أصلهم: بعد ان كان مزارع يدعى وليم ميلر عضواً في بدعة المعمدانيين القانونيين (Regular Baptists)، استسلم لحلم الألفية الأخروي، ونشر في العام 1833 نصاً مكتوباً يبشر فيه برجعة المسيح بعد عشر سنوات. وقد آمن العديد من الأتباع بهذه النبوءة التي كان مفترضاً أن تتحقق وفقاً لحسابات مبينة على سفر دانيال، في 22 تشرين الأول/أكتوبر 1844. وقد شوهد آلاف أصحاب المزارع والعمال الزراعيين يتركون عملهم وينامون في العراء، بانتظار مجيء (l'advent)[1] المسيح. ولقد كانت الخيبة عظيمة، ولكنها لم تحل دون بقاء البدعة، التي لا تزال موجودة في الولايات المتحدة، حيث تتوزع بين مجيئيين

[1] كلمة advent تعني بالإنكليزية المجيء ولأجل ذلك جرت تسمية أتباع هذه البدعة بالـadventists، أو المجيئيين، وإن كانوا معروفين أكثر بتسمية السبتيين(م).

إنجيليين"، و"مسيحيي المجيء"، و "مجيئيي اليوم السابع"، و"اتحاد الحياة والمجيء"، وأخيراً "كنيسة الله في يسوع المسيح". ونجد أيضاً مجيئيين لليوم السابع في سويسرا الروماندية وحتى في باريس.

والبدعة الثالثة ذات الأصل الأميركي البحت، والتي كان لها نجاح واسع في العديد من البلدان، فهي تلك المسماة العلم المسيحي، وقد أسستها ماري بايكر إيدي.

ولدت ماري بايكر في العام 1821، في مزرعة في نيو هامشاير. وقد أظهرت منذ طفولتها ذكاء حاداً وجَسُوراً.

وقد تزوجت شخصاً يدعى غلوفر، ولحقت به إلى الولايات الجنوبية حيث تأثرت بسبب وضع العبيد السود وبدأت تكتب في الصحف مقالات تدعو إلى إلغاء العبودية. وقد فقدت زوجها بعد أن أنجبت منه ولدا. ثم تزوجت مجدداً، ولكن زوجها الثاني كان كسولاً وطائشاً فحصلت على الطلاق منه في العام 1873. وفي غضون ذلك، كانت قد تأملت طويلاً في كلمات المسيح: "سوف يطردون الشيطان باسمي، ويضعون أيديهم على المرضى فيشفوا". وقد بدأت تحيط بها شهرة القداسة، وكان الناس يروون بإعجاب أنها أعادت البصر لطفل أعمى. وقد شرعت تعلّم عقيدتها الجديدة وتشفي مجاناً المرضى، الذين كانوا يضمون إيمانهم إلى إيمانها. وفي عام 1875، أصدرت الطبعة الأولى من كتابها العلم والصحة، الذي يعتبره العلمويون اليوم الشرح المعتمد إلزامياً للكتاب المقدس. وقد أصبح إيدي، وكان مريضاً شفته، أحد أكثر أنصارها إخلاصاً، وتزوجها وكانت قد أصبحت في الخمسين من العمر. وفي السنة نفسها اسست ماري بايكر إيدي مع طلابها الجمعية العلموية المسيحية (Christian Scientist Association)،

وبعد ثلاث سنوات أولى كنائس البدعة. وقد استقرت في بوسطن، وكانت مُنظَّمةً ومدبَّرة مالية ممتازة، وقادت حركة كانت تنمو كل يوم. ونشرت صحيفة، وكانت تعظ يوم الاحد وتلقي محاضرة كل خميس. وكانوا يسمونها "نبية بوسطن". وفي العام 1888، جمع مؤتمر للبدعة في شيكاغو أربعة آلاف مندوب. وبنيت كنيسة كبرى في بوسطن سميت الكنيسة الأم (Mother Church)، وجرى تدشينها في العام 1899. لم تكن تحوي غير 1500 مقعد، لذا جرى استبدالها، بعد عشر سنوات، ببناء يتضمن خمسة آلاف. وقد جاء ثلاثون ألف مؤمن في يوم تكريسها. وفي السنة نفسها، صدرت الطبعة الأربعمئة من كتاب Science and Health with Key to the Scriptures[1]. وفي العام 1908، بدأت تظهر صحيفة The Christian Sciences Monitor، التي باتت اليوم إحدى الصحف الأميركية الرئيسية. وقد بقيت ماري بايكر ايدي تعمل حتى وفاتها، والتحقت في سن التاسعة والثمانين بالمبدأ – المحبة – الله.

هذا هو المصطلح الذي يدل، في الواقع، على الأساس الذي بنت عليه هذه الهرطوقية الحديثة عقيدتها. ونحن نقول الهرطوقية حقاً، لأن على المؤمن الجديد الذي يريد الدخول في البدعة، أن يعلن تخليه عن قناعاته الدينية السابقة. يجب أن يوافق على رسالة جديدة مستمدة من الإنجيل، على بشرى جديدة. لقد كتبت القائدة في أحد مؤلفاتها: "هل ستكون لنا مسيحية روحية، عملية، مع قدرتها على الشفاء، أو ستكون لنا طبابة مادية وديانة سطحية؟" ما كانت تراه من روحي في المسيحية، إنما هو انسجام الأفكار الذي يحقق ملكوت السماوات في قلب الإنسان. ما كانت

[1] العلم والصحة مع شرح الكتابات المقدسة(م)

تراه فيها من عملي، إنما هو فن شفاء المرضى كما شفاء الخطأة. ذلك أن المرض خطأ فيزيولوجي، مثلما الخطيئة خطأ للفكر. ليست الصحة وضعاً للمادة، بل وضع للروح. ويمكن الروح أن يشفي الأجسام، مثلما كان المسيح يشفي المصابين بالبرص، وليس التأكيد بفعل إيمان أعمى، بل بمعرفة الله والقوانين التي تنظّم كونه.

كانت بدعة العلم المسيحي تحظى بدعم موارد مالية عظيمة، فانتشرت في إنكلترا، والدول المرتبطة بالتاج البريطاني، وفي بلدان أوروبية عديدة. ولها في باريس ثلاث كنائس، وسبع في باقي أنحاء فرنسا، وعدة آلاف في العالم بأسره. أما العدد الدقيق فغير معروف إطلاقاً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى عدد الأتباع، لأنه ورد في سِفْر الأخبار الأول: "ووقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصي إسرائيل". أما نجاح البدعة المذهل فليس عائداً فقط إلى الأمل الكبير الذي تبعثه في قلوب المرضى، بل أيضاً إلى ادعاآتها العلمية. ويمكن مقارنتها على هذا الصعيد مع الماركسية: فهاتان العقيدتان تتباهيان بالتوفيق بين اثنين لا يمكن التوفيق بينهما، العلم والإيمان (الديني أو الثوري)؛ وهذه وتلك، تحت الرعاية الخدّاعة للعقل، تستخدمان لمصلحتهما رجاء البشرية المتأملة بمستقبل مشرق. فالكنيسة العلموية هي باختصار، نوع من لورد[1] بروتستانتية مع أنها لا تعتبر الشفاء معجزة، بل نتيجة قانون طبيعي. وفي الحالتين، فضلاً عن ذلك إذا لم يَشْفَ المريض لا ينقص بسبب ذلك حماس المؤمنين. وقد وصف لنا بيار بيارن، في الفترة الأخيرة، في روايته Misères[2]، صورة عائلة فرنسية تتذكر تدخُّل

[1] نسبة إلى قديسة لورد لدى كاثوليك فرنسا، المشهورة بعجائبها(م).

[2] مصائب، أو شقاآت(م)

المرحومة السيدة بايكر ايدي قرب سرير فتاة صغيرة تعاني من الآلام الشديدة لنوبة التهاب الزائدة. وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن قوانين العديد من الولايات الأميركية تعترف لمتمرسي العلم المسيحي بحق العناية بالمرضى على قدم المساواة مع الأطباء.

وبين الانشقاقات البروتستانتية ذات الأصل الأميركي الصرف، يمكن أن نذكر أيضاً الانشقاق الذي يحمل معتنقوه التسمية الغريبة التالية: راسليي برج المراقبة. ولقد ولد المدعو راسل في بتسبورغ في العام 1852، وانتقل من كالفينية أهله إلى المجيئية، ثم أسس مجموعة من "الدارسين الجديين للتوراة".

وقد اعتقد أن الله دعاه للتبشير بالألفية، أو ملكوت المسيح وخلاص الأنفس الميتة في الخطيئة. وفي العام 1878، بدأ يصدر مجلة تدعى **The Watch Tower and Herald of Christ's Presence**[1]. وبما أن المجيئيين تنبأوا عبثاً بالمجيء الثاني في العام 1874، حدده هو، بنتيجة حسابات لا تقل تعقيداً عن حساباتهم، في تشرين الأول/أكتوبر 1914.

وقد عرض أفكاره في سبعة مجلدات تضم 2600 صفحة **in octavo**[2]. والكتاب تُرجم إلى عشرين لغة وطبعت منه ملايين النسخ؛ وإذا أضفنا إلى صفحاته الكراسات التي كتبها المؤلف، نصل إلى 50 ألف صفحة. فلقد كان راسل يكتب ما معدله ألف رسالة شهرياً؛ وقد جاب العديد من البلدان، بما فيها الصين، وألقى خلال رحلاته 30 ألف عظة وخطبة موجزة؛ وألّف أخيراً للسينما "دراما مصورة للخليقة"، تصف تاريخ الأرض خلال 49 ألف

[1] برج المراقبة والمنبئ بحضور المسيح(م)
[2] اي قطع 8/1(م)

سنة. إلا أن شهر تشرين الأول/أكتوبر 1914 وصل، ولم يكن يحمل إلى الناس العصر الذهبي بل أهوال الحرب العالمية الأولى. وقد تملص راسل من المشكلة بتأجيل اليوم المقدّر إلى ربيع عام 1918. وقد مات هو شخصياً في العام 1916، فحل محله المحامي رادرفورد على رأس البدعة، التي أعطاها المزيد من الاتساع عبر نشرها في العديد من بلدان أوروبا. وقد نشر قيثار الله، وهو اليوم كتاب الراسليين الوجيز الذائع الصيت. وبخصوص التنبؤات كان رادرفورد قد حدّد عام 1925 على أنه تاريخ عودة الآباء الكبار للعهد القديم إلى الأرض، الذين كان مفترضاً أن يكونوا الممثلين المرئيين للوضع الحالي للأمور. وكما الحال مع العام 1914، والعام 1918، انصرم العام 1925 من دون أن يزعزع إطلاقاً ثقة المؤمنين بأنبيائهم، لشدة ما سذاجة الناس عظيمة ورغبتهم في معرفة المستقبل لا تقاوم! وفي العام 1928، كانت الجمعية التوراتية لبرج المراقبة"، التي مقرُّها في بروكلين، قد طبعت أكثر من 11 مليون كتاب وكراس. وهي تمتلك عدة إذاعات. وعلى الصعيد اللاهوتي، ينكر الراسليون الكمال اللامتناهي لله، الذي هو بالنسبة إليهم كائن روحاني وجسماني؛ وهم ينبذون هكذا سر الثالوث، ولا يعتبرون النفس إلا "رُشَيْم حياة"، أي ما يشبه عنصراً فانياً.

وما يذهلنا، نحن الأوروبيين، في البدع الأميركية، وما هو غريب عنا، إنما هو طابعها التجاري والإعلاني في الغالب، و"الطنطنة" التي تصاحب دعايتها. تبدو كثيراً كما لو أن رجل أعمال هو الذي أسسها. وبالفعل، فالصناعي الذي حقق الثراء، يدفع المال طوعاً لكنيسة يعطي فيها المثل البنّاء على ورعه وتقاه، إلا إذا قدم العون بسخاء لإحدى الجماعات. فلنتذكر بابيت، في رواية سينكلار ليويس المشهورة، وهو يجثو في مكتبه إلى جانب

واعظ أتى لتعليمه العقيدة. ولا ريب أن المال يلعب دوراً في كنائسنا، أكانت كاثوليكية أو بروتستانتية، ولكن هذا الدور يبقى طي الكتمان، ونشعر بالاشمئزاز، بوجه خاص، إذا أغرى الدِّين الزبون باعتناقه. ولا يسعنا أن نتصور البُشرى وقد زُفّت بدفع الأموال الوفيرة. ولا نحب أن نرى بارنوم[1] يروّج للمسيح[2].

أما السود فيظهرون في الولايات المتحدة الميل الشديد نفسه إلى الانشقاق الديني الذي يظهره البيض. ففي العام 1916، قيل إنهم يتوزعون على 19 بدعة بروتستانتية. ومن المثير للفضول أن الطقوس الكاثوليكية، بما يصاحبها من أبهّة، يجب أن تجتذبهم أكثر من المواعظ البروتستانتية؟ ولكن العكس هو ما نلاحظه، وهو أمر يفسره واقع أن خيالهم الحاد والطفولي يفضل على النظام الروماني التطواف الذي تتيحه مرونة الإيمان البروتستانتي. وهو تطواف أعطانا فيلم المراعي الخضراء (Les Verts Pâturages) صورة عنه فائقة البراعة.

لقد خلقوا بدعاً خاصة بهم. فالمدعو كراودي، أسس في كانساس، حوالى العام 1896، "كنيسة الله وقديسي المسيح". وعقيدته تعلّم أن السود يتحدرون من أسباط إسرائيل العشرة المفقودة؛ وأتباعه يحفظون السبت ويتسمّون بأسماء عبرية. وفي عشرين سنة، كان قد نجح كراودي في إقامة عشرين جماعة في عشرين من ولايات الاتحاد.

لقد خلقت الكنيسة الميثودية، الأفضل تنظيماً والأنشط بين البدع

[1] مدير مسرح أميركي(1810- 1891)(م)

[2] روت الصحف أخيراً مثلاً نموذجياً على هذه الدعاوة الوقحة: لقد باركت بدعةٌ في لوس أنجلس زواجاً بواسطة رجل دين طفل في الرابعة من العمر.

الأميركية، لأجل الملونين، الكنائس التالية: الميثودية الرسولية الأفريقية، الميثودية الرسولية الأفريقية زيّون، الميثودية الرسولية الملونة. والـ Camp meetings الخاصة بالبدعة، وهي اجتماعات في الهواء الطلق، مع تراتيل وجوقات، وصلوات جماعية، واعترافات علنية وصيحات حماس تصاحب حصول خاطئ على النعمة، كل ذلك يخلق جواً ترتاح له طبيعة الأسود الانفعالية. وفي جزيرة ترينيتي، وفي جزر الأنتيل. جرت ملاحظة وجود معمدانيين صيّاحين وراجفين بين السكان السود. وتعيد بدع سرية إحياء السحر والشعوذة الإفريقيين: فالفودو عبادة يُحتفل بها في سر الغابات، وهي تمزج بصورة غريبة المعتقدات الوثنية القديمة والإيمان البروتسانتي أو الكاثوليكي. أما الهنود الحمر فليسوا مدينين بشيء للسود: ففي العام 1923، أسس الهنود ألسيو في داكوتا الجنوبية كنيسة بيوتل[1] للمسيح، حيث تتم المناولة عن طريق استهلاك صبّار صغير يسمّى بيوتل Peyotl، يحتوي مواد كحولية مُسْكِرة.

ولكن لماذا الاندهاش لرؤية السود الأميركيين يعودون إلى الخرافات البدائية إذا كان الأوروبيون البيض يستسلمون بسهولة شديدة لإغراآت التنجيم والإيمان بالقوى الخفية وإخضاعها للإرادة البشرية؟ إن قلق النفوس في عصرنا هو من الحدّة بحيث يُفتَن جمهور كبير من الناس، في البلدان البروتستانتية، وحتى الكاثوليكية، بالأرواحية، والتواصل عن بُعد وكل أشكال التنبؤ. ويُقدَّر أن في باريس 30 ألف رائية، ومتنبئة بالورق، وقارئة كف، ومجوسي، ودرويش (متنبئ بالمستقبل)، و"أستاذ للعلوم الإخفائية". وثمة صحف كبرى تنشر يومياً ما تقوله الأبراج "الفلكية" بخصوص

[1] البيوتل Peyotl نوع من الصبّار المكسيكي(م)

الأشخاص المولودين يوم صدور الصحيفة، أو الذين يحملون اسم قديس اليوم أو قديسته. أليس ما يطالعنا، في هذه الحالة الأخيرة، إنما هو البلبلة ذاتها التي يفترضها المتحمسون للفودو[1]؟

وبالإمكان أن نربط بهذا الولع بالأكاذيب الذي يجتذب نساء المجتمع والفتيات الطائشات في آن معاً، أن نربط به، في حالة الأوليات، الجاذبية التي تمارسها البدع ذات الأصول الشرقية: التيوصوفية التي أسستها هِلِن بلافاتسكي في نيويورك، والتي نشرتها في أوروبا أنّي بوزان، والتي تزعم أن البوذية والهندوسية والمسيحية ليست سوى الألبسة الرمزية لدين أولي حافظ عليه المطّلعون على أسرارها؛ والصوفية البشرية التي أسسها النمساوي الكاثوليكي رودولف ستاينر، والتي لديها في دورناش، بسويسرا، "مدرسة حرة للعلوم الروحية"، قائمة في مبنى غريب يدعى Goetheanum؛ والحركة البهائية العالمية، وهي بدعة تيوصوفية أخرى؛ والصوفية الجديدة، التي تعيد العمل بانشقاق صوفي قديم في الإسلام؛ والوردة — الصليب، وهي بقايا بدعةٍ لمتنوِّرين ألمان من أصل شرقي. وتخرج كل هذه التجمعات من إطار دراستنا، ذلك أنه ليس فيها من المسيحية إلا واقع أن أتباعها إذ يتكلمون على "جسم كوكبي"، أو هالة أو كارما، يؤمنون عن حسن نية بأنهم لا يزالون ينتمون إلى المعتقد البروتستانتي أو الكاثوليكي الذي وُلدوا فيه. والإغرابية الدينية لا تقتصر على آسيا وتمضي لتبحث في إفريقيا السوداء عن معتقدات جديدة. ولقد عرف الناس في باريس أميراً اسمه باتولا، هو "الكاهن الأعظم لعبادة الزومبي"؛ ونجد فيها أيضاً في أيامنا هذه، زنجياً من الكامرون، هو بيريندا دي زيشيرا، "مؤسس جماعة هرمس".

[1] عبادة أرواحية للسود في جزر الأنتيل وهاييتي(م)

إن أتباع البدع ذات الأصل الشرقي يشتركون في المَلْمح التالي: الرغبة المشبعة بالغرور في أن يصيروا "مُسَارِّين"، في معرفة الأسرار التي يجهلها الجمهور العادي. ومع أنهم لا يؤذون أحداً، غالباً ما يتكلمون بلهجة استعلاء تجعل العاقل يبتسم، ولكنها تفرض نفسها على السُّذَّج والبسطاء. كما أنهم بعيدون من المحبة المسيحية والتواضع الشرقي.

## انشقاقات الكالفينية

إن الكالفينية، التي أرساها مؤسسها بصلابة كمبدأ إيمان وعمل للعقل، قاومت التفتت بصورة أفضل مما فعلت الطوائف البروتستانتية الأخرى، لا بل إن مبادئها الصارمة مارست تأثيراً محسوساً في العديد منها. وفي البلدان التي تتكلم الفرنسية التي ولدت فيها، وحيث ازدهرت، استفادت من هذا الميل إلى الوحدة الدينية الخاص بالأمم اللاتينية، ومن النفور الذي تشعر به تلك الأمم، في هذا المجال، حيال تجليات تخرج من إطار الأفكار المتلقاة. إلا أنها، هي أيضاً، تعرضت مع انقضاء الزمن لعمل جراثيم الانقسام تلك التي تشكّل مرض البروتستانتية المستوطن والمزمن.

ففي جنيف، مهد العقيدة ومعقلها، بقيت مبادئ الإيمان المعروضة في كتاب المصلح **L'institution Chrétienne**[1] في منجى زمناً طويلاً. إلا أنه حوالى نهاية القرن الثامن عشر، جاءت عقلانية "فلاسفة الأنوار" لتطرد من الكالفينية العناصر اللاعقلانية النادرة الباقية فيها، وتعرّض بعض القسس

---

[1] العنوان الكامل للكتاب هو Institution de la religion Chrétienne وقد نشره كالفن باللاتينية عام 1536، وبالفرنسية عام 1541، ومعناه تأسيس الدين المسيحي(م)

للاتهام بالتسامحية، أي بتسامح مبالغ به حيال الانشقاقات العقيدية، وحتى السوسينيانية. وهذه الهرطقة الأخيرة، التي أسسها سوزّيني السيِنّي[1]، ونشرها في القرن السادس عشر بين البروتستانت في بولونيا، كانت تؤكد أن مبدأ الإيمان بالثالوث يتعارض مع العقل – إذ لا يمكن أن يكون المسيح متناهياً ولا متناهياً في آنٍ معاً – ومع الكتب المقدسة، التي تشدد دائماً على وحدة الله المطلقة[2].

حتى العام 1780، بقي كتاب كالفن للتعليم المسيحي معتمداً في جنيف. ولكن منذ تلك الفترة، تصمت الصلوات الطقسية بخصوص ألوهة يسوع المسيح، ولم يعد يجري الكلام على ذلك في الدروس التي تُعطى في مدرسة اللاهوت.

وقد صدر في العام 1807 كتاب الليتورجيا أو طريقة الاحتفال بالقداس في كنيسة جنيف[3]، وهو يصف يسوع بأنه ابن الله، والمخلّص، والفادي، والمعلم، والملك، والمشرِّع، متحاشياً أن يعزو إليه صفة "الله". كما أن الكتب المقدسة المطبوعة من العام 1805 وصاعداً تلغي "المجاهرة بإيمان الكنائس البروتستانتية في مملكة فرنسا" التي كانت قد تبنتها في السابق جمعية قسس جنيف، وكانت تعلن بوضوح ودقة مبدأ الإيمان بألوهة الابن. وفي كراس صادر عام 1816 أعلن المدعو آمبايتاز أنه قرأ 127 موعظة مطبوعة في جنيف منذ العام 1774 ولم يجد فيها أي ذكر لألوهة المخلص. ونقرأ أخيراً في التعليم المسيحي الصادر عام 1814 السؤال التالي: "ماذا يَنْتج

[1] أي الذي من مدينة سينا الإيطالية، في منطقة توسكانة(م)

[2] لا يزال هنالك سوسينيانيون في ترانسلفانيا، وهم على علاقة مستمرة بالموحِّدين في إنكلترا وأميركا.

[3] La liturgie ou manière de célébrer le service divin dans l'Eglise de Genève

مما قلناه عن شخص يسوع المسيح؟" والجواب: "أن علينا أن نكون ممتلئين بالاحترام له." لذا نفهم أن يكون دالامبير تمكن من أن يكتب في دائرة المعارف، تحت كلمة "جنيف": إن العديد من الكهنة لم يعودوا يؤمنون بألوهة يسوع المسيح... وباختصار، ليس لديهم من ديانة غير سوسينيانية كاملة". ونفهم أيضاً أن يكون فولتير قد قال في رسالة دبّجها خلال إقامته في ديليس: "ليس هنالك في جنيف عشرون شخصاً لا يكفرون بكالفن بقدر ما يكفرون بالبابا". وفي الرسالة من الجبل التي كتبها روسو، وصف بطرافةٍ الجدال اللاهوتي الذي كان يثير مواطنيه: "ينطرح السؤال على كهنة كنيسة جنيف حول ما إذا كان يسوع المسيح هو الله؛ فلا يجرأون على الإجابة...ويلقي فيلسوف عليهم نظرة سريعة، يخترقهم، فيراهم أريوسيين، وسوسينيين؛ ويقول ذلك ويعتقد أنه يكرمهم. وفي الحال، يصابون بالذعر، يرتعبون، ويجتمعون، يناقشون، يضطربون، لا يعرفون بأي قديس يلوذون؛ وبعد الكثير من الاستشارات، والمداولات، والمؤتمرات، يفضي كل شيء إلى كلام مبهم، لا يقولون فيه نعم ولا يقولون لا".

ولكن عصر العقل كان على وشك أن ينتهي: فلقد نتج من تزعزع الأنفس الذي سببته اضطرابات الثورة الفرنسية وحروب نابوليون، استيقاظٌ للعاطفة والإيمان، والصوفية، في كل مكان تقريباً. الحركة التي كانت أدبية أكثر في فرنسا، وفلسفية أكثر في ألمانيا، كانت دينية بصورة جوهرية في انكلترا. لقد وصلت خضات الـrevival (إحياء الدين) إلى جنيف وأزالت آخر آثار اللاهوت العقلاني. لا بل أفضت إلى انشقاق معاكس، أي إلى خلق كنيسة حرة، أقل إخلاصاً من الكنيسة الرسمية لمبادئ الكالفينية الدقيقة وتستجيب أكثر حاجات القلب. وقد تلقى أتباعها لقب "mômiers" ويحتفظون به إلى الآن. إلا أن التباينات بين الكنيستين قد باتت اليوم ضعيفة

بعد أن أتاح التفحص الحر لمبادئ الإيمان والكتب المقدسة من جانب القسس الجنيفيين حرية كبرى لديهم للتفسير والوعظ. ويمكن أن نقول الشيء نفسه بخصوص زملائهم في كانتوني فو ونوشاتيل. بيد أن الصوفية الأنكلوسكسونية لا تفقد حقوقها داخل بروتستانتية سويسرا الروماندية: نجد فيها داربيين، وإيرفنغيين، ومجيئيين، وعلمويين؛ ويجتمع فيها أتباع "إعادة التسلح بالأخلاق" (المشتقة من "حركة أوكسفورد") كل صيف في كو – سور – مونترو، ويؤوي قصر في ضواحي جنيف "ملائكة للرب".

وفي فرنسا، بعد إلغاء براءة نانت، والاضطهادات التي قام بها فرسان الملك ضد البروتستانت، سواء قبل ذلك أو بعده، وبعد تمرد الكالفينيين المقاتلين على جيوش لويس الرابع عشر، اضطر البروتستانت للعيش في نصف سرِّية. وقد أعطتهم الثورة المساواة في الحقوق المدنية، وأمكنهم أن يشكلوا رسمياً كنائس فرنسا البروتستانتية بعد "المواد القانونية" التي منحهم إياها بونابرت في العام 1802. ورغم كل شيء، فلقد خضعت تلك الكنائس سريعاً لعمل "النهضة": أطلق القس أدمون دو بريسانسي في العام 1839 مجاهرة بالإيمان إذ اختزلت الإيمان إلى اندفاعة للقلب، اعتبرت مبادئ الإيمان (الدوغما) ثانوية. وفي العام 1848، أفضت حركة احتجاج على الاتفاق بين الكنيسة البروتستانتية والدولة إلى خلق "اتحاد الكنائس الإنجيلية في فرنسا". وظهر لاحقاً تيار ليبرالي وعقلاني كان أنصاره متأثرين جداً بأعمال النقاد الألمان، وقد توصل هؤلاء أحياناً إلى رفض كل ما ليس عقلانياً في الدين: بعد أن كانوا ليبراليين، باتوا إباحيين تقريباً. ومنذ العام 1912، انضموا إلى الكنائس البروتستانتية ذات الميل "الإنجيلي الجديد"، في حين تمثِّل الكنائس البروتستانتية الإنجيلية الاتجاه المحافظ أو الأورثوذكسي

بالأحرى. ولا تزال هناك كنائس إنجيلية مسماة حرة أو مستقلة.

إن الانشقاقات الكالفينية التي تحدثنا عنها للتو تخرج من إطار هذا المؤلَّف: فهي لا تشكّل بدعاً. إنها خاصةٌ (نوعياً) بالبروتستانتية الفرنسية (والسويسرية – الفرنسية) التي إذ تترك العنان للفكر الفردي تتحاشى إعطاءه شكل "الهرطقة"، أو عقيدةٍ تتعارض بعنف مع الامتثالية وتجمع حولها أنصاراً منضبطين وغير متسامحين.

وفي هولندا، بالمقابل خلق انشقاقٌ كالفيني بدعةً في القرن السابع عشر.. فلقد تخلى أرمينيوس، قس أمستردام الذي كان قد أتم دراسته في جنيف، عن دوغما التقدير[1] شيئاً فشيئاً وعلّم أن النِّعمة تُقدّم للناس جميعاً، الذين يقبلون بها أو يرفضونها طوعاً. ومع أن اللاهوتي غومار، وكان كالفينياً صارماً، كافح عقيدته، فقد التحق به الكثير من الأنصار، إلى حد أن السينودس العام في دوردرشت عزل في العام 1619 مئتي قس أرمينيوسي من وظائفهم، ونفى من بينهم تسعين. وقد جرى قطع رأس أحد حماتهم، العجوز بارنفيلدت، بطل استقلال المقاطعات المتحدة. وبعد سنوات قليلة، جرى السماح للبدعة بممارسة عباداتها مجدداً، ومارست تأثيراً أكيداً في الكلفينية الهولندية. وهي موجودة إلى الآن.

في الفترة نفسها التي ظهرت فيها الأرمينيوسية، تشكلت بدعة أخرى في هولندا، هي بدعة اللاباديين. كان الفرنسي جان دولابادي، وهو شخص قلق ومتعلق بالأوهام، وتلميذ سابق لليسوعيين، قد انتقل من الكاثوليكية إلى الجانسينية، ثم إلى البروتستانتية. وقد وجدت كتاباته الصوفية صدى

---

[1] Dogme de la prédestination، أو مبدأ إيمان التقدير هو ذلك الذي يعتبر أن كل أحداث الحياة مقدّرة سلفاً، بقرار إلهي(م)

خاصاً في هولندا وقدِم إلى هناك واستقر. كان يعلن عن إخلاصه للعقيدة الكالفينية، ولكنه يحاول إعادة عادات المؤمنين إلى البساطة الإنجيلية، وكان أنصاره يجعلون أموالهم ملكية مشتركة، ويأكلون معاً، ويرتدون ثياباً بعيدة عن الترف. ويبدو أن هذه البدعة لم تعمِّرْ طويلاً.

تبدو نزعة التنبؤ متعارضة مع الذهنية الكالفينية، ومع ذلك فهي لم توفر البروتستانتية الفرنسية. فبعد إلغاء براءة نانت (1685)، الذي اعتبر "البروتستانت" خارجين على القانون، شرع متحمسون يُدعون الأنبياء السيفينِّيين[1] يجمعون الفارين في "الصحراء" ويعظونهم بقرب انبعاث الكنيسة المضطهدة[2]. كانت الحركة قد ولدت في الفوماج، وهو وادٍ في منطقة نيم كان يسمّى "بلاد كنعان الصغيرة". وكانت مشاهد فريدة تطبع اجتماعات الأنبياء: كانت امرأة تتعرى بالكامل على سبيل المثال، وسط تجمُّع وتترك (الآخرين) يجرّونها من شعرها عبر القاعة. وهو مشهد جدّده في باريس تشنُّجيّو سان – ميدار وشوهد من قبل ذلك في انكلترا، في بدايات الكويكرية، حين اندفعت نبية عارية في مصلّى وايتهول بحضور كرومويل بالذات. إلا أن سينودساً كالفينياً، منعقداً في نيم، قرر أن ثمة حاجة لوضع حد لـ"عربدة مناهضة للمسيحية" وأن على النساء ألا يعظن بعد الآن. وكان أنبياء سيفين يستمدون نبوآتهم من سفر الرؤيا. وقد أعلن أحدهم، إسحق إيلزيير ما يلي: "أعترف أمام الله والبشر بأنني لست تابعاً للشريعة البابوية، ولا للشريعة اللوثرية، ولا للشريعة الكالفينية، ولا لأي واحدة أخرى من

---

[1] نسبة إلى منطقة سيفين الفرنسية(م)

[2] شجعتهم على ذلك قراءة كتاب للقس جوريو، نُشر في روتردام في العام 1686، عنوانه تحقُّق النبوءات أو خلاص الكنيسة الوشيك، وهو خلاص كان المؤلف يبشر بحصوله في العام 1689.

شتى البدع تلك، التي اخترعتها وصنعتها فلسفة البشر. أنا على دين يسوع المسيح وأنبيائه ورسله وكل أولئك الذين لبسوا الروح القدس". وكان هؤلاء البدعيون يُسمّون أحياناً نافخين، لأن الروح كان ينفخ فيهم نفسه؛ وقد سُمُّوا راجفين حين دخلوا في نهاية القرن الثامن عشر تقريباً، في علاقة بالكويكرز الانكليز.

بعد أن وصلنا إلى نهاية هذا الاستعراض – الناقص – للبدع البروتستانتية التي لا تحصى، يمكن التذكير بكلمةٍ لدلتاي: "إن الكاثوليكية هي بالنسبة للمسيحية ما يكون الزواج بالنسبة للحب." فخارج روما تنفتح، في الواقع، طريق واسعة أمام الأهواء الغرامية خارج الزواج.

# الفصل الخامس

## الانشقاقات الكاثوليكية في العصور الحديثة

كان الإصلاح الديني بالنسبة للكنيسة الرومانية درساً قاسياً عرفت كيف تستفيد منه. فلقد جرى تحسين ممارسات كبار رجال الإكليروس تحسيناً عظيماً: لم يعد يُرى بابوات، على غرار اسكندر السادس، يُدخلون إلى الفاتيكان عادات المرتزقة، أو على غرار إينوسان الثامن يحتفلون فيه بأبهّة كبرى بزواج أولادهم؛ ولم يعد يُرى كرادلة يصلون إلى المجامع في حاشية ضخمة ومعهم عشيقاتهم. ومن جهة أخرى، إن انشقاق ذلك العدد الضخم من المسيحيين جعل القطيع المؤلف ممّن ظلوّا مخلصين للحبر الأعظم يرص الصفوف حوله. وقد حصلت الكنيسة بسبب ذلك على المزيد من الوحدة، والمزيد من القوة الداخلية. لم تعد تكافَحُ مبادئ الإيمان الخاصة بها، ونادراً ما اتخذت الانحرافات التي تسببت تلك المبادئ بها طابع الهرطقات الحقيقية. ولم تحتج، لأجل الحد منها، إلا لحكمتها وصبرها[1].

عديدة ومتنوعة هي الانحرافات عن العقيدة الرومانية في الأزمنة الحديثة. بيد أن الرئيسية بينها يمكن أن تتوزع إلى مجموعات ثلاث:

الابتداعية الصوفية

الجانسينية

التجديدية.

### الابتداعية الصوفية

لقد اكتسب تعبير "الصوفية"، في أيامنا هذه، مرونة قصوى، بحيث

---

[1] يقول اللاهوتي: Patiens quia aeterna ، ويصحّح المؤرخ: aeterna quia patiens

وصل الأمر إلى حد تطبيقه على كل تفسير غير عقلاني للأشياء[1] وحتى على كل عقيدة ذات مظهر دغمائي. هكذا يجري الكلام بسهولة على الصوفية الشيوعية. وبالنسبة للاهوتيين الكاثوليك، يستخدمون هذا التعبير بصورة أكثر محدودية ودقة بكثير: يعنون بالصوفية كل تواصل مباشر بين النفس والله.

إن الصفة "مباشر" هي التي تجعلنا نفهم ما هنالك من خطير في التأمل الصوفي: إن نفس المؤمن تقع، بالفعل، تحت إغراء التحرر من وساطة الإكليروس، أو حتى الكنيسة، في اندفاعها نحو السماء، ورؤية حقائق معاكسة للعقيدة المقدسة، خلال الانخطاف الذي ترفرف فيه. ولقد كتب أحد كبار صوفيي العصر الوسيط، الفرنسيسكاني بونافانتور، في أحد مؤلفاته: "سوف أروي لكم أعمال ربنا يسوع المسيح، بالطريقة التي يمكن تمثُّلها بها بواسطة الخيال، لأنه لا شيء يمنع التأمل هكذا، بما في ذلك الكتاب المقدس". لقد كان ذلك في القرن الثالث عشر ولم يثر هذا الرأي القابل للجدال أي معارضة آنذاك؛ وقد دعي بونافانتور "اللاهوتي الساروفيمي"، وجرى تطويبه بعد قرنين. وفي القرن الرابع عشر أيضاً، ومع أن نظرية الدومينيكاني من ستراسبور، تولر، جعلت الاتحاد الصوفي فوق فضيلة الطاعة، فهو لم يتعرض في حياته للإزعاج إطلاقاً. وفقط حين امتدح لوثر ازدراء تولر لكل قاعدة خارجية ارتأى المدافعون الكاثوليك عن عقائد المسيحية أن يجدوا في ذلك هرطقة. وقد كان حظ صوفيٍّ ألماني كبير آخر أقل من حظه. فلقد كان المعلم إيكارت، الراهب الدومينيكاني التورنجي، اعتنق

[1] بهذا المعنى، تصبح كل الأديان صوفية، إلا ربما تأليهية* فولتير وروبسبيير.

*مذهب التأليه لدى فلاسفة الأنوار، الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة(م).

نوعاً من الحلولية المثالية حيث شرح أنه لا شيء يوجد خارج الله، وأن كل ما يبدو خارجه ليس سوى جواز، ظاهرة؛ وكان يقول إن "كل ما أعطاه الله الآب لابنه الوحيد في الطبيعة البشرية، أعطاني إياه"؛ وقد أدان البابا يوحنا الثاني والعشرون، في العام 1629، هذه النظريات، ولكن إيكارت كان قد مات قبل عامين.

وفي الأزمنة الحديثة، عرفت ألمانيا الكاثوليكية بدعة صوفية مثيرة للفضول، هي بدعة إشراقيي بافيير. فحوالى العام 1774، خطرت ببال تلميذ سابق لليسوعيين، هو وايشويت، فكرة خلق جمعية سرية، رهبنة، هدفها إعادة البشرية إلى العصر البدائي حيث لم تكن هناك ملكية خاصة، أو حكومة، أو كنيسة. كان على المرشحين للإشراقية أن يتخلوا عن كل حرية لتكريس أنفسهم جسداً ونفساً لخدمة البدعة. وكانت هذه الأخيرة تمتلك تراتبية معقدة: طبقة دنيا، تسمّى مشتلاً، وتضم درجات مبتدئ، ومينرفي وإشراقي أصغر؛ والطبقة الثانية، المسمّاة ماسونية، وتضم درجات متمرن، ورفيق، ومعلّم، وإشراقي أكبر أو مبتدئ اسكوتلندي، وإشراقي قيادي أو فارس اسكوتلندي؛ والثالثة، أخيراً، كانت تنصرف إلى "الأسرار الصغيرة"، التي يحتفل بها إيبوبتات (époptes) أو كهنة وأمراء أو أوصياء، وإلى "الأسرار الكبرى"، المعهود بها إلى مجوس أو فلاسفة وبشر - ملوك. وقد بلغت البدعة درجة من النجاح بحيث تمكنت، بعد تأسيسها بسبع سنوات، من أن تُخضع لتأثيرها المباشر كل الماسونية الألمانية، التي كانت كبيرة العدد آنذاك. وإذا كان هدف وايشويت السري، على ما يبدو، تدمير المسيحية، فهو لم يهاجمها جبهياً، لذا لم تتم ملاحقته بوصفه مبتدع

هرطقة. ولكن ناخب[1] بافيير، الذي لاخظ الطابع الأناركي للحركة، أمر بسجن العديد من مؤسسيها. وقد نجح وايشوبت في اللجوء لدى دوق ساكس – غوتا، الذي كان بروتستانتياً، وكف مذاك عن أي دعاوة لأفكاره السابقة. وربما لعبت الإشراقية البافييرية دوراً في التحضير للثورة الفرنسية؛ فميرابو في باريس قد التقى في ألمانيا تلامذةً لوايشوبت واستقبل آخرين منهم في باريس، في لجنة الأصدقاء المجتمعين، حيث كان يلتقي الأكثر تقدماً بين الماسونيين.

وإذا كانت ألمانيا انصرفت طوعاً إلى غوايات التنظير الروحاني، فإسبانيا هي التي كانت، مع ذلك، أرض الصوفية الكلاسيكية. وفي القرن السادس عشر، اشتهر الراهب الكرملي حافي القدمين جان دولاكروا بكتابات يصف فيها، بلغة مضطربة تماماً بوَجْده وشغفه، اندفاعات النفس "العاشقة للكلمة ابن الله، زوجها". وفي رأيه أنه ليس على النفس أن تتخلى فقط عن الشهوة الحسية، بل أن تنكرها أيضاً، تجعل منها فراغاً، لا شيئاً، "ليلاً". كانت العقيدة تنزع إلى روحنة التقشف إلى الحد الأقصى، وإخلاء المكان بصورة حصرية للعمل الإلهي. لذا دخل جان دولاكروا، بعد الممات، في نزاع مع محكمة التفتيش، ولكن ذلك لم يحل في ما بعد دون أن تعترف الكنيسة بالقيمة الرفيعة لصوفيته عن طريق تطويبه. ولقد كانت نار أشد اضطراماً تضني مواطنة لجان دولاكروا ومعاصرة له هي تيريز الأفيلية (Thérèse d'Avila)، مُصْلحة الرهبانية الكرملية. لقد كانت تعيش في جسدها الواهن نفسٌ راعشة وتتضمن كتاباتها، وهي من روائع اللغة الاسبانية، اندفاقاتٍ

---

[1] كان أمراء الإمبراطورية الجرمانية وأساقفتها هم المخولين حق الاقتراع في الإمبراطورية، وبالتالي كانوا يُسمَّون ناخبين(م)

تبدو أحياناً كما لو أنها مَرَضية بقدر ما هي صوفية. بيد أن فوراتها الانخطافية لا تخرج من إطار العقيدة مستقيمة الرأي. ولقد أمكن الكنيسة أن تطوقها، من دون تردد، بهالة القداسة وبلقب "العذراء الملائكية". ولنضف أنه في الفترة نفسها تقريباً، كانت بدعة صوفية، هي بدعة الـalumbrados ("الإشراقيين") تضفي قيمة مبالغاً بها على الصلاة الذهنية، إلى حد إهمال أي من أعمال الفضيلة غير تأمل الجوهر الأسمى. وقد كان متحمسو البدعة يُتهمون بالاستسلام، مع معرِّفهم، لـ"اتحاد إلهي" ليس فيه شيء من الروحانية. ولقد تمت إدانة الـalumbrados في العام 1623 بقرار من المفتش الأكبر.

إن فرنسا، التي لم تضع في الدين القدر نفسه من الإحساس الذي وضعته كل من إسبانيا وألمانيا، أو حتى إيطاليا، لم يظهر فيها صوفيون كبار. فطمأنينية[1] مدام غويّون شاحبة جداً إذا قورنت بالمشاعر الملتهبة لدى واحدة كالقديسة تيريز، وخجولاً جداً إزاء جرأة شخص كإيكارت. وهي فضلاً عن ذلك من أصل إسباني: كان الدكتور في اللاهوت مولينوس، الذي كان يقيم في روما، قد نشر في العام 1675 **La Guide spirituelle**[2]، وهو بحث صغير ترجم إلى العديد من اللغات وكان له انتشار خارق. يعلّم فيه المؤلف أن التأمل هو الوضع الحقيقي للإنسان المسيحي، وأنه ينبغي العيش في الطمأنينة، في استسلام كامل للمشيئة الإلهية، من دون بذل جهد للقيام بأعمال الفضيلة، أو لتكوين رغبة أو فكرة، أو حتى للانصراف إلى "أعمال عنف شيطانية". هذا التساهل مع الخطيئة "اللاواعية"، هذه

(1) Quiétisme. مذهب تصوفي يرى الكمال في حب الله وسكون الروح(م)

(2) الزمام الروحي(م)

التصالحية الأخلاقية المشبوهة جداً أدت إلى توقيف مولينوس؛ وقد اضطر للتراجع عن أخطائه علناً، ومع ذلك أعيد إلى السجن حيث توفي.

وبالإضافة إلى مولينوس، كان لمدام غويون معلم هو الأب لاكومب، الذي كان برنابياً[1] من منطقة سافوا الفرنسية، نشر في العام 1686 كتاباً وُضع على لائحة الكتب الممنوعة، وكان اسمه **Orationis mentalis / analysis Lettre d'un serviteur de Dieu contenant une brève instruction pour tendre sûrement à la perfection Chrétienne**[2].

هذا ولم يكن الأب لاكومب يصل إلى "أعمال العنف الشيطانية" لمولينوس، ولكن نظريته حول "الاستسلام الأقصى" كانت تدفع للقبول بإذلال الخطيئة ومنظور الجحيم المتعرّض له.

ولدت جان – ماري بوفييه دو لاموت في العام 1648، وتزوجت في السادسة عشرة من المدعو غويون، الذي تركها أرملة في الثامنة والعشرين. وكانت فاضلة ومحبة للخير، ولكن ما أسهل ما كان يجرفها خيالٌ جموح. وبالاتفاق مع لاكومب، كانت تنشر أفكاراً طمأنينية أثارت هلع السلطات الكنسية؛ وقد أوقف البرنابي في العام 1687 وتوفي في السجن بعد ذلك بعامين؛ أما مدام غويون فجرى احتجازها في دير الفيزيتاندين في شارع سانت – أنطوان، حيث بقيت ثمانية أشهر. وقد أطلق سراحها بتدخل من عدة سيدات راقيات وأصبحت "نبيتهن". وهي لم تستمل مدام مانتونون وحسب، بل فينيلون أيضاً، وكان لا يزال قسّاً بسيطاً. وبما أنه كان من

---

[1] البرنابيون أعضاء رهبنة تضم رجال إكليروس قانونيين، وقد أسسها في إيطاليا القديس أنطوان ماري زكريا (1530)(م)

[2] رسالة من خادم لله، تضم تعليمات مختصرة لأجل التوجه حتماً إلى الكمال المسيحي(م)

طبيعة ناعمة وبريئة بعض الشيء، أصبح أحد المعجبين بها الأكثر حماساً وورعاً، إلى حد مسامحتها على تجليات ورعها الغريبة: حين كانت النعمة الداخلية تملأها، كانت تختنق وكان ثمة حاجة عندئذ لحل رباط مشدّها.

كانت كتابات مدام غويون – Le Moyen court et très facile de faire oraison[1] و Les Torrents Spirituels[2] (وهذا الأخير مخطوط فقط) – متداولة في كل مكان، وحتى بين شابات سان - سير؛ وقد منعت مدام دو مانتونون المؤلفة من دخول المعهد، بعد أن باتت مدركة للخطر. ونصح فينيلون مدام غويون بعرض عقيدتها على بوسوييه؛ وقد كان لأسقف مو (Meaux) لقاء طويل معها، واعترف بصدق إيمانها، ولكنه نصحها بالعديد من الأمور، ومن بينها أن "تتخلى عن كل أنواع التنبؤات، والرؤى والمعجزات، وباختصار، كل الأشياء الخارقة، مهما بدت لك عادية في بعض الحالات". وفي ما بعد، انكبّت "مداولات إيسّي"، تحت إشراف بوسوييه، على تفحص كتابات مدام غويون بدقة وأدانتها في العام 1695. وبما أن "النبيّة" استمرت في تبشيرها وسط علية القوم، تم سجنها في فينسان؛ وبعد الكثير من المقاومة، وقّعت تراجعاً عن أخطائها، وأجيز لها أن تعيش في بلدة فوجيرار، تحت رقابة مشددة. وقد توفيت في العام 1717.

لقد أدت مسألة الطمأنينية إلى جدال مشهور بين بوسوييه وفينيلون. فأسقف مو، وكان مدافعاً صلباً عن الدين القويم، كان يقدّر أن النفس تبقى، في التأمل السلبي، مستعدة للقيام بكل أعمال الفضيلة. أما رئيس أساقفة كامبريه فكان يعتقد، على العكس، أن التأمل يتمثّل في فعل وحيد،

[1] الوسيلة المختصرة والسهلة جداً لتأدية صلاة (م)

[2] السيول الروحية(م)

هو عادة فعل محبة، وهو يتضمن كل الأفعال الأخرى، من دون أن يكون على النفس أن تنتجها منفصلة (بعضها عن البعض الآخر). وقد عرض فينيلون أفكاره في **l'Explication des maximes des saints**[1]، وهو كتاب أدانه البابا إينوسان الثالث عشر في العام 1699. ويمكن إرجاع الأخطاء الواردة فيه إلى نقاط أربع: لا يعود هنالك، في الوضع المعتاد للمحبة الخالصة، من رغبة في الخلاص الأبدي؛ وفي التجارب السلبية، يمكن النفس أن تقوم بالتضحية المطلقة بخلاصها، والمحبة الخالصة تستتبع اللامبالاة بالكمال وممارسة الفضائل؛ وفي بعض الحالات التأملية، تفقد النفس الرؤية المتعقلة ليسوع المسيح، الكلمة المتجسد. وواضح من هذه الأمثلة كم هي حساسةٌ مشكلةُ الصوفية اللاهوتيةُ، والتوازن الذي يجب العثور عليه بين سلبية النفس التي يتحكم بها الله والحرية التي عليها أن تحافظ عليها لأجل إبداء مشيئتها الخاصة بها. ودعونا نورد في هذا الصدد الخاتمة الحصيفة لبند "الطمأنينية" في قاموس اللاهوت الكاثوليكي: "إن الروحانية الخالصة حقاً هي تلك التي تترك للجهد الأخلاقي، في كل درجات الحياة الروحية، المكانة التي تناسبه".

## الجانسينية

علينا ألا نخلط بين الصوفي مولينوس واسباني آخر هو مولينا، الذي كانت عقيدته قد لقيت، في القرن السابع عشر، صدىً أعظم أيضاً من صدى الطمأنينية.

فلقد كانت لليسوعي مولينا، الأستاذ في جامعة كويمر في البرتغال،

---

[1] شرح أقوال القديسين المأثورة(م)

حياة مكرسة بكاملها للدراسة، ولكن اسمه بقي مغموراً لو لم تولّد كتبه أحد السجالات الدينية الأشد حيوية وحدّة في الأزمنة الحديثة. ويعرض مؤلّفه الرئيسي، الذي ظهر في العام 1588، بعنوان **Concordia Liberi arbitri cum graciae donis, divina prescientia, providentia, praedestinatione et reprobatione**، منظومة لاهوتية لعلاقات النعمة والحرية.

وبخصوص الهرطقة البيلاجية، لاحظنا أن اللاهوتيين يميزون النعمة الخارجية أو الداخلية، والنعمة الفعلية أو المعتادة. وكان تمييزٌ آخر الموضوع الرئيسي للسجال المتولد من كتابات مولينا، وهو التمييز بين النعمة الفاعلة والنعمة الكافية. فالنعمة الفاعلة هي تلك التي تحظى بقبول الإنسان والتي تنتج بالتالي أثرها دائماً؛ أما النعمة الكافية فهي تلك التي تكفي بالضبط لمساعدة الإنسان على القيام بأفعالٍ أهلٍ للتقدير، ولكن الإرادة تقاومها بالفعل. وأهمية الجدال ناجمة عن دور حرية الاختيار في عمل الخلاص.

إذ جمع القديس أغسطينوس مبادئ الإيمان المسيحية في منظومة عقيدية، كان قد قلّص إلى أبعد الحدود من إسهام الإرادة البشرية، لشدة ما كان متحمّساً لمكافحة البيلاجية. فهو لم يكن يرفض فقط منح هبة النعمة لمن يستخدمون حريتهم بصورة جيدة، بل كان يرفض أيضاً إمكانية أن يلتمس الإنسان النعمة بحرية، هذه الإمكانية التي كان يسلم بها أنصاف البيلاجيين. إن التقدير أبدي ومطلق بالنسبة إليه؛ وكل أبناء آدم هالكون منذ الخطيئة الأصلية: "لا أحد يعفى من هذا العذاب العادل والمستحق إلا بفعل الرحمة الإلهية وبنعمةٍ ليست من حقه إطلاقاً". وبعد أحد عشر قرناً، كتب كالفن: "بفعل التقدير، قضى الله بخلاص البعض، وقرر للآخرين الهلاك الأبدي... ولقد جرى حث الهالكين على إظهار مجده بهلاكهم".

ومعروف أن الكنيسة الكاثوليكية، الباحثة عن موقف متوسط بين البيلاجية و"الأغسطينية"، تعتبر أن الإرادة البشرية، حتى سقوط آدم في الخطيئة، هي حرة داخلياً، وأنه إذا كنا نقع في الخطيئة، فليس لأن النعمة تنقصنا، بل لأننا نفضل الشر على الخير. وقد رسم مجمع ترانت في العام 1547، ما يلي: "اللعنة تحل على من يقول إن إرادة الإنسان الحرة، التي يحركها الله ويحفزها، لا تتعاون إطلاقاً لتستعد وتتحضر لتلقّي التبرير، بأن تقبل حفز الله ونداءه، وإن الإنسان لا يستطيع، إذا هو شاء، أن يرفضهما، بل إنه لا يفعل شيئاً على الإطلاق، بوصفه كائناً لا حياة فيه، ويبقى سلبياً بالكامل". وبعد ذلك بعشرين عاماً، تعرض أستاذ في جامعة لوفان، هو بايوس **Baius** (أو دو بيه de Bay)، للإدانة لأنه تعامل مع بعض المقاطع في كتابات القديس أغسطينوس بصورة حرفية جداً: يُروى أنه كان قد قرأ تسع مرات كل مؤلفات اللاهوتي الإفريقي الكبير و70 مرةً تلك المتعلقة بالنعمة؛ وقد خلص من ذلك إلى أن العديد من الشارحين الكاثوليك، في حماسهم لنقد التقدير الكالفيني، لم يتفادوا حجر عثرة البيلاجية. فمن بين الكتيّبات الكثيرة التي كتبها بايوس في هذا الصدد، استخرج البابا بيوس الخامس 79 قضية وصفها قرار بابوي في العام 1567 بال "هرطوقية، والمشبوهة، والجسور، والمتسبّبة بالزلل، والمؤذية للآذان الصالحة، وكل ذلك على التوالي". وقد عاد غريغوريوس الثالث عشر فأدان الخطأ (ذاته)، في العام 1579. ولقد كانت البايوسية تبشر بالجانسينية، في تأكيدها أن الإنسان الساقط لم يعد قادراً على الخير في النظام الأخلاقي وأنه لا يسعه سوى أن يرتكب الخطايا. بيد أن بايوس كان يصر مع ذلك على وجود حرية الإرادة وعلى قيمة الجدارات.

هذا وقبل أن يهز السجال بصدد النعمة فرنسا، كان قد شغل اللاهوتيين الإسبان. ففي حين كان دومينيكانيو سلمنكا يتجهون لأن يضعوا في المقدمة القدرة الكلية للإرادة الإلهية، كان اليسوعيون يفضلون اتّباع النصيحة التي أعطاها مؤسسهم إينياس دو لوايولا: "لا نُلِحَّنَّ إلى هذا الحد على فعالية النعمة بحيث نولّد في الأذهان سمَّ الخطأ الذي ينكر الحرية". وقد أوضح مولينا بدقةٍ عقيدة الرهبانية حول المسألة مجتهداً في التوفيق بين الحرية البشرية، من جهة، وعلم الله المسبق وضرورة النعمة، من جهة أخرى. ففي نظره، أن النعمة معدّةٌ، في ذاتها وبطبيعتها، لأن تكون فاعلة؛ وإذا لم تكن كذلك دائماً، فذلك لأن الإنسان يدعمها تارة، ويقاومها طوراً. إن الله، الذي يعرف المستقبل كما الماضي، يرى منذ الأزل كيف سيستخدم كل واحد نعمه. والمولينية تعارض تومائية[1] الدومينيكانيين بإعطائها حصة أهم للحرية الإنسانية في عمل الخلاص، بنبذها "الانفعال المادي القبْلي" الذي يدفع نحو الخير إرادة المختارين، بصورة لا تقاوم. وهي لا ترى فرقاً في الطبيعة بين النعمة الفاعلة والنعمة الكافية، وتشدد على فعالية النعمة الفعلية وتعاون حرية الإرادة مع النعمة الكافية. وقد بحث التناسبيون (Congruistes) عن أرضية للتفاهم بين المولينيين والتومائيين: كانوا يوفّقون بين العلم المسبق الإلهي والمسؤولية البشرية بالقبول بنعمة "مناسبة"، أي متلائمة مع ظروف من يتلقاها ووقته ونفسيته.

ولكن الجدال سيتوسع ويتميز غيظاً مع ظهور الجانسينية، وسيلتقي اليسوعيون خصوماً أشد إثارة للرهبة من الدومينيكانيين.

ولقد وُلد الهولندي جانسن، المسمّى جانسينيوس، في العام 1585،

[1] نسبة إلى توما الأكويني وأفكاره الفلسفية والدينية(م)

ودرس في جامعة لوفان، التي كان يديرها اليسوعيون، ولكنه سرعان ما انفصل عن هؤلاء بسبب الخلاف معهم حول موضوع النعمة. جاء إلى باريس، وتابع محاضرات السوربون وغاص في قراءة كتابات القديس أغسطينوس قراءة مدققة. وحين عاد إلى لوفان، جرى قبوله هناك بصفة دكتور في العام 1619، وقد أيد إدانة أخطاء أرمينيوس بواسطة سينودس دوردرشت البروتستانتي والتجديد الكامل لعقيدة كالفن حول التقدير. وكان يكتب آنذاك في فرنسا إلى صديقه وزميله في الدراسة رئيس دير سان — سيران: "لا أجرؤ على أن أقول لأحد ما أفكر فيه (وفقاً لمبادئ القديس أغسطينوس) بخصوص قسم كبير من آراء هذا الزمن، ولا سيما الآراء حول النعمة والتقدير، خوفاً من أن يجولوا بي في روما كما فعلوا بآخرين، قبل أن تصبح الأمور ناضجة وفي وقتها". وقد التقى الصديقان مراراً، وكانا يتبادلان، في غضون ذلك، الرسائل، ويحضّران بذلك، بتعابير متفق عليها، ولادة هرطقتهما المشتركة. وكان جانسينيوس يعلّم في لوفان منذ عدة سنوات حين عُيّن في العام 1635 أسقفاً لمدينة إيبر[1]. وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات، بالطاعون على ما يبدو.

إن الأشهر بين مؤلفات جانسينيوس، والذي كان قد اشتغل عليه سنوات طويلة، هو الـ[2]Augustinus، ولكنه لم يظهر إلا عام 1640، وذلك بموافقة الرقابة الكنسية. وهو كتاب نصفي[3] (in-folio) في ثلاثة أجزاء، أولها يؤرخ للبيلاجية، ويعرض الثاني مبادئ الإيمان البيلاجية حول

---

[1] مدينة في بلجيكا بُنيت في القرن العاشر(م)

[2] كتاب في اللاهوت عرض فيه جانسينيوس عقيدته، التي كان يعتبرها عقيدة القديس أغسطينوس حول النعمة، وحرية الإرادة والتقدير. وقد صدر الكتاب عام 1640(م)

[3] أي بقطع نصف طلحية من الورق(م)

طبيعة آدم، والثالث تلك المتعلقة بالطبيعة الساقطة. ويرى المؤلف أن خطأ بيلاج مزدوج: إنه يماهي الطبيعة مع النعمة تقريباً، ويُخضع النعمة دائماً للإرادة. يصبح الإنسان بحرية الإرادة لديه مساوياً لله، ويَخْلُص جانسينيوس من ذلك إلى القول: "بعد أن سكر البيلاجيون بخمرة صرفة تماماً، أرادوا كساء الطبيعة البشرية بالكبرياء فعرّوها بصورة مخجلة". أما القديس أغسطينوس فالمؤلف يعتبره عالم اللاهوت المعصوم عن الخطأ في ما يتعلق بالنعمة، مع أنه اختزل إلى لا شيء تقريباً إسهام الإرادة البشرية في عمل الخلاص. إلا أنه يعتبر مع ذلك أن أغسطينوس وكالفن يختلفان في نقطة واحدة: إذا كان الثاني يرى أن الفضيلة والرذيلة ليستا في نطاق سلطتنا، لأننا مُقدَّرون للخلاص أو للهلاك، فالأول يعتقد أن في مقدورنا تغيير إرادتنا. إن عقيدة جانسينيوس، التي كان لها ذلك الدوي، يمكن أن تتلخّص على الشكل التالي: منذ الخطيئة الأصلية، لا تتمثل الحرية البشرية إلا في غياب أي إكراه خارجي؛ ليست إرادة الإنسان حرة داخلياً على الإطلاق، لكونها خاضعة للشهوة تارة، وللنعمة طوراً. وهذه الأخيرة، يرفض الله منحنا إياها أحياناً، وتذهب بنا الشهوة إلى الشر؛ ولا يُمنح الخلاص إلا للمختارين، الذين مات يسوع المسيح لأجلهم وحدهم. وهذه عقيدة سبق أن رأينا أن مجمع ترانت شجبها قبل قرن من ذلك التاريخ، مؤكّداً في أحد قوانينه الكنسية إرادة الإنسان الحرة. لقد هاجم يسوعيو لوفان الـAugustinus منذ صدوره. كان مبدأ التقدير الإيماني، الذي طالما ناقشه اللاهوتيون، يصدم تصورهم العملي، الإنساني"، للتقوى وما كانوا يعلقونه من أهمية على الأعمال. وقد أعقبت ذلك جدالات طويلة ورُفعت القضية أمام جمعية التفتيش المقدسة. وفي العام 1642، أدانت براءة بابوية

أصدرها أوربانوس الثامن الأغسطينوس، وطالما بقيت القضية مادة للمساجلة كانت البراءة المذكورة تدين في آن معاً أطروحات اليسوعيين المناهضة للجانسينيين.

والجانسينية التي لم يقيض لها أبداً أن تخرج، في الفلاندر، من حلقة اللاهوتيين، لقيت نجاحاً مذهلاً في فرنسا، ربما لأنها كانت تتعلق بمشكلة تأخذ بتلابيبنا بشكل خاص، هي مشكلة الحرية البشرية.

لقد رأينا رئيس دير سان – سيران، المدعو دوفرجييه دو هوران، يعمل مع جانسينيوس على مشروع إصلاح الكنيسة بالعودة إلى ما كانا يعتبرانه الينبوع الأصيل لعقيدتها، المتمثل بكتابات القديس أغسطينوس. وبوصفه خبيراً في الشؤون العامة، انصرف إلى المجادلة ضد اليسوعيين. وقد نشر، في العام 1632، الـAurelius[1] الذي كان يسعى للحصول على رعاية الأساقفة الفرنسيين بدعمه للنظريات الغاليكانية، وذلك في سبيل إصدار الـAugustinus الذي كان قيد التحضير. وقد توصل لأن يكسب إلى جانب أفكاره راهبات دير بور رويال – اللواتي كن تركن مقرهن في وادي شيفروز للإقامة في ضاحية سان جاك – ولا سيما الرئيسة، الأم أنجيليك أرنو، المعروفة منذ زمن بعيد بتقشفها وإماتاتها[2]. وقد أصبح مرشد الدير، وأسكن من جهة أخرى العديد من أنصاره في منزل مجاور؛ وكان هؤلاء أول نُساك بور رويال. والحال أن ريشيليو، الذي كان قدّم في البداية الحماية لسان - سيران، أمر لأسباب بقيت غامضة باحتجازه في فينسان (1638). وقد أُطلق سراحه، بعد وفاة الكاردينال، في العام 1643، وتوفي في السنة عينها.

---

[1] كان القديس أغسطينوس يسمّى أوريليوس أغسطينوس.

[2] الإماتات هي أعمال كبح للجسد وشهواته، وحرمانه من متع الحياة(م)

بين "نساك" بور – رويال، كان الأكثر شهرة هو أنطوان أرنو، زعيم الجانسينيين ووسيط الوحي بالنسبة إليهم على امتداد نصف قرن – ولقد كان الأخير من بين عشرين ولداً لمحامٍ سبق أن ترافع لصالح السوربون ضد اليسوعيين، وشقيقاً للام أنجيليك، وانخرط في الطريق نفسه الذي سلكته هذه الأخيرة بتأثيرٍ من سان ـ سيران. وبعد أن جرى القبول به كعالمٍ في اللاهوت وسيم كاهناً، نشر في العام 1643 كتاباً ضخماً بعنوان **De la fréquente Communion**[1]؛ وهذا المؤلف المكتوب بأسلوب صارم، ولكنه في متناول الجميع، كان يدشّن طريقة تبسيط المسائل اللاهوتية، وهي طريقة سوف يستخدمها لاحقاً، بصورة واسعة، أنصار جانسينيوس وخصومه. كان أرنو يتطلب من المؤمنين قدراً كبيراً من الكمال للسماح لهم بأن يتناولوا القربان المقدس، بحيث يخاطر بإبعاد من يتملكهم الخوف عنه، ولأجل ذلك أدان البابا أوربانوس الثامن ثلاثاً من أطروحاته. وفي السنة نفسها، أصدر أرنو كتابين في مديح السيد جانسينيوس (Apologies de M. Jansénius)، وفي العام 1651، مديح آباء الكنيسة الأقدسين المدافعين عن نعمة يسوع المسيح ضد الأخطاء المعزوّة إليهم. وقد دافع فيه عن "القضايا الخمس" المستمدة من الـAugustinus والتي أدانها إينوسان العاشر، في العام 1653، على أنها هرطوقية.

وهاكم ما كانته هذه "القضايا" المشهورة، التي يبدو موضوعها اليوم غير متناسب مع الاهتمام الكبير الذي أثارته في ذلك العصر:

1. إن بعض وصايا الله يستحيل الالتزام بها بالنسبة لأناس يريدون ذلك حقاً ويبذلون الجهد لأجله، إذا أخذنا بالحسبان القوى التي يملكونها إذاك،

(1) حول المناولة المتواترة(م)

وليست لديهم النعمة التي تجعل ذلك ممكناً بالنسبة إليهم.

2. في حالة الطبيعة الساقطة، لا يقاوم المرء أبدًا النعمة الداخلية.

3. لأجل أن يكون المرء مستحقاً أو غير مستحق في حالة الطبيعة الفاسدة، لا يحتاج إلى حريةٍ معفاة من ضرورة العمل الداخلية، بل يكفي أن تكون لديه حرية معفاة من الإكراه الخارجي.

4. يسلّم أنصاف البيلاجيين بضرورة النعمة الداخلية السابقة بالنسبة لكل فعل بوجه خاص، حتى لبدء الإيمان، وكانوا هراطقةً حين أرادوا أن تكون تلك النعمة بحيث تتمكن الإرادة من مقاومتها أو مطاوعتها.

5. يكون المرء نصف بيلاجي حين يقول إن يسوع المسيح مات أو أراق دمه لأجل كل الناس بوجه عام.

والجدير بالملاحظة أن "القضايا الخمس" كانت موجودة في الـAugustinus بصورة ضمنية فقط، ولكنها كانت "روح الكتاب" وفقاً لكلام بوسوييه.

في غضون ذلك، أصدر أرنو الرسائل إلى دوق وعضو في مجلس اللوردات (كان المقصود هو دوق ليانكور)، التي ميّز فيها بين القانون، وبالتحديد منع عقيدة، والواقع، واقع التعسف في نسبة العقيدة الممنوعة إلى جانسينيوس؛ وبسبب ذلك طُرد من كلية اللاهوت. ولكن ماذا كان الديالكتيك البارد لـ"أرنو الكبير" بجانب القريحة الأسرة التي سيظهرها المنتسب الجديد والمجيد إلى البدعة؟

مثلما أدخل كتاب كالفن **L'Institution Chrétienne** اللاهوت إلى الأدب الفرنسي، أدخل كتاب باسكال **Les Prorvinciales** الجدال الديني إليه. فلقد زاوج مؤلفها بين المنطق الصارم والسخرية الأشد رهافة، جاعلاً

من مجرد أهجيةٍ إحدى روائع لغتنا. وهو وجّه هكذا إلى اليسوعيين ضربة لم يتعافوا منها كلياً على الإطلاق، تماماً كما الحال مع الأتقياء الزائفين في مسرحية موليير الهزلية، تارتوف. كان باسكال، الذي انتزعه اهتداءٌ[1] مؤثّر من حياته الاجتماعية وأعماله العلمية، قد حصل على غرفة في بور – رويال، من دونِ أن يصبح واحداً من "النُسّاك". فبعد أن أدان أرنو زملاؤه في السوربون، رجا باسكال أن ينقل القضية إلى أمام "الناس الشرفاء"، أي الرأي العام في ذلك الزمن. وفي العام 1656، ظهرت أول رسالة كتبها إلى أحد أبناء الريف صديقٌ له بخصوص الصراعات الحالية في السوربون[2]، وكان قد طبعها سراً ومن دون اسم المؤلف. وقد تعاقبت هكذا 18 كراسة جرى جمعها في السنة اللاحقة بعنوان **Provinciales ou lettres écrites par Louis de Montalte à un provincial de ses amis et aux R. R. P. P. Jésuites sur le sujet de la morale et de la politique de ces pères**[3].

تدافع الرسائل الثلاث الأولى، وهي تتعلق من حيث طبيعتها بمبادئ الإيمان، عن أطروحات أرنو وعن نظرية النعمة عند جانسينيوس. والرسالة الرابعة تشكل جسر عبور إلى الرسائل "الأخلاقية"، التي برعت فيها موهبة المؤلف الهزلية. فمن لا يتذكر الحذق الذي اختار به، من بين المبادئ الأساسية لحَلاّلي القضايا الضميرية، تلك التي تتسبّب بسخط القارئ؟ وقد

---

[1] ساهمت فيه "معجزة الشوكة المقدسة": كانت ابنة أخت باسكال، جيلبرت بيرييه، قد شفيت من ناسور دمعي بوضع إحدى أشواك تاج يسوع المحتفظ به في بور – رويال.

[2] Lettre écrite à un provincial par un de ses amis sur les luttes présentes en Sorbonne

[3] البروفنسيال أو رسائل كتبها لويس دو مونتالت إلى ريفيٍّ من أصدقائه وإلى الآباء الأجلاء اليسوعيين حول موضوع أخلاق هؤلاء الآباء وسياستهم(م)

كان حذق مُجادلٍ فضلاً عن ذلك، انتقده فولتير بالذات حين قال عن الـProvincials: "لقد كان الكتاب يقوم على أساس زائف؛ فلقد عزيت للمجتمع بأسره الآراء الشاذة للعديد من اليسوعيين الإسبان والفلاماندبين". وكان من السهل نسبياً أن نكتشف في مؤلفات اللاهوت الأخلاقي التي لا تحصى المقاطع التي تتجاوز فيها مراعاةُ الخطيئة حدود الحس السليم، وحيث قيل مثلاً إنه يمكن المرء أن يقتل دفاعاً عن شرفه أو أملاكه، وإن المفلس يمكن أن يحتفظ من بين أملاكه بما هو ضروري لإعالة عائلته بشرف، وإن الابن يستطيع، في بعض الحالات، أن يتمنى موت والده. كل هذا مشروع إذا كانت "وجهة النية" جيدة، ويمكن إتِّباع "رأي راجح"، حتى إذا كان الضمير يحتج. وبفضل "التحفظ الذهني" يمكن الكذب بحرية.

لقد أفسحت **Les Provinciales** في المجال أمام فيض من المساجلات اللفظية، المكتوبة أو المطبوعة. كان اللاهوتيون يتبادلون الحجج والشتائم[1]، وكان كل علماني يتوق إلى إعطاء رأيه في المسائل موضع الجدال. وبين المقالات النقدية التي كانت تتكاثر فيما تتقاطع، فلنشر إلى دفاع عن الباحثين في القضايا الضميرية **(Apologie pour les casuistes)**، أدانت السوربون العديد من طروحاته مضيفة مع ذلك: "لا يعني هذا الحظر تأييداً للـProvinciales". ولكن هذه الأخيرة كانت قد أثارت قدراً كبيراً من الانفعال، حين كشفت للجميع التصالحية الفضائحية لشخص كإسكوبار أو كسانشيز، إلى حد أن البابا إسكندر السابع أدان بدوره كتاب الدفاع **(Apologie)**. بالمقابل، كانت الـ**Provinciales** قد أحرقت بأمر من برلمان

---

[1] تجدر الملاحظة مع ذلك أن تهذيب القرن السابع عشر كان يضفي عموماً على المشادة لهجة صحيةٍ طيبة كانت مجهولة حتى ذلك الحين وأنه لم يعد يستخدم تلك النعوت الفظة التي تشوب أسلوب المجادلين في القرون الوسطى، وأسلوب لوثر، وحتى أسلوب كالفن أحياناً.

بروفانس، وأدانها فهرس الكتب المحرمة في روما. نضيف إلى ذلك أن باسكال، الذي توفي مبكراً في العام 1659، لا يبدو أنه تخلى عن آرائه الجانسينية حول موضوع النعمة، وإن كان يظن أنه مخلص للطريق القويم الكاثوليكي.

بالعودة إلى "القضايا الخمس" في الـAugustinus التي أدانها البابا في العام 1653، تجدر الإشارة إلى أن هذه القضايا كانت مناسبة لتكاثر الكتب أو الكراسات. وهاكم بعض العناوين:

Jansénius foudroyé par Innocentx[1], La Relation du pays de Jansénie [2], La Théologie charitable [3].

(أو رأي هام يعطيه لاهوتي للكاثوليك ليتفادوا مرضاً أخطر من الطاعون"). وقد كان الأبطال الرئيسيون أرنو، الذي ألف خلال أربع سنوات 140 مؤلّفاً أو أهجية، ومن جانب اليسوعيين، الأب أنّا، معرِّف الملك، الذي كتب بين ما كتب La Doctrine de Jansénius contraire à la doctrine de l'Eglise romaine et à celle de Saint Augustin[4] وبأسلوب آخر Le Rabat - joie des jansénistes[5]. وقد عمد خليفة إينوسان العاشر، إسكندر السابع، إلى إصدار براءة يجدد فيها إدانة "القضايا الخمس"، وقررت جمعية إكليروس فرنسا جعل كل أساقفة المملكة يوقعون "صيغة" تعترف بهذه الإدانة. وقد أعلن أرنو أنه لا ينبغي الرد على البراءة إلا بـ"صمتٍ مطبوع الاحترام"، وتواصل النقاش بصورة أقل حدة، في

[1] جانسينيوس وقد سحقه إينوسان العاشر(م)
[2] حكاية بلاد جانسينيا(م)
[3] اللاهوت الرحيم(م)
[4] عقيدة جانسينيوس المتعارضة مع عقيدة الكنيسة الرومانية وكنيسة القديس أغسطينوس(م)
[5] مكدِّر صفو الجانسينيين(م)

الحقيقة، لأنه كانت تُبذل محاولات للتوفيق بين الرأيين.

في غضون ذلك، كان لويس الرابع عشر قد اتخذ موقفاً؛ ففي العام 1664 جعل برلمان باريس يأمر بتوقيع جميع الأساقفة "للصيغة"، تحت طائلة مصادرة أرباحهم، ثم قرّر منع الجميع من أن "يكتبوا، أو يؤلفوا، أو يطبعوا، أو يبيعوا أو يشيعوا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تحت أي اسم أو عنوان، أيّ كتاب، أو رسالة أو نص يميل إلى تشجيع عقيدة جانسينيوس المدانة أو دعمها أو تجديدها، بأي صورة من الصور".

هذا وقد ساند أحد معاوني أرنو الرئيسيين، نقولا، الذي كان قد ترجم إلى اللاتينية، باسم وندروكيوس، كتاب الـ**Provinciales**، ساند شجاعة الجانسينيين بنشره كتابه [1] Lettres sur l'hérésie imaginaire، الذي أظهر فيه أن الكنيسة لا تطلب الإيمان ب"صنيع" جانسينيوس، إذ إن هذا لا يشترطه إلا اليسوعيون. وقد نشر أربعة أساقفة مناشير بالمعنى نفسه، وساند 19 أسقفاً آخر هذه الأطروحة في رسالة إلى الملك وأخرى إلى البابا. وقد كان هذا الأخير، وبالتحديد كليمان التاسع، ذا طبيعة مصالحة. وبعد مفاوضات طويلة، أعلن الأساقفة الفرنسيون خضوعهم في العام 1669، وأمر لويس الرابع عشر بسك مدالية على شرف "صلح الكنيسة".

والحال أن تلك لم تكن أكثر من هدنة. فقد كتب تلميذ جديد لأرنو، هو عضو جمعية المصلّى، كينيل، بموهبةٍ تتغذى بمعلومات واسعة، مجموعةً من المؤلفات للدفاع عن أفكار معلمه. إلا أنه أضفى عليها طابعاً أقل تشدداً هو ذلك الذي يَسِم المرحلة الثانية من الجانسينية. وهاكم مثلاً على ذلك

[1] رسائل حول الهرطقة الخيالية(م)

الاعتدال مستمداً من إحدى كتابات ذلك العصر: "أعتقد أن التقدير بلا سبب وأن النعمة فاعلة، ولكنني أقر بأن هناك نعماً داخلية تقدّم إمكانية حقيقية لإتمام مشيئة الله، وليس لها أثرها الكامل بسبب مقاومة الإرادة". ولكنه اعتدال لم ينقذ الجانسينيين. فاليسوعيون لم يغفروا لهم هجماتهم العنيفة، ولم يسامحوهم على الـProvinciales، أو على التأثير الذي مارسوه زمناً طويلاً في أوساط كبار النبلاء. ولقد كان اليسوعيون أقوياء، ولم يجدوا صعوبة في إقناع لويس الرابع عشر بالخطر المحتمل بتمرد جديد يتم إشعال ناره في الدير المشهور، وهو بؤرة انقسام لا تتفق مع مبدأ الملكية المطلقة. وقد أعلن الملك أنه لم يعد يحتمل "سادة بور – رويال هؤلاء". كان مصيرهم قد تقرر، على الأقل في قرارة نفسه.

وقد جاء حادث صغير ليفاقم وضع الجانسينيين: طرح أحد معرِّفي[1] كليرمون – فيرّان على السوربون[2] سؤالاً لمعرفة إذا كان يمكن إعطاء الحلّة لرجل دين لديه ميول جانسينية. وقد أدت "هذه الحالة الضميرية" إلى أن يسقط على باريس سيل من المنشورات، بعضها مع قرار الـ"40 دكتوراً في اللاهوت" الذين اتخذوا موقفاً لصالح إعطاء الحلّة، بينما كان البعض الآخر ضد ذلك. وقد رُفعت القضية إلى روما، فأدان رأي السوربون منشورٌ بابوي صدر في العام 1703. وقد نشر فينيلون في تلك المناسبة، ربما للحصول على الغفران لمدام غويون، العديد من "التوجيهات" التي يدافع فيها عن عصمة الكنيسة بخصوص وقائع ونصوص تتعلق بمبادئ الإيمان.

---

[1] المعرِّف هو الكاهن الذي يتلقى اعتراف المؤمنين تمهيداً للمناولة(م)

[2] قبل أن يشكل مبنى السوربون الأساسي نقطة الانطلاق لجامعات باريس الحالية التي تحمل هذا الاسم كان في البدء مركزاً لمؤسسة خاصة لتعليم اللاهوت(1257)، ثم أصبح منذ 1554 مركزاً للمداولات العامة لكلية اللاهوت(م)

وتحت تأثير مدام دو مانتونون التي كانت "تتصور نفسها أماً للكنيسة"، بحسب سان سيمون، ضغط الملك على البابا كليمان الحادي عشر لكي يتخذ قراراً نهائياً بإدانة الجانسينية. وقد جاء القرار البابوي أو النص الأساسي **Vinean Domini Sabaoth** (1705) ليشكل إرضاء لرغبته، إذ أعلن أنه يجب "أن يدان كهرطوقي ويُنبذ من القلب معنى كتاب جانسينيوس المدان في القضايا الخمس والناتج من تعابيره الخاصة به".

ولكن جمعية الكهنوت، التي كانت ميالة آنذاك إلى الغاليكانية، تقدمت بتحفظات، وفي حين وافقت عل نص القرار البابوي، أعلنت أن الأساقفة يمكن أن يحكموا في قضايا العقيدة وأن "النصوص الأساسية" للبابوات لا تُلزم الكنيسة بأسرها إلا حين تقبل بها هيئة القسس.

بيد أن ذلك لم يكن يكفي الملك العجوز، الواقع أكثر فأكثر تحت تأثير معرِّفه، اليسوعي تلييه. فلقد استحصل من البابا على قرار جديد يُجيز تشتيت راهبات بور — رويال. وفي 29 تشرين الأول / أكتوبر 1709، جاء ملازم الشرطة دارجنسون، مصحوباً بثلاثمئة فارس ملكي، إلى دير ديشان وأصعد الفتيات المسكينات في عربات أوصلتهن إلى أديرة شتى في الريف. وبأمر من الملك، جرى دك الأبنية في العام التالي. وقد كانت ترقد تحت بلاط الكنيسة وفي رواق الدير رفات حوالى ثلاثة آلاف من مؤمني البدعة، فجرى انتهاك كل الأضرحة ونهبها، والجثامين التي كان لا تزال محفوظة جرى تقطيعها بالمعازق أو الإلقاء بها للكلاب. وقد تم إنقاذ جثمان راسين، الذي سبق أن كان تلميذ "النسّاك"، ونقل إلى سانت — إتيان دو مون. ولم يبق اليوم من الدير المشهور إلا بعض جذوع الأعمدة وبعض شقق الجدران. ولقد بني مصلّىً صغير في مكان صدر الكنيسة المهدمة ومتحف صغير.

بيد أن الصراع بين الجانسينيين واليسوعيين استؤنف بصورة أشد ضراوة. ففي العام 1708، كان كليمان الحادي عشر قد حكم بإحراق كتاب الأب كينيل الذي عنوانه **Le Nouveau Testament avec des réflexions morales**[1]. وبما أن المقاومة تواصلت في فرنسا، عيّن البابا في العام 1712 لجنة مؤلفة من خمسة كرادلة وأحد عشر لاهوتياً لدراسة الكتاب مجدداً. فنتج من ذلك، في السنة التالية، القرار البابوي **Unigenitus dei filius** الذي كان يطالب لويس الرابع عشر البابا به منذ زمن بعيد.

كان كليمان الحادي عشر قد اقتطف من كتاب كينيل مئة قضية وقضية كان القرار يصفها حينا بالمضلّلة، أو المتجاسرة أو المسبِّبة للزلل، وحيناً آخر بالكافرة، أو التجديفية أو الهرطوقية. وقد أعلنت جمعية الإكليروس الفرنسي، برئاسة الكاردينال دو نواي، رئيس أساقفة باريس، أنها "تعرفت بالكثير من الفرح إلى عقيدة الكنيسة في النص الأساسي، وأنها تقبل بها باحترام وخضوع، وتدين الكتاب والقضايا بالطريقة نفسها التي يدينها بها البابا". بيد أن العديد من الأحبار، المسمّين "معارضين"، ارتأوا على العكس أنه لا يجب القبول بالقرار البابوي **Unigenitus**. وقد كانت لرأيهم الغلبة بعد وفاة لويس الرابع عشر 1715. وكان دوق أورليان، الوصي على المملكة، مؤيداً الجانسينية، وفي العام 1716 اتخذت كلية اللاهوت في باريس موقفاً إلى جانب "المعارضين". ورداً على ذلك، علق كليمان الحادي عشر، بعد أشهر، امتيازات السوربون. وفي العام 1717، وقع أربعة أساقفة "معارضين" نداء إلى المجمع العام، عرضوه على السوربون. وكانت تلك الوثيقة تأخذ على القرار البابوي أنه "يوزع من دون تمييز الانتقادات الأشد

[1] العهد الجديد وتأملات أخلاقية(م)

فظاعة بخصوص قضايا جرى التعبير عن عدد كبير منها بالمصطلحات نفسها الواردة في الكتاب المقدس، والمجامع، ولدى البابوات والآباء الأقدسين"، وفضلاً عن ذلك أنه "يهز أسس الهرمية الدينية، وحقوق الأساقفة وحريات المملكة". وقد انضم 12 أسقفاً وآلاف الكهنة إلى "المستأنفين". أما البابا فأدانهم كمتمردين، وعصاة ومتّهمين غيابياً. وتعزز بسبب ذلك وضع الغاليكانية، وقضت كلية باريس، في العام 1719، بأنه من الخطأ التأكيد بان البابا معصوم. إلا أن الوصي لم يكن يريد أن يُدخل فرنسا بصورة نهائية في خلاف مع البابوية. وقد بحث عن تسوية ووجدها. ففي العام 1720، صدر إعلان للملك الصغير لويس الخامس عشر يأمر بأن يتم التقيد بالقرار البابوي Unigenitus في ولاياته، ويحظر، استطراداً، استخدام الأوصاف "جانسينيّون" أو "مولينيون" أو "مجدِّدون"، بعد الآن. وقد لقي ذلك مقاومة من جانب "المستأنفين" المتصلبين ومن برلمان باريس، في حين تم تكريس "الحكم المناسب جداً" الصادر عن كليمان الحادي عشر من جانب خليفتيه إينوسان الثالث عشر وبنوا الثالث عشر. من جهة ثانية، إن قرناً بكامله من السجال، والمحاجة والشتيمة كان قد استنفد الأهواء، وانتهت المعركة بسبب غياب المقاتلين. وفي العام 1719، خلصت السوربون إلى اتخاذ موقف لصالح القرار البابوي، وذلك بـ94 صوتاً ضد 13. وأعقب الهدوء عاصفة دامت زمناً طويلاً.

لقد كانت للجانسينية، في فرنسا، خاتمة مثيرة ومضحكة. فلقد توفي أحد أنصارها الأكثر حماساً، الشماس باري، في 1727، وكان قد تميز بعاداته المتقشفة والخيرية، وحياته البائسة في كوخ من ألواح الخشب في ضاحية سان – مارسيل. وقد سمح كاردينال نواي، الذي غالباً ما حمى "الجماعة"، بأن يدفن كاهن رعية سان – ميدار، الشماس باري، في المقبرة

المجاورة للكنيسة، وأجاز لأصدقائه أن يبنوا له ضريحاً من المرمر. فصار المكان ما يشبه المحجّة، وصاحبت الحج إليه ظواهر غريبة: كان بعض الزوار يُحسُّون بالانخطاف المتلازم مع تشنجات وراحوا يتنبأون، وكان آخرون يعتقدون فجأة بأنهم تخلصوا من أمراضهم أو إعاقاتهم. فاعتبر الجانسينيون أنهم إزاء معجزات، وأعلنوا ذلك بصوت عال. واعترف أسقف مونبلييه بأن الأمور التي كانت تحدث لها طابع المعجزات، وطلب 23 كاهن رعية في باريس من رئيس الأساقفة أن يؤكد صحة الشفاآت الحاصلة.

بيد أن "تشنجيي" سان – ميدار" مضوا، في شطحاتهم، بعيداً جداً: راحت نسوةٌ يعرِّضن أنفسهن لإماتات كن يسمينها "نجدات"، وكان شبان يُسمّون بالـ"منجدين" يجلدونهن بالهراوات أو يغرزون في أجسادهن قضباناً مروّسة مسماة "سكّر الشعير".

وكان بعضهن يعلّقن على صُلبان بطلب منهن؛ وكان يُترك حجرٌ يزن 50 ليبرة (أي 25 كلغ) يسقط على غيرهن من فوق. وقد أصبحت تلك الاضطرابات الهستيرية كثيرة الوقوع ومثيرة للشكوك إلى حد أن البرلمان أجرى تحقيقات بخصوص"المعجزات"، وكتب نواي مناشير رعوية لفضحها. وقد صدر أمر في العام 1723 بإقفال المقبرة وحظر الدخول إليها، فرد على ذلك أحد الظرفاء ببيتين علّقهما على السياج يقول فيهما:

De par le roi, défense à Dieu
[1]De faire miracle en ce lieu

---

[1] ومعناهما:
بأمر الملك، يُمنَعُ الله
من اجتراح العجائب في هذا المكان(م)

بيد أن "التشنجيين" استمروا، خِفْيةً، في القيام بأعمالهم الجنونية. ويروي العالِم كوندامين أنه رأى في ماريه، في العام 1759، امرأة تتعرض للصلب، بتسمير يديها ورجليها؛ وقد نزف قدماها، ولكن يديها لم تنزفا. وتشكّلت بدعة حسنة التنظيم، إلى حد أن صندوقها، الذي سمّي "علبة بيرّيت" كان يحتوي مليوناً ومئة ألف ليرة في العام 1778؛ وكان مُلْهَمون، سمُّوا بالأليزيين، يؤمنون بأنهم تعرفوا إلى النبي إيليا في شخص المدعو فايان؛ وكان آخرون يجمعون الفسق إلى عباداتهم. وقد بقي هذا التعصب الغريب ولم يختف كلياً إلى حين بدء الثورة الفرنسية.

إن إسرافات "التشنجيين" غير المحتشمة لا يمكنها أن تشوِّه إطلاقاً الصورة الباقية لنا من "سادة بور — رويال هؤلاء". فذكراهم عظيمة في تاريخ مآثر الفكر المسيحي. ويمكن فرنسا جمعاء — وحتى فرنسا الكاثوليكية، وهي بوجه خاص — أن تعتز بكونها أنتجتهم. فإذا كانت عقيدتهم ابتداعية، فلقد كان ورعهم صادقاً، وتفانيهم كاملاً وحياتهم مثالية. لقد أرادوا الدين أعمق والأخلاق أسمى؛ وكانوا لاهوتيين متبحرين في العلم، ومنطقيين صارمين، ومربين رفيعي المقام. وفي وسعنا أن نسميهم بطهرانيي الكاثوليكية. وكل شيء يجب أن يُغتفر لأناس كان باسكال يحترمهم.

لقد احتفظت الجانسينية بمتشيعين في فرنسا حتى نهاية النظام القديم، ولا سيما داخل البرلمانات.وحتى في القرن التاسع عشر، كانت باقيةً بعض آثارهم وسط الإكليروس. وإلى اليوم ما زالت أطلال بور — روايال ديشان مكاناً للحج: إذا كان سائقو السيارات، إذا صدَّقْنا غيد ميشلان، يتوقفون عندها لحظة لإلقاء نظرة شاردة على ذخائر المصلّى، فثمة زوار أقل استعجالاً يتأخرون للتأمل في مكان سكنته الروح.

وفي هولندا، بلد مؤسس الجانسينية، إذا لم تثر هذه الأخيرة العواصف ذاتها التي أثارتها في فرنسا، فهي قد كانت مع ذلك شديدة الحيوية. لقد كان يقود الجماعات الكاثوليكية في هولندا نوّاب رسوليون، أبدى العديد منهم تأييداً لـ"القضايا الخمس"؛ وكان أساقفة فرنسيون يرسمون هولنديين شباباً من دون إجبارهم على توقيع "الصيغة". باتت أوترخت مركز التقاء الحركة، والعديد من الجانسينيين الفرنسيين أتوا لاجئين إليها. وكان مجلس الكهنة (القانونيين) في هذه المدينة قد انتخب، بسلطانه الخاص به، رئيس أساقفة. وقد أعلن البابا بونوا الثالث عشر بطلان الانتخاب وأوقف المنتخب عن العمل وأحلّ اللعنة على الناخبين. والمصير عينه عرفه خليفة رئيس الاساقفة الأول. بيد أن كنيسة هولندا الجانسينية بقيت قائمة وهي لا تزال موجودة إلى اليوم مع مقراتها الرسولية الثلاثة في أوترخت، وهارلم ودوفنتر. إذ اعتبرت نفسها مخلصة للتعاقب الرسولي أمكنها أن تعمد إلى رسامة أساقفة ألمانيا "الكاثوليك القدامى".

## التجديدية

إن الروح النقدية، التي وضعت حداً للعصر الوسيط عبر التسبب بحركة أفكار واسعة، لم يكن تأثيرها، في البداية، في أوروبا كانت لا تزال متشبعة بالدين، غير توليد مذاهب جديدة، هي الكنائس البروتستانتية، التي لا تقل تسلطاً تقريباً عن تلك التي حلت محلها. ويجب انتظار القرن الثامن عشر لرؤية بايل، ثم فولتير، لا يهاجمان الكاثوليكية وحسب، بل المسيحية بحد ذاتها. كان النقد يمارس آنذاك باسم التسامح، و"الأنوار"، وكان لا يزال "ثقافياً". أما في القرن اللاحق، فتكلم باسم العلم.

كان القرن التاسع عشر، عصر العقلانية، والليبرالية، والاشتراكية، يشكل تهديداً للكنيسة الرومانية أكثر خطورة من الهرطقات القديمة. فالإلحاد كان أسوأ من الانشقاق، لأن هذا الأخير لم يكن يتخلى عن أكثر من قسم فقط من الإيمان. وبما أن بيوس التاسع كان أكثر حرصاً على سلطان روما من أي بابا سبقه، فقد رأى الخطر، ومنذ العام 1864 كان قد انتقل بواسطة نصّه Syllabus[1] إلى دفاعٍ جعل مزاجُه منه هجوماً. وكانت تلك الوثيقة الطويلة تدين في الوقت ذاته العقلانية، والحلولية، والطبعية، واللاتفريقية (l'indifférentisme)[2]، والخلاصية (Latitudinarisme)[3]، والاشتراكية، والشيوعية وكل أشكال الليبرالية الفلسفية، أو الأخلاقية أو السياسية. بيد أنها لم تكن تشير إلى الخطر الذي يمثله بالنسبة للإيمان الكاثوليكي النقد التوراتي، الذي كان قد تطور كثيراً في ألمانيا البروتستانتية والذي أعطى مثلاً عنه، في فرنسا، أرنست رونان في كتابه حياة يسوع.[4] ولا ريب في أن بيوس التاسع لم يكن يتوقع أن أصواتاً سترتفع، من بين رجال الإكليروس بالذات الذين كان يرأسهم، لتشكك في التفسير التقليدي للنصوص المقدسة.

لما كانت فرنسا عقلانية من حيث تعريفها، وذلك من بين كل الأمم الكاثوليكية، فسوف تكون مهد التجديدية وبؤرتها الرئيسية. والتعبير، الغامض بعض الشيء، يعني في هذه الحالة مسعىً لتجديد الكنيسة يقوم

---

[1] السجل أو اللائحة(م)

[2] موقف حيادي مطلق في السياسة والدين(م)

[3] مذهب ديني يبسط الخلاص على كامل الجنس البشري(م)

[4] تجدر الإشارة على هذا الصعيد إلى أن الأوراتوري (عضو جمعية مناهضة للإصلاح الديني) ريشار سيمون كان قد وضع أسس الشرح العقلاني للتوراة، عن طريق كتابه التاريخ النقدي للعهد القديم (1678) [L'Histoire critique du Vieux Testament]

"على القناعة المزدوجة بأنه يمكن أن تكون هناك، بخصوص نقاط محددة تتعلق بالجوهر العقيدي أو الأخلاقي للدين المسيحي، نزاعات فعلية بين الموقف التقليدي والموقف الحديث، وأنه، في هذه الحالة، يكون التقليدي هو الذي يجب تكييفه مع الحديث، عن طريق الإصلاح، وعند الاقتضاء، عن طريق التغيير الجذري أو التخلي الكامل[1]".

لقد كان زعيم جماعة التجديد الفرنسي الأب لوازي. فتلميذ دوشين[2]، الأستاذ البارع في تاريخ الدين في المعهد الكاثوليكي في باريس، المدعو لوازي، المهتم بالقضايا العبرية والأشورية، تم تكليفه بعد قليل بتدريس الكتاب المقدس. وسرعان ما كُشِفت في تعليمه "تأثيرات بروتستانتية" وعُزي لتأثيره نشر خور أسقف هولست، مدير المعهد، مقالاً في الـ**Correspondant** يقترح فيه التخلي عن جمود الكتب المقدّسة، الذي يصعب جداً أن يقبل به ذهن نقدي. وقد أصدر البابا ليون الثالث عشر في هذا الصدد الرسالة البابوية **Providentissimus**، التي يعيد فيها تأكيد القوانين الكنسية لمجمع ترانت المتعلقة بالنصوص المقدسة، ويبدي في الوقت نفسه تشدداً عقيدياً أقل من تشدد سلفه بيوس التاسع وحساً أشد فطنة بالاحتمالات. وبما أن لوازي، الذي صُرف في غضون ذلك من المعهد الكاثوليكي، كان مدركاً أن قسماً من الإكليروس الفرنسي يهتم بما يقوله، فلقد نشر في العام 1902 كتيّباً كان له الكثير من الدوي، بعنوان الإنجيل والكنيسة. وفي معرض تطبيقه طريقة المؤرخ الألماني هارناك على الدراسات

---

[1] تعريف أعطاه ل. دوغرانجيزون في Etudes، 1923، وقد أورده قاموس اللاهوت الكاثوليكي (Dictionnaire de théologie Catholique)، كلمة "التجديدية".

[2] أسقف ومثقف فرنسي، ولد في سان – سيرفان (1843- 1922)، وهو مؤلف دراسات في التاريخ القديم للكنيسة(م)

التوراتية، أورد جملة من كتاب هذا الأخير ماهية المسيحية، الذي كانت ظهرت ترجمته الفرنسية للتو، يقول فيها: "كانت المسيحية الإنجيلية شبيهة بروح لا جسم لها". وقد فسّر لوازي التكون التدريجي لهذا "الجسم"، فكتب على سبيل المثال: "تمتلك الكنيسة، في تنظيمها، قدرة فريدة على التكيف مع مجرى الأشياء التاريخي؛ فهي تبقى دائماً الكنيسة القديمة، أو تبدو على الأقل كذلك، فيما هي جديدة على الدوام... إن الكنيسة اليوم لا تشبه من قريب أو من بعيد جماعة التلامذة الأولين أكثر مما يشبه إنسان راشد الطفل الذي كانه في البدء... إن الكنيسة تكيّف الإنجيل مع الوضع المتغير على الدوام للعقل الإنساني وحياة البشر".

هل إن "التكيف" الذي تحدث عنه لوازي ناتجُ تطور طبيعي وقانوني، أو هو تغيير للعقيدة البدائية؟ هنا يكمن السؤال. ولقد حله الفاتيكان وأجاب عنه. فالكاردينال سارتو، الذي خلف ليون الثالث عشر في العام 1903، اتخذ اسم بيوس العاشر، وجرى الاستنتاج من ذلك في الحال أنه سيكون بابا "مهتماً بالدين" لا "بالسياسة" كما كانت حال سابقه. وقد رأى لوازي، الذي كان استكمل أطروحاته وفاقمها بنصٍّ عنوانُه **Autour**[1] **d'un petit livre**، رأى مؤلفاته جميعاً وقد ألقت عليها روما الحرم. في غضون ذلك، كان قد عُيِّن أستاذاً في الكوليج دو فرانس، وكان تأثيره يتعاظم لدى العلمانيين كما لدى رجال الإكليروس. وقد عهد بيوس العاشر بالمسألة إلى الـ**Saint Office**[2]، ونشرت هذه في تموز/يوليو (1907)

---

(1) بخصوص كتاب صغير(م)

(2) الاسم الذي كان تحمله قديماً محكمة التفتيش الكنسية. وبقي يطلق حتى العام 1966 على المؤسسة المكلفة، في الفاتيكان، بالحرص على نقاء الإيمان، وبتفحص الكتب ومنع قراءتها عند الاقتضاء. وقد بات اسمها منذ 1966 الجمعية لأجل عقيدة الإيمان، وخُففت صلاحياتها القمعية كثيراً(م)

المرسوم [1] **Lamentabili**. وهذه الوثيقة أسفت "للأخطاء الخطيرة" التي يرتكبها كُتّاب كاثوليك "ليس عددهم قليلاً"، يسعون "بحجة الفهم الأعمق والبحث والاستقصاء التاريخيين، وراء تقدم مبادئ الإيمان الذي هو في الواقع إفسادٌ لها". ثم جرى بعد ذلك تفحص 65 قضية مأخوذة من مؤلفات التجديديين وإدانتها، من دون أن يعطى هذا الاسم للمذنبين. وقد لوحظ فضلاً عن ذلك أنه إذا نظرنا إلى المرسوم من وجهة نظر القوانين الكنسية فهو قد كان يندرج في تلك الأشكال الدنيا للسلطة العقائدية التي لا يشملها امتياز العصمة (عن الخطأ).

والحال أن المرسوم **Lamentabili**، الذي جرى وصفه بالـ**Syllabus** الثاني، أعقبته بعد شهرين الرسالة البابوية المشهورة **Pascendi**. في هذه المرة، كان مشاراً بوضوح إلى التجديدية وجرى الهجوم عليها بصورة مباشرة. وقد مُيّز فيها ملمحان أساسيان: اللاأدرية، أو الشك المعتبر طريقة للمعرفة، والحلولية، أي نظرية حلول حيوي يجعل الحقيقة الدينية تنبثق من حاجات الحياة. وقد تم وصف العقيدة المشؤومة بـ"الهذيان"، و"الخَبَل"، و"الفظاعة" و، أخيراً، بـ"ملتقى كل الهرطقات". وبما أن اللاأدرية هي دمار كل حقيقة وبما أن الحلولية تفضي إلى وحدة الوجود، "تقود التجديدية إلى القضاء على كل دين".

وبما أن لوازي اتخذ موقفاً، في كانون الثاني/يناير 1908، لصالح التمرد المفتوح بنشره **Simples réflexions sur le décret de Saint – office et**

(1) ما يكون مؤسفاً ويدعو للرثاء.(م)

**sur l'encyclique Pascendi**[1]، تعرض في شهر آذار/مارس اللاحق، لإلقاء الحرم الأكبر عليه. وقد كتب بول روجيه في هذا الصدد: "لقد تكلم البابا، وتلك نهاية التجديدية". وبالفعل، باستثناء بعض المقاومات المعلنة، وربما العديد من التحفظات المكتومة، فقد هدأت الحركة، بوصفها هذا، بعد إدانة روما لها؛ ولا سيما أن إمامها وموجِّهها اعترف، في كتاباته اللاحقة، بأنه كان قد فقد الإيمان منذ سنوات عديدة. إلا أنه من الخطأ الظن بأن كل أثر للتجديدية قد زال الآن. ومن جهة أخرى فبعض الكهنة الذين كانوا يصفون أنفسهم بالكاثوليك التامين دافعوا عن مناهضة التجديدية بحماسٍ في غير موضعه وعلى درجة كبرى من الرعونة، بحيث مُنعت المؤلفات التي نشروها بهذا المعنى في عهد بيوس العاشر ومن ثم بونوا الخامس عشر. ويستخدم البعض تعبير التماميين (intégristes) [أو السلفيين][2] بمعنى تحقيري، وذلك لأجل إفقاد الحظوة لمن يهتمون بأن يحافظوا بالكامل على وديعة الوحي التي عهد بها المسيح إلى الكنيسة.

ولقد كان من الصعب الاستحصال على الخضوع للرسالة البابوية في بلدانٍ غير فرنسا. ففي إنكلترا، كان اليسوعي تيرّل **Tyrrel** قد نشر، منذ العام 1902، نظرية صوفية عن الوحي، على أساس أن هذا الأخير يتشكل، في رأيه، من واقعة شخصية تماماً متمثلة بالحدس أو بالتجربة الدينية[3]، وقد اتخذ موقفاً حماسياً للغاية لصالح التجديدية، وبما أنه انتقد،

---

[1] تأملات بسيطة حول مرسوم المجمع المقدس وحول الرسالة البابوية باسندي. وقد رأينا إزاء العبارة – Saint office – التي كانت تعني في البدء محكمة التفتيش، وبعد إلغاء هذه الوظيفة في عصر النهضة، بقيت للجهاز صلاحيات أخرى لحماية الدين – تعريبها بـ"المجمع المقدس"(م)

[2] الإضافة بين قوسين معقوفتين من وضعنا، لأن هذا هو المعنى الأدق لكلمة intégristes(م)

[3] في الفترة عينها، كتب لوازي أن الوحي هو وعي الإنسان في علاقته بالله وذلك اتجاه فردوي كانت الكنيسة أدانته، في حينه، لدى العديد من الصوفيين.

بخصوص الرسالة البابوية **Pascendi** "الاستبدادية البابوية" تعرض للحرم في العام 1907. والعقوبة عينها تعرض لها، في إيطاليا، مترجم كتابات تيرل، بوري **Burri**. وفي ألمانيا، ظهرت حركة إصلاح للكاثوليكية **Reform Katholizismus)**، ولكنها سرعان ما زالت من الوجود.

وبخصوص ألمانيا، يمكننا التذكير هنا باسم لاهوتي كاثوليكي كان قد حاول، في بداية القرن التاسع عشر، أن يجدد الدفاع عن الدين المسيحي بطريقة لا أدرية ؛ وهذا اللاهوتي هو جورج هرمس. ولقد كتب كتاباً بعنوان أصول العقيدة المسيحية – الكاثوليكية، صدر في العام 1834، بعد وفاته بثلاث سنوات وأدانه غريغوريوس السادس عشر. وقد أوضح المنشور البابوي أن هرمس يضل السبيل "بفعل الشك الإيجابي الذي طرحه كأساس لكل بحث لاهوتي" ولأنه "يريد ان يكون العقل القاعدة الرئيسية والوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يكتسب بها الإنسان معرفة الحقائق فائقة الطبيعة".

ويمكن أن نضع أيضاً في عداد رواد التجديدية البروتوني لامنيه، المؤلف المشهور لكتاب [1] **L'Essai sur l'indifférence en matière de religion** (1817)، ولكتاب [2] **Paroles d'un croyant** (1833). ولقد كان صوفياً وعقلانياً في آن معاً، يخلط السياسة باللاهوت، وقد حرّك الكثير من الأفكار الغريبة والمضطربة. ويبدو أن إحداها تبشر بلوازي: "إذ يبقى (الدين) نفسه على الدوام، فإن من ماهيته أيضاً أن يتخذ على التوالي، إما في عقل الإنسان أو في المجتمع الخارجي، أشكالاً متنوعة بمقدار ما يتطور هذان تحت تأثيره". هذا وإن ليبرالية لامنيه وجريدته **Avenir** (المستقبل) الكاثوليكية قد

---

[1] البحث حول اللامبالاة في مسألة الدين(م)

[2] كلمات مؤمن(م)

استعادها، بعد وقت طويل جداً، وجددها، في اتجاه أكثر ديمقراطية، مارك سانغنييه، الذي منعت روما صحيفته، **Le Sillon** (الثُّلم) في العام 1910[1]، وفي إيطاليا، كان الأباتي مورّي **Murri**، قائد "الديمقراطية الكاثوليكية"، قد تعرض لإلقاء الحرم قبل عام من ذلك الحين. وقد كانت معرضةً للاتجاه العقلاني الأطروحة الإيمانية التي دافع عنها معاصرٌ للامنيه هو الأباتي بوتين **Bautain**، أستاذ اللاهوت في ستراسبور، ثم في باريس. فلقد أثبت في كتاباته أن العقل عاجز عن إرساء حقائق لا ينبغي طلب نفعها إلا من الإيمان التقليدي. ولما كان البابا مخلصاً لنظرية "الوفاقية"، أي الوفاق بين الإيمان والعقل، فقد أدان بوتين في العام (1831)، وشهَّر المجمع الفاتيكاني من جديد، في العام 1870، بمخاطر الإيمانية.

## انشقاقات أخرى

ليست الغاليكانية بدعة، ولا هي هرطقة، بل هي مجموعة من الاتجاهات المتعارضة مع السلطات التي تدعي البابوية ممارستها في فرنسا. والعقيدة، التي وُضعت خطوطها الرئيسية في الزمن الذي كان يصارع فيه الملك فيليب لوبل البابا بونيفاسيوس الثامن، كان قد أوضحها في بداية القرن الثامن عشر الأستاذ في السوربون، تورنيلي. وهو يبيّن أن الكنيسة مَلَكيَّة تلطِّفها الأرستقراطية وأن الأساقفة تلقوا من المسيح القدرة على الحكم في مسائل الإيمان، سواء قبل الحبر الأعظم الروماني، أوفي أيامه، أو بعده. وكان بوسوييه قد أكد أن سلطان المجامع أسمى من سلطان البابوات،

---

[1] بقي الـSillon (أو الثلم)، بعد زواله، في الحزب الديمقراطي المسيحي لفترة ما قبل الحرب وفي الحركة الجمهورية الشعبية الحالية، وهما حركتان اجتماعيتان أكثر مما هما دينيتان، على غرار الثلم من جهة ثانية.

متلاقياً في هذا الرأي مع الجانسينيين. ولسنا بصدد الكلام على المظهر السياسي للغاليكانية، فلقد أفسح في المجال أمام جدالات طويلة، ونزعات كثيرة، بين فرساي وروما، وبين البرلمان والسوربون. وقد عمد بونابرت، أخيراً، بفضل الاتفاقية التي عقدها مع بيوس السابع، إلى تنظيم العلاقات القانونية بين الدولة الفرنسية والكرسي الرسولي، وذلك لزمن طويل.

والحال أنه إذا كان بيوس السابع قد اضطر للقبول بالشروط التي فرضها عليه الـ[1] Comediante – tragediante، فلقد اثبت قسم من الإكليروس الفرنسي أنه أكثر كاثوليكية من البابا ولم يرد الاعتراف بالاتفاقية. فلقد جدد المناهضون للاتفاقية اعتراض الكهنة "المتمردين" في زمن الثورة، وشكّلوا انشقاقاً سمي الكنيسة الصغيرة وانتزعوا من الكنيسة، التي أعاد تشكيلها نابوليون، عدداً كبيراً من المؤمنين، ولا سيما في الفانديه، وفي بروفانس، والدوفينيه. وحين قضى الأساقفة "غير المحلفين[2]"، الذين كانوا قد تسببوا بالحركة، نحبهم جميعاً – كان الأخير بينهم أسقف دو بلوا، الذي كان يعتبر نفسه "أسقف كل فرنسا" – نقص كثيراً عدد الانشقاقيين؛ وحصل الأمر نفسه حين زال الكهنة بدورهم. وبما أن فصل الكنيسة عن الدولة أبطل المعاهد البابوية، زال سبب الانشقاق في أيامنا هذه، ولكن كمثلٍ نموذجي على استمرار البدع، لا يزال للكنيسة الصغيرة أتباعٌ في البوكاج (هنالك ألف منهم في كولاري حيث لديهم مصلّىً)، وفي ليون، وبروتاني، حيث احتفظوا باسم لويزيه (Louisets)، على سبيل التذكير بتعلقهم بلويس الثامن عشر.

---

[1] الكوميدي- التراجيدي، ويقصد الكاتب هنا نابوليون الأول(م)

[2] أي الذين لم يحلفوا يمين الولاء للنظام المدني الذي طبّق على الإكليروس في أيام الثورة الفرنسية(م)

بيد أن الثورة الفرنسية، المستبسلة جداً ضد "مكر" الدين، عرفت محاولات لإحلال إله على علاقة أقوى بمتطلبات الوقت الحاضر محل الإله الكاثوليكي. وقد استخدمت الثورة تأليهية بولينغبروك وفولتير، وجعل روبسبيير الكونفانسيون، المتحولة إلى مجمع، تتخذ مرسوماً بوجود الكائن الأسمى وخلود النفس[1]، وذلك رداً على المزاج الرديء لأولئك الذين كانوا قد جابوا باريس، بأبهة كبرى، وهم يرفعون إلى الأعلى ممثلة أوبرا تمثل إلهة العقل. وفي عهد حكومة المديرين، استلهم "أصدقاء الله والناس"، أو التيوفيلانتروب (Théophilanthropes)، كتاب جان جاك روسو **Profession de foi du Vicaire Savoyard**[2]، فكانوا يقيمون عبادة لا أدنى أُبهة فيها، لكاهن إلهي لا يتطلب منهم سوى أخلاق صارمة. وقد حازت البدعة بعض النجاح وبلغ عدد كنائسها الثماني عشرة في باريس؛ ولكنها انتزعت منها حين أعادت المعاهدة البابوية العبادة الكاثوليكية، ولم يسمع أي كلام مذاك على أولئك التأليهيين المسالمين.

بعد أن مرت الهزة التي أحدثتها في الأذهان والأنفس أحداث الثورة، استمتعت الكنيسة الرومانية بفترة من الهدوء، كانت سلطتها خلالها مستتبة. وقبل أزمة التجديدية الحديثة، عرفت مع ذلك طعنة قاسية كفاية، نتجت بشكل رئيسي من مناداة مجمع العام 1870 بعصمة البابا. فلقد كان خَلْقُ هذا المبدأ الإيماني الجديد قد أثار معارضة شديدة من جانب الكثير من الكاثوليك، ولا سيما في ألمانيا. فلقد رفض دولينجر، مؤرخ الكنيسة المشهور، الاعتراف بمبدأ إيماني كان يبدو له متعارضاً مع التراث، وتعرّض

---

[1] كانت الرائية كاترين كيو، المسماة "أم الله"، قد حيّت روبسبيير على أنه المسيح الحقيقي. وقد جرى تحويلها إلى المحكمة الثورية، وتوفيت في السجن بعد موته بشهر.

[2] جهر بإيمان الكاهن من سافوا(م)

للحرم من جانب رئيس أساقفة ميونيخ. وقد أسس كهنةٌ وعلمانيون عندئذٍ كنيسة الكاثوليك القدامى، الذين سُمّوا كذلك لأنهم كانوا يتجهون للعودة إلى مسيحية العصور الأولى: فعلى غرار الإغريق، لم يكونوا يعترفون بسلطة عقيدية غير سلطة القوانين الكنسية للمجامع المسكونية السبعة الأولى؛ فضلاً عن ذلك، كانوا يرفضون الاعتراف السماعي، والغفرانات، والتعبد للقديسين، وعزوبية الكهنة؛ وكانوا يتبنون الألمانية كلغة طقسية. وقد جرى تكريس الأساقفة الأوائل **Altkatholisch**، كما سبق أن رأينا، بواسطة أساقفة هولندا الجانسينيين. ولقد قدّم مساعدةً كبرى للحركة الـ**Kulturkampf**[1]، أو الصّراع الذي كان يخوضه الرايخ الشاب ضد البابوية، تحت رعاية بسمارك. ففي كل ولايات ألمانيا، اعترفت السلطة المدنية بالجماعات الكاثوليكية القديمة؛ فلقد كانت تكتسي بالفعل طابعاً "وطنياً" كان يروق للمتحدرين من الجيبليين القروسطيين. وعدد الكاثوليك القدامى لا يزال هاماً في ألمانيا، وهنالك البعض منهم أيضاً في سويسرا، ويسمون أنفسهم كاثوليكاً مسيحيين.

وفي فرنسا، كان لحركة مشابهة بطلٌ هو الأب إياسينت لويسون من الرهبنة الكرملية. وبما أنه كان واعظاً لامعاً، فقد كان يجتذب الجمهور إلى محاضراته في نوتردام. وقد جعلت الصياغة الحديثة تماماً لأفكاره "البابويين المتطرفين" يشتبهون مع ذلك به؛ وقد استحصلوا من الرئيس العام للكرمليين على توجيه الأمر إليه كي يغيّر لغته أو يصمت؛ فرد برسالة مفتوحة فضح فيها "الطلاق الكافر والمجنون بالقدر نفسه الذي يُبذل جهد لأجل إحداثه بين الكنيسة، وهي أمنا المشتركة وفقاً للأبدية، ومجتمع القرن

---

(1) "المعركة لأجل الحضارة"، أو الصراع الذي خاضه بسمارك بين عامي 1871 و1878 ضد الكاثوليك الألمان لإضعاف حزب الوسط، المتهم بتشجيع خُصوصية الولايات(م)

التاسع عشر، الذي نحن أبناؤه وفقاً للزمن، والذي علينا حياله واجبات وعبارات مودة". وقد تجاهل لويسون إرادة رؤسائه وحضهم له كي يجعل النظام يستتب، واستمر في نشر أفكار أشد فأشد جسارة؛ ولدى انتهاء المهل القانونية، القي عليه الحرم الأكبر (1869).

كان صيت الأب إياسينت ذائعاً إلى حد أن الحدث ولّد تأثيراً عميقاً في فرنسا والخارج. وقد مضى الملقى عليه الحرم إلى الولايات المتحدة حيث استقبلته الجماعات البروتستانتية بالطبع استقبالاً ممتازاً؛ ومع ذلك فهو لم يكف عن تأكيد تعلقه بالكنيسة الكاثوليكية. ولكن بعد انعقاد المجمع الفاتيكاني، احتج ضد "مبدأ الإيمان المزعوم القاضي بعصمة البابا، وكان مبدأ غير معروف في العصور المسيحية القديمة وأدخل تغييراً جذرياً في تكوين الكنيسة وفي قاعدة إيمانها الثابتة". وقد احتج أيضاً على عزوبية الكهنة، وهي "مؤسسة متحجرة القلب وعديمة الأخلاق"، واحل محل الموعظة الممارسةَ كمثلٍ يتم احتذاؤه، بأن تزوج من أرملة أميركية من الطائفة الكاثوليكية. وقد جرى استقباله استقبال الظافر في جنيف، وانتخابه هناك كاهناً لجماعة "كاثوليكية – ليبرالية"، ولكن سرعان ما اختلف مع أبناء رعيته فعاد إلى باريس وأسس فيها، في العام 1879، **الكنيسة الكاثوليكية الغاليكانية**، التي كانت شعائرها باللغة الفرنسية. وعلى الرغم من كل جهوده، وكل بلاغته، لم ينجح في توفير الحياة لمشروع كان طابعه الملتبس يثير نفور الطبع الفرنسي.

هذا وإن **الأميركانية** (l'américanisme)، التي لم تصل إلى حدود الانقسام الكاثوليكي – القديم، ولا إلى الخلاصات القصوى للتجديدية، أثارت مع ذلك بعض الشكوك في روما. لم يكن الأمر يتعلق بهرطقة، أو

بدعة، بل باتجاه ليبرالي كان محركه هو الأب هيكر، مؤسس "الجماعة الأميركية للمرسلين البولسيين". وكان يعتبر أن على الكنيسة، لكي تستعيد البروتستانت بسهولة إلى أحضانها، أن تقترب أكثر من العالم الحالي، وتتخلى عن صرامتها القديمة، سواء في المستوى العقيدي أو في ميدان العمل. وأضاف، في ما يمكن اعتباره مبدأ أميركياً بامتياز، أن الفضائل النشطة ضرورية أكثر من الفضائل السلبية، وأن نذور الرهبنات الدينية، على سبيل المثال، لم تعد تتفق مع عادات الزمن الراهن، لأنها تضيّق على الحرية، التي هي وقفٌ على النفوس القوية. وقد بعث البابا ليون الثالث عشر، المشهور بتيقظه المعتاد، برسالة إلى الكاردينال جيبّون، في بالتيمور، تم إيصالها إلى كل أساقفة الولايات المتحدة، وكانت تُظهِر أخطاء الأميركانية، في الوقت نفسه الذي تحيِّي فيه نشاط الإكليروس الكاثوليكي المضطر للتباري مع خصوم أشداء، والموضوع، لأجل ذلك، ضمن ظروف خاصة.

لقد أعقب إدانة التجديدية، فالأميركانية، فالثلم (Le Sillon)، حدث سياسي عالمي كان من نتائجه دفع الكنيسة أكثر أيضاً باتجاه "اليمين". كان ذلك الحدث هو الثورة الروسية وطموحها لأن تنشر في العالم بأسره عقيدة الشيوعية الملحدة. وكان الخطر أعظم مما في أيام اللولارديين والهوسيين، لأنه لم يعد مقتصراً على بلد واحد: لما كان مؤسس الماركسية قد أقامها على قواعد بدت صلبة، راحت تنتشر في كل مكان، مغرية المثقفين بمظهرها العلمي، ومجتذبة الجماهير بمسارها النبوي. كانت تهدد المالكين والمؤمنين في آنٍ معاً. لذا يتفهم المرء أن يكون "البرجوازيون"، في البلدان الكاثوليكية، يتراصّون حول الكنيسة الرومانية بصورة أكثر طوعية مما سابقاً. وحتى

الليبراليون يتكلون عليها لاعتراض أمواج دغمائية جديدة أكثر تشدداً وتطلباً من الدغمائية القديمة. وبنتيجة ظرف غير متوقع، يبدو أن روما تدافع عن الدين، والملكية والحرية في آن معاً.

سبق أن أشرنا، في معرض الحديث عن البدع الإنجيلية في فترة ما قبل الإصلاح الديني، إلى أنه لا يسعنا الكلام على "اشتراكية" الإنجيل. ولكن هل يمكن الكلام على "شيوعيتـ"ـه؟ أجل، ربما، إذا أخذنا التعبير بمعنىً مثالي صرف وإذا اعتبرنا، من جهة أخرى، النظام الذي أقامه الرسل في ما بينهم والتزم به المتنصِّرون الجدد، نظاماً جوهرياً: "لم يكن جمهور المؤمنين سوى قلب واحد ونفس واحدة؛ ولا أحد بينهم كان يقول عن أي شيء يملكه إنه له؛ بل كل الأشياء كانت مشاعة بينهم". كانت تلك شيوعية تامة أيدها العديد من آباء الكنيسة من دون تردد. ويشهد على ذلك القديس أمبروسيوس: "الملكية اغتصاب... لما كانت الأرض أعطيت لكل الناس بصورة مشتركة فلا يمكن أحداً أن يعتبر نفسه مالكاً لما يتجاوز حاجاته الطبيعية من بين الأشياء التي اختلسها من الملك العام والتي يحفظها له العنف".

وفي القرن السادس، كتب البابا غريغوريوس الكبير أيضاً: "إن استخدام كل الأشياء الموجودة في هذا العالم يجب أن يكون مشتركاً بين الناس جميعاً". بالمقابل، فثمة آخرون أكثر واقعية، كالقديس ابيفانوس، على سبيل المثال: "تملك الكنيسة الفقر ولا تقف ضد أولئك الذين يحوزون بالضبط الثروات". وتلك هي حال القديس كيريلوس، في أورشليم: "ليست الثروات من عمل الشيطان... وأنا أقول هذا للهراطقة الذين يدينون أي ملكية وأي ثراء، مثلما يدينون الجسد". ويكثر القديس أغسطينوس من

الكلام في هذا المعنى: "بروعة وشموخ، يصفون أنفسهم بالرسوليين، لأنهم لا يقبلون في مجتمعهم متزوجين، أو ملاكين؛ وفي هذه الحال، ربما يقتربون من رهبان ورجال إكليروس كثيرين في الكنيسة الكاثوليكية؛ ولكنهم يصبحون هراطقة حين ينكرون كل أمل بخلاص من يحتفظون بأملاك يحرمون أنفسهم منها".

هذه المسألة، الحساسة جداً، كانت موضع سجال منذ بدايات المسيحية، كما هو واضح بالنسبة إلينا. وقد باتت شائكة في نهاية العصر الوسيط، حين ارتأى بعض أعضاء البدع أن يطبقوا إجمالاً العقائد القائلة بالشيوع. وقد رأينا أن الكنيسة لم تجد صعوبة في الاستحصال على عون الدولة لأجل خنق هذه المحاولات في المهد. وفي القرن التاسع عشر، أنعشت ثورة 1848، وصدور البيان الشيوعي لماركس في السنة عينها، جدالاً كان يتناول أسس النظام القائم بالذات. وقبل ذلك بعامين، كان بيوس التاسع قد أدان الشيوعية، منذ اعتلائه السدة البابوية، في رسالته **Qui pluribus**، "وهي عقيدة متعارضة تماماً مع الحق الطبيعي بالذات، ولا يمكن أن تقوم من دون أن تُقلب رأساً على عقب حقوق الجميع، ومصالحهم وأملاكهم، فضلاً عن المجتمع البشري بحد ذاته". وقد جرى تجديد الإدانة في ال**Syllabus**، وأعلن خليفة بيوس التاسع، ليون الثالث عشر، منذ بداية اعتلائه السدة البابوية، عبر الرسالة البابوية **Quod Apostolici** (1878): "أنْ يمتلك المرء الأشياء على أساس أنها له وله وحده إنما هو حق أعطته الطبيعة للإنسان". وفي ما بعد، بعد أن باتت الحركة المسماة "كاثوليكية اجتماعية" موجودة في بلدان شتى، اعتبر البابا أن عليه توضيح وجهة نظر الفاتيكان. وقد خلصت الرسالة البابوية المشهورة **Rerum novarum** (1891) إلى القول، بعد نقد

عقيدي للشيوعية: "فليبق إذاً ثابتاً تماماً أن الأساس الأول الذي يجب أن يرسيه كل الذين يريدون مصلحة الشعب بصدق، إنما هو حرمة الملكية". ويمضي أبعد أيضاً **Le Dictionnaire apologétique de la foi catholique**[1]، حين يعلن (والتشديد وارد فيه): "إنها حقيقة إيمانيّة أن الملكية شرعية".

أما التعارض "بين الفاتيكان والكرملين"، الذي يحدث حالياً الكثير من الضجيج، فهو يخرج قليلاً عن خطتنا: إنه تعارض سياسي أكثر مما هو ديني، في نتائجه على الأقل، إلا أنه يهمنا لكونه ولّد في دول "الكتلة السلافية" انشقاقات كاثوليكية ذات طابع قومي.

ففي تشيكوسلوفاكيا، كانت الحركة قد أفضت، منذ زمن طويل، إلى خلق كنيسة قومية. ذلك أن بؤرة العداء للبابوية التي شكلتها بوهيميا، والتي لم تنطفئ تماماً خلال اضطهاد آل هابسبورغ لها، وأنعشها الانفصال النمساوي الذي كانت صيحة حربه **Los Von Rom** ("لننفصل عن روما")، هذه البؤرة تأججت من جديد حين نودي بالجمهورية التشيكوسلوفاكية بعد الحرب العالمية الأولى. ومنذ العام 1919، طالب "اتحاد الإكليروس الكاثوليكي" الفاتيكان بالسماح له بأن يحتفل بالقداس باللغة التشيكية، وبأن يلغي عزوبية الكهنة ويخلق حتى بطريركية مستقلة. وبالطبع، رفضت روما هذه الطموحات، واعتبرتها هرطوقية ومتعارضة مع نص الرسالة البابوية **Pascendi** بخصوص التجديدية. ورداً على ذلك، تزوج قسم من الكهنة التشيكوسلوفاكيين وشرعوا يحتفلون بالقداس بلغتهم الأم. ثم، منذ العام 1920، تأسست الكنيسة التشيكية، التي أعلنت في بيان

(1) القاموس الدفاعي عن الإيمان الكاثوليكي(م)

أنها "وقد تأسست على قاعدة إنجيل المسيح، تتبنى مؤقتاً، وإلى حين تكون قد أرست نظامها الخاص بها، النظام الديني الحالي للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بعد تكييفه مع روح الديمقراطية".

لقد نمت سريعاً هذه الحركة الدينية، القومية والتجديدية في آن معاً، وكانت قد سيطرت، في العام 1922، على أكثر من 800 أبرشية؛ وكانت تضم 750 ألف مؤمن في العام 1926. ولكن الكنيسة الجديدة، التي انفصلت بعنف عن روما، كان عليها أن تقيم مجدداً خلافة رسولية جديدة. ولأجل ذلك، خاطبت السوبور[1] التراتبي لكنيسة صربيا الأورثوذكسية المستقلة، عارضة عليه عدم الاعتراف إلا بمبادئ الإيمان التي أقرتها المجامع المسكونية السبعة الأولى، ولكن مطالبةً إياه، بالمقابل، بأن يجيز زواج الكهنة بعد الرِّسامة (ذلك أن الكهنة الأورثوذكسيين يتزوجون دائماً قبلها) وحتى في زيجات ثانية وثالثة، وهي إجازة كانت تطمح إلى أن تشمل الأساقفة. وقد أحدثت هذه النقطة بعض الصعوبات، ولكن في الأخير، كرّس بطريرك صربيا أحد المرشحين التشيكيين للأسقفية، المدعو بافليك. أما المرشحان الآخران فاعتبرا مبالغين في التجديدية بحيث لا يستحقان التكريس الأورثوذكسي.

وقد نتج من ذلك انشقاق في الكنيسة التشيكية الشابة: أعلن قسم من المؤمنين، ولا سيما في مورافيا، أنهم روم أورثوذكس تحت إشراف بافليك، في حين التحق الآخرون بكاهن تجديدي هو فارسكي. وقد كتب هذا الأخير كتاباً للتعليم الديني لم يعتبره الصربيون غير أورثوذكسي وحسب، بل

[1] المجمع(م)

خارجاً من حدود الإيمان المسيحي. في حين كان بافليك يشكل "كنيسة أورثوذكسية تشيكية"، كان فارسكي يقود انشقاقاً كاثوليكياً ذا ميل دغمائي وحدوي، وميل عملي تجديدي. وقد تم تكريس أساقفة بالطريقة البريسبيتارية، واتخذ فارسكي لقب بطريرك. وهذه الكنيسة انضمت إلى "الجمعية العلمية للمسيحية الليبرالية"، التي تشمل التوحيديين الأميركيين وشتى البدع البروتستانتية الأخرى. وهكذا، عبر خط سير مثير للفضول، لامست حركة منطلقة من الكاثوليكية الرومانية الأورثوذكسيةَ اليونانيةَ وأفضت في الأخير إلى البروتستانتية الأنكلو ـ سكسونية.

انتهى النزاع بين الفاتيكان والكرملين إلى قطيعة بين إيديولوجيتين لا يمكن التوفيق بينهما: في 30 حزيران/يونيو 1949، صادق البابا على مرسوم (نُشر في 13 تموز/يوليو 1949) يقضي بإلقاء الحرم الأكبر على "المؤمن الذي يعتنق عقائد الشيوعيين المادية والمناهضة للمسيحية، وفي المقام الأول أولئك الذين يدافعون عن هذه العقائد أو ينشرونها". وإذا كان البابوات أدانوا في السابق مبادئ الشيوعية، مراراً، فلقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تشمل فيها الإدانة بالاسم أولئك الذين يعتنقونها. وبخصوص فرنسا، يستهدف المرسوم المعني بشكل أخص مجموعة المسيحيين التقدميين.

ويمكن أن نشير أيضاً، من بين الكنائس الكاثوليكية "الوطنية"، إلى المريميين في بولونيا. فلقد كانت شابة في الخامسة والعشرين من العمر، اسمها كوزلوفسكا، أسست في العام 1887 جماعة من الأخوات اللواتي كن يأخذن على عاتقهن العيش على غرار السيدة العذراء **(qui Mariae vitam imitantur)**. وبما أن المؤسِّسة بدأت ترى رؤىً، وتتنبأ، وتشفي بصورة عجائبية، أمر أسقف الأبرشية بحل الجماعة. وإزاء مقاومة

كوزلوفسكا وقسم من الكهنة الذين انضموا إلى الحركة، أُلقي عليهم الحرم جميعاً في العام 1906. إلا أن البدعة استمرت في النمو، بدعمٍ من حكومة القيصر التي كانت لها مصلحة في ذلك. وقد عمد كاهن مريمي، يدعى كوفالسكي، إلى الاستحصال من رئيس أساقفة أوترخت الكاثوليكي – القديم على تكريسه أسقفاً؛ وقد حُكم عليه في العام 1929 بالسجن 4 سنوات لأجل أعمال لا أخلاقية؛ فلقد كان يسمح للكهنة بأن يحتفلوا بزيجات ليس لها من الصوفية غير الاسم. ولا تزال البدعة مزدهرة حتى أيامنا هذه. وهي تقوم عقيدياً على الكتاب المقدس، وآباء الكنيسة القدامى وقرارات المجامع المسكونية السبعة الأولى.

ولنشر من جهة أخرى إلى أن توفيانسكي (1799- 1878) الصوفيّ مدّعي الرؤى، دمج في بولونيا عناصر غنوصية بالمسيحية الوطنية. فالإنسان – وفقاً له – هو الانبثاق الأخير عن الخالق، ولدى وفاته تهاجر نفسه في مملكة الأرواح التي ترفرف فوق الأرض؛ وميزة المسيح الوحيدة هي أنه شتّت جماعات الأرواح الشريرة وسمح للأرواح الخيِّرة بالوصول إلينا. أما تحرير البشرية فسيتم على يد فرنسا وبولونيا. وقد كان نابليون رسول الله السادس إلى الأرض وتوفيانسكي الرسول السابع. ومع أن توفيانسكي يعتبر نفسه كاثوليكياً، فقد كان يرى أن المتنصِّر يمكن أن يستغني عن الأسرار المقدسة. وقد كان يتبادل الاعتراف مع ميكييفيكز، خلال إقامتهما في باريس.

وفي المكسيك، كان قسم من الإكليروس قد أسس، منذ ما قبل مجمع الفاتيكان، كنيسة ليسوع، مستقلة عن البابوية. وفي الفيليبين أيضاً، أسس المدعو أغليباي، في العام 1902، كنيسة كاثوليكية وطنية.

ولقد عرفت إنكلترا هي أيضاً، كنيسة كاثوليكية ليبرالية، أسسها بعد الحرب العالمية الأولى بقليل الأسقف الكاثوليكي – القديم ويدغوود، وهي تجمع الكاثوليكية والتيوصوفية: الإنسان مادة وروح الهية في آنٍ معاً، وعن طريق البحث عن الحقيقة وحب القريب يمكن أن تهزم الروح المادة. وبين المسيح وبيننا، ليس هنالك فرق في الماهية، بل في الدرجة وحسب. وكل عضو في البدعة حر في أن يدرس مضمون المسيحية الباطني وأن يدخل إليه. ومن مظاهر التناقض الغريب أن طقوس (هذه البدعة) لا تزال كاثوليكية. ولقد انتشرت في الولايات المتحدة، وهولندا، وحتى في فرنسا (باسم الكنيسة الكاثوليكية الحرة).

# الفصل السادس

# البدع الروسية

## رؤية عامة للإيمان الروسي

كل ما هو روسي خاصٌّ نوعياً. فروسيا التي بقيت بعيدة عن كل الظاهرات الكبرى في تاريخ الغرب – الوحدة الكاثوليكية في القرون الوسطى، النهضة، الإصلاح الديني، الثورة الفرنسية، الليبرالية – عاشت، ولا تزال تعيش، في وعاء مغلق. لا تبدو جزءاً من أوروبا إلا على الصعيد الجغرافي.

ولكن لا نخطئَنَّ في ذلك. هي القائمة بين قارتين، إذا كانت تنتمي إلى آسيا ببعض الملامح، فهي تتميز منها بصورة جوهرية لكونها مسيحية. لا بل هي مسيحية أكثر من أي بلد أوروبي. فالإنجيل لم يكن موضع شعور أعمق، في أي مكان، مما في روسيا، ولم يتم عيشه عملياً بالقدر الذي حصل فيها. وإذا كان قسم من مؤمني الكنيسة قد انفصلوا عنها، في أيامنا هذه، للالتحاق بعقيدة سبق أن لاحظنا أنها ليست بغريبة عن المسيحية البدائية، فثمة أنفس أخرى لم تتخلَّ عن إيمان أجدادها، على الرغم من أعمال الاضطهاد. وإزاء مقاومتها العنيدة، اضطر "الملحدون" للاستسلام، والكنائس التي أعيد فتحها تنشد في كل مكانٍ نصر الروح؟

ما عساه يكون إذاً هذا الإيمان الذي لم تقض عليه أشد الهزات السياسية والاجتماعية هولاً؟ أو حقد القادة المتعصبين الذين كانوا يمتلكون مع ذلك كل وسائل القمع المادية؟

لقد كان الإيمان البيزنطي، الذي نقله إلى سلافيي المنطقة الممتد فيها نهر دنيبر مرسلون يونانيون أو بلغاريون، قبل قرن من انشقاق الشرق الكبير، يختلف مذاك بصورة محسوسة عن الإيمان الروماني. فلقد كان هذا الأخير مشبعاً بالـ"قانونية": كان يميل، على الصعيد العقيدي، إلى أن يحدد بالضبط ما ينبغي الإيمان به، وعلى الصعيد الطقسي، إلى منع الحركات والكلمات من أن تتجاوز دورها الرمزي لتكتسب سلطة باطنية؛ وعلى الصعيد الأخلاقي، إلى التوفيق بصورة منسجمة بين متطلبات الورع والتقوى وضرورات الحياة الجارية. أما في بيزنطة، فكان اللاهوتيون يطبقون، على العكس، على أصول العقيدة أساليب السفسطائيين الإغريق ويبددون فطنتهم وذكاءهم على حجج دقيقة لا طائل تحتها. وكان العلمانيون يشاركون في تلك الجدالات بالهيجان عينه الذي يتابعون به، في ميدان السباق، تنفس "الخضر" و"الزرق". ولقد كانت بعض الطقوس المسيحية، الباقية من الوثنية الشرقية، تكتسب طابعاً سحرياً: كان الجميع يستخدم إشارة الصليب لمباركة عريس، أو طفل، أو صديقٍ في المعاناة، وكانت الأيقونات المقدسة تؤدي إلى تجاوزات تحدثنا عنها بصدد محاربة الأيقونات. أما الأخلاق فكانت تقدم مزيجاً من التقشف والفساد، يرمز إليه القصر المقدس باحتفالاته نصف الدنيوية ونصف الدينية، والدسائس القائمة للرهبان، والخصيان، ووصيفات الشرف اللواتي يحلمن بأن يرين جمالهن يرتقي بهن يوماً، على غرار ما حصل مع الفتاتين تيودورا، إلى مصاف البازيليسا[1].

هذا ومن بين الملامح الثلاثة الأساسية للمسيحية البيزنطية — أي

[1] أي الإمبراطورة، في بيزنطة(م)

الأخلاق الزهدية والقيمة السحرية للطقوس، والميل إلى المساجلة – كان في وسع الملمحين الأولين فقط أن يتأقلما لدى حديثي التنصر المتوحشين عند ضفاف نهر الدنيبر. فلقد كانوا على درجة من الجهل بحيث لزمت قرونٌ لجعلهم يتآلفون مع خطايا اللاهوت. وإلى أي حد كانت تعنيهم أصول العقيدة؟ كانت تهمهم أكثر بكثير تلك الطقوس المسيحية التي سمّوها عن طريق التركيب "الإيمان المزدوج" (dvouviérié)، والتي اعتمدوها بالتوازي مع طقوس سحرهم المعتاد. من جهة أخرى، كانت قلة اهتمامهم بالأملاك الدنيوية وبلادتهم الطبيعية تدفعانهم طوعاً إلى حياة الرهبان، ولكن ليس إلى التأمل بقدر ما إلى تعذيب الذات. ذلك أن ما حفظوه بوجه خاص من دينهم الجديد، إنما هو استهوال الخطيئة، وتواضع التائب والضرورة المطلقة لإماتة أجسادهم طلباً لبلوغ السماء. وسوف نرى بعض البدع الروسية تدفع بهذه العواطف إلى نتائجها القصوى. إن ورع المؤمن الامتثالي هو منذ الآن نوع من الإماتة: فهو إذا لم يكن يتجلى بشكل رئيسي بتقشف محدد، يعبر عن نفسه على الأقل بصيامات متواترة وقاسية، وبقداديس طويلة يجري الاستماع إليها وقوفاً، مع الإفراط في إشارة الصليب، والركوع، والسجود، وهي ممارسات وُصفت بالضبط بـ: الرياضة البدنية المقدسة".

هذا الشعور المؤلم، واليائس في الغالب، الذي يلازم الجهد الفوبشري الذي على النفس أن تبذله لاستحقاق الخلاص، وهذا المظهر السوتريولوجي [1] للإيمان الروسي، يتناسب معها، بالطبع ميلٌ أخروي.

---

[1] لا يؤخذ هذا التعبير بدلالته اللاهوتية، بل بمعنى عملي بالكامل: لا يتعلق الأمر، في الواقع، بالخطيئة الأصلية – وهي فكرة نظرية، شبه ما ورائية – بل بالخطيئة الفعلية، الشخصية، التي يتعرض لها كل الناس، ويقع فيها الجميع في أي حين، باستثناء النسّاك القديسين.

فمشكلة غايات الإنسان الأخيرة تقلق المؤمن الروسي: تمثّل الرسوم الجدارية في الكنائس القديمة بالأفضلية عذابات الجحيم، ولقد كان سفر الرؤيا هو الكتاب الذي يقرأه الناس أكثر من أيٍّ غيره بين أسفار الكتاب المقدس. وليس المسيح الدجال، والوحش، والعاهرة الكبرى، والحصان الشاحب، رموزاً، بل هي حقائق مرعبة. وهذه الأهوال ستنتهي حين تكتمل الألف عام. وسوف تنتشر سعادةٌ لا توصف على الأرض بأسرها.

## طبيعة البدع الروسية

تثير البدع الدينية الروسية اهتماماً لا مثيل له لدى القارئ، بسبب طابعها الوطني، والديمقراطي والممعن في القدم.

فإذا استثنينا هرطقتين من القرون الوسطى عند حدود البلد الغربية، وبدعةً حديثة أدخلها إلى أوكرانيا معمِّرون ألمان، فإن جميع انشقاقات الأورثوذكسية الروسية ذات طابع محلي.

وهذا هو أول تعارض مع البدع الغربية التي نلاحظ أنها كلها تقريباً عالمية من حيث أصلها، وتوسعها، وطموحاتها إلى الكوسموبوليتية. ويفسِّر فرادة البدع الروسية وجودُ "الستار الحديدي" الذي بدأ ينزل قبل تسع قرون بالضبط، في العام 1054، والذي فصل روسيا بصورة محكمةٍ عن باقي أوروبا منذ عهد بطرس الأكبر. وعلى غرار الديانة الرسمية، كانت البدع "وطنية"، ليس مثلها لأسباب سياسية، بل لأن مبادئها الإيمانية وطقوسها تستجيب متطلبات عبادة خاصة جداً.

ولأن البدع بلدية، لأنها من الأرض الوطنية بالذات، فهي ديمقراطية

حتى العظم. فهي لم تخرج من دماغ رجل دين متمرد أو "لاهوتي زائف"، بل هي ناتج اندفاعات الروح الشعبية نحو الـ[1]Pravda، نحو ذلك المثل الأعلى الذي يحقق في الوقت نفسه الحقيقة والعدالة. لأنه إذا كان المفهومان يجتمعان في اللغة في تعبير واحد، فلكونهما غير منفصلين. فالحقيقة، أكانت دينية أو علمانية، ليست من ميدان التأمل النظري، بل يجب أن تتجسد في الواقع، وأن تعيش في الحياة، وتجعل الناس أفضل والمجتمع أكثر عدالة. ليس مبتدعو الهرطقات الروس مثقفين، إنهم أناس من الشعب ولاهوتيون بدائيون، وبوجه خاص، لكونهم من الشعب، فهم لاهوتيون عمليون، لا يتلهون بألعاب أصول العقيدة، بل يريدون أن يعاش الإيمان[2]، تماماً مثلما لم يتوان منظّرو الثورة الاجتماعية عن العمل لتحقيقها على أرض الواقع. لأن كل الأفكار هي بالنسبة للروسي أفكار فاعلة.

إن طبيعة هذه العبادة الشعبية هي التي تعطي البدع الروسية طابعها القديم. فهي راهنة – معظمها موجود إلى الآن – ومع ذلك فممارساتها تنقلنا إلى أسوأ انحرافات العصور القديمة أو الشعوب البدائية: الخصي، الانتحار الديني، الجلد، الرقص المجنون. وهي تقدم لنا تقريباً القرون الوسطى بلحمها ودمها. وهي تظهرها لنا بأصالة لا جدال فيها، ليس بواسطة كتابات مدافعين عن العقيدة الصالحة متحمسين أكثر مما مهتمين بالدقة، ولا باعترافات ينتزعها التعذيب، بل بوثائق لا تحصى أكانت مطبوعة أو مخطوطة، وبروايات شاهدي عيان أو سماع، واستجوابات يجريها موظفون مدنيون كان جهلهم في اللاهوت يضمن حيادهم تقريباً. لقد

---

[1] كلمة روسية معناها الحقيقة(م)

[2] لو أنهم كانوا يعرفون اللاتينية، لكانوا اتخذوا شعاراً لهم تلك الكلمات التي نقرأها على مخطوطة للفودبين (أهل مقاطعة فود السويسرية): Non ut doctior, Sed ut melior

كان أعضاء البدع الروس يُعتبرون، في الواقع، ومنذ عهد بطرس الأكبر، متمردين أكثر بكثير مما هراطقة، والكنيسة المفروض عليها العجز عن طريق إلغاء البطريركية وخلق السينودس المقدس، لم تعد غير الخادمة المتواضعة للدولة. وقد انتزعت منها هذه الأخيرة حتى الدفاع عن الإيمان.

فأعضاء البدع لم تكن تحكم عليهم محاكم كنسية، بل المحاكم العادية، أو قرارات إدارية لا أكثر ولا أقل. وكما كتب بصورة جذابة محبُّ السلافيين أكساكوف: "كانت الشرطة تعيد النعاج الضالة إلى الحظيرة بضربات السوط". هكذا تتيح لنا الوثائق التي بحوزتنا أن نفهم انطلاقاً من الواقع الملموس ولادة الحركات الدينية الشبيهة بتلك الخاصة بالقرون الوسطى أو بالعصر القديم وسيرها. لم نعد هنا إزاء أشياء محفوظة في المتحف بل إزاء واقع حي.

تتم قسمة البدع الروسية عموماً إلى بدع "صوفية" وأخرى "عقلانية". ويبدو هذا التقسيم يفتقد الأساس المتين، في نظرنا. فإذا أخذنا "الصوفية" بمعناها اللاهوتي، أيْ تواصل النفس المباشر مع الله عبر التأمل، لا تنسجم أي بدعة روسية بالضبط مع هذا التحديد. فإذا كانت كلمة صوفي تعني فقط الميل إلى اللاعقلانية، فكل روسي هو صوفي من جهةٍ ما، حتى إذا كان مقتنعاً على غرار العدميين في السابق والبلاشفة اليوم بأنه لا ينصاع لغير العقل. لذا سوف نسمي البدع التي كانت توصف بالعقلانية بدعاً إنجيلية بالأحرى: شاربي الحليب، مصارعي الروح... الخ. أما البدع الأخرى: "المسحاء، الخصيان، القافزون، الخ..." فتتميز بتجريبية لا تتراجع أمام أقسى أو أغرب تطبيقات العقيدة. وسوف نُلحق بها نعتاً ربما يكون غير متوقع، إلا أنه مناسب، في اعتقادنا؛ سوف ننعتها بـ"الطبيعية".

فضلاً عن ذلك، إن توزيعاً دقيقاً للبدع الروسية إلى مجموعات معينة

الحدود هو توزيع تعسفي، لأنها تتشابه، في الواقع، أكثر مما تختلف. وتحت تنوعها الظاهر، تمتلك ملمحاً أساسياً مشتركاً: الاتجاه الواقعي والقصوي في آن معاً، الرغبة التي تقاوم في "ممارسة" النظرية إلى النهاية، وإجبار الجسم على تحقيق العقيدة. لذا لن نتمسك بالتصنيف الذي قمنا به أعلاه، وسوف ندرس على حدة كلاً من الانشقاقات الرئيسية في الأورثوذكسية الروسية، واضعين الانشقاقات الثانوية في باب مشترك.

يعود تاريخ البدع الروسية الحقيقية إلى القرن الثامن عشر، والبعض منها إلى القرن التاسع عشر، وإذا كانت اجتذبت العديد من الأتباع، فلقد بقيت مع ذلك متفرقة. ولقد كان توسعُ حركةٍ سبقتها أهم بكثير، ونعني بذلك التباينات الانشقاقية المنبثقة من الراسكول[1]، الأزمة الكبرى التي وضعت حداً لوحدة دينية طويلة الأمد.

## الهرطقات التي سبقت الراسكول

إنه لأمر لافت، أن الكنيسة الروسية لم تعرف أي انشقاقات تقريباً، إلى حين حصول الانشقاق الذي فتتها في القرن السابع عشر. لقد برهنت عن وحدة كان يمكن أن تحسدها عليها الكنيسة الرومانية. وهي وحدة كانت تستجيب ميلاً إلى الإجماع نكتشفه على امتداد التاريخ بأسره؛ وسواء تعلق الأمر بالـVitché، أو الجمعية الشعبية لمدن منطقة كييف؛ أو بالأرتيل[2]

[1] كلمة روسية تعني الانشقاق الديني في القرن السابع عشر، بعد إصلاحات البطريرك، نيكون، وكان يتسم بالتشبث بالتقاليد الدينية القديمة (م)

[2] جمعية تعاونية تكون فيها الملكية بين أيدي جماعات من الشغيلة(م)

العمالي، أو بالمير[1] الفلاحي، واليوم بالسوفييت الشيوعي، نجد أنفسنا دائماً أمام الرغبة في رؤية القرارات تُتَّخذ بصورة مشتركة، من جانب الجميع، ومن دون معارضة معلنة. ولا ريب في أن أصل هذه السِّمة البعيد في المزاج الجماعي يعود إلى نظام الجماعة البطريركي، ولكنها تتناسب أفضل ما يمكن مع التصور الأورثوذكسي الإغريقي لحقيقةٍ لا يمتلكها الأفراد بل مجمل الجماعة.

ومنذ تأسيس الكنيسة الروسية في القرن التاسع وحتى نهاية القرن الرابع عشر، بدت تكوّن كتلة متراصة من دون أي تصدع. ويعد هذه الحقبة الطويلة من الهدوء، وجدت نفسها في صراع مع هرطقتين كان امتدادهما نسبياً للغاية، في كل حال.

وتروي الأخبار التاريخية أن ثلاثة هراطقة أُلقي بهم في الفولكوف، في العام 1375، وهو نهر كان يحيط بمدينة نوفغورود الهامة جداً آنذاك. وكان هؤلاء يقودون بدعة الـ**Strigolniki** (أي "الحلاقين")، التي لا نعرف الكثير عن عقيدتها. ويبدو أن هؤلاء المنشقين هاجموا بوجه خاص عادات كبار رجال الإكليروس، ولا سيما السمعانية[2] واستيلاء الأديرة على الأراضي الزراعية. والأكثر حماساً كانوا يتوصلون إلى الاستغناء عن الأسرار المقدسة، باستثناء طقس فريد من طقوس الاعتراف موجَّه إلى الأرض. وكانوا يتميزون جميعاً بأخلاق صارمة، الأمر الذي يقترب بهم من البدع المناهضة للكهنوت في الغرب من دون أن يكون أمكن التحقق مما إذا كان هذا الرابط حقيقياً، في كل حال. فلقد كان في وسع نوفغورود، وهي مدينة

---

[1] جماعة ريفية، في أيام القياصرة، كانت لها الملكية الجماعية للأراضي، وكانت توزعها على أساس حصص، لوقت محدد، بين العائلات(م)

[2] المتاجرة بالرتب الكهنوتية(م)

قريبة من الحدود، أن تكون خضعت لتأثير البوغوميليين. من جهة أخرى، لما كانت مدينةً حريصةً جداً على الإعفاآت القديمة التي كانت تتمتع بها، ربما لم تكن لتشعر بالاستياء من هراطقة يأخذون على رؤساء الأديرة ثرواتهم وترفهم.

كما أن الهرطقة الأخرى، تلك الخاصة بالمتهوِّدين (jidovstvoulouchtchié)، يعود منبعها الأصلي إلى مدينة نوفغورود الحدودية، وكانت مرتبطة أيضاً باهتمامات سياسية: فـ"جمهورية نوفغورود" وقعت بعد صراعات طويلة، ضحية النزعة التوسعية لدى موسكو، وكان القيصر إيفان الثالث قد عاقبها على مقاومتها بتعريضها للنهب والمذابح. وكان قد عيّن في كرسي المطرانية في المدينة أحد أتباعه وصنائعه المدعو غيناد. وكان هذا الأخير قد اكتشف، في العام 1487، بين رعاياه الجدد، عقيدة زائفة، واستصدر إدانة لها لاحقاً بواسطة سوبور (أي "مجمع") أساقفة، ورؤساء أديرة ورهبان، اجتمع في كاتدرائية الصعود في موسكو. وكان مرسوم الإدانة يتهم المتهودين بأنهم نجسوا "صورة المسيح وصورة كلية النقاء المرسومتين على أيقونات"؛ وقد أضاف أن آخرين تلفظوا بشتائم عديدة ضد ربنا يسوع المسيح وضد والدته كلية النقاء، وآخرين رفضوا تسمية ربنا بابن الله... وآخرين أكلوا اللحم، والجبنة، والبيض والحليب خلال فترة الصيام كلها...وكلكم فضلتم السبت على الأحد". وخلص إلى القول: "فعلتم ذلك وفقاً لأعراف اليهود، وخلافاً للشريعة الإلهية والإيمان المسيحي".

كان المدانون يتمتعون في الظاهر بحمايات من جانب السلطات العليا، سواء في موسكو أو في نوفغورود، لأنه إذا كان بعضهم تعرض للسجن فلا

أحد تعرض للإعدام. إلا أنه في العام 1503، كانت الهرطقة قد بلغت أحجاماً كبرى بحيث تم إحراق العديد من المتهودين أحياء في نوفغورود، بعد تحقيقٍ أمر به إيفان الثالث، ونُفي آخرون أو جرى احتجازهم في أديرة. ويبدو أن الأميرة هيلانة المولدافية، زوجة أحد أولاد إيفان الثالث، كانت قد اهتدت إلى تلك الهرطقة ، إلا إذا كانت تلوثت بها، ربما سابقاً، في مسقط رأسها في البلقان.

ومن الواضح أن انشقاقَيْ الستريغولنيكي (أو الحلاقين) والمتهوِّدين حركتان ولدتا في مدينةٍ كان وضعها الجغرافي وروح الاستقلال لديها يميزانها بوضوح من منطقة موسكو بحصر المعنى. فهذه الأخيرة كانت تقدم صورة عن التوتاليتارية الدينية الكاملة، ، الموازية من جهة ثانية لتوتاليتاريةٍ سياسية تامة والمرتبطة بها: إله واحد، قيصر واحد، شعب واحد. كل ما كان روسياً كان أورثوذكسياً وكل ما كان أورثوذكسياً كان روسياً، ولا أحد في وسعه الحلم بخيانة دمه ووطنه ومليكه عبر تبديل إيمانه.

## الراسكول وقدامى المؤمنين

حتى في القرن التاسع عشر، وفي عهد القيصر نقولا الأول، كان متروبوليت سان بطرسبورغ سيرافيم يقول للاهوتي انكليزي: "لا تعرف كنيستنا تطوراً". وهي ليس فقط لم تعرف أي تطور، بل تكاد تكون عاشت، نقصد حياةً كاملةً وخصبة. ونحن نتحدث بالطبع عن الكنيسة لا عن الديانة. لأنه إذا كان المؤمن شديد الاحترام للطقوس، وعميق الانتماء إلى المسيحية بفضائله الإنجيلية، وإذا كان يتم حضور الاحتفالات

بالقداديس باستمرار، وكان الحجاج كثيرين والنُّسّاك يلقون التوقير والاحترام، فلقد كانت الكنيسة، بوصفها أداة محركة للإيمان والعادات وموجّهة لها، أدنى بكثير من مستوى المهمة الموكلة إليها.

وكان لذلك تفسيره. فبما أنها كانت وارثة لبيزنطة، أي أسيرة للقوانين الكنسية للمجامع المسكونية السبعة الأولى، فقد حكم عليها ذلك بالجمود الدغمائي. فبما أن اللاهوتيين المحليين لم يكونوا يتعلمون سوى الفلسفة المدرسية البيزنطية، لم يكونوا حتى قادرين على استيعاب فن كتابتها ونقاشها. ولم يكن بينهم لاهوتيون كبار، أو خطباء مفوَّهون، ولم يتركوا بعدهم إلا بعض العظات الفاقدة للفرادة وبعض المؤلفات السجالية الخرقاء ضد "اللاتينيين". ولم تكن تكمن المشكلة الكبرى في ذلك، لأن جماعة مسيحية يمكنها، في الحالات القصوى، أن تستغني عن اللاهوتيين. ولكنها لا يمكن أن تستغني عن المربين، والمُدَرِّسين الذين يعلمونها الأخلاق اليومية. والحال أن أخلاقها، ذات الأصل البيزنطي، كانت متقشفة، زاهدة، تستعيد الفضائل البطولية التي ينبغي ألا تتجاوز ممارستها حدود صمت الأديرة أو عزلة المحابس. لذا فإن رؤساء الكنيسة — من رؤساء أساقفة، وأساقفة، انبثقوا جميعهم من الإكليروس القانوني — كانوا يتركون حراسة القطيع لرعاةٍ لا حماس ولا سلطة لديهم، ولكهنة معتبرين فقط تجار صلوات، لا مقدمي مشورة، ولا مرشدين روحيين بوجه خاص. وهذا ما كان الفرق الحقيقي بين الكنيسة الروسية والكنيسة الرومانية[1]، أكثر بكثير مما بخصوص الـ**filioque**، أو طبيعة الابن.

---

[1] لأجل المقارنة بين الكنيستين، راجع كتابنا **Explication de la Russie (Edition de la Baconnière et de la Colonne Vendôme).**

كان ركود مبادئ الإيمان يحكم على الكنيسة بالخدر الفكري، وكان إجماع المؤمنين يشجعها على البلادة. كانت في حالة النعاس. وقد لزم انتظار القرن السابع عشر لمحاولة إيقاظها. ففي عهد القيصر ألكسي، وكان رجلاً شديد الذكاء وعميق الورع والتقوى، اجتمعت في موسكو أخوية كانت تدعى أصدقاء الله، لنقاش وسائل إعادة النشاط والحيوية إلى الأورثوذكسية المتهالكة، وتقديم العلاج لعجز الإكليروس وللجهل المطبق لدى المؤمنين. وكان يقود المجموعة الأرشمندريت نيكون، أكثر الأحبار فرادة في تاريخ الكنيسة الروسية. وسرعان ما سيصبح أسقفاً، فرئيس أساقفة، فبطريركاً (1652). وبعد أن وصل نيكون إلى قمة الهرمية الكنسية، وجرى تشريفه بلقب "العاهل الكبير" الذي كان يحمله بصورة مشتركة مع القيصر التقي، ولكونه نشيطاً وطموحاً، ظن أنّ في وسعه تحقيق مشروعه لإصلاح الكنيسة.

ولكن أي إصلاح كان هو المقصود؟ لم يكن وارداً المس بمبادئ الإيمان، المتحجرة منذ المجمع المسكوني السابع (أي مجمع نيقيه الثاني في العام 987). أما بخصوص إصلاح عادات رجال الإكليروس والعلمانيين، فكان ذلك مشروعاً ضرورياً بالتأكيد، ولكنه يتطلب نفساً طويلاً جداً. وتبقى الطقوس، ونظام الاحتفالات الدينية. وهو ما انكبَّ عليه نيكون بنفاد صبره التجديدي، في غياب القدرة على القيام بما هو أفضل.

والحال أن الطقوس كانت قد انحرفت بصورة محسوسة، عبر القرون، عن أصلها البيزنطي. ولإعادتها إلى نقاوتها، كان ينبغي العودة إلى الينابيع، أي الرجوع إلى الوراء. وهكذا كان نيكون، بالضرورة، مصلحاً بالمقلوب.

بعد أن استقدم نيكون، للحصول على المشورة، رجال دين كباراً من

اليونان، أفضل تعليماً بقليل من زملائهم الروس، وبعد مجادلات طويلة مكرسة لدراسة النصوص الليتورجية وآراء آباء الكنيسة الأولين، فرض على عدة مجامع أن تتبنى تعديلاتٍ هاكم الرئيسية بينها: في قانون الإيمان المعتمد في نيقية، يتم إلغاء كلمة "ولكن" بين العبارتين "الذي لم يخلق" و"الذي وُلِد"؛ ويحل محل ":الذي لا نهاية لملكه" "الذي لن تكون نهايةٌ لملكه"؛ والنعت "الحقيقي"، المطبق خطأً على الروح المحيي، يتم إلغاؤه. من جهة أخرى، ستتم إشارة الصليب من ذلك الحين وصاعداً بالأصابع الثلاثة وليس بالإصبعين؛ كما يقال هللويا ثلاث مرات بدلاً من مرتين؛ والكاثوليك المرشحون لاعتناق الأورثوذكسية لن يعاد تعميدهم؛ وسيكون من حق رجال الإكليروس أن يستخدموا المرآة لترتيب شعرهم ولحيتهم[1]. وأخيراً، لن يُكتب اسم يسوع بعد الآن بالروسية إيسوس (Issous)، بل إييسوس (Iissous).

وكنا قد رأينا أن الأريوسيين وخصومهم كانوا قد اختلفوا أيضاً على حرف الياء (باليونانية iota)، ولكن هذا الحرف كانت له أهمية أساسية، على صعيد مبادئ الإيمان. وأن كتابة اسم يسوع، على العكس، لم تكن تمس أسس الإيمان، ولم تكن "إصلاحات" نيكون الأخرى تهزها أكثر. وكل هذه التفاصيل تبدو لنا تافهة جداً حين نقارنها بالمجادلات الغربية بخصوص الثالوث، والنعمة، والافخارستيا. ويصعب علينا أن نفهم الانقلاب الذي أحدثته في روسيا التجديدات الخجولة التي أدخلها نيكون، وبطولة أولئك الذين هلكوا لأنهم وقفوا بوجهها.

---

[1] كانوا ينظرون إلى المرايا في إمارة موسكو بصورة سلبية، وإذا كانت النبيلات السلافيات يمتلكن مرآة، فقد كن يخفينها بعد استعمالها. ويبدو أن ذلك كان على علاقة بحظر رسم صور الأشخاص.

كان سبب ذلك عائداً إلى القيمة السحرية المنسوبة للكلمات والحركات لدى شعب لم يتخلص من الهواجس البدائية، ولم يكن إكليروسه الجاهل تمكن من تعليمه الدلالة الرمزية للطقوس. إن ما كان يهم المؤمن هو أن "يصلي لله" وفقاً لقواعد تقليدية كان يفترض أنها عريقة في القدم. والمجتمع الروسي آنذاك، وكان بطريركياً[1] للغاية، لم يكن يقبل بالتصرف، في أي مجال، بشكل يختلف عما كان يفعله الأجداد. لذا فإن التغييرات التي قررتها المجامع "النيكونية" كانت منذ البداية موضع نقاشات حادة في كل طبقات السكان. وكان البعض يقبلون بالتجديدات، إما عن قناعة أو بسبب اللامبالاة، بينما رأى فيها آخرون إساءة إلى نقاوة الإيمان، وبدلاً من الرضوخ فضلوا الانفصال إلى الأبد عن الكنيسة الرسمية.

كان المدافع الأول عن "الإيمان القديم" هو "الكاهن الأول" آفاكوم، المثال الأكثر نموذجية على الورع الروسي في الأزمنة القديمة. وقد ترك لنا من ذلك أثراً تذكارياً يفيض شغفاً في سيرته الذاتية. كان آفاكوم ابن كاهن ريفي "يكثر من شرب الخمرة القوية"، ومذ تمت رسامته أبدى صرامة شديدة بحيث طرده أبناء رعيته من مركزه. وبعد أن أقام لبعض الوقت في موسكو، حيث استقبله "أصدقاء الله" وقدموه للقيصر، حصلت معه المغامرة عينها في أبرشية أخرى في الريف. فقلد كان يرى الخطيئة في كل مكان، وفي نفسه كل شيء: "يا لي من إنسان متقيّح، يا لي من غائط... يلزمني العيش بين الخنازير والكلاب، فنفسي لا تقل نتناً عنها".

وقد كتب في مكان آخر: "أنا أتقاتل بلا انقطاع مع الكهنة السكّيرين، مع رجال الإكليروس الذين بإمرتي، ومع رعيتي. أريد أن أغمض عينيَّ حيناً، وهذا مستحيل حيناً آخر".

---

[1] أي قائماً على نظام الأبوّة الذكوري(م)

وهاكم مقطعاً آخر من مذكراته: "حينما كنت لا أزال كاهناً عادياً، جاءت للاعتراف لدي فتاة كثيرة الخطايا، مارست خطايا الجسد وكل أشكال الفجور[1]؛ وقد شرعت ترويها لي بالتفصيل، وهي تجهش بالبكاء، في الكنيسة أمام الإنجيل. وأنا الطبيب الملعون ثلاث مرات، وقعت مريضاً، وكان داخلي يحترق بنار الشبق. وقد ندمت على ذلك في الحال. وأشعلت ثلاث شموع وألصقتها بالمقرأ، ووضعت يدي اليمنى على اللهب وأبقيتها إلى حين انطفأت فيَّ الحرارةُ الشريرة. وبعد أن صرفت الفتاة وخلعت حلة الكاهن، رحت أصلي". ويمكن مقارنة هذا الحدث بقصة تولستوي، الأب سيرج، حيث نرى ناسكاً يقطع أصبعه بضربة فأس، ليفلت من الشهوة التي أوحت بها إليه زائرة جميلة.

حين عاد أفاكوم من سيبيريا، جرى استقباله في موسكو كشهيد ظافر. وقد أدت مواعظه الحماسية إلى كسبه أنصاراً حتى داخل طبقة كبار النبلاء. وقد عانت الأميرة أوروسوف ونبيلة من آل موروزوف لأجل "الإيمان القديم" بقدر ما كانت تعاني أشد الفلاحات بساطة. وبما أن القيصر الكسي توسل للثانية كي تتظاهر على الأقل برسم إشارة الصليب بثلاثة أصابع، فقد رفضت، ونفيت إلى الشمال حيث توفيت في السجن. وعلى رغم التقدير الذي كان يشعر به تجاه أفاكوم، لم يتمكن من الاستمرار في تحمل عنف مواعظ كانت تحدث الكثير من الضرر حتى في صفوف النبلاء. وقد سمح لمجمع بأن يعلّق مهام محميِّه السابق ويلقي عليه الحرم. وقد نفي هذا الأخير وسجن في منطقة أركانجل. وبعد وفاة القيصر ألكسي، زاد مجمع

[1] يلمّح التعبير الروسي إلى الخطايا ضد الطبيعة، التي تكثر في موسكوفيا

جديد العقوبات التي كان يتعرض لها الراسكولنيكي[1]. وفي يوم الجمعة العظيمة في العام 1682، صعد أفاكوم إلى المحرقة، وفيما كان يرسم إشارة الصليب بالإصبعين صاح بالحشد وسط اللهيب: "يا إخوتي، صلّوا دائماً بإشارة الصليب هذه، ولن تموتوا قط ؛ ولكنكم ستهلكون إذا حدث أن تخليتم عنها".

في غضون ذلك، كانت طموحات نيكون السلطوية قد أضجرت القيصر ألكسي وجعلته يفقد صبره. فخلع البطريرك عن طريق مجمع كبير انعقد في موسكو في العام 1666، ولكن هذا المجمع صادق، بالمقابل، على كل التجديدات النيكونية تقريباً. وقد رأى المؤمنون القدامى، في الرقم 1666 الذي يشير إلى سنة ضرب المسكوكات، رقم الوحش 666، وهو ما ثبّت لديهم فكرة أن المسيح الدجال بات يحكم (العالم)، وبما أن نهاية العالم كانت تقترب، كان من المستحسن أن يخلّص المرء نفسه من دون تأخير. أما الوسيلة التي تم استخدامها فكانت الممارسة الأكثر إثارة للرعب التي أمكن أن يتخيلها تعصُّب البدع. فإذا سبق أن رأينا، بصورة استثنائية جداً، كاتارين يتركون أنفسهم يموتون جوعاً بسبب الإفراط في العبادة، فالانتحار الديني لم يكن في أي بلد، وفي أي عصر، انتحاراً جماعياً ووبائياً. ومع ذلك فهذا ما حصل في موسكوفيا.

لما كانت السلطات القيصرية قد أسلمت للنيران العديد من أعضاء البدع، بتحريض من النيكونيين، قرر إخوتهم في الدين أنهم سيتفادون التعذيب في المستقبل بأن يحرقوا أنفسهم بأنفسهم. ومنذ العام 1679، استشرى هذا الجنون في شمالي البلد وفي سيبيريا، وهي مناطق نائية حيث

---

[1] أي المنشقون(م)

اجتذب الانشقاق الكثير من الأتباع. كان المحكوم عليهم الطوعيون يتكدسون في إسبات[1] مطلية بالغار، وفيما ينشدون الأناشيد يُسْلمون أجسادهم للنيران، وأرواحهم لله.

هكذا هلك في يوم واحد سبعمئة عضو بدعة في توبولوسك؛ وفي تيومن، وهي مدينة أخرى في سيبريا، جرى إحصاء 300 شخص في لهبة واحدة. وقد تسبب "الموت الأحمر" بعدد أكبر أيضاً من الضحايا على ضفاف البحر الأبيض: أحرق راهب نفسه مع 2700 متعصب، وراهب آخر مع ألف. وفي هذه المنطقة أيضاً، كان يوجد المركز القيادي للحركة. وكان رهبان دير سلوفكي، الواقع في إحدى جزر البحر الأبيض، قد رفضوا تغيير الطقوس وفقاً "للكتب النيقية". فلقد تسلحوا، وقاوموا على مدى ثماني سنوات القوات التي أُرسلت لإخضاعهم، ثم جرى اقتحام الدير في الأخير، وذُبح الرهبان.

لم يؤكد كل المؤمنين القدامى الطريقة التي كانت تتمثل في إنقاذ النفس عن طريق القضاء على الجسد. وقد أدان احد مجامعهم، الذي انعقد في العام 1691، أولئك الذي كانوا يتجرأون على "قتل أنفسهم بالنار، أو الغرق في الماء، أو ذبح العنق بواسطة سكين أو الانتحار بأي وسيلة". ولقد انطفأت المحارق الإرادية والجماعية لبعض الوقت، ولكنها اشتعلت مجدداً حين استأنف بطرس الأكبر اضطهاد المؤمنين القدامى، لأسباب سياسية. فهؤلاء الأخيرون لم يترددوا في التعرف إلى المسيح الدجال بحد ذاته في قيصر كان يضرب صفحاً عن الماضي[2]، بجرأة أين منها جرأة نيكون.

---

[1] الإسبة (isba) مسكن خشبي يقطنه الفلاحون في شمالي روسيا(م)

[2] كان بطرس الأكبر قد تبنى التقويم اليوليوسي، وحسب السنوات انطلاقاً من ولادة المسيح (وليس من بدء الخليقة كما كان يفعل الموسكوفيون)، وجعل الأول من كانون الثاني/يناير بدء السنة بدلاً من أول =

كان الإيمان القديم يستحق اسمه تماماً، لقد كان مفرطاً في التوجه المحافظ. وكان كذلك حتى بالمعنى السياسي للكلمة، لأن ما كان يأخذه على نيكون بوجه خاص، إنما هو طلبه دروساً من اليونانيين، بدلاً من الاكتفاء بالكلمات والحركات المكرسة بالعرف الوطني. كان المؤمنون القدامى يعتبرون أنفسهم، وهم محقّون إلى هذا الحد أو ذاك، أكثر روسية من رعايا القيصر الآخرين. في كل حال، لقد كانوا يتصفون بورع أعمق على الأقل، إذا لم يكن أكثر استنارة، وبأخلاقية أرقى وروح تضامنٍ أشد حيوية ونشاطاً. وفي القرى، كانت إسباتهم المدموغة، على باب العربات، بصليبٍ ذي ثماني شُعب، أنظف وأفضل بناءً من تلك الخاصة بباقي الفلاحين. وهم لم يكونوا يدخنون ولم يكونوا يشربون الفودكا. وفي المدن، كانت روح النظام والتوفير تتيح لهم أن ينجحوا في التجارة والصناعة، وكانت توجد بين "تجار" موسكو الكبار سلالات قديرة من الراسكولنيكي. وكان يمكن مقارنة جماعاتهم بالأقليات البروتستانتية في البلدان الكاثوليكية، إذا لم تكن تتميز منها بشكل أساسي على الصعيد الديني: كان البروتستانت مجددين أحراراً، بينما كان المؤمنون القدامى رجعيين متحجرين. إلا أن حركتهم كانت تشكل تقدماً، على الصعيد الأخلاقي، وبمفارقةٍ غير متوقعة، كانوا هم الذين حققوا إعادة تثقيف المؤمن التي حلم بها "أصدقاء الله" وسعى إليها نيكون عبثاً.

ولكن لا إصلاح هذا الأخير، ولا إصلاحهم المضاد شكلا تطوراً، فلقد

---

* أيلول/سبتمبر. وكان قد ألغى، فضلاً عن ذلك، العديد من أحرف الألفباء السلافية المستخدمة حتى ذلك الحين، وكانت تبدو تلك التجديدات استمراراً لعمل البطريرك الملعون، وقد أدت إلى ولادة أسطورة تجعل منه أبا زنىً للقيصر، الموصوف بـ "ابن الشيطان".

كان هذا وذاك تراجعاً، الأول نحو ماضٍ بعيد هو ماضي المبشرين بالإنجيل، والثاني نحو ماضٍ أكثر قرباً، هو ماضي الأجداد. كانت تبدو روسيا وقد حكم عليها، دينياً، بالجمود الأبدي. ولكننا سنرى أن تلك لم تكن هي الحال، في الحقيقة.

فمنذ البداية، اصطدم المؤمنون القدامى (**Staroviéry**) أو أصحاب الطقوس القديمة (**Staroobriadtsy**) بصعوبة كبرى: بما أنهم تشبثوا بعناد بالطقوس القديمة، سرعان ما وجدوا أنفسهم من دون كهنة يحتفلون بها. فالأسقفان اللذان كانا قد تحزّبا "للكتب القديمة"، أسقف كولومنا وأسقف فياتكا، دخلا السجن ولم يتمكنا من رسامة أساقفة جدد. وكانت الخلافة الرسولية قد انقطعت هكذا[1].

لقد وجد الانشقاق نفسه، رأساً، وقد انقسم إلى قسمين: فمن جهةٍ الـ**popovtsy** (أي "من لديهم كهنة")، الذي استعانوا بفارين من الإكليروس الرسمي وكانوا هكذا قادرين على الالتزام بكل الأسرار المقدسة، ومن جهة أخرى الـ**bezpopovtsy** (أي "من ليس لديهم كهنة") الذي لم يكونوا يحتفظون بغير العماد، السر الوحيد الذي يمكن أن يمنحه علماني.

ويكاد يكون البوبوفتسي يشكّلون انشقاقاً، إذا لم يكونوا يتميزون من الكنيسة الرسمية بأي انحراف عقيدي، بل فقط باحترام النصوص الطقسية القديمة والأعراف الطقسية. وكانوا قليلي الاحترام لكهنتهم، الذين لم يتخلوا عموماً عن الأورثوذكسية إلا من قبيل المصلحة والذين كانوا يُجبرون على ارتدادٍ مُذِل؛ ففي الأزمنة الأولى، كانوا يعيدون تعميدهم

[1] رأينا أن "الكاثوليك القدامى" الألمان وجدوا أنفسهم في الوضع عينه، في القرن التاسع عشر.

عبر تغطيسهم في الماء[1] مع ثيابهم الكهنوتية، خوفاً من أن ينتزعوا منهم قدرتهم على الرِّسامة. وكانت جماعاتهم يقودها عملياً قُدامى، الأمر الذي كان يقرِّبهم ممَّن "ليس لديهم كهنة". وقد عاشوا هكذا حياة نصف سرية، مضطهدين تارةً وطوراً منسيِّين من جانب السلطة المدنية، وفقاً لمزاج القيصر أو لمزاج حكّام المقاطعات. إلا أن وجودهم الكادح، والهادئ عاد عليهم أخيراً بالغفران: ففي العام 1800، أجاز أوكاز[2] أصدره السينودس المقدس رسامة الكهنة المدعوين للاحتفال بالقداس وفقاً للطقوس القديمة[3]. وفقط الأكثر اعتدالاً بين الـpopovtsy وافقوا على التنازل، وقد دُعوا iédinovertsy (أي "أحاديي الإيمان"). وحوالى العام 1846، من جهة أخرى، جرى تنصيب أسقفٍ بوسني سابق، كان قد عزله بطريرك القسطنطينية، متروبوليتاً للانشقاق الروسي في بيلوكرينيتسا (فونتانا ألبا) في بوكوفين؛ وقد أنشئت أسقفية سرية في روسيا وتمكن الـpopovtsy من الاعتزاز بكونهم أقاموا كنيسة أورثوذكسية مستقلة.

أما الـbezpopovtsy، فيثيرون لدينا اهتماماً أكثر بكثير. فمن انشقاقهم الأصلي جاء التلوين المتنافر الخارق للبدع الروسية. وبمبادرة منهم شرع الشعب "يبحث عن الله".

## "الباحثون عن الله"

ثمة في اللغة الروسية عبارة خاصة هي bogoïskatelstvo، أي البحث عن الله، أو البحث عن الـpravda (الحقيقة)، والأمر سيَّان. ذلك انه لا

---

[1] لا يُقبل في الكنائس الأورثوذكسية غير العماد بالتغطيس.

[2] قرار رسمي، أو مرسوم(م)

[3] كما أن أوترادكيي بوهيميا كانوا قد استحصلوا من الكنيسة الرومانية، بعد انتهاء حرب الهوسيين، على حق المناولة بالخبز والخمر.

يمكن، هناك، العثور على الله في غيوم الصوفية، أو صحراء السكولاستيكا، أو متاهات اللاهوت الأخلاقي. ليس الدين "إيماناً" بقدر ما هو قاعدة حياة، قاعدة آمرة ومطلقة. و"الأخلاقية" تطبع النشاط الديني، مثلما سوف تطبع، ذات يوم، النشاط الأدبي. فطالما كانت موسكوفيا مجمعة في الإيمان، لم يحس أحد بالحاجة للبحث عن الله. كان يكفي للصعود إلى السماء أن يصوم المرء أربع مرات في العام، ويتلو الصلوات الضرورية — إذا كان يحفظها عن ظهر قلب — وفي كل الحالات، أن يؤدي العدد، المطلوب عرفاً، من إشارات الصليب، والانحناءات، والركعات، والسجدات. وإذا أمكن ألا يسكر المرء إلا في الأعياد، وأن يكون معتدلاً في السرقة ولا يقتل أحداً. ثم جاء الراسكول، الذي وضع موضع التساؤل كل ما كان أهمل الناس التفكير فيه حتى ذلك الحين أي اللاهوت والأخلاق. فلا هذه ولا ذاك كان يعلمهما الإكليروس غير القانوني، وهذا الأخير كان عاجزاً عموماً عن تفسير سر الأفخارستيا أو تعيين مراتب الخطايا. وقد اضطر المؤمن لأن يطرح الأسئلة على نفسه ويجيب عنها بذاته. وفي الوسط الشعبي، فعل (المؤمن) ذلك بورع، وقلق، وبذلك التطلع الفطري لديه إلى معرفة غايات الإنسان الأخيرة؛ وبجرأة الساذج والجاهل أيضاً. أما الطبقات العليا فبقيت، من جهتها، بصورة دائمة تقريباً، في القرن الثامن عشر، خارج الراسكولية. فلما كانت خاضعة لتأثير "الصالون" الفرنسي، ثم لتأثير الفلاسفة"، لم تكن لديها غير ابتسامة متشككة ومزدرية "للوسواس" الشعبية. وقد لزم انتظار القرن التاسع عشر لرؤية الاجتماعيين يسمحون للاهوتيين بدائيين بأن يعطوهم العقيدة، أو لرؤية مثقفين كتولستوي ودوستويفسكي يطلبون من فلاح أو راهب سر "الحياة الحقيقية[1]".

---

[1] اسمحوا لنا بأن نورد ذكرى شخصية على هذا الصعيد. ففي ظل النظام القديم، في موسكو، سألنا طلاب مدرسة أكليريكية ذات يوم: "أنتم الذين رأيتم الكثير، وسافرتم كثيراً، قولوا لنا كيف علينا أن نحيا". وهذا =

ذلك أن النار المقدسة كانت لا تزال تعيش في الشعب ولدى بعض النسّاك الأتقياء. كان ثمة طلاق بين الديانة والكنيسة، بين الإيمان الفاعل لدى المؤمنين وإيمان الأساقفة النائم. فمنذ إلغاء النظام البطريركي، لم يعد هؤلاء غير موظفين، "موظفين روحيين"، ولم تعد سلطتهم غير سلطة بيروقراطية. فالإصلاح الذي قام به بطرس الأكبر لم يكن قد فعل إجمالاً غير تكريس رأي الجمهور، أي أن الجماعة المسيحية هي التي تملك الحقيقة، ومن حقها أن تعلنها. ودعونا نذكر تطبيقاً هاماً جداً لهذا المبدأ: حين أجاز السينودس الأقدس للعسكريين خلال فترات القتال ألا يصوموا، رفض الجنود الانتفاع بهذا التساهل، الذي رأوا فيه زندقة وكفراً.

وحين فتح الراسكول المجال أمام كل التفسيرات الممكنة لعقيدة غير ثابتة لأن الناس العاديين لا يعرفونها، شوهد "الباحثون عن الله" يتيهون في المعابر الأشد ظلاماً لغابة الهرطقات.

أما الراسكوليون[1] الذين ظلوا مخلصين للإيمان القديم لفترة ما قبل نيكون، من دون "أن يبحثوا عن الله" في مناطق غريبة، فهم يواصلون التميز إلى الآن بعاداتهم الشريفة والبطريركية. لقد أداموا "روسيا المقدسة" تقريباً. وفي القرن التاسع عشر، وصف الكاتب ملنيكوف – بشتشرسكي، بلغة ممتلئة عذوبةً، حياتهم الخاصة جداً في روايتين مشهورتين: في الغابات (حوض الفولغا العليا) وفي الجبال (الأورال). ونحن ندخل معه إلى تلك العائلات التي يجري فيها تخفيف الجلافة السلفية باللطف الإنجيلي، في تلك الـSkity ("المناسك") التي تُعَلِّم فيها راهباتٌ عجوزاتٌ بناتِ الأغنياء من

= مثل نموذجي على عجز الكنيسة الأورثوذكسية عن تعليم الأخلاق، حتى لرجال الإكليروس فيها.

[1] أي المنشقّون(م)

أعضاء البدع قراءة حياة القديسين والنشيد المقدس، مع الحرص على تغطية الانحرافات في السلوك لدى العذراوات المجنونات بحجاب من الورع والتقوى. وثمة هنا مزيج من "البرجوازية" والإنجيلية يذكّر، بأسلوب مختلف تماماً وبقدر اقل من النفاق، بأعراف بعض البدع الإنكليزية. لقد أدى "الإيمان القديم" إلى ولادة ازدهار أدبي حقيقي. فبجانب مؤلّفات تثقيف (للمؤمنين) ذات مظهر قديم، لأنه كُتبت بالسلافية القديمة الخاصة بالكنيسة، يتمثّل العنصر الشعبي بالقريحة العذبة لشخص كأفاكوم وبما لا يحصى من حكايات وأشعار وأناشيد ذات إلهام محلي بالكامل. ودعونا نورد مقطعاً من رسالة وجّهها أفاكوم إلى تلميذه تيودور يأخذ عليه فيها أنه لا يعترف كفايةً بإنسانية المسيح: "لقد مصّ حلتمي العذراء على الدوام، مسيحُنا الوديع. ثم اكل بعد ذلك الخبز، والعسل، واللحم، والسمك، أكل من كل شيء لأجل خلاصنا. وكان يشرب الخمر، وبالتأكيد ليس على طريقتنا، أي بدافع النهم والعربدة، بل ليعطي الجسد ما يحتاج إليه بصورة عاقلة. ولكنه كان يبقى في معظم الأحيان صائماً. هيا، يا تيودور، لا تنقّبْ أكثر، لا تضايق الألوهة. لقد أخذ المسيح منا كل شيء، ما عدا الخطيئة؛ أخذ الجسد بكامله مع أهوائه. أي أهواء؟ كان يخاف، كان يتعب، يعرق، ينام، يحس بالألم. لا أهواؤك أنت، ولصوصيتك". ودعونا نقتطف من روضة الشعر الشعبي الواسعة زهرةً مؤثّرة، Stabat Mater[1]، ساذجةً جمعها ملنيكوف – بشتشرسكي:

في المدينة، المدينة المقدسة،

في أورشليم،

[1] الامية، أو نشيد يتحدث عن آلام أم المسيح(م)

فوق عمود التَّشهير المخجل ،
عل جبل الجلجلة ،
مسربلاً بالعار ، مشنعاً ، يسوع ، ابن الله ،
مثخناً بالجراح ،
يتقطّع على الصليب.
كانت بقربه مريم العذراء.
تبكي ، تجهش في البكاء ،
تنوح ، وتتعذب بسبب ابنها الحبيب :
"آه ! يا ابني ، ويا رجائي ،
يا يسوع ، يا ابن الله ،
أين رئيس الملائكة الذي بشَّر
بأنك ستكون القيصر ؟
أخذوا مني الآن كل شيء ،
أنا الآن من دون ولد ،
أخفق يا قلبي ، وانْتحِبْ
تعذبي يا أحشائي".
من على الصليب ، ابنُ الله
أبصر أمه الباكية ،
سمع نحيبها ،
فقال لها :
"لا تبكيني ، يا أماه
جففي سيل دموعك ،
وافرحي بالأمل ،

سأبعث حياً، سأصير قيصر
للأرض كما للسماء".

ولنشيرْ أيضاً إلى أسطورة المياه البيضاء، مكانٍ مقدس كائن في "بلاد أوبونيا" (اليابان؟)، حيث مقر البطريرك "الحقيقي". كان حجّاج يجوبون الأماكن المتوحدة في سيبيريا الشرقية وصحارى آسيا الوسطى سعياً وراء المياه البيضاء. وفي عهد نقولا الأول، خدع شخصٌ يدعى أركاد الكثيرين بين المؤمنين القدامى بانتحاله صفة أسقف كرّسه بطريرك أورثوذكسي مزعوم لبلاد الهند.

## الخصيان الطوعيون

إن البدعة الأشد غرابة، وشهرةً و"راهنيةً" بين البدع هي تلك الخاصة بالـ**Skoptsy**، أو "اليمامات البيض"، المتميزة بممارسة الخصاء المنتظمة والدائمة.

لقد قال يسوع: "هنالك الخصيان بالولادة، من أحشاء أمهاتهم؛ وثمة أيضاً خصيان صاروا كذلك بفعل البشر؛ وثمة أيضاً من خصوا أنفسهم بأنفسهم بسبب ملكوت السماوات؛ فليفهم من في وسعه الفهم". ولقد فهم الـ**Skoptsy** ("المخصيون") النص بمعناه الحرفي. كما فهموا بالطريقة نفسها الأمر الذي أصدره يسوع قبل ذلك بقليل، بحسب ما جاء في إنجيل متى: "إذا كانت يدك أو قدمك سبباً لسقوطك، اقطعهما وارمِ بهما بعيداً عنك".

ومنذ القرن الثالث، جرت الإشارة إلى بدعة مسيحية أسّسها شخص يدعى فاليزيوس، زعموا أن أتباعه خصوا أنفسهم، ولكن يبدو أن وجودها

يدعو للشك. أما أوريجان الشهير فكان خصياً طوعياً[1]، ومما لا ريب فيه أنه لم يكن الوحيد لأن مجمع نيقيه الأول، في العام 325، حظّر الدخول في سلك الإكليروس على من شوّهوا أنفسهم بأنفسهم. وإذا عدنا إلى تاريخ أبعد في الماضي إلى العهود الوثنية، نتعرف من بين من نتعرف إليهم، إلى "الغال galles"، وكهنة سيبيل[2] الخصيان، والأم الكبرى. ويبدو أن الممارسة المخيفة زالت خلال القرون الوسطى المسيحية، حتى في مناطق الشرق. وقد لزم انتظار القرن الثامن عشر لرؤيتها تنبعث مجدداً في روسيا وتستمر إلى أيامنا هذه. ما هو بالضبط أصل الـSkoptsy؟

يزعم البعض أن بدعة هؤلاء انحراف عن بدعة الـ**Khlysty**، التي سنتكلم عليها لاحقاً؛ وبحسب آخرين، هي بدعة أصلية. أما أول إشارة إليها فلا تعود إلى أبعد من العام 1772. ومن المثير للفضول ملاحظة أن "الأكثر بدائية" بين الهرطقات الروسية تعود إلى تاريخ على هذه الدرجة من الحداثة. في ذلك العام، تم توقيف 13 فلاحاً مخصياً في مقاطعة أوريل؛ وقد صدر أوكاز من الإمبراطورة كاترين الثانية لم يكن قاسياً بالنسبة للمذنبين. فلقد تم جلد رئيسهم أندريه إيفانوف، ونفيه إلى سيبيريا، أما الآخرون فأطلق سراحهم. وبعد ثلاث سنوات، اكتشفت الشرطة 60 Skoptsy في مقاطعة تامبوف؛ وقد حكم على العديد منهم، بالأشغال الشاقة، وكان بينهم شخص يدعى شيلوف؛ أما رئيسهم، سيليفانوف المشهور، فنجح في الفرار، ولكن ألقي القبض عليه بعد أشهر، وجلد في 15 أيلول/سبتمبر 1775، وهو يوم تحتفل البدعة بذكراه إلى أيامنا هذه.

---

[1] كان أوريجان قد بضع نفسه وهو لا يزال شاباً. وفي ما بعد، اعترف بخطئه المتمثل في "اللجوء" إلى علاج يثير الاضطراب في الجسد، من دون إحداث الراحة في النفس".

[2] إلهة الخصب لدى الفريجيين(م)

سيليفانوف هذا كان يقدّم نفسه، بما يتفق مع عقيدة الـKhlysty، على أساس أنه التجسيد الثاني للمسيح، الذي أتى إلى "رجال الله"، أتباعه، ليأمرهم بالعماد الحقيقي، الذي هو الخصاء. كما كان يعتبر نفسه القيصر بطرس الثالث، الذي أفلت بصورة عجائبية من القتلة المأجورين الذين أرسلتهم لقتله زوجته كاترين الثانية. ومعروف أن التاريخ الروسي مليء بقياصرة زائفين، ادعوا أنهم ديمتري، أو بطرس الثاني، أو بطرس الثالث، ولكن سيليفانوف كان على ما يبدو الوحيد الذي جمع مسيحاً زائفاً إلى قيصر زائف.

نُفي سيليفانوف إلى سيبيريا وأمضى فيها عشرين عاماً. وقد تركه بولس الأول يعود إلى سان - بطرسبرغ، وبحسب تقليد جرى الاحتفاظ به في البدعة، كانت له مقابلة مع ذلك الذي كان يزعم أنه والده. والشيء الأكيد أن رسول الخصاء احتجز في مصح للمجانين وخرج منه في العام 1802 ليستقر في بيت أحد أنصاره الأغنياء.

وكان القيصر الجديد، اسكندر الأول، الذي كان تديُّنه المتموّج ينسجم مع كل أشكال الإسرافات، يهتم بالـSkoptsy ولا يحظر على حاشيته الاهتمام بهم. وقد أخرج من الدير النبيل البولوني يبلانسكي، الذي كانت والدته كاترين الثانية نفته إليه؛ ويبلانسكي هذا، الذي كان قد انتقل من الكاثوليكية إلى الأورثوذكسية، خصى نفسه ليصبح "يمامة بيضاء". وبالاتفاق مع سيليفانوف، وضع مشروع نظام سكوبتسو - تيوقراطي لروسيا، مع حكومة تحمل اسم "المستشارية الإلهية". وقد عُرض المشروع على القيصر الذي زالت أوهامه هذه المرة، فجرى إرسال يبلانسكي مجدداً إلى أحد الأديرة، ووضعته البدعة في مصاف الشهداء.

أمضى سيليفانوف 18 عاماً، في العاصمة، محاطاً بالمعجبين وبوجه خاص بالمعجبات، الذين كان بعضهم يوقرون في شخصه المسيح، وآخرون القيصر الحقيقي. أما "جناح الكنيسة" الخاص به، أي مكان الاجتماع الذي كان يقدّس فيه بصفته حبراً، فكان يسع 300 شخص؛ وكان المال يتدفق على صندوقه وعلى جيوب خدمه. ويقال إنه أعطى بيده "عماد النار"، أي الخصاء بالحديد المحمّى، للعديد من أنصاره النبلاء. إلا أن اسكندر الأول كان آنذاك تحت تأثير أحبار الكنيسة الروسية الأكثر تشدداً، فجرى توقيف سيليفانوف في العام 1820، وإرساله إلى دير في سوزدال، حيث توفي في العام 1892، في عمر المئة عام، كما يقال.

وبحسب غراس، أفضل مؤرخ للبدع الروسية[1]، لم يكن سيليفانوف غير إيفانوف الذي أوقف في مقاطعة أوريل. وقد صدمه انحلال العادات في بدعة الخليستيين التي كان ينتسب إليها، فبادر، كما يقال، إلى العماد الحقيقي، الذي كان يسميه "التبييض". ويقال إن واحدة تدعى أنا رومانوفنا، مدعية للنبوءة في "كنيستها"، أعلنت عن طبيعتها الإلهية وبشرت برسالة الخلاص الخاصة بها.

أياً يكن، فالهرطقة التي استفادت من بقائها زمناً طويلاً بدون عقاب، بسبب علاقات زعيمها مع الأوساط العليا، عرفت انتشاراً كبيراً. كانت هنالك "كنائس" في موسكو، وفي مقاطعات الوسط، والشرق والجنوب، وفي سيبيريا والقوقاز. وفي تامبوف، قطعت نساء أثداءهن، كمثال أول على "الخصاء" الأنثوي. واستمرت البدعة في كسب الأتباع من كل الطبقات

---

[1] ويجب ألا نغفل ذكر أناتول لوروا- بوليو بجانبه: فلقد احتفظ الجزء الثالث من كتابه المتقن إمبراطورية القياصرة الروس، المخصص للدين، بكل قيمته.

الاجتماعية: فثمة فلاحون، وتجار، ونبلاء، والعديد من ضباط الحرس الإمبراطوري جرى خصاؤهم بطلب منهم.

توفي اسكندر الأول في العام 1825، وخلفه أخوه نقولا الأول. وبما أنه لم يكن صوفياً على الإطلاق، وكان مدافعاً متحمساً عن الأوتوقراطية والأورثوذكسية، كان عهده قاسياً بالنسبة للـSkoptsy. وقد جرى البحث عن هؤلاء في كل مكان، وكل منْ تم العثور عليهم، أكانوا مخصيين أم لا، جرى سجنهم أو إرسالهم إلى المناجم في سيبيريا والقوقاز. وكانت "كنيسةٌ" اكتُشفت في بطرسبورغ في العام 1843 تضم جنوداً في الحامية وبحارة في كرونشتاد. وقد جرى اكتشاف أن موظفين كباراً كانوا يترددون جهاراً على الكنائس الأورثوذكسية كانوا Skoptsy متخفّين. وفي سنة واحدة، جرى توقيف مئة مخصي جديد، من بينهم 83 في بطرسبورغ وموسكو. لم تقض هذه الاضطهادات على تعصب أعضاء البدعة، وكان العديد منهم قد أثْروا في التجارة أو في الأعمال المصرفية وكانوا يغذون بسخاء صناديق الدعاية. وفي العام 1868، حُكم على تاجر جملة بالغ الثراء من مورمانسك، يدعى بلوتيتسين، بالنفي مع عشرين بدعيّاً آخر. لم يكن مخصياً هو شخصياً، ولكن العديد من مستخدميه كانوا مخصيين. وبفضل ثروات المصرفيين والصرافين في المدن الكبرى، كان في وسعهم شراء الشرطة والعيش بهدوء. ولمزيد من الأمن، كان بعضهم يقدمون هبات للكنائس الأورثوذكسية أو للمؤسسات الخيرية. ففي بطرسبورغ، قدم أحدهم، وكان قد عاد إلى أحضان الكنيسة، خمسة ملايين روبل لإقامة مأوى، وقد كان خصياً، وورث بيته من رب عمله، الذي كان خصياً أيضاً.

بيد أن العديد من أعضاء البدع كانوا قد فضلوا الهجرة للاستقرار في

مولدافيا ورومانيا. وفي العام 1835، جرى اكتشاف ستين منهم في جاسي، من بينهم أربعة "خصاة"، ثلاثة منهم روس ورابع روماني. وفي غالاتز، نودي بالمدعو ليسّين، في العام 1872، بواسطة صوتٍ نزل من السماء، كابنٍ لله وكالقيصر بطرس الثالث. وجابت زيّاحاتٌ المدينة على صيحات "المسيح قام". ومع أن الليسينيين كانوا هرطقة داخل هرطقة، لأن سيليفانوف كان المسيح، القيصر الحقيقي والوحيد، سرعان ما انتشروا في روسيا الجنوبية. وقد ذهب زعيمهم إلى هناك، واُستقبل في كل مكانٍ استقبال الأبطال؛ وقد قرر عندئذ، على غرار سيليفانوف، بأن يمضي ويقدم نفسه "للقيصر الأرضي" لأجل تحقيق الدينونة التي بشّر بها أنبياء البدعة. ولكنه أوقف خلال أحد الاحتفالات، مع كل أعضاء "الكنيسة"، وبعد محاكمة طويلة، نفي معهم إلى سيبيريا.

وقد تمت محاكمة أكثر غرابة أيضاً في بطرسبورغ في نهاية القرن التاسع عشر. فمنذ زمن بعيد، كان الفلاحون الفنلنديون اللوثريون في ضواحي العاصمة قدموا أنصاراً للبدعة؛ وبين العامين 1853 و 1862، مات ثمانون مخصياً في سجون بطرسبورغ وهلك المئات في طريقهم إلى سيبيريا. وفي العام 1897، وضعت محاكمة كبرى موضع الاتهام حوالى مئة شخص؛ كان حوالى العشرين رجلاً وحوالى العشرين امرأة مصابين بالتشويهات الطقسية. وفضلاً عن البتر الجزئي للأعضاء التناسلية، كان بعض الرجال يحملون آثار حزّات عميقة حول الثديين؛ وقد نفوا جميعاً إلى إيركوتسك.

فضلاً عن ذلك، توجد في سيبيريا، في بلد الياكوتيين، قرى بكاملها يسكنها مخصيون (Skoptsy) منفيون. وهم يمارسون الزراعة، والحرف، والتجارة. ويجعلهم بُعدهم بمنأى عن الاضطهاد.

ومن المفترض أن بدعة بالية إلى هذا الحد كان ينبغي أن تزول خلال الهزة الهائلة التي حدّثت روسيا، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل، وقد اضطرت السلطات السوفييتية، مثلها مثل السلطات القيصرية، لأن تعاقب الخصيان الطوعيين بقسوة. ففي العام 1929، وجدت الشرطة جماعة منهم، في لينغراد وموسكو، كانت لا تزال تتنبأ بالمجيء الوشيك للقيصر بطرس الثالث. وقد أُقيمت دعاوى عديدة، واهتمت المحاكم بالتمييز بين أعضاء البدعة النشطاء، من دعاويين و"معلمي خصاء"، والأعضاء السلبيين، المعتبرين أقل ذنباً بكثير.

لقد أصبحت رومانيا، من جهة ثانية، الوطن المختار للـSkoptsy الروس، وهي اليوم مركزهم الديني. فلقد كانوا يمارسون، في بوخارست، مهنة حوذيي عربات جياد وهم الآن يمارسون مهنة سائقي تاكسي. وقد وصفهم بول موران كالتالي: "كان الحوذيون الروس، وهم عمالقة بوجه أمرد ورقبة حليقة، منتصبون على مقعدهم، ينادون الزبون بصوتهم الخافت غير المميّز". لديهم، في حي بائس، بيوت جميلة تتم صيانتها بشكل جيد جداً، ولكنها محاطة بجدران مُحْكمة؛ هذا وإن حياتهم عادية ولهم عادات عائلية، وغالباً ما يكون لديهم أولاد، لأنهم لا يعرِّضون أجسادهم للتشويه إلا بعد أن يكونوا قد أنجبوا. هكذا تحافظ البدعة على عدد أعضائها. أما بدعيو جاسي فأشد صرامة ويمارسون الخصاء بين الثامنة عشرة والعشرين من العمر، ويتلقّى "المعمّد" عندئذٍ حصاناً وعربة تجرها الجياد كملكية حصرية. وعددهم لا يتناقص بسبب التدفق المنتظم "لإخوة" قادمين من روسيا. والـSkoptsy الرومانيون لا يسعون لكسب الأنصار بين السكان الأصليين، فهم يعيشون منعزلين، شديدي الكتمان بخصوص قضاياهم، ولكنهم ينالون التقدير بسبب اعتدالهم، وتهذيبهم، وحب العمل لديهم.

أما عقيدة هؤلاء البدعيين فيمكن تلخيصها بواحد من أمثالهم السائرة:

("سوف أخصي نفسي، وأشتري Sébia Skopliou, Sébié raïkoupliou السماء"). وليس الـSkoptsy، في الواقع، هراطقة مسيحيين بمعنى الكلمة الحقيقي، مجدّدين على صعيد مبادئ الإيمان. وهم لم ينحرفوا عن المسيحية، ويكادون يكونون خرجوا منها، لشدة ما الروابط التي تشدهم إليها روابط غير حقيقية ومتفلّتة. ويمكن الحكم بذلك انطلاقاً من إنشاآت الكابيتان سوزونوفيتش، وكان تلميذاً قديماً في البدعة: فسيليفانوف، المسيح الثاني، هو القيصر بطرس الثالث، الذي حُبل به بوسيلة سرية وولد من الإمبراطورة إليزابيت بتروفنا، العذراء النقية[1]؛ وهذه الأخيرة، بعد عامين على وجودها في الحكم، سوف تتجسد في أكولينا إيفانوفنا، وهي فلاحة من بلاد الأوريل، "أم لله"في "كنيسة" الخليستي، التي كان ينتسب إليها سيليفانوف. وقد تزوج بطرس الثالث كاترينا التي بعد أن لاحظت أنه خصي[2] تآمرت عليه وأمرت باحتجازه؛ إلا أن أحد أنصاره، وهو أيضاً خصي، بدّل ثيابه بثياب بطرس؛ وقد أفلت هذا الأخير وأصبح سيليفانوف.

والمسيح – القيصر لم يمت، من جهة ثانية، إلا في الظاهر، في دير سوزدال. وهو سيأتي على رأس كتائب سماوية حين يكون عدد "اليمامات البيضاء" قد بلغ 144 ألف عادل أعلن سفر الرؤيا أنهم مدموغون بالختم وقال عنهم: "إنهم أولئك الذين لم يتلوثوا بنساء، لأنهم طاهرون"؛ سوف يصعد بطرس الثالث عندئذ من جديد إلى عرش روسيا ويعمد إلى الخصاء الشامل. وسوف تتحول الأرض (عندئذ) إلى جنة أبدية. وكانت الهذيانات

---

[1] كان في الواقع ابن أخيها. أما هي فلم تكن "عذراء نقية" على الإطلاق.

[2] كان بطرس الثالث يعاني تشويها وراثياً حال بينه، في بداية زواجه، وبين أن يكون زوجاً كاملاً. وقد شفي من ذلك لاحقاً بواسطة عملية (جراحية). وهذه الخصوصية المادية، مضافة إلى التلطيفات التي أدخلها، بعد أن أصبح قيصر، على نظام البدعيين، ربما تفسر الدور الذي لعبه في الكريستولوجيا الفظة الخاصة بالـSkoptsy.

تذهب ابعد أيضاً: فلأجل التكفير عن خطيئة أهلنا الأولين، تعرَّض المسيح للخصاء؛ وكان يوحنا المعمدان مخصياً أيضاً، والرسل، والمسيحيون الأوائل، والبطاركة[1] والأنبياء اليهود أيضاً، لأن الختان ليس سوى الخصاء.

وما يعطي هذه البدعة أهميتها، إنما هي ممارستها بالطبع. وهي تستحق دراسة مفصَّلة.

كان الهدف من الخصاء، في الأصل، جعل المؤمن عاجزاً مادياً عن ارتكاب الخطيئة. وفي ما بعد، إزاء خطر رؤية قطيع "رجال الله" ينقرض، جرى تأخير العملية حتى ولادة طفل أو اثنين. هذا وإن الصمت الذي كان يردُّ به المخصيون المتّهمون، حتى خلال أعمال العنف البوليسية الشرسة، على كل الأسئلة المتعلقة بطرق الخصاء، يتركنا حائرين. بيد أن بعض الشهادات تتيح لنا التثبت، عموماً، من أن التضحية كانت تتم من دون شهود. كان الحضور الوحيدون هم الداخل الجديد في البدعة، والخاصي، ورئيس "الكنيسة".وكان الخاصي يستخدم سكيناً محمًّى إلى درجة الاحمرار (كان ذلك هو "عماد النار"، قائلاً: "خذ سيفاً لقطع دابر الخطيئة". وعلى صرخة الألم التي كانت تنِدُّ عن المتعرض للخصاء، كان يردُّ الآخرون: "المسيح قام"، وكان الخاصي يقول فيما يُظهر الأعضاء المبتورة: "أنظر الأفعى المسحوقة" أو: "أنظر رأس آدم". وكان يتم إيقاف النزف بالجليد أو القار، ثم يوضع مرهم لتسريع التئام الجرح.

وكان للخصاء درجاته. فال"خاتم الصغير" أو "التطهير الصغير" كان

---

[1] المقصود هنا رؤساء الأسباط لدى اليهود القدامى(م)

يتضمن اقتطاع الخصيتين وكيسهما؛ وكان المُسَارُ[1] يفقد هكذا "مفاتيح الجحيم"، ولكن كان يبقى معه "مفتاح الهاوية"؛ وإذا كان يريد الانتقال من رتبة "الملاك" إلى رتبة "رئيس الملائكة"، وأن يصبح "يمامة بيضاء" أو "وزة بيضاء"، كان يتعرض بعد سنوات لاقتطاع عضو الذكورة. كان ذلك هو الخاتم الثاني المسمّى أيضاً "الخاتم الكبير"، "الخاتم القيصري"، "الخاتم الذهبي". وكان خاتم ثالث يتضمن، على ما يبدو، استئصال قسم من عضلات الصدر. وكان يتم الوصول إلى خمس خواتم عن طريق حزّاتٍ أو حروق بشكل صليب، على الكتفين، فتحت الإبطين، فعلى البطن، وعلى الأعضاء الدنيا. كان المرء يصبح أيضاً "ملاكاً بخمسة أجنحة"، أو حتى "ملاكاً بست أجنحة". ولكن تلك الجروح لم تفعل أكثر من استكمال الخصاء ولم يكن في وسعها أن تحل محله.

وما يبدو مذهلاً، هو أن عمليةً حاصلة ضمن شروط التطهير البدائي بالطبع للجرح نادراً ما كانت تفضي إلى الوفاة. ولكن جرت الإشارة أيضاً، بخصوص خصيان القصر الإمبراطوري في بكين، إلى أن نسبة الوفيات بسبب العملية لم تكن تتجاوز الـ3 إلى الـ4 بالمئة.بالمقابل، كانت التغييرات التي يحدثها الخصاء في جسم الذكر هامةً كفاية: تكبر القامة بسبب استطالة الأطراف الدنيا، ويزداد شحم البطن، ولا يعود ينمو الوبر، وإذا تمت العملية قبل البلوغ لا يتغير الصوت. ونحن نتذكر أننا رأينا، شخصياً، في موسكو، خلف مكاتب الصرافة في شارع مجاور للكرملين، رؤيا لا مجال لنسيانها لأحد أنصاف الرجال أولئك، بوجهه الأمرد، وجلده الشبيه بالرَّق، ونظرته الكامدة.

---

[1] أي الشخص الذي يجري إطلاعه على أسرار البدعة(م)

أما النساء فإذا قُبلن في البدء بصفة "أخوات"، لا يخضعن بالضرورة للاستئصال. بيد أن المتهوّسات يضحِّين بجزء من أدواتهن التناسلية الخارجية: الشفرين الكبيرين أو الصغيرين، البظر، حلمتي الثديين، أو حتى الثديين بالكامل. وهذه الاستئصالات تنهك الحساسية الجنسية، من دون أن تعيق العلاقات الجنسية والإنجاب.

كما أن احتفالات الـ Skoptsy الدينية لا تنقصها الغرابة. وهي تتم ليل السبت حتى الأحد. ويأتي إليها الرجال مرتدين قمصاناً بيضاء تصل إلى القدمين، وتضع النسوة أيضاً رداء أبيض فوق الفستان، ويكون الجميع حفاة. يجلسون أرضاً، وبيدهم اليسرى منديل أبيض، وباليمنى شمعة. ويتضمن الاحتفال، الذي يترأسه **nastavnik** ("معلم") و **matouchka** ("أم صغيرة")، خليطاً مثيراً للفضول من الصلوات الأورثوذكسية، وإشارات الصليب، والانحناآت والأناشيد التي تمجدّ فضائل سيليفانوف وآلامه. ثم تبدأ الرقصات (radiénié)، التي تمثّل إما صليباً، أو دائرة تتحرك في اتجاه دوران الشمس. أو أن الراقصين يدورون حول أنفسهم بسرعة متزايدة مرددين بلا انقطاع: "دوخ – بوغ" ("الروح – الإله")؛ ويسقطون أخيراً منهكين، وقد سكروا بما يسمّونه "البيرة الروحية". وهذه الرقصات لا تستهدف، فضلاً عن ذلك، الانخطاف، كما لدى الـKhlysty؛ وهي تبدو أثراً لطقس قديم.

وتلي الرقصات تنبؤات. فبعد أن يقول نبي أو نبية: "المسيح قام"، يبشّر بالمصير الوشيك للجماعة وبمجيء سيليفانوف – بطرس الثالث وارتقائه عرش روسيا.وينتهي الاحتفال "بعشاء سري". توزّع على الحضور قطع صغيرة من خبز الأبازير ومسحوق مؤلف من السمك المجفف المطحون

والسكّر. وثمة أسطورة، قائمة على الافتراء بلا ريب، تنسب إلى بعض "الكنائس" مناولةً تتم بواسطة ثدي عذراء شابة مقطوع أو دم صبي جرى خصيه للتو. ومعروف أن اتهامات مشابهة بـ"الفصح الدامي" وُجِّهت إلى المسيحيين الأوائل، وعلى امتداد القرون الوسطى لليهود.

لا تتم الـ**radiénia** إلا ثلاث مرات أو أربع في السنة. وتكرِّم احتفالاتٌ أخرى اليوم الذي جُلد فيه سيليفانوف، أو القديسة اليصابات أيضاً، على شرف "أم الله"، أكولينا إيفانوفنا، المماثلة مع الإمبراطورة اليصابات. وفي تواريخ متنوعة، يتم الاحتفال بقبول عضو جديد: مرتدياً رداء أبيض، يتم استقباله على أنغام الأغنية التالية: "المجد لك، يا رب، المجد لك، أيها الملك الأب الصغير، المجد لك، أيها الملك الروح الإلهي. لقد أتت نفس صغيرة إلينا، من العالم المعادي والعنيد للحصول على الخلاص، وعزاء النفس. فلنفرح، يا إخوتنا الصغار، فلنفرح يا أخواتنا الصغيرات، نفسٌ صغيرة أتت إلينا". ويقسم الداخل الجديد في البدعة بالتخلي عن الكحول، واللحم، والأعمال الجنسية، وعن التبغ أحياناً، وبوجه خاص بعدم كشف أي من أسرار البدعة. ثم يطلب الغفران من الرب، ومن أم الله القديسة جداً، والملائكة، ورؤساء الملائكة، والكاروبيم والساروفيم وكل القوى السماوية، وحتى أحياناً، بصورة حلولية، من "الأم الصغيرة الأرض المرضعة"، ومن الغابات، والسهول والوديان، والأنهار والجبال. وينتهي الاحتفال على صيحات "المسيح قام".

لقد اصدر الطبيب وعالم الإناسة يونيل رابابور، حديثاً، دراسة كاملة جداً عن الـSkoptsy بعنوان Introduction à la psychopathologie

collective[1]. وهو يقول إن الخصاء الطوعي يصبح طقساً حين يتحمل المجتمع المسؤولية الكاملة عنه، وحين يفرضه، بمبادرة منه، على كل أعضاء المجموعة أو على قسم هام منها. ويحلل المؤلف بعمق أشكال الوعي الجمعي المرضية، وبوجه خاص الأصول النفسية للـ"خصائية"، التي قد ترجع إلى "عقدة خصاء" مشابهة لـ"عقدة أوديب" المشهورة؛ ونحن نحيل إلى هذا الكتاب المثير للاهتمام أولئك الذي تشغل المسألة بالهم.

ولكن دعونا نشر إلى أن الـSkoptsy، كما يلاحظ الدكتور رابابور هم عموماً طبيعيون جداً في سلوكهم اليومي، ويعرفون تماماً كيف يقومون بأعمالهم، ويديرون بدعتهم بروح تنظيمية لافتة.

## الخليستيون (Khlysty)

تقترب بدعة أخرى من بدعة الـSkoptsy بطبيعة أقل قساوة بالتأكيد، ولكنها لا تقل غرابة عنها في كل حال. واسمها **Khlysto Vchtchina**، وهو تعبير مشتق من كلمة **Khlytsy** (أو "السياط")، وقد أطلق عليها خصومها هذه التسمية بسبب ممارسة الجلد التي كانوا ينسبونها إليها[2]. وفي الواقع، فإن هؤلاء البدعيين كانوا يسمّون أنفسهم **Khrysty** ("المسحاء") لأنهم كانوا يفترضون أن في وسع الروح القدس أن ينزل على كلٍّ واحد أو واحدة منهم ويجعل منه مسيحاً ومنها عذراء. وسبق أن رأينا، في بعض

---

[1] مدخل إلى علم النفس المرضي الجماعي(م)

[2] كانت هذه الممارسة استثنائية لدى هؤلاء البدعيين، لذا لن نسميهم "سوّطين"، في الوقت نفسه الذي نحتفظ بالتعبير الروسي Khlysty.

البدع الشرقية، مبتدعي هرطقات يجعلون من أنفسهم موضع عبادة على أساس أن الواحد منهم هو ابنٌ لله، أو يجعلون "عذراء مريم" تصحبهم، ولكن لم يحدث أبداً أن شكلت هذه التجسدات قاعدة عقيدةٍ بالذات.

كان الـ**Khlysty** يطلقون على أنفسهم تسمية رجال الله، التي كانوا يتشاركونها مع الـSkoptsy. فهل تشتق هاتان البدعتان الواحدة من الأخرى أو لهما أصل مشترك، هذا ما لم نتمكن من التثبت منه بالضبط. ولا شك في أنه كانت لهما حياة تحت الأرض، وربما لوقت طويل، وليس في وسعنا أن ندرسهما بصورة أكيدة إلا من اليوم الذي جرى فيه اضطهاد أتباعهما. وما يبدو ثابتاً، هو أنهما كليهما محليتان؛ فالصوفية الواقعية التي تلهمها روسية بصورة نوعية. وإنه لوطني بشكل خاص ميلهما لتجسيد الألوهة في كائن بشري فعلي، ملموس. فبحسب تراث الـKhlysty، "عَبَدة الله الحي"، حصل ذلك التجسد، للمرة الأولى، في عهد بطرس الأكبر: نزل الآب الأبدي، وسط غيمة من نار، في منطقة فلاديمير الريفية واتخذ الشكل البشري في شخص المدعو دانيال فيليبوف؛ وهذا الأخير أنجب، من امرأة في المئة من العمر، ابناً يدعى إيفان سوسلوف، اعترف به على أنه المسيح قبل أن يصعد مجدداً إلى السماء. وقد اختار سوسلوف لنفسه 12 رسولاً وعظ معهم، على ضفاف الأوكا، بوصايا أبيه الصَّباووت. وقد أوقفته الشرطة، وعذبته، ثم صلبته بقرب بوابة الكرملين المقدسة؛ وقد دُفن في يوم جمعة، وبعث حيّاً يوم الأحد التالي. وهذه المحاكاة الصبيانية الساخرة للإنجيل تزايد أيضاً على الأصل: بعد قيامة سوسلوف، تم توقيفه مجدداً وصلبه؛ وبالطبع، قام من الموت مرة أخرى، وعاش سنوات طويلة قبل أن يمضي للانضمام إلى أبيه.

أما وصايا دانيال فيليبوف الاثنتا عشرة ففي أقصى التقشف والصرامة: تحظر المعاشرة الجنسية، والزواج، واستعمال المشروبات المتخمرة، والسرقة، وقَسَم اليمين. وعلى المستوى اللاهوتي، تأمر بالإيمان بالروح القدس، أي بقدرة كل واحد على تلقي الإلهام الإلهي. وتضيف إلى ذلك واجب كتمان السر: فالمتنصر يجب أن يتعهد بـ"أن يلزم الصمت بخصوص كل ما سيراه أو يسمعه، من دون التذمر من السوط أو الحديد أو السيف، أو الخوف منها". وبالفعل، فإن الـKhlysty أثبتوا كتماناً مساوياً لكتمان الـSkoptsy. وكان أتباع كلتا البدعتين يترددون على احتفالات الكنيسة الرسمية، من دون أن يشتبه أحد بأنهم كانوا يعتنقون الهرطقة في قرارة نفوسهم.

كانت احتفالات الـKhlysty ثلاثة أنواع. فـ"المباحثات العادية" كانت اجتماعات دعاوية معدّة لتنسيب أعضاء جدد؛ وكانت تقتصر على قراءة الإنجيل وكتب مقدسة للبدعة، وأناشيد، وخطب موجزة بناءة. وكان الـprivod ("المدخل") يتضمن قبول عضو جديد، يقدّمه عرّاب، ويقسم بالمخلص، والصليب، والإنجيل، والرسل، وكل القديسين[1]، بأنه لن يكشف أبداً ما يتعلمه وبأنه سيحافظ على كل تعاليم البدعة. وأخيراً، كانت الـradiénié ("الورع"، "العبادة") الاحتفال المعد لمنح الانخطاف: كان الحضور، الجالسون على مقاعد، الرجال من جهة والنساء من الجهة الأخرى، يشرعون في الغناء بإيقاع أكثر فأكثر تسارعاً؛ ثم يخلعون أحذيتهم ويتعرون حتى القميص ويروحون يدورون ببطء، مبسوطي الذراعين، كما

[1] وهذا مثال على تلك التوفيقية الخاصة بالبدع الروسية، والتي تمزج بصورة لاواعية رواسب من الديانة التقليدية بالتجديدات الأكثر جسارة.

في نوع من الفالس. وكانت الحركة تصبح أشد فأشد سرعة، ثم مسعورة، وتنحلُّ الدائرة، وينصرف كل واحد إلى اندفاعه الخاص به، فيضرب البعض الأرض برجليهم أو يدورون، ويقرع البعض الآخر صدره بقبضتي يديه. وهم لا يتوقفون إلا عندما يقعون منهكين ويتصببون عرقاً؛ والبعض يُصابون بتشنجات ويرسلون صرخات متقطعة وغير مفهومة؛ إنه الروح القدس يتكلم، وتلك نبوءات تفلت من أفواههم التي يسيل اللعاب منها. وتبلغ درجة الانخطاف التي يبلغها الراقصون حداً نرى معه رجال شرطة يقتحمون الصالة من دون أن يلاحظ ذلك أولئك "الدراويش الدوّارون".

ومع أن تلك الممارسة لا تبدو أمراً كثير التكرار، فإنه معروف أن الـradiénié كانت تنتهي أحياناً، فيما الأنوار جميعها مطفأة، بالـSvalnygrekh، أو "الخطيئة الجماعية". ومع أن تلك المبالغات، المتعارضة مع روح العفة التي كانت تسود البدعة، يمكن أن تعزى إلى الإثارة التي كانت تولدها رقصة هستيرية يتمازج فيها الجنسان، فلنضف أنه يبدو أن الـKhlysty مضوا في جنونهم، على الأقل بصورة استثنائية، إلى حد الاحتفال بالمناولة بدم طفل ذكر مولود من فتاة غير متزوجة مرتقية إلى مصاف قديسة عذراء، ومسمّاة Christossik ("Christet")؛ كان يتم ذبحه في اليوم الثامن بعد ولادته؛ وكان دمه وقلبه يمزجان بالطحين والعسل، ويستخدمان لصنع خبز القربان المقدس (الأفخارستيا). وكان القداس هو أيضاً موضوع محاكاة ساخرة مخزية: كانت الـbogoroditsa ("أم الله") توضع عارية على مذبح، فوق الأيقونات، وكان المؤمنون يأتون وهم يرسمون إشارات الصليب بأعداد كثيرة، فيقبلون يديها ورجليها وثدييها في حين كانت "نبيات" الكنيسة — يجثين أمامها قائلات: "مباركة أنت بين جميع

النساء، وستلدين مخلِّصاً في الأقماط. وكل الملوك سيأتون ليعيدوا القيصر السماوي".

لم تمنع طبيعة الـKhlysty الهمجية هرطقتهم من تجميع منتسبين، تماماً كما هرطقة الـSkoptsy، في أوساط علية القوم في بطرسبورغ. هكذا وقعت سيدة من محيط اسكندر الأول، هي كاترين تاتارينوف، بعد موت ابنها الوحيد وطلاقها من زوجها، في الصوفية الأكثر إثارة. وقد شرعت تتردد على جمعيات الـKhlysty وحتى جمعيات الـSkoptsy. إلا أن طقوس أولئك البدعيين الفظة أبعدتها عنهم وقررت تنظيم "كنيسة" أقل عامية، سميت "الاتحاد الأخوي". وفي كل أحد، كانت تجمع لديها سيدات مجتمع، وضباطاً، وموظفين؛ كانوا يُصلّون، ويغنون الأناشيد، ثم كان نبي، لا بل نبية (كانت في الغالب ربة المنزل) تعمِد، بعد قيامها بحركة دائرية وسط القاعة، إلى التنبؤ لكل واحد بمستقبله. وبما أنه جرى الإمساك برسالة من تاتارينوف، اهتمت الشرطة بالبدعة وقدمت تقريراً عنها إلى الإمبراطور. وقد كتب هذا الأخير على المذكرة التي رفعوها إليه ما يلي: "لا تهتموا بهذه الاجتماعات، فهي عديمة الأهمية". وقد استقبل حتى، مراراً، لمؤسسة "الكنيسة" وشجعها على مواصلة نشاطها الورع.

كان ذلك في العام 1817، وكان نقولا الأول يحكم، فيما بدت الانشقاقات الصوفية تهدد المذبح والعرش في آن معاً. وكانت اجتماعات تاتارينوف تتم دائماً في أقصى السرية، وبحماس أشد حدة أيضاً: فالنبي لم يكن يدور ويرقص، فقط، بل كان كل المؤمنين يفعلون ذلك أيضاً، على طريقة الـKhlytsy. بيد أن القيصر الجديد لم يكن يمزح: جرى تشتيت كل أعضاء "الاتحاد الأخوي" في أديرة في الريف، حيث تمكنوا من التأمل في تبدلات الأوتوقراطية على صعيد التسامح الديني.

وعلى مقربة أكثر منا، جاء موجيك سيبيري، هو راسبوتين، فاستخدم في بطرسبورغ القدرة المغناطيسية التي سبق أن تجلت داخل بدعة الـKhlysty التي كان يتردد عليها في مسقط رأسه. وقد راح يمزج التدين المفرط بالجنس، فبات معبود العديد من سيدات المجتمع. ولما كان ماكراً ومتحكماً بنفسه، فقد عرف كيف "يضبط نفسه" لأجل دخول العائلة الإمبراطورية. ومعروف هو التأثير الذي مارسه ذلك الشخص الحقير في الإمبراطورة الكسندرا التي لم تكن تطلق عليه في الرسائل التي كانت تكتبها لزوجها، إلا "صديقنا".

ويمكن أن نُلْحق بالـKhlysty بدعاً أخرى طبعية، الأكثر شهرة بينها هي بدعة الـ**Shakouny** ("القافزين"). انتشرت الـShakouny بوجه خاص بين الفلاحين الفنلنديين واللوثريين في ضواحي بطرسبورغ، وربما كانوا متأثرين بالكويكرية الغربية، أو بالأحرى انحرفوا عن طائفتهم البروتستانتية بسبب تأثير البدع الروسية، وذلك حوالى بدايات القرن التاسع عشر. وكانت احتفالاتهم، التي تتم في أهراء وفي الهواء الطلق، تتضمن صلوات وأناشيد. كان يعمد رئيس الجمعية بعدها إلى الشروع في القفز، ويحذو حذوه الحضور الموزعون إلى أزواج يمسك بعضهم بأيدي بعض. وكان كل واحد يحاول القفز إلى أعلى ما يمكن، وحين يكون الجنون في أوجه، يعلن الرئيس أنه يسمع ملائكة المساء ينشدون. فيكف الجميع عن القفز، ويسيرون على أربع أرجل، ويزحفون على بطونهم، ويسعون للوقوف على رؤوسهم، ويحاول البعض أن يخلعوا ثيابهم ليكونوا عراة أو بقميص بيضاء. وأخيراً يسقط الجميع على ركبهم ويصلون بصوت خافت. ولكنْ ما أن يرتاحوا حتى يُستأنف المشهد: صلوات، أناشيد، قفزات.

وبما أن "القافزين" زاهدون جداً، ومعادون للكحول فلقد كانوا يتناولون

الخبز والماء؛ وكانوا يتلقون بعدئذ قبلة من الرئيس والأكثر جدارة بينهم كان من حقهم أن يمتصوا لسانه[1]. وهم لم يكونوا يعيرون التوراة الكثير من الاهتمام، قائلين: "أنا أمتلك الروح، فما حاجتي إلى الكلمة"؟ إلا أنهم كانوا يستمدون منها حججاً لصالح الرقص المقدس – رقصة داوود مثلاً – وكانوا يستمتعون برواية قصة بنات لوط وبالتذكير بعدد نساء حريم سليمان. ذلك أنهم كانوا يدينون الزواج، إذ على الرجال والنساء أن يكونوا إخوة وأخوات بالروح؛ بيد أنه، كتنازل للجسد، كان يمكن لهؤلاء الإخوة والأخوات أن يتحدوا جسدياً لكي ينجبوا "أولاداً روحيين". وهذا كان يحصل حين تُطفأ، في نهاية الاحتفال الديني، أنوار "الكنيسة"، ولا يتراجع "الحب في المسيح" حتى أمام السِّفاح. كل شيء كان يتوقف، في كل حال، على مزاج الأعضاء: يُروى عن شابة عاشت عدة سنوات، على الرغم من بقائها عذراء، مع شاب تتقاسم معه الغرفة نفسها، ومن جهة أخرى عن "واعظ" عاشر جنسياً 25 امرأة وفتاة.

وقد انتشر الـShakouny، من سكان ضفاف خليج فنلندا، في وسط روسيا، حيث اختلطوا غالباً بالـKhlysty. وفي ريازان، لم تكن إحدى بدعهم تخفي طابع احتفالاتها الإباحي: كانت bogoraditsa تدعو الشابات للاستمتاع بـ"الحب في المسيح" مع فلاح كبير القامة؛ وإذ كانت تحاكي مَثَل العذارى العاقلات والعذارى الجاهلات، كانت تغني" اقتربن، أيتها الخطيبات، فلقد أتى العريس الذي سيستقبلكن بمحبة، لا تستسلمن للنوم، وأبقين مصابيحكن مشتعلة". أما "قافزو" مقاطعة سمولنسك، فكانوا يتعرون تماماً، وهو ما أعطاهم لقب "كوبيدونات[2]".

---

[1] خلال دعوى أقيمت على خليستيين من أورنبورغ، جرى إثبات أن نبي "كنيستهم" كان يُدخل لسانه في فم من يقبّله ليتيح له أن يبتلع قليلاً من لعابه.

[2] كوبيدون كان إله الحب عند الرومان(م)

وقد انتشر Shakouny آخرون، يُدعون pyrougny (للكلمتين المعنى عينه)، بصورة كثيفة في القوقاز، حوالى العام 1860.

وكان المعمرون الروس في البلد يتركون أشغالهم للإصغاء إلى مواعظ الواعظين، وللصلاة والغناء معهم. وخلال الاجتماعات، كان الروح القدس ينزل على بعض الحضور؛ فكان هؤلاء يشحبون، ويلهثون، ويتأرجحون. ثم كان الجميع يشرعون في الضرب بأرجلهم بصورة إيقاعية، وفي القفز، والدوران، إلى أن يسقطوا منهكين. وكان ينتهي الاحتفال بعدد لا متناه من القبل التي كان يتبادلها الإخوة والأخوات. بيد أنه لم يكن يحصل أي عمل فاسق، بحيث لم تتلوث ممارسات بدعة كانت تتميز بطهرانية صارمة.

كان بعض الـPrygouny، المدعوّين "أولاد صهيون" يجلدون أنفسهم لتسريع نزول الروح القدس. وكانوا يبشرون بنهاية العالم الوشيكة وبقيام مملكة صهيون، التي تدوم ألف سنة؛ أما رئيس تلك المملكة فكان ينبغي أن يكون يسوع المسيح، الحاظي بمساعدة مؤسس البدعة، الفلاح رودوميوتكين. وكان يحق لكل مؤمن زوجتان فيما كان للرئيس عدة زوجات. ولقد كان يمضي بصحبة اثني عشر رسولاً واعظاً من قرية لأخرى في جنوبي روسيا. وقد تُوِّج ذات يوم "ملكاً على المسيحيين" بواسطة جمع هائج.

وثمة بدعة أخرى قريبة من الـKhlysty هي بدعة الـmaliovantsy، التي أخذت اسمها من المدعو ماليوفاني، المولود في العام 1844 في بلاد كييف. وكان هذا مدمناً على المسكر، ولكنه تخلى عن هذا العيب في سن الأربعين، ليدخل إلى بدعة الستونديين (Stundistes) الطهرانية.

وخلال الصلوات المشتركة، كان يشم روائح تبدو له كما لو كانت روائح الروح القدس؛ وكان يشعر بنفسه، في الوقت عينه، وقد ارتفع عن الأرض "إلى علو خمس بوصات". ولم يكن بين ذلك والإيمان بأنه المسيح غير خطوة واحدة. ولقد آمن بذلك وجعل من يحيطون به يؤمنون به أيضاً. ولكنه تعرّض للاحتجاز في العام 1892، وتم إدخاله إلى مأوى للمجانين. بيد أنه بقي على علاقة رسولية مع أتباعه لا بل كسب أتباعاً جدداً بين حراسه. ولقد كان الـmaliovantsy كثيرين في مقاطعتي كييف وخرسون. وكانت عبادتهم تتضمن صلوات، وأناشيد وقفزات، وبكاء، وكل تجليات الانخطاف النبوي. وكانوا يكرّمون ماليوفاني على أساس أنه "الإله الحي"، ولكن على عكس الـKhlysty لم يكن لديهم مسحاء غيره. ومثلهم، كانوا يدينون الزواج، وكانت المرأة أختاً بالنسبة إليهم. وكانت عاداتهم طاهرة عموماً.

فلنورد أيضاً كانحرافات عن الـ**Khlystovchtchina** البدع التالية: **الآدميون**، الذي كانوا يعيشون كأهلنا الأولين قبل الخطيئة؛ والـ**napoléonovy**، الذين كانوا يعبدون الإمبراطور الكبير، في موسكو بالذات، بوصفه إلهاً، وكانوا يطلبون حفر رسوم تمثّله صاعداً إلى السماء[1]؛ **والباحثون عن المسيح**، الذين كانوا يؤمنون بأن عليهم العثور عليه في أعماق الغابات السيبيرية؛ **والمتصرون على الجسد**، الذين كانوا يميتون أجسادهم بأشكال شتى، ولا سيما بالبقاء راكعين، ورؤوسهم مقلوبة إلى الوراء، وأنفاسهم مقطوعة، إلى أن يصابوا بالإنهاك الكامل. وفي

[1] كان بعض الـSkoptsy يعتقدون بأن نابوليون، الخالد على غرار سيليفانوف، سيكون قائده العام ما أن يصعد من جديد إلى عرش روسيا.

كل مكان، في المساحات الشاسعة للأرياف الروسية، كان الفلاحون يؤسسون بدعاً. ففي بلاد سمارا، كان الناسك بانيياشكا يشفي المرضى ويجعلهم يمتصون نقاطاً من الزيت الذي كان يحترق أمام أيقونة العذراء؛ وكان يكرز بالزهد ومشاعية الأملاك، ولكنه كان يحب أن يحيط نفسه، في صومعته، بالعديد من "أمهات الله".وقد مارس المدعي العام الصارم للسينودس الأقدسي، بوبيدونوسيتيف، في عهد كل من اسكندر الثالث ونقولا الثاني، وظيفة مفتش أكبر، وجرى البحث بعناية عن أعضاء البدع.

هكذا اكتشف في مقاطعة خاركوف المدعو بودغورني الذي كان يكرز بالحب الحر وازدراء جميع الأسرار المقدسة. وقد احتجز في دير في العام 1892. وحوالى الفترة نفسها، خلق كوسين نوعاً من الخليستية الجديدة: كان أنصاره يؤمنون بأن المسيح فيهم جميعاً وهم كلهم في المسيح، ولكنهم لم يكن لديهم مسحاء أحياء؛ لقد كانوا حلوليين بمعنى أنهم كانوا يحدّون وجود الله في العالم العضوي ويؤمنون بالتقمص، على أساس أن أنفس الناس كانت في السابق نفوس بهائم. وثمة هنا محاولة فلسفية نادرة في الحركة البدعية الروسية. وكان "خليستياً – جديداً" فلاحُ فورونيج لوبكوف الذي كان يقول عن نفسه، حوالى العام 1897، إنه المسيح مجسداً؛ وكان يعيش مع أمّ لله، كان يبدلها بين الحين والآخر بأخرى، مستنداً إلى الحجة غير المتوقعة القائلة إن حاملات الطيب الثلاث المكلّفات بتحنيط جسد يسوع لا يمكن أن يكنّ غير زوجاته.

فلنشرْ أخيراً إلى أن الميل الخاص جداً بالشعب الروسي لتجسيد المسيح في إنسان مرئي، لم يوفر الأب جان دو كرونشتاد. فهذا الرجل المرموق، الذي حصلنا على امتياز لقائه، تمتع، في عهد آخر أباطرة روسيا، بتوقير كان

يدين به إلى ورعه وإشعاع طيبته الحصيفة. والحال أن قوزاقياً من الدون، يدعى سكورو بوغاتشنكوف، أسس في مقاطعته بدعة جْوَانيِّين (نسبة إلى جان أو جوان). وقد كان يعتبر الأب جان هو المسيح ووجد له أماً لله في شخص امرأة من قريته. وعندما جاء بها إلى كرونشتاد ليقدمها إلى "ابنـ"ـها، تم توقيفه وسجنه.

وبين البدعيين "الطبعيين"، يمكن أن نشير أيضاً إلى أولئك الذين كانوا يعتبرون أن السبيل الوحيد إلى الخلاص هو الموت. وكان يوجد من هؤلاء على ضفاف الفولغا. وقد كان المرشح للانتحار الديني يؤخذ إلى إسبةٍ[1] غير مسكونة، حيث يقرأ عليه أحد الواعظين المزامير؛ وكان الباب يُفتح فيظهر موجيك صلب الجثة بقميص حمراء؛ وقد كان يضع وسادة على رأس المحكوم عليه، ويجلس فوقها حتى يختنق المسكين تماماً. وكان راهب يدعى فلالاي يكرز بهذه العقيدة القاتمة في بداية القرن التاسع عشر؛ وقد اجتمع 84 واحداً من تلامذته في مكان تحت الأرض لينتحروا هناك؛ إلا أن إحدى النسوة الحاضرات، التي افتقدت الشجاعة، ذهبت إلى القرية وأبلغت بذلك سكانها، الذين هرعوا نحو الدهليز ليحولوا دون حصول المذبحة الجماعية، ولكن المتعصبين ردوهم على أعقابهم وراحوا يقتلون بعضهم بعضاً بالفؤوس هاتفين: "نموت لأجل المسيح". وقد جرى إنقاذ العديد منهم من الموت، ولكنهم سُلِّموا إلى الشرطة وجرى الإلقاء بهم في السجون. وقد فرَّ أحدهم، المدعو سوشكوف، وواصل الكرز بالانتحار الجماعي. وفي يوم محدد سلفاً، قطع تلميذه بتروف بالفأس رؤوس ثلاثين من القرويين، بمن فيهم النساء والأطفال، وقطع رأسه هو شخصياً

[1] كوخ خشبي في الأرياف الروسية يسكن فيه الفلاحون(م)

سوشكوف. وفي العام 1857، في منطقة بيرم، تنبأ الفلاح شادكين بمجيء المسيح الدجّال وأقنع أتباعه بالاجتماع في دهليز لأجل الموت هناك جوعاً. وقد كانت الآلام التي عانوها من القسوة بحيث هرب اثنان منهم. فقرر شادكين عندئذ تصفية المجتمعين، وأمر الآخرين بأن يقتلوا الأطفال أولاً، ثم النساء، ثم الرجال الذين أنهكهم الصيام أكثر من الجميع. ولكن لما كانت الشرطة قد وصلت فجأة، جرى توقيف شادكين وثلاثة آخرين بقوا أحياء بعد المذبحة. وقد حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبّدة.

وكان متعصبون آخرون يودون الموت على طريقة المخلص؛ فنصب أحدهم صليباً عظيماً رفعه إزاء حائط كوخه، ثم سمَّر قدميه ، ثم ساعده الأيمن، ثم أدخل في يده اليمنى مسماراً وُضع على المسافة المطلوبة. وقد انزله جيرانه في اليوم التالي وهو نصف ميت، ومضوا به إلى المستشفى. وفي العام 1890، حرقت فلاحة من بلاد بيرم حفيدتها في الموقد؛ وحين أوقفت، أعلنت أنها تنتسب إلى بدعة تؤمن بأن المسيح الدجال كان يبحث عن النفوس البريئة الصغيرة، وكان من الأفضل بالتالي إنقاذها منه. ويمكن إعطاء أمثلة لا تحصى، حتى أيامنا هذه تقريباً، على الانتحار الديني في روسيا. وهي تذكّر بالمحارق الطوعيّة الرهيبة للمؤمنين — القدامى الأوائل.

## "مناضلو الروح"

بعد أن تخلصنا من كابوس هذا القدر العظيم من الأعمال الشاذة، سندخل الآن إلى ميدان أكثر هدوءاً، وإثارة للارتياح، ويغمره تماماً نور الإنجيل. ومبدأ مصارعة الخطيئة، وهو أساس الورع الشعبي الروسي، يبقى

هو ذاته، ولكنه لم يعد ملوّثاً بممارسة وحشية أو بشعة. تصبح الأخلاق مجدداً الممارسة الطبيعية لملكات النفس البشرية الأرقى. ويلخِّص اسم إحدى هذه البدع الإنجيلية نشاطها، الذي هو حقاً معركة الروح.

إن الـ**doukhobory** أو الـ**doukhobortsy** ("مناضلو الروح أو مصارعوها") من أصل غامض. وقد ظهر الأوائل بينهم في أوكرانيا، في منطقة حدودية ربما تعرضت لتسربات بروتستانتية عن طريق بولونيا. وتشير محاكمة تمت في العام 1740 إلى جندي كان يمضي في مقاطعتي خاركوف وييكاتيرنيوسلاف واعظاً بالإنجيل من قرية لأخرى. وقد حذا حذوه واعظون آخرون، كالأب كولسنيكوف وابنه، حتى أن الفلاحين أعلنوا في العدد من المناطق أنهم لم يعودوا يريدون التردد على الكنائس. "نحن لا نعبد المسيح بالصورة، بل المسيح الحقيقي، ذلك الذي في أعماق قلوبنا". وقد راحوا يحطمون الصور المقدسة وانتشرت حركة محاربة الأيقونات، وصعدت إلى الشمال، وبلغت حتى موسكو. وقد رأى فيهم القيصر بولس الأول تنويعاً من أولئك "اليعاقبة" الذين كان يمقتهم، فاضطهدهم، ولكن ابنه اسكندر الأول أظهر تسامحاً أكبر. ولقد خصص لهم، هم و"شاربو الحليب"، أراضي في شمال بحر أزوف. وقد نظّم عريف سابق، اسمه كابوستين، الـdoukhobory في نوع من الجمهورية الزراعية. أما القيصر الذي كان لا يزال مولعاً بالإشراقية فذهب لرؤيتهم. وزارهم أيضاً كويكريون انكليز، أدهشهم أن يجدوا وسط السهوب إخوة لهم في المسيح. إلا أن نقولا الأول أمر بأن ينفى إلى ما وراء القوقاز كل أولئك الهراطقة. وقد استقر ثمانية آلاف منهم في منطقتي باتوم وكارس، حيث وهبهم أمير منيغريليا أراضي وكل القطعان الضرورية. فازدهر وضعهم هناك وغطّت البلد شبكةٌ من الجماعات البدعية. وقد أُرسل آخرون إلى سيبيريا حيث أيأسوا السلطات

بسبب الدعاوة الفعّالة التي كانوا يقومون بها بين الجنود والمنفيين.

وفي عهد القيصر الأخير، اهتم تولستوي كثيراً بالـdoukhobory في ما وراء القوقاز، وشجعهم بكتاباته ورسائله على مقاومة السلطات المدنية: وقد رفضوا، بمزيد من التصميم، دفع الضرائب والتطوع في الجيش. وفي ذلك الحين، هاجر منهم 2400 شخص، بدعوةٍ من الكويكريين الأميركيين وبمساعدة أنصار تولستوي، واستقروا في شمال كندا. وقد أراد بعضهم الخضوع لقوانين البلد، أما الآخرون الذي كانوا أكثر جذرية، فانتقلوا إلى كولومبيا البريطانية، حيث نظموا جماعات لا تزال موجودة إلى الآن؛ وإحداها مشهورة بكونها أطلقت ذات يوم سراح ماشيتها، على أساس أن على الإنسان ألا يستعبد حتى الحيوان.

إن المبدأ الإيماني الأساسي لدى مصارعي الروح هو إنكار كل احتفال: الله روح ويريد أن يُعبد كروح وكحقيقة. ويشرح أحد أقوالهم المأثورة على الشكل التالي: nié v briovnakh tserkov a v riobrakh ("ليست الكنيسة في الخشب والحديد، بل هي في الأضلاع"، والهيكل الحقيقي هو قلب الإنسان. والثالوث واحد وغير منقسم، ولكنهم يشرحونه على الشكل التالي: الآب هو الذاكرة والابن العقل والروح القدس الإرادة[1]. ليس ثمة حياة لاحقة والجنة توجد على هذه الأرض حين سيختفي الأشرار شيئاً فشيئاً. والإنسان يحمل في ذاته الله حين يسعى للاقتراب من مثال الطيبة والبساطة الذي أعطاه مثلاً عنه المسيح، نموذج الفضيلة. كل الناس متساوون، وكلهم خطأة بالتساوي، ولكنهم كلهم قادرون على التحسن والاقتراب من الكمال. هذا ولا يجب أن يكون هنالك أسياد أو خدم،

[1] كان العديد من آباء الكنيسة قد طوروا هذا التماثل بين الثالوث وثلاثية الذاكرة — العقل — الإرادة، التي تشكل في الإنسان ما يشبه صورته.

سلطات أو رعايا. ولا يخاطب الأولاد أهلهم بالقول بابا وماما، بل ختيار وختيارة، أو فقط يذكر اسم كل منهما الصغير. يقول الزوج لزوجته "يا أختي"، وهذه تقول له "يا أخي". وينعقد الزواج فقط بالبركة التي يعطيها الأهل. وللزوجة الحقوق نفسها التي يتمتع بها الزوج، ويمكنها تركه إذا كانت ترغب في ذلك، والحال أن الأخلاق رفيعة لدى الـdoukhobory أو مصارعي الروح، فهم شرفاء، زاهدون، مهذبون. وهم يفتتحون اجتماعاتهم وينهونها بالانحناء بعمق بعضهم أمام بعض. كما أنهم يعتبرون السلطة المدنية شراً لا بد منه، ويخضعون لها، ولكنهم يرفضون الخدمة العسكرية، لأن الحرب متعارضة بالمطلق مع مبادئهم القائمة على الحب المتبادل والوفاق بين الجميع.

وبالإضافة إلى تفسير الثالوث المثير للفضول الذي أشرنا إليه للتو، لقد جدد بعض مصارعي الروح في موضوع اللاهوت: فالبعض يقولون إن التجسد يتكرر في شخص كل مؤمن، لأن المسيح يعلّم، ويتألم ويبعث حيّاً فيه؛ ويعيد آخرون الخطيئة الأصلية إلى ما قبل خلق العالم. وكان أحد أنبيائهم، بوبيروخين، يطرح في القرن الثامن عشر أن الله لا يوجد بذاته وأنه لا ينفصل عن الإنسان؛ وعلى العادلين أن يجعلوه يحيا في ذاتهم. وانطلاقاً من هذه الأمثلة، نلاحظ أن الفكر الديني لدى الشعب الروسي قد اشتغل، وإن بصورة أولية، في حين كان فكر قادة الكنيسة الرسمية يستسلم للنعاس؛ وما كان هؤلاء قد أهملوا تفسيره، كان الشعب يحاول تفسيره على طريقته، ولا يمكن إلا أن نشعر بالدهشة ونحن نرى شعباً عاش على امتداد قرون طويلة من دون دكاترة في الإيمان وواعظين، ومن دون كتاب للتعليم المسيحي، يبرهن عن الإبداع في قضايا اللاهوت. ويمكن إبداء الملاحظة نفسها في مجال الفكر العلماني: لم تنتج الطبقات العليا في موسكوفيا،

وحتى بداية القرن التاسع عشر، أيٌّ نتاج فلسفي، أو حتى أدبي، له قيمة فريدة، في حين أن الشعب كان يخلق منذ عصور سحيقةٍ، ومن دون كلل، كنزاً رائعاً من الفولكلور المحكي، والمغنّى والمتعلق بالرقص.

وثمة doukhobor معاصر لنا تقريباً، هو فيريغين، تكشفت لديه صورة مفكر فريد إلى هذا الحد أو ذاك. وقد ولد في عائلة فلاحية منتمية إلى البدعة، فعمَّق عقيدتها خلال إقامته في "الميتم"، وكان المركز الديني للـdoukhobory في مقاطعة توريد؛ وقد أوقفته الشرطة فيه في العام 1887، ونفته مع إخوته الستة إلى سيبيريا. ومن هناك، كتب إلى أخوته في الدين الكثير من الرسائل التي تشكّل تبليغات رسولية. هاكم ما يقوله من أعماق إيمانه: "نحن نتصور الله على أنه الحب بلا حدود. وبفضل هذا الحب الذي لا حدود له، والشامل، يبقى محفوظاً كل ما هو موجود. الشر يهدم، والحب يبني. وإذا أحب المرء قريبه، فهو يحقق محبة الله. وإذ نكتسب المحبة، نعتقد أننا نكتسب الله في قلوبنا. لذا نجتهد، على سبيل المثال، لكي لا ندمر الحياة، في كل مكان توجد فيه، ولا سيما حياة الإنسان. فالإنسان هيكل الله الحي، وسيئٌ أن يتم تدميره". لأجل ذلك، أدان فيريغين "إخوته" في القوقاز الذين نقلوا خلال الحرب الروسية – التركية، في العام 1877، معدات لقوات القيصر التي كانت تحاصر قلعة كارس. ومحبة القريب تستتبع احترام حريته: "احرصوا على ألا يجبر بعضكم بعضاً على أي شيء وليختَرْ كلٌّ منكم طريقه بحسب ما يهوى، لأن إلهنا هو إله المحبة والحرية". ولكن كيف نتحاشى الشر؟ يقول لنا فيريغين في هذا الصدد: "لقد توصلت إلى القناعة الواعية بأنه يجب أن لا نزدري الشر الخارجي الذي نراه، وأن لا نكرهه، لأن العالم بمجمله مدرسة متبادلة ومتنوعة... وليس الشر الخارجي

عديم النفع ؛ فعن طريق تأمله ، يمكن أن نتعلم كيف نكون أخياراً وطيبين. الشر رفيق الخير، مثلما الليل رفيق النهار". وهذه بعض الأفكار التي كان يفصّلها المنفي في رسائله إلى أقاربه وأصدقائه ، وإلى الجماعات المشتتة. ونحن نجد فيها لهجة الرسائل الإنجيلية : "كم أود ، أيها الإخوة والأخوات ، أن أتمكن من التقائكم ، وإذا سمح الله ربما سيرى بعضنا بعضاً عما قريب ، أو — ما همَّ - ، في الحياة الأبدية ، لأنه ليس ثمة فراق بالنسبة للروح ؛ ولكن يجب أن يكون دليلنا في الحياة ربنا يسوع المسيح والعذراء القديسة الحامية ، صورته الناعمة للغاية. إحيوا وكونوا ممتلئين نشاطاً وحيوية".

أما احتفالات الـdoukhobory فهي في أقصى البساطة : فأول إسبة يتم بلوغها ، وساحة ، وحتى حقل ، يمكن أن تكون مكاناً للعبادة ؛ وعلى طاولة يغطيها سماط أبيض يكون إنجيل موضوعاً ؛ فتتم القراءة فيه ، وتتلى الصلاة الربانية ، وتُنشَد مزامير على ألحان شعبية ، ويناقش بهدوء ما تمت قراءته ، ثم يتفرق الجميع بعد أن ينحنوا حتى الأرض.

## "شاربو الحليب"

إذا كانت بدعة الـ**molokany** (من moloki ، أي الحليب) اقل شهرة من بدعة "مصارعي الروح" ، فهي أهمُّ أيضاً باتساعها. وأعضاؤها يُدعون هكذا ، أي "شاربي الحليب" ، إما لأنهم يحلّون محل اللحم الحليب ومشتقاته ، أو لأنهم يشربون الحليب خلال الصيام ، أو ربما ، أخيراً ، لأنهم تعرضوا ، هم والـdoukhobory ، للنفي على يدي حكومة نقولا الأول إلى ضفاف نهر في الجنوب يدعى **Molotchma** ، بسبب لون مياهه الشبيه بلون الحليب.

كان "شاربو الحليب" يتسمُّون بـ"المسيحيين الروحيين"، وتشبه عقيدتهم تقريباً عقيدة "مصارعي الروح"، الذين يبدون منبثقين منهم. بيد أنهم اقرب إلى المسيحية، لكونهم يولون أهمية أكبر للكتاب المقدس وأقل للوحي الداخلي. وهم يقرأون بانتباه العهدين القديم والجديد، ولكنهم يرفضون كل ما أضافه إليهما آباء الكنيسة، فضلاً عن كل نوع من الطقوسية. لقد كان احدهم يقول: "إن الـraskoliniki (المنشقّين) يذهبون إلى المحرقة لأجل إشارة الصليب بإصبعين؛ أما نحن فلا نرسم إشارة الصليب بإصبعين ولا نرسمها بثلاثة أصابع، بل نسعى لمعرفة الله بشكل أفضل". باختصار، إن شاربي الحليب هم بروتستانت الأورثوذكسية الروسية. ألا يقولون بالفعل: "ليس هنالك من حبرٍ غير المسيح، ونحن كلنا كهنة"؟

ولا تختلف احتفالاتهم عن احتفالات مصارعي الروح. فليس الزواج سوى عقد لفظي بسيط تحضر انعقاده كل الجماعة بصفة شاهد جماعي، وبهدف معاينة ما إذا كان هناك إكراه من هذه الجهة أو تلك. وثمة بين الزوجين شيوع أموال ولا يمكن الزوج أن يبيع أو يرهن شيئاً من دون موافقة زوجته. والأزواج متحدون والزوجة هي حقاً شريكة زوجها. والخطيب أو الخطيبة اللذان يجري البحث عنهما هما من يعرف بشكل أفضل نصوص الكتاب المقدس. وليس هنالك من أميين (أو أميات) بين molokany (أي شاربي الحليب)، ويناقش أولاد في الثانية عشرة أو الثالثة عشر الشرح الذي يجب إعطاؤه لهذا المقطع أو ذاك من الكتب المقدسة.

وتصل طهرانية البدعة إلى حد أن النساء لا يرتدين ثياباً فاقعة الألوان، ولا أي نوع من الزخارف. وغالباً ما هن جميلات جداً، ويقول أحد الشهود: "يذهلنا تواضعهن، وبساطتهن وتعبيرٌ عن كآبة ناعمة". لقد كن

يحققن النموذج الأكثر كمالاً للفلاحة الروسية في الزمن الغابر، لشدة ما كن بعيدات من آفة السُّكْر والعادات الإباحية، التي كانت منتشرة آنذاك.

الجماعة تحكم في كل المخاصمات والنزاعات علانية ومن دون استئناف. وكل واحدة تملك صندوقاً مشتركاً، يدفع إليه الأعضاء عشر مدخولهم، وهو يستخدم في تبادل المساعدة وفي الدعاوة. وقد كان الزهد وحب العمل يميزان شاربي الحليب من موجيك النظام القديم. وكانت أكواخهم الخشبية، على غرار تلك الخاصة بكل أعضاء البدعة بوجه عام، هي الأنظف والأفضل ترتيباً في القرية.

وفي السياسة، كان شاربو الحليب أنصار نوع من الديمقراطية الثيوقراطية. فالمجتمع يجب أن يقوم على المحبة والمساواة. والقوانين الموجودة لم تسنّ لأجل العادلين. فغالباً ما كانوا يرفضون دفع الضرائب، كما كانوا يرفضون دائماً واجب الخدمة العسكرية. لذا اضطهدتهم الحكومة القيصرية زمناً طويلاً؛ وقد نُفيت قرى بكاملها من أعضاء البدع إلى سيبيريا وما وراء القوقاز. وفي هذه المقاطعة الأخيرة، كانوا يدغدغون الحلم بـ"إمبراطورية للأرارات" تكون ملكوت الحقيقة الشامل؛ وقد أوقف القوزاق في العام 1812 إحدى بعثاتهم التي مضت لتسأل نابوليون إذا لم يكن المحرّر الذي بشرت به نبوءاتهم.

وثمة بدعيون آخرون، هم المسيحيون الإنجيليون، يسمحون، خلال احتفالاتهم، لكل "أخ" ولكل "أخت" بأن يفسرا على طريقتهما نص العهد الجديد. ولا يزال هؤلاء كثيري العدد في أوكرانيا وسيبيريا. ومن الناحية المبدئية، يرفضون أن يكونوا جنوداً، ولكنْ أحد مؤتمراتهم قرر، في العام 1923، أن الخدمة العسكرية "سخرة" "يلزم" الاضطلاع بها. ولنُشِر في هذا

الصدد إلى أن قوانين الاتحاد السوفييتي العسكرية تنص على أن في وسع البدعيين أن يُعفوا من الخدمة العسكرية، بقرار قضائي، إذا طلبوا ذلك، وأن يُستخدموا في زمن السلم في أشغال تتعلق بالمنفعة العامة، وفي زمن الحرب في خدمات المؤخرة.

ولقد كان الـObchtchié ("الشيوعيون") يريدون التغيير الاجتماعي الذي نادى به شاربو الحليب. وقد بدأ رئيسهم، بوبوف، نشاطه الرسولي حوالى العام 1825، في مقاطعة سمارا، بأن وزع أملاكه على الفقراء. وقد جرى نفيه مع تلامذته إلى ما وراء القوقاز، ثم إلى سيبيريا بعد أن واصل دعاوته. ولقد كان الـObchtchié يضعون كل شي في حالة شيوع: الأراضي، والبيوت، والقطعان، والمال؛ وذلك على غرار المسيحيين الأوائل. وكان يقود كل جماعةٍ مفوَّضون منتخبون، يدين لهم ناخبوهم بالطاعة المطلقة؛ وقد كان هؤلاء المفوضون يراقبون، بواسطة مندوبين، أعمال الحقول، وتدبير المنازل، والخياطة. وكانت العبادة التي يقيمها هؤلاء البدعيون تذكر بعبادة شاربي الحليب؛ وكان المشاركون يسجدون، في بعض "كنائس"هم، ويكفّرون عن ذنوبهم أمام شاب وشابة، يسمّيان "مسيحاً" و"عذراء". وبعد ذلك بوقت طويل، وفي منطقة سمارا عينها، مضى نبي يدعى غريغورييف أبعد أيضاً من بوبوف ووعظ شاربي الحليب في البلد بشيوع النساء، إذ إن المسيحي الحقيقي، الذي حرّره المخلص، يمكنه الاستمتاع بكل شيء بحرية.

وكان بدعيون آخرون يُدْعون Chalapouty ("تافهين")، ويُسمُّون أنفسهم "إخوة روحيين"، يدمجون النزعة الإنجيلية بممارسات شبيهة بممارسات الـKhlysty: كانت صلواتهم تمتزج بالصرخات، والدموع،

والقفزات الفجائية؛ وكانوا يقومون بتطوافات فيما هم يرقصون ويكشرون؛ وكان آخرون ينتظرون نهاية العالم راقدين في نعش. وكان كلٌّ منهم قادراً على تفسير الدين على طريقته، بعد أن ينزل الوحي عليه فجأة. وكان يقود جماعاتهم nastavniki (أي "مرشدون") يرأسون الجمعيات، ويحكمون في النزاعات، ويجمعون مال الاكتتابات وينفقونه وفقاً للحاجات. وكان مبدأهم الأساسي الإخاء: ينبغي أن يتحابَّ كل الناس، ويتساعدوا، ويشتغلوا من دون استغلال أحد. كما كان عليهم الامتناع عن الانصراف للتجارة، أو للرِّبا. كانوا مزارعين حصراً وكانوا يزرعون الأرض بصورة جماعية. وكان القمح يقسم إلى أربعة أقسام: لأجل الحاجات الجارية، ولأجل بذار السنة اللاحقة، ولأجل الاحتياطي في حال المواسم الرديئة، وأخيراً للبيع. وواضح أن ذلك كان، كما لدى الـObchtchié، الكولخوز قبل الحالة النهائية المعروفة بهذا الاسم. ويمكن أن نذكِّر في هذا الصدد بما كتبه ميشليه قبل قرن: "ليست الشيوعية الروسية مؤسسة على الإطلاق، إنها شرط طبيعي يتعلق بالعِرق، والمناخ، والإنسان والطبيعة".

لقد كان الـChalapouty معادين للزواج في البدء، وكانوا يكرزون بالعفة المطلقة. ولكنهم مثلما تخلوا مع الوقت عن طقوسهم الغريبة، قبلوا باتحاد الجنسين القائم على المحبة المتبادلة والاعتدال الجنسي. فالزوجة رفيقة قبل كل شيء وهي تمتلك الحقوق نفسها التي يمتلكها الزوج. والحرية الممنوحة للمرأة لا تفسد في شيء طهارة العادات، والـChalapouty — إذا كان لا يزال موجوداً أحد منهم — يحظون بتقدير جيرانهم بسبب زهدهم وشهامتهم الكاملة.

## تولستوي و سوتاييف

بعد شباب اجتماعي وطائش، وبعد نشاط أدبي كان قد أكسب ذلك الذي دعاه تورغنييف "كاتب الأرض الروسية الكبير" مجداً عالمياً، رجع هذا الأخير إلى تلك الأرض، بكل معنى الكلمة. فقد انسحب إلى أملاك عائلته في يازنايا بوليانا، ولبس زي الموجيك، وقصر غذاءه على مشتقات الحليب والخضار، وراح يحرث أرضه بنفسه، كما أزال كل البهارج الأجنبية ليكتسب ذهنية الفلاحين الذين كانوا يحوطونه.

لقد "ذهب إلى الشعب"، ليس على غرار ثوريي "الستينيات" لأجل تعليمه، بل على العكس ليطلب منه مبرراً للحياة. وبين "بسطاء الروح" أولئك، وجد تولستوي معلماً هو سوتاييف. وكان هذا فلاحاً من بلاد تفير (Tver) جاء إلى سان بطرسبورغ للعمل كبنّاء فتعلم القراءة لكي يتمكن من دراسة الإنجيل. وقد بحث هناك عن "الإيمان الحقيقي" وأقنع نفسه بأن الكذب يسود في الكنيسة الرسمية. وبعد أن توفي أحد أولاده، حمل الجثمان إلى الكنيسة المجاورة وطلب منه الكاهن ثمن الدفن، وكان خمسين كوبكاً، فيما لم يكن معه غير ثلاثين. وقد غضب من المساومة التي تمت بينه وبين الكاهن، فاستعاد الجثمان ودفنه في ساحة بيته. وقد جاء الكاهن في مرة أخرى إلى منزله لتعميد طفل جديد رُزق به، إلا أن سوتاييف أثبت له، وهو يحمل بيده الإنجيل، أنه لا يمكن إعطاء العماد إلا لأولئك الذين هم، على غرار يسوع، في سن يستطيعون فيها أن يُبدوا رغبتهم في ذلك. فانتزع الكاهن الكتاب منه عندئذ ورمى به إلى الأرض. ومنذ ذلك الحين، تخلى سوتاييف نهائياً عن الكنيسة. ولما كان قد جمع بعض المال، عاد إلى قريته، ولكن ذلك المال كان ثقيلاً عليه، فرمى ذات يوم بالأوراق البنكية في

الموقد[1]، ووزع على الفقراء القطع الفضية. وشرع يكرز بالإنجيل بين فلاحي البلد، قائلاً: "أنا لا أريد تأسيس بدعة جديدة، كل ما أريده هو أن أعلم الناس أن يكونوا مسيحيين حقيقيين".

هذا وإن عقيدة سوتاييف تتلخص في كلمة واحدة: المحبة. فكل الأخلاق، وكل الشرائع هنا. وكل الأديان يجب أن تزول بحيث لا يعود هناك غير دين واحد لن يكون له، بعيداً عن أي احتفالات، غير هدف واحد: الإصلاح الأخلاقي . أما الجنة فيجب أن تتحقق على الأرض، ولكن ذلك لن يكون ممكناً إلا بإلغاء الملكية الخاصة، مصدر الكراهية والحسد. بيد أن هذا الإلغاء لا يجب أن يتم بالعنف، بل يجب إقناع الأغنياء بأن حياتهم ليست سوى كذب وظلم وبأن عليهم تقاسم أملاكهم مع الجميع.

ذات مساء، فاجأ سوتاييف لصوصاً يغادرون أهراءه حاملين أكياس طحين. وبما أن كيساً بقي، حمله على كتفيه وانضم إلى اللصوص، قائلاً لهم: "يا إخوتي، لا بد أنكم بحاجة إلى الخبز، لذا خذوا أيضاً هذا الكيس الذي نسيتموه". وفي اليوم التالي، أعاد له اللصوص التائبون كل الأكياس. وفي مساء آخر، قرعت متسولة بابه، ففتح لها، وأعطاها طعاماً،ومكاناً لتنام. وفي اليوم التالي، ذهبت العائلة بأكملها إلى الحقول، فاستفادت المرأة من ذلك لكي تجمع كل ما وجدته ثميناً وتفر بأسرع ما يمكن. وقد أوقفها فلاحون وفتشوا رزمتها؛ وبعد أن اقتنعوا بأنها سارقة، مضوا بها إلى العمدة.

---

[1] ترمي إحدى شخصيات رواية الأبله لدوستويفسكي إلى النار برزمة من الأوراق المالية. وهذه الحركة ليست "أدباً" وحسب.

ولكن سوتاييف تدخّل سائلاً: "لماذا ربطتموها؟ - لأنها سارقة، وتنبغي محاكمتها. — لا تدينوا لئلا تدانوا. كلٌ منا مذنب بجرم ما، فلماذا تحاكمونها؟ سوف توضع المسكينة في السجن. فأي خير يتأتى من ذلك؟ أعطوها بالأحرى لتأكل ولتمض برعاية الله".

ويروي تولستوي أن هذه السّمة هي التي أسرته. ولقد أتى لرؤية سوتاييف واهتدى إلى إنجيله الشعبي. ذلك أنه كان بين الكونت والفلاح، على الرغم من الاختلاف في التربية والثقافة والعادات، قرابة نفسية وثيقة: التطلع إلى شيء أفضل مما هو موجود، والإيمان القلِق لمعرفة ما الذي ينبغي أن يكون موضوعه. وقد أثار حدث آخر حماس تولستوي: كان ابن سوتاييف، الذي دعي للخدمة العسكرية، قد رفض قسم اليمين وحَمْل بندقية، فأودع السجن، وأعلن الاضراب عن الطعام؛ وفي الأخير، جرى إرساله في فرقة تأديبية.

لقد كان سوتاييف المعلم، وتولستوي التلميذ وفي الوقت نفسه حامل العقيدة. وكما قال لوروا — بوليو، كان أفلاطون سقراط الريفي. ومعروف إلى أي تطرف غريب أفضى فكر الروائي السابق، المتهور جداً لأنه تخلى عن علم النفس لأجل الفلسفة. ولكنه، مثله مثل دوستويفسكي، كان يريد أن يكون واعظاً بالأخلاق، وإنجيلياً، ونبياً. ويغضب الشيوخ وسذاجة الأطفال، ضرب صفحاً بالحضارة الغربية، وبكل ما خلفته من رائع وقابل للنقد، وساوى بين الكهنة والرأسماليين، غوته والعالِم، شكسبير والبرجوازي، ولا يعني ذلك بالتأكيد أن كتابات تلك الحقبة لا تحمل سمة عبقريته، فلغته أكثر اكتنازاً وحيوية وأشد تشبعاً بالنكهة المحلية، وصدقه مطلق، ومثاليته لا شائبة فيها. ولكن كم إن لاهوته فقير، وكم دعواته

للعقل غشاشة بصورة لا واعية، وكم أن نظريته حول عدم مقاومة الشر لا يمكن أن تتكيف مع بشرية ميالة في أغلب الأحيان إلى العنف، وحيث من السخافة بمكان أن تدير خدك الأيسر لمن صفعك على الخد الأيمن!

ثمة مفكر غربي واحد وجد حظوة لديه: إنه جان جاك. بات "إنسان الطبيعة" لدى روسو "الموجيك الطيب"، وإن كان هذا الأخير أكثر واقعية من ذاك. لقد مزج تولستوي الجاهزة بإيمان الوكيل من سافوا[1] بالموعظة على الجبل، صانعاً من ذلك عقيدةً عرضها في كتابه دیانتي. ولقد اعتقد، بصورة ساذجة، أنه وجد في الإنجيل ما لم يخطر ببال أحد أن يراه فيه قبله. وفي الواقع، لم يفعل غير تأليف للنزعة الإنجيلية الشعبية، مع تواضعها وروح المحبة والأخوّة فيها، وازدرائها لاحتفالات الكنيسة، والإدانة التي وجهها، باسم يسوع، ضد الملكية، والدولة، والجيش، والمحاكم. و"التبسيط" الذي يريد تولستوي فرضه على كل المتحضرين ليس إجمالاً غير العودة إلى شكل بدائي للمجتمع. وقد كان فولتير كتب إلى روسو الذي أرسل إليه كتابه **Discours sur l'inégalité des conditions**[2]: "يحس المرء بالرغبة في السير على أربع أرجل حين يقرأ كتابك".

أياً يكن من العدمية المسيحية، والأناركية الإنجيلية لدى تولستوي، فلقد كان لعقيدته، مهما بقيت غامضة – وربما لأنها غامضة جداً – دويٌّ كبير في روسيا. لم يكن في وسعها أن تشكل أساساً لبدعة، لأنها على غرار عقيدة سوتاييف، لم تكن تنظم شيئاً، بل كانت تكتفي بالنصح، والوعظ الأخلاقي. لذا وجدت إصغاء أكبر لدى طبقات الأمة المثقفة مما لدى الجماهير

---

[1] Profession de foi du Vicaire Savoyard، وهو أحد كتب روسو الأساسية(م)

[2] حديث حول اللا مساواة في الظروف(م)

الشعبية، المدفوعة دوماً إلى التطبيق العملي لفكرة ما. لقد كان أنصار تولستوي، في الفترة التي كان رد الفعل البوليسي من جانب اسكندر الثالث قد سحق فيها الاندفاعة الثورية، أفضل ممثلي المثالية الاجتماعية: على الرغم من المغالاة التي كانوا يبلغونها أحياناً في "تبسيط" حياتهم، باللبس من دون تصنُّع، واحتقار المجاملات، والامتناع عن اللحم والكحول، عملوا بحماس لنشر عقيدة المحبة الخاصة بمعلمهم، وعلى الصعيد العملي لمكافحة البؤس والجهل وغياب الأخلاق لدى الطبقات الشعبية.

## بدع شعبية أخرى

بين الهرطقات الوطنية الصرفة الأخرى، التي ليست "طبعية" ولا "إنجيلية"، بالمعنى الذي أعطيناه لهاتين الكلمتين، فلنشر بشكل رئيسي إلى "التائهين"، و"غير - المصلّين" و"الناكرين".

يعكس الـ**bégouny** ("التائهون" أو "الهاربون")، على الصعيد الديني، سمةً مميِّزة وثابتة للشعب الروسي هي الميل إلى البداوة. فثمة واقع حدد مصير هذا الشعب، منذ بدايات تاريخه، هو وجود إقليم شاسع إلى الشرق من مكان سكنه الاول، منطقة دنيبير، وهو إقليم غير مسكون تقريباً كان يضع في متناوله احتياطاً هائلاً من الأراضي. إن روسيا الأوروبية والأسيوية، وهي بلد إعمار، لم تعرف تشبث الفلاح بحقله، والثبات الطوبوغرافي والنفسي للحياة الريفية. فالموجيك الهارب من سوط السيد، ومن متطلبات الضريبة أو التهديدات بالجوع، كان يمضي دائماً أبعد إلى الشرق، منتزعاً، بسكة الفلاحة الخاصة به، إمبراطوريةً واسعة من القياصرة. وهذه الحركة الدائمة لم تكن تعزز بالطبع حسَّ الملكية، بل كانت

تميل، بعد اندماجها بتعاليم الكنيسة الداعية إلى الزهد، إلى فصل الفرد عن الأموال الأرضية. وهذا الانفصال ليس أكثر حدة في أي مكان مما في بدعة الـbégouny، الذين كانوا يضيفون إلى ازدراء الملكية ازدراء الدولة، والمجتمع، والعائلة.

وبما أن هؤلاء المسيحيين المتشردين أناركيون كاملون، كانوا يغادرون مملكة المسيح الدجّال ويمضون للعيش في عزلة غابات الشمال أو في سهوب الجنوب.

في تلك الأماكن، من كان يرغب في الانتساب إلى البدعة كان يخضع لعماد غريب: كان طوفٌ مهيّأ على أحد الأنهر يحمل العضو الجديد وهو عارٍ تماماً، مع عرّابَيْه والواعظ؛ وكان هذا الأخير يقرأ صلواتٍ تلعن الشيطان وكل السلطات الدينية والزمنية، ثم يمزق جواز سفر[1] المرشح؛ وكان يتم تغطيس هذا الأخير في الماء، ثم يغطى برداء طويل أبيض، ويُقسم بتكريس نفسه لتشرد دائم.

هؤلاء الخارجون على القانون، الذين يعيشون خارج المجتمع، والذين يتم اختيارهم بوجه خاص من بين المتسكعين، أو الفارين من الجندية أو مجرمي الحق الخاص، كانوا ينصرفون إلى شتى أعمال الفسق الممكنة: السرقة، القتل، الفجور المجنون. وبالطبع كان الزواج مستبعداً من أعرافهم وكان أب بيغوني[2] يقول لابنته: "انجبي طفلاً في كل أسبوع إذا شئت، ولكن لا تتزوجي في الكنيسة". والشاب الذي يريد الاقتران بشابة يتصنع

(1) كانت هذه الوثيقة لا تنفصل عن أيٍّ من رعايا القيصر، إلى حد أن الناس يقولون مازحين: يتألف الإنسان من ثلاثة أجزاء، الروح، والجسد وجواز السفر.

(2) أي من بدعة الـBégouny (أو المتشردين) (م)

خطفها بالقوة، وهذا بلا ريب اثر من آثار الزواج الخارجي الذي كان سائداً لدى القبائل البدائية السلافية. ويتم التخلص من الأولاد بالتخلي عنهم أو قتلهم، وعمليات الاجهاض كثيرة. ما من بدعة روسية دعت إلى هذا الحد إلى الانفلات الجنسي، وممارسته.

أما أصول العقيدة لدى الـbégouny فتبسيطية؛ يرأس المسيح الدجال تنظيم المجتمع الحالي، والملوك والكهنة والموظفون هم مساعدوه. وينبغي الامتناع عن أي مشاركة في الحياة المدنية والدينية للبلد. وكانت محفورةً رائجةً لديهم تصور إمبراطور روسيا في هيئة المسيح الدجال، مرتدياً معطفاً من الأرجوان؛ يقدم له الشيطان ضوءاً ويقول له: "كن منفذاً لإرادتي"؛ ويتم تصوير الكنيسة الأورثوذكسية في شكل عاهرة. وحوالى العام 1870، دخل فلاح من مقاطعة فولوغدا، يدعى سامارين، إلى كنيسة بلدته خلال القداس، وأمسك بالكأس التي تحتوي خمر المناولة، وألقى بها إلى الأرض قائلاً: "أدوس بالقدمين عمل الشيطان"؛ وبعد توقيفه، أعلن أنه ينتمي إلى tolk ("بدعة") الـbégouny وأنه تصرف بالشكل الذي تصرف به ليستحق تاج الشهادة.

إن حركة "الهاربين" (أو المتشردين) بقيت على ما يبدو إلى أيامنا هذه، ولكن يصعب جداً تتبُّع تاريخها، وهذا أمر يمكن فهمه. والأمر يتعلق في كل حال ببدعة بوجه الحصر أقلّ مما باتجاه عام إلى التشرد، والحياة المتحررة من عوائق المجموعة البشرية المتشكلة والمنظّمة. فمن جهة، ينتمي الـbégouny إلى القوزاق، أولئك الجنود – قطاع الطرق الذين كانوا يُخيّلون عبر السهوب التي لا حدود لها، ومن جهة أخرى، إلى تلاميذ سوتاييف أو تولستوي هؤلاء الذين كانوا يرون في الدولة الشيطان شخصياً.

ويشتق الـnémoliaki ("غير – المصلّين)، كما معظم البدع الإنجيلية، من "عديمي – الكهنة". وقد أسس هذه البدعة قوزاقي من الدون، يدعى زيمين، كان قد شارك في حملة العام1812 ضد الفرنسيين. وكان يعلّم بأنه لما كانت أزمنة الروح القدس قد أزفت ينبغي أن ينقذ المرء روحه بإحلال تفسير روحي للكتاب المقدس محل أسرار الكنيسة. والعذراء مريم هي رمز الاعمال الصالحة التي تولّد المحبة والحكمة، أي المسيح. وهيكل الله الحقيقي موجود في قلب الإنسان؛ والصلاة الحقيقية هي الطهارة والمحبة. وحوالى العام 1870، كانت هذه الهرطقة قد انتشرت في جنوب روسيا، التي كانت فيها قرى بكاملها من "غير – المصلّين". وكان فلاح يدعى أرتييف يجتذب الجمهور بمواعظه المناهضة للكهنوت والأناركية. وقد جرى توقيفه، ومات في السجن. أما تلامذته فحرضوا الفلاحين على رفض كل الواجبات المدنية، وكثيرون من هؤلاء التائهين البائسين جلدوا وسجنوا؛ وطلب رفاقهم أن يتم احتجازهم معهم، فازدحمت السجون إلى حد الاضطرار لإطلاق سراح معظم أعضاء البدعة، والابقاء فقط على المحرضين.

ولنضف تفصيلاً مثيراً للفضول عن عقيدة زيمين، ربما ألهمه إياه إسم عائلته (تعني Zima "الشتاء"). كان يقسم تاريخ العالم إلى أربعة "فصول". الربيع، من الخلق إلى موسى؛ والصيف أو عصر الآب، من موسى إلى المسيح؛ والخريف، أو عصر الابن، من المسيح حتى العام 1666، والشتاء، أو عصر الروح، من هرطقة نيكون إلى نهاية الأزمنة.

وربما يكون الـotritsatéli ("الناكرون") فرعاً من الـbégouny، ولكنهم مضوا أبعد أيضاً في عدميتهم الدينية. فحوالى العام 1880، توصل تاجر من سيبيريا يدعى شيشكين بعد أن غيّر بدعته أربع مرات إلى خلاصة مفادها انه

لا إله ولا مجتمع، ولا دولة. وبعد توقيفه بسبب نشره أفكاره، مثل أمام قاضٍ سأله: "من أنت؟" فأجاب: "ألا ترى أني إنسان؟ أأنت أعمى؟"

- ما هو إيمانك؟

- لا إيمان لدي.

- أي إله تؤمن به؟

- أنا لا أؤمن بأي إله. الله لكم، أنتم الآخرين.

أنتم من اخترعه، أما أنا فلست بحاجة إليه.

- أنت تسجد إذاً أمام الشيطان؟

- أنا لا أنحني لا أمام الله ولا أمام الشيطان، لأني لست بحاجة للصلاة. والشيطان هو أيضاً من اختراعكم، والامر نفسه يقال عن القيصر، والكهنة، والـtchinovniki. أنتم أبناء أب واحد، وأنا لست منكم، ولا أريد التعرف إليكم".

لم يكن "الناكرون" يسلّمون بغير السلطة الذاتية لكل شخص في القضايا الدينية، وكانوا يرفضون، فضلاً عن ذلك، كل شكل من التنظيم الاجتماعي. ولكن ثمة سمة نموذجية لديهم هي أن عاداتهم طاهرة: لم يكونوا يشربون الخمر، أو يدخنون، ومن كان يعيش منهم مع امرأة كان يعتبرها كائناً مستقلاً، مساوياً له، وكان يسميها "صديقتي". هكذا حين أُحضر "ناكر"، مع زوجته وطفلة صغيرة أمام القاضي، سأله هذا:

- هل هذه امرأتك؟

- كلا، ليست هذه امرأتي.

- ولكنك تعيش معها؟

- أجل ولكنها ليست لي، إنها لنفسها؟.

عندئذ، سأل القاضي المرأة:

- هل هذا زوجك؟.

- كلا، ليس زوجي.

- ولكن من يكون إذاً؟

- أنا بحاجة إليه، وهو بحاجة إلي، وهذا كل شيء. ولكن كل منا هو ملك نفسه*.

- وهل هذه الصغيرة لكما؟

- كلا، هي من دمنا، ولكنها ليست لنا، هي لنفسها.

- أنتما مجنونان، وجلد الخروف هذا الذي ترتدينه هل هو لك؟

- كلا، ليس لي.

- لماذا ترتدينه إذاً؟

- ارتديه طالما لم تنتزعه مني. كان على ظهر خروف، وهو الآن على ظهري؛ وربما غداً يصبح على ظهرك. كيف تريدني أن أعرف لمن هو؟ أنا لا أملك شيئاً سوى فكري وعقلي.

وإذا كنا أوردنا هذه الحوارات بخصوص بدعة كان دورها، إجمالاً، غير ذي قيمة، فلكي نبيّن كيف دفعت باتجاه خاص نوعياً بالروس، يمكن أن نصفه بالتطرف المدمِّر، إلى نهاياته المنطقية. تدمير ما هو موجود باسم مبدأ

بنّاءٍ جديد. ولا يمكن إصلاح المجتمع الديني أو السياسي، في الواقع، بل يجب هدمه بالكامل وإعادة بنائه بعدئذ بمواد جديدة كلياً. ما من إصلاحات، بل ثورة. وكان تورغنييف وَصَف بـ"العدميين" طلابَ "الستينيات"[1] أولئك، الذين كانوا يعتقدون بأنهم لا يؤمنون بأي شيء وكانوا يتقدون إيماناً أعمى وكريماً. كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم ملحدون، وعقلانيون، ووضعيون، وماديون، وكانوا يضحّون لأجل رفاه الشعب برفاههم، وبحريتهم غالباً، وبحياتهم أحياناً. لم تكن "عدميتهم"، و"إنكار" أعضاء البدعة غير أحد التجليات الخارجية لتلك الطاقة الدينية الكامنة التي تنفخ الحياة في الشعب الروسي وتلهمه، وتسمح له بالبقاء مسيحياً، مسيحياً بعمق وبصورة أساسية، حتى في أكثر الاستنتاجات جنوناً التي يستمدها من الإنجيل. فبعد أن بُتر بقساوة بعض جسده، يواصل محبة كل البشر؛ وإذ يدين الزواج والعائلة، يبقى طهرانياً؛ ومن دون الذهاب إلى القداس، يعيش الأفخارستيا في ذاته. وبوجه خاص، ومهما تكن غرابة العقيدة التي يتبناها، يبقى أميناً على الدوام لمبدأ المحبة العظيم: إنه السامري الصالح وسمعان الساحر في آنٍ معاً.

ويستحيل وضع نقطة نهائية لقائمة البدع الشعبية الروسية. فاستجابةً لنداءٍ مُلهَم، كانت تنبت كفطر الغابات بعد المطر. وقد زال كثير منها من دون ترك أي أثر في تلك الأرياف الشاسعة، حيث لم يكن أحد يعرف القراءة أو الكتابة. وتمكن المهتمون بالفولكلور من جمع أغانٍ وصلوات ألفها أعضاء بدع لم يعد معروفاً حتى اسمها. ودعونا نُشِر، فقط للذاكرة، إلى الانشقاقات التالية: الـpliassouny ("الراقصون")، وهم تنويع من

[1] أي العقد ما بين 1860و1870(م)

الخليستيين، تكاثروا في الأورال حوالى العام 1870؛ وفي الفترة نفسها تقريباً، الـsamoboghi ("آلهة – أنفسهم")، الذين كانوا يؤلهون أنفسهم[1]؛ والـVozdykhantsy ("المتأوهون")، الذين يشير اسمهم إلى الطريقة التي يتجلى بها ورعهم؛ والـtchislenniki ("الحاسبون") الذين كانوا يقلبون رأساً على عقب صلاة اليوم لدى الكنيسة، ويجعلون من الأربعاء يوم أحد، ويحتفلون بالفصح في الأربعاء المقدسة؛ وأخيراً الـmaltchalniki ("الصامتون") الذي كانوا يرفضون قول أي شيء عن معتقداتهم، ويتحملون الجلد بالمقارع والتعذيب من دون أن يفتحوا فمهم. ومن الواضح انه ليس ثمة من نزوات لم يتخيّلها الورع الروسي. فلقد ولّد تكاثراً وتنوعاً في البدع قدمت لنا مثلاً آخر عنه أميركا وحدها. ولكن هذه الأخيرة هي أبعد ما تكون، في مجال الإيمان، عن التجديد بذلك القدر من الجرأة، والفرادة، والشغف المتقد الذي أبدته روسيا.

## بدع من أصل أجنبي

إن الانشقاقات الدينية الآتية من الغرب، والتي كسبت أتباعاً لها في إمبراطورية القياصرة، هي أقل إثارة للاهتمام بكثير، بالنسبة إلينا، من البدع الروسية الأصلية. فضلاً عن ذلك، هي لم تحظ إلاّ بانتشار نسبي جداً، اقتصر أحياناً على الطبقات المثقفة في الأمة.

---

[1] كان مثقفان، هما تشايكوفسكي وماليكوف، قد نشرا، حوالى العام 1875، عقيدة مشابهة سمياها "الديانة الإلهية الإنسانية". وكانا يقولان إن ممارسة العنف ضد كائن بشري هي انتهاك للحرمات. وينبغي ألا يرد المضطهَدون على فظاظات السلطة إلا بتأكيد ألوهتهم.

فالستوندية (بالروسية Chtoundizm) هي البدعة الشعبية الوحيدة المنبثقة مباشرة عن البروتستانتية الغربية. ويأتي اسمها من كلمة Stunde الألمانية ومعناها "الساعة"، وكانت تدل على اجتماعات المنشقين الانجيليين عن اللوثرية. وكان في روسيا الجديدة، في ضواحي أوديسا، معمّرون ألمان كثيرون، معظمهم معمدانيون أو مينونيون. وكانت تقواهم، ومعرفتهم بالكتاب المقدس، وبساطة عبادتهم تؤثر كثيراً في الفلاحين الروس المجاورين. وقد اهتدى أحدهم، المدعوّ راتوشني، وكان متوقداً في "البحث عن الله"، وذلك في العام 1860، وشرع يجمع كل مساء أهل قريته ليقرأ لهم الإنجيل. وقد نجح في وعظه إلى حد أن الناس تركوا الكنيسة، وتجاهلوا الكاهن، وتوجهوا إلى راتوشني لأجل الأسرار المقدسة. وقد اكتسحت العقيدة الجديدة المنطقة بأسرها، وشرع المتحمسون يخربون الكنائس، ويحرقون الأيقونات، ولكن هذه التجاوزات، المتعارضة مع روح اللطف في البدعة لم تستمر طويلاً. وكان راتوشني، مؤسس الشتوندا الروسية، يتطلب من الاعضاء الجدد عماداً جديداً. أما الفلاح الآخر، بالابان، رئيس إحدى "الأخويات الإنجيلية"، فرفض على العكس ممارسة تجديد العماد.

ولاهوت الستونديين، كما لاهوت معظم البدع الروسية، هو لاهوت تبسيطي. وهو يقتصر تقريباً على القول إن كل واحد يمكن أن يتواصل مباشرة مع الله من دون تدخل القديسين والكهنة. وهو يهتم بمبادئ الإيمان أقل بكثير مما بالعبادة والأخلاق، ويدين الصيام معلناً ما يلي: "ليس ما يدخل جوف الإنسان هو الذي يُضيع الإنسان، بل ما يخرج منه. وإذا كان الجسد ضعيفاً فبدلاً من زيادة إضعافه ينبغي على العكس تقويته بغذاء سليم ومنتظم". إن الإنسان هو الكائن الأكثر كمالاً في الخليقة؛ وهدف وجوده لا يجب أن يكون الألم، بل السعادة عن طريق إصلاح الأخلاق.

والستونديون لا يشربون أبداً، ولا يدخنون، إنهم شرفاء ونساؤهم متساويات مع أزواجهن. وكل الإنجيليين الروس، يطبقون اشتراكية بدائية: الأرض ملك للجماعة وكل واحد لا يزرع منها ألا ما هو ضروري لبقائه؛ العمل إجباري للجميع، ولكن من مساوئ الاخلاق أن يثري المرء؛ وواجب الجماعة هو مساعدة الضعفاء والبؤساء. والقداديس تقتصر على غناء المزامير والأناشيد وقراءة التوراة؛ وكل حاضر يمكنه أن يشرح النصوص المقدسة.

ومن الواضح أن الستونديين يقتربون كثيراً من شاربي الحليب، سواء في العبادة أو في الاخلاق. ولقد اضطهدتهم مثلهم حكومة كانت تخيفها جذريتهم الاجتماعية. وبين العامين 1870 و1880، جلبت دعَاوى عديدة إلى قفص الاتهام رجالاً ونساء كان يؤخذ عليهم عدم التردد على الكنائس. وكانوا يجيبون بصوت هادئ: "نحن لا نفعل أي شر، ونعمل على اجتثاث السكر وباقي العيوب من صفوفنا. نصلي في بيوتنا، لأن يسوع المسيح قال: "حيث يجتمع ثلاثة باسمي، أكون بينهم". ونحن نقرأ الإنجيل ونشرحه ببساطة".

وبما أن بالابان الذي تحدثنا عنه أعلاه سُجن في مدينة من مقاطعة كييف، احتج جمهور أنصاره بالتطواف عبر الشوارع، وكان كل واحد بينهم يجر بخيطٍ أيقونةً في الوحل؛ وقد ذهبوا إلى الكنيسة وطلبوا من الكاهن أن يخلصهم من تلك "الأوثان" غير النافعة؛ وحين رفض أشبعوه ضرباً. وقد نتجت من ذلك سلسلة دعاوى، وحكم على العديد من أعضاء البدعة بالسجن والنفي. إلا أن البدعة قاومت كل أشكال القمع ويبدو أنها ما زالت موجودة إلى أيامنا هذه.

وإذا كانت المعمدانية الألمانية دخلت روسيا من الجنوب، فالمعمدانية الأنغلوسكسونية وصلت إليها من الشمال في فترة أكثر حداثة. وبفضل دعم مالي قوي جداً، انتشرت في شتى طبقات السكان. ولما كانت أقل جذرية من الستوندية، اضطهدتها الحكومة القيصرية أقل. وبما أن ثورة 1917 أعلنت حرية العبادات، ضخَّم المعمدانيّون عددهم في روسيا الأوروبية وسيبيريا. واجتذب مرسوم الرابع من كانون الثاني/يناير 1919، إلى صفوفهم منتسبين جدداً، وكان هذا المرسوم يجيز رفض المشاركة في الأعمال الحربية، بسبب قناعات دينية. وخلال دعاوى أقيمت ضدهم، جرى التثبت مع ذلك من أن المعمدانيين الإنكليز والأميركيين لم يكونوا يرفضون الخدمة العسكرية. لذا فخلال مؤتمر البدع "غير المقاومة" الذي تم في العام 1923، أعلن ممثلها بافلوف أن المعمدانيين السوفييت سوف يتمسكون في المستقبل بشرف الانخراط في الجيش الأحمر.

وثمة بدعة تتميز من كل البدع التي درسناها في هذا الفصل بسبب كونها بدأت في صالونات المجتمع الراقي. فمجتمع بطرسبورغ، في أوساطه العليا، كان في عداده متحمسون دينيون دائماً احتقروا هرطقات الموجيك الفظة وأعدوا استقبالاً جيداً للأنبياء الزائرين على ضفاف نهر النيفا. وقد خدع كاغليوسترو العديدين في ذلك المجتمع في نهاية القرن الثامن عشر، وكان بين من كسبتهم مدام دو كرودنر القيصر اسكندر الأول بالذات. وكانت عقائد سان مارتين، وسويندنبورغ، والماسونيين، قد اجتذبت على التوالي الأنفس المحبة للهرمسية[1]. وفي نهاية عهد اسكندر الثاني، حصلت حركة مشابهة.

---

[1] الإيمان بالكيمياء السحرية(م)

وفي العام 1878، ارتأى نبيل إنكليزي، هو اللورد رادستوك، أن يأتي للتبشير بالإنجيلية في بطرسبورغ. ولما كان يتكلم الفرنسية في البيوت الأكثر أرستقراطية، فسرعان ما عرف رواجاً. وقد وضع مالك غني، يدعى باشكوف، نشاطه وثروته في خدمة "الرادستوكية"، التي لأجل ذلك سرعان ما اتخذت تسمية "الباشكوفية"، وفي حين بقي شكل العقيدة الأول محصوراً في الصالونات، انتشر الثاني في العديد من المناطق الروسية بفضل المناشير التي كان يأمر النصير السخي بطبعها بوفرة.

ورادستوك يكاد يكون مبتدع هرطقة، فلقد كان يتحاشى أي مساجلة في مبادئ الإيمان ويكتفي بشرح الإنجيل لناس مجتمع مغترّين بالدخول في اتحاد حميم مع المخلّص بواسطة إنجيلي نبيل. أما باشكوف فكان يجمع في فندقه الفخم خدماً مع أسيادهم، وعمالاً بجانب موظفين كبار؛ وكان يقرأ الإنجيل ويعلق عليه بطريقة غامضة، ثم يدعو كل الحضور للركوع وسماع الصلاة التي يتلفظ بها. وكانت الامسية تنتهي بأحاديث مألوفة كان يجيب خلالها عن أسئلة ساذجة أو مموَّهة تُطرح عليه.

كل ذلك كان بعيداً عن الأذى، ولكن ما لم يبد كذلك في نظر الحكومة، إنما كان التطبيق العملي الذي يقوم به في الأرياف من قرأوا كراسات باشكوف؛ فلقد شوهد فلاحون يرمون بأيقوناتهم من النوافذ. وقد استمطر مدعي عام السينودس الأقدس، بوبيدونوستسيف، صواعقه على "الهرطقة الباشكوفية": طُرد المؤسس لأجل ذلك من العاصمة، مع صديقه ونصيره الكونت كورف. ولقد كتب بوبيدونوستسيف في تقرير إلى القيصر ما يلي: " حتى في المجتمع الراقي، وُجد مجانين تخلوا عن إيمان آبائهم لاجل عقائد باطلة، جاء بها بدعيون عابرون". وقد هدَّأ القمع غليان الصالونات الصوفي، في حين ذابت "الباشكوفية" في البدع الإنجيلية الشعبية.

وثمة بدعة أخرى من أصل إنكليزي دخلت مجتمع بطرسبورغ الراقي، هي تلك التي كان قد أسسها إيرفنغ والتي كان أعضاؤها يسمّون أنفسهم رسل الأيام الأخيرة. كانت قد ولدت حوالى العام 1830، وأدخلت عقيدتها بعد ذلك بوقت قصير إلى روسيا، على يد المدعو وليام داو. وكانت ترفض اعتبار نفسها "متعصبة" وتستقبل المسيحيين من كل الطوائف؛ وكانت تطلب فقط من الأعضاء الجدد الإيمان بالله والروح القدس وألوهة المسيح ومجيئه الوشيك. كان ينبغي أن يكون المؤمنون مستعدين لرجعة المسيح في كل دقيقة. وكان واعظوها يسمّون "رسلاً"؛ وكان مفترضاً أن الله قد اختارهم وأنهم يتلقون مباشرةً الوحي الذي يجعلهم يتكلمون. وكانت كل واحدة من جماعاتهم برئاسة أسقف يحمل لقب "ملاك"؛ وكان يساعده "راعٍ" مكلف بالحرص على خلاص المؤمنين، و"إنجيلي" مكلف بالدعاوة، و"قديم" موكلة إليه وظائف إدارية.

كان "رسل الأيام الأخيرة" كثيرين في ألمانيا، ومن هناك، وعبر بلدان البلطيق، عرفت عقيدتهم حظوة متجددة في بطرسبورغ. وقد وعظ بها المدعو ديتمان، وكان إيرفنغياً متحمساً، في الصالونات، في العام 1880 تقريباً؛ وكان يشرح أنه عندما سيدوي نفير الدينونة، سيُبعث أحياء أولاً "الموتى في المسيح"، ثم "رسل الأيام الأخيرة" الذين سيجلسون عندئذ عن يمين الرب في حين ستكون الأرض فريسة للمسيح الدجال. وقد أغوى هذا المنظور المجمّل بعض نساء المجتمع الراقي؛ ولكنهن سرعان ما برّدت حماسهن الطهرانية التي كان "الرسل" يفرضونها عليهن: كان محظراً عليهن أن يقرأن روايات زولا، والذهاب إلى حفلات الرقص أو حتى إلى المسرح. وإحداهن، التي ذهبت وصفقت لسارة برنار، التي كانت في جولة في

بطرسبورغ، اتخذت الجماعة قراراً بإقصائها مؤقتاً؛ وكُلِّفت "راهبة إنجيلية" بمراقبتها؛ وبما أن المذنبة سمحت لنفسها بأن تطلب منها أن تجيز لها الذهاب إلى حفلة رقص مقنّع، خجّلتها بأن وصفت لها اللوحة المحتملة للمسيح وقد وصل إلى القاعة ووجد عضو بدعته وقد تقنّعت بصورة فاقدة للحشمة. لذا اختفت الإيرفنغية، كما "الرادستوكية"، على الرغم من جهود ديتمان وجنرال متقاعد رقي إلى رتبة "رئيس ملائكة" في الجماعة. أما ما ساهم أيضاً في انحطاطها السريع في روسيا، فهو أن الإثني عشر رسولاً الذين اختارهم إيرفنغ، ماتوا الواحد بعد الآخر، من دون أن يحصل الحدث الذي بشروا به وانتظره تلامذتهم بنفاد صبر.

ومن المثير للفضول ان نلاحظ أنه على الرغم من كون الثورة ألغت أي ديانة رسمية، لم ينقص عدد البدع في روسيا، بل ربما زاد بفعل مجلوب قادم من الخارج (عبر أي طرق؟). هكذا يشير جزء من دائرة المعارف السوفييتية ظهر في العام 1948 إلى وجود مجموعات مجيئية (أدفنتية) وميثودية.

يبقى أن نشير إلى بدعة لا تدخل في أيٍّ من الفئات التي استعرضناها: إنها بدعة الـSoubbotniki ("السبتيين"). هل تَرْقى، عبر طرق جوفية ولا نهاية لها، إلى هرطقة "متهودي" نوفغورود، أو هي ناتجة من نفوذ الجماعات اليهودية الأوكرانية الهامة؟ أياً يكن، فخلال القرن التاسع عشر بكامله، مارست الحكومة القيصرية القمع ضد بدعيين كانوا يحلون السبت محل الأحد، ويرفضون العهد الجديد، ويمارسون الختان وحظر اللحوم الدنسة، وكان بعضهم يصل إلى حدود إعادة تعدد الزوجات الخاص برؤساء الأسباط في التوراة. ومعظم السبتيين الذين اكتشفتهم الشرطة نفوا إلى

القوقاز. وهنالك، ارتأى "الأنقى" بينهم أن يُحلوا العبرية، في صلواتهم، محل الروسية[1].

ها نحن وصلنا إلى نهاية الجولة الأكثر غرابة التي يمكن القيام بها في الميدان الواسع للهرطقات المسيحية. وإذا كنا خصصنا هذا المجال الواسع لدراسة البدع الروسية، فلأنها سمحت لنا بأن نلاحظ كل ما في وسع خيالٍ جامح أن يبنيه، إذا لم يكن على أرض اللاهوت الصرف، فعلى الأقل على أرض الممارسة الدينية. لقد جعلتنا، من جهة أخرى، نلمس بإصبعنا قلب الذهنية الروسية بالذات، والبحث العنيد عن خلاص الإنسان والمجتمع، والتطلع إلى حياة جديدة وحماسية، وإن اقتضى ذلك أن تُبنى مقابل أقسى التضحيات وأسوأ الهزات.وربما بدخولنا إلى جوهر إيمان هذا الشعب، نفهم بشكل أفضل لماذا وكيف صنع ثورةً هزت أساسات العالم.

---

[1] فلنشر، على سبيل الفضول، إلى أننا نجد في فلسطين قرى يسكنها روس أقحاح، هاجروا بلا شك إلى هذا البلد عن قناعة سبتية، وهم يعتنقون اليهودية بحماس يذهل جيرانهم اليهود.

# خاتمة

كان أمكننا أن نضع عنواناً فرعياً لهذا المؤلَّف هو التالي:

عظمة الإيمان وعبوديته

إنه لجميل، وأنه لنبيل أن يتعلق المرء بشدةٍ بمعتقدٍ ما، وأن يجعل أفكاره وحياته تتوافق معه، وأن يضحي بالمادة على مذبح المثل الأعلى. وإنه لعظيم حين يكون المرء جزءاً من أقلية مضطهدة، ويفضِّل على الجحود السجن أو النفي، أو التعذيب أو الموت. إن الشهداء – شهداءَ التفتيش كما شهداء المدرَّج الروماني – هم "شهود" الفكر. ولكن لماذا ينبغي إذاً للمؤمن، بسبب تشوُّهٍ في الطبيعة الإنسانية، ألا يكون لديه في الغالب أي رحمة حيال ذلك الذي لا يسلِّم بحقيقته، والذي ينكرها أو يعدِّلها؟ لماذا ينبغي أن يعتبره أخاً زائغاً، أو خائناً، أو عدواً؟ وأن يحتقره، ويكرهه، وأن يضطهده حين تتوفر له السلطة المادية لفعل ذلك؟

إن انعدام التسامح يقوم في أغلب الأحيان على الكبرياء[1]. وهو يدمج في هذه الحالة الغرور والرغبة في السيطرة. وهذان الشعوران أكثر وضوحاً لدى رؤساء الكنيسة أو الجماعة مما لدى المؤمنين البسطاء، الذي تعلمهم الحياة الرحمة، وهما يصلان إلى الذروة لدى مبتدعي الهرطقات، لدى أولئك الذين "ابتدعوا" حقيقة جديدة، والذين تخدع ثقتهم بأنفسهم الأعضاء الجدد. ولكنهما متواتران أيضاً وسط أعضاء بدعة. إن المعنى الذي

[1] كان رئيس أساقفة باريس بيريفيكس قد قال عن راهبات بور – رويال إنهن "طاهرات كملائكة ومتكبرات كأبالسة".

تتخذه كلمة "بدعي" يبيّن إلى أي حد يميل حب الذات إلى إعطاء الإيمان الانشقاقي مظهراً متحيّزاً وقتالياً. وإذا كان اللا تسامح مع العقيدي يمكن أن يجد تبريراً له لدى من نظن أنه يعرف الحقيقة ويعتبر أي رأي آخر خطأً وضلالاً، وإذا كان يمكن التسليم أيضاً بأن يبذل هذا المؤمن كل جهوده لنشر حقيقته، لا يمكن مع ذلك استحسان أن يستخدم الإكراه لبلوغ هذه الغاية. والتاريخ يقدم لنا، للأسف!، أمثلة كثيرة على تجاوزات الدعاوة بواسطة العنف والاضطهاد.

إن التشدد يميز الامتثاليين كما غير الامتثاليين، ولكن هؤلاء الآخرين يأثمون فضلاً عن ذلك بكل التجاوزات التي يملأ تعدادها الصفحات السابقة. وسواء تعلق الأمر بالهذيانات النشكونية[1] لدى الغنوصين، أو بالنزوات الكريستولوجية والماريولوجية[2] لدى الكاتارين والخليستيين، أو بالطقوس الدموية لدى السكوبتسيين (Skoptsy)[3]، فنحن دائماً وفي كل مكان إزاء الحرية وقد تحولت إلى إباحية. والاباحية هي بالضبط الكلمة المناسبة، إذا نظرنا إلى الدور الذي تلعبه الحياة الجنسية في نظرية البدع، وبوجه خاص في ممارستها: تشويهات فاقدة للحشمة لمبدأ التجسد الإيماني، وتأليه مبتدعي الهرطقات أو "الأنبياء"، وتشويش الجمعيات الليلية، وتحقيق العفة عبر الخصاء. ويبدو أنه إذا أُطلق العنان للذهن البشري، على الصعيد الديني، يجد لذة في أن يعض على الشكيمة بالأسنان[4].

(1) أي المتعلقة بنشأة الكون(م)

(2) أي التي تتناول دراسة المسيح (Chrsitologie)، ودراسة مريم (mariologiques) (م)

(3) أي المخصيين(م)

(4) تعبير المقصود منه هو الاستشاطة غضباً أو ممارسة شتى الأهواء والنزوات(م)

السلطة أو الحرية، الوحدة أو التنوع، هاكم مأزقين يعقّدان - ويفسران - مشكلة الإيمان. هل الـ"نحن" فوق "الأنا"؟ هل يمكن الجماعة، ويلزمها، استعباد الفرد؟ إنه جدال لا نهاية له وربما بلا حل، لأنه انعكاسٌ لطبيعة الإنسان المزدوجة: روح الخضوع وروح الاستقلال. فإذا كانت الأولى تستوجب المديح، ليست الثانية مستحقة للإدانة، ذلك أنها أحد وجوه الكرامة البشرية. وإذا كان هنالك شيء من الغرور في الميل الأقلّوي الذي ولّد البدع الدينية، وفي الرغبة بالتميز من الجمهور المحيط، فثمة أكثر وأفضل: ثمة القلق الأخلاقي، والبحث المحموم عن الحقيقة، وهو بحث يضل حيناً ولكنه متجرد بشكل عميق من المصلحة، وكان خطراً في الماضي، بصورة دائمة تقريباً. ولقد كان الكاتب الكاثوليكي، إيمانويل إيغرتر، محقاً إلى حد بعيد حين قال، في معرض الكلام على هرطقات القرون الوسطى: "الأكثر غرابة بينها أنقذت على الرغم من كل شيء حرية الرأي وثمن النزعة الفردية. لقد أنقذت الفضول، وعدم الرضى والسّنان الحاد لدى الروح. أما الامتثالية فتشكل خطراً ثاقباً وعميقاً: إنها تترك الضمير مرتاحاً والحقيقة راكدة".

السلطة أم الحرية؟ الالتزام بسلوك طريق مرسومة سلفاً أو امكانية اختيار المرء طريقه؟ لقد كانت كلمة **hairesis**، باليونانية، تعني في الأصل "الاختيار"، "التفضيل". وبالفعل، فإن "الاختيار" على مستوى العقيدة، هو التعرض لخطر السقوط في الهرطقة. فلنقرأ، في هذا الصدد، ما يقوله لنا قاموس اللاهوت الكاثوليكي (Dictionnaire de théologie Catholique)، في مادة "تفسير الكتاب المقدس": يثبت مثال البروتستانت القدامى والمُحْدثين كل ما يمكن أخذه من التوراة، باسم منظومة محددة سلفاً. على العكس،

يكون تحليل الإيمان، في الكنيسة الكاثوليكية، عاصماً من عسف الابداعات الشخصية أو طغيان المنظومات المانعة، لأنه يدعو لمراقبة التصورات الخاصة، ولو كانت الأكثر ملاءمة والأشد إغراء، بواسطة السلطة العامة، التي تملك وحدها صلاحية اتخاذ القرار في نهاية المطاف".

وكان رد سلفاً على هذا الرأي الكاثوليكيّ اللاهوتيُّ البروتسانتيُّ أوغست ساباتييه، بنشره كتاباً بعنوان **Les religions d'autorité et la religion de l'esprit**[1]. والحال أن الروح ينفخ، في الواقع، حيث يشاء. لقد سبق ورأيناه ينفخ غالباً، في اتجاهات غريبة. ولقد أعطانا هراطقة القرون الأولى، بوجه خاص، وأعضاء البدع البروتستانت، المشهد المتنوع لكل ما يمكننا أن نأخذه من الكتب المقدسة ولكل ما يمكننا أن نضيفه إليها. ويا له من إنجيل مسكين، في الحقيقة، يتم الطلب منه بإلحاح، وتشريحه، وهرسه لجعله يوضح ما تركه غامضاً أو لجعله يقول ما لم يقله على الإطلاق[2]! وكم من الوقت المضاع، كم من الرق أو الورق المسوَّد، كم من الشتائم المتبادلة، كم من الدم المراق لإثبات أن يسوع إنسان أكثر مما هو إله أو إله أكثر مما هو إنسان! فالمجامع تلعن، والرسائل البابوية تعرض، والقرارات البابوية تدين، والمفتشون يعذبون، والمحارق تشوي. وعلى الرغم من التحديدات، على الرغم من القوانين الكنسية، على الرغم من التحريمات، لا تنفك الحقيقة، المنادى بها بتلك الدرجة من الأبّهة والاحتفال، تناقش ويعاد نقاشها باستمرار.

---

[1] ديانات السلطة وديانة الروح(م)

[2] وهي شروح عديمة الجدوى جداً، ولا سيما أن الأناجيل كتبت باليونانية ونحن نجهل بالتالي المضمون الأصيل لكلمات يسوع، التي نطق بها بالآرامية.

هذه الحقيقة يحددها اللاهوتيون، الرسميون أو المنشقون، مدعمينها بالكثير من الاستشهادات، والتفسيرات والمماحكات. أما شعب المؤمنين فيقبل بها بناء على الثقة، بإيمان الحطّاب، العاجز في أغلب الأحيان عن استيعاب دقائقها. وكما قال بوردالو في إحدى عظات الصيام عن التقدير: "إن النفس البسيطة وحسنة النوايا لا تدعي التعمق في اللاهوت والعلم ومعرفة أسرارهما". فالممارسة تهم، في الواقع، المؤمن المتوسط أكثر بكثير مما تهمه النظرية. والمثقفون الكاتاريون يستمتعون بالهندسة المعمارية لنشكونيةٍ ثنوية، ولكن اتباع البدعة يصعدون منشدين إلى المحارق لأنهم وعدوا "شيوخ"هم بتفضيل الموت على الارتداد. والجانسينية من أكثر العقائد تجريداً، ولكن تشنجيي سان – ميدار يُلبسونها ثياباً تنكرية رعاعية. والورع المتوقد لدى البدعيين الروس يطبِّق إلى الحدود القصوى أشد الاستنتاجات فظاظة من المبدأ الذي يلهمه.

وقريبٌ إلى مأزق السلطة أو الحرية" مأزقُ "الوحدة أو التنوع". هل من المفضّل أن يربط إيمان إجماعي كل أعضاء مجموعة بشرية، أو يَحْسُن أن يتمكن كل واحد من اختيار الدين الذي يروق له؟ سوف يجيب الكاثوليكي بنعم عن السؤال الأول، فيما يجيب البروتستانتي بنعم عن السؤال الثاني. ونحن نلتقي هنا مجدداً مشكلة السيكولوجية الوطنية التي سبق أن التقيناها. وقد أظهرنا مراراً التعارض بين الشعوب اللاتينية، من جهة، والشعوب الجرمانية والأنكلو – سكسونية، من جهة أخرى. فالشعوب الأولى تميل إلى اعتبار الإيمان كما لو كان قانوناً صالحاً للجميع ويجب ألا ينتهكه أحد: لما كانت وريثة فكرية لروما القديمة، أرادت بدورها أن ترسي السلام الروماني (la pax romana) في العالم المسيحي. وقد ولدت من التوتاليتارية السياسية

القديمة، بالطبع، توتاليتارية دينية كان يتم فرضها عند الاقتضاء، بالقوة، كما الحال مع الأخرى. ولم تكن محاكم التفتيش، في أي مكان، بصرامة ما كانته في إسبانيا، ولم تكن الحروب الدينية أشد شراسة، في أي مكان، مما في فرنسا. وإذا لم تكن إيطاليا شهدت تشنجات من هذا النوع، فلأن شعبها، على المستوى الذاتي، لم يكن يميل كثيراً إلى الانشقاق العقيدي. أما بخصوص الإصلاحي الكبير الوحيد الذي أنتجه العرق اللاتيني، يوحنا كالفن، فمعروف أنه أقام في جنيف الحكم التيوقراطي الأكثر إطلاقاً.

إن اللوحة التي تقدمها لنا شعوب الشمال مختلفة تماماً. فالإيمان بالنسبة إليها خاص بالشعور على وجه الحصر، وهو يقبل بالتنوع، بالتالي. فالمؤمن يفهم أن في وسع جاره الإيمان بطريقة مختلفة عن إيمانه هو: لا يصدمه ذلك، ولا يغيظه، ولا يقلقه.

ففي ألمانيا، عاشت الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة اللوثرية، منذ بدايات الإصلاح الديني تقريباً، بصورة سليمة جنباً إلى جنب. وقد شوهدت مبانٍ تستخدم للاحتفال بالعبادتين، حيث القس يعقب خوري الرعية يوم الأحد، والعظة تعقب القداس. وفي إنكلترا، أُرسي بعد فترة صراعات دينية واضطهادات للمنشقين نظامٌ متسامح يستجيب نزعة فردية عميقة. أما أميركا الشمالية فقد نجحت في تقطيع المسيحية إلى عدد كبير من الأجزاء المتباينة بحيث يبدو أن من الصعب أن تكون انتسبت ذات يوم إلى كلٍّ واحد.

هكذا، في حين كانت البروتستانتية تنقسم أكثر فأكثر، كانت الكاثوليكية تتوصل، عبر جهد ثابت باتجاه الوحدة العقيدية والانضباطية، إلى أن تلغي في صفوفها الهرطقة وحتى الابتداعية. ولم يعد شيء يذكّر، اليوم، بمحاولات تفكيك الكنيسة التي قامت بها بدع كالأريوسية، أو الكاتارية

والجانسينية. لم يعد يوضع موضع النقاش الثالوث الإلهي، أو طبيعة يسوع المسيح المزدوجة أو عقيدة النعمة. لكن ثمة خطر آخر يظهر الآن: إن من ينفصلون عن روما يصبحون ملحدين عموماً، او جاحدين، أو لا مبالين، وهؤلاء الأخيرون يشكلون الحالة الأشد خطراً.

فاللامبالاة هي الشر الأكبر في زماننا، من وجهة النظر الدينية. لقد كانت الهرطقة شكلاً من أشكال الإيمان، وكان الجحود (أو الارتداد) أيضاً تحية مهينة موجهة إلى الإيمان. وحتى الإلحاد المناضل لدى المعادين للإكليروس. لدينا كان، إجمالاً، نوعاً من المثالية؛ فلقد كان يقاتل باسم العقل وكان لدى السيد هوميه[1] القدر نفسه من المبادئ الذي كان لدى الأباتي بورنيزيان. وما هو، في الوقت الراهن، أسوأ بكثير من الهجمات ضد "الإكليروس"، إنما هو لامبالاة الكثيرين حيال قضايا الإيمان. وهي لا مبالاة منتشرة بشكل خاص في الأوساط الشعبية في كل البلدان، سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية. وإذا كان أمكن بيوس الحادي عشر أن يقول في رسالته البابوية **Quadragesimo anno**: "نحن نواجه عالماً سقط مجدداً في جزء كبير منه في الوثنية"، وفي مكان آخر: "إن جحود الجماهير هو أكبر فضيحة في قرننا"، فكلمتا "وثنية" و"جحود"، الطبيعيتان على لسان لاهوتي كاثوليكي، ربما تكونان "دينيتين" جداً بحيث لا يمكن أن تَدُلاّ على عقلية لم تعد لها أي علاقة بالدين، وليست نقداً ولا نفياً له، بل هي جهلٌ به وانفصال لا واعٍ عنه.

كما أن النضال ضد الابتداعية لدى الكاثوليك، والتنافس بين البدع

[1] إحدى شخصيات رواية مدام بوفاري، لفلوبير، وهو يجسد الحماقة البرجوازية(م)

لدى البروتستانت، يبدوان تافهين اليوم إذا قورنا بخطر يهدد المسيحية بكاملها! فبدل أن يتخاصم المسيحيون في ما بينهم، أليس من واجبهم التوحد ضد العدو المشترك، ألا وهو الإلحاد؟ فحين نقرأ، على سبيل المثال، قصة الأب داميان، نحس بانطباع مأسا – هزلي حين نراه ينافس أنجليين أميركيين على نفس البؤساء المصابين بالبرص في مخيَّم في جزر هاواي، ونتساءل إذا لم يكن من الأفضل استخدام الراهب البطل لنشاطه في مكافحة الإلحاد في منازل عمال المناجم في مسقط رأسه بليجكا؟ وإذا لم يكن من الأفضل، بوجه عام – ومن دون أن يراد التقليل من أهمية إنكار المرسلين الرائع لذاتهم - ، إعادة بيض إلى الإيمان بدلاً من جعل سود أو صفر يهتدون إليه، ولا سيما أن عدد الاهتداآت لا يتناسب إطلاقاً مع مقدار المشقة والمال المخصصين لها منذ زمن بعيد جداً.

لقد ظن الفاتيكان أن أصل الإلحاد الحديث يكمن في الليبرالية. وهذه العقيدة الاخيرة (أو بالأحرى هذه النزعة الفكرية)، التي هاجمها بيوس التاسع، وداراها ليون الثالث عشر، ثم أدانها من جديد بيوس العاشر وبيوس الحادي عشر، هل تتحمل حقاً المسؤولية عنه؟ الم تعترف على العكس للجميع بحق اعتناق المبادئ التي يعتبرونها الأفضل؟ وألم يسمِّ الكاثوليك الفرنسيون بالذات أنفسهم ليبراليين زمناً طويلاً، بالتعارض مع تشدد المعادين للإكليروس؟ وبوجه خاص، ألا نشهد اليوم بالذات تقارباً ضرورياً بين الليبرالية والكاثوليكية؟ ولكن، من جهة أخرى، ألم تكن الليبرالية خطأ القرن التاسع عشر، وهو خطأ سامٍ ونبيل بلا ريب، ولكنه خطأ أياً يكن؟ فهل الإنسان عاقل كفاية بحيث يحترم كل الآراء، حتى تلك التي لايوافق عليها، ويمتنع عن السعي لفرض الحقائق الوحيدة التي يُجلها

على الغير؟ وباختصار، هل يمكن أن تعيش البشرية من دون مبادئ إيمان؟

إن ذلك مدعاة للشك حين ننظر إلى الخطر الآخر الذي يهدد المسيحية اليوم، وأنا أقصد الدغمائية السياسية. فيبدو أن عقيدة تعليم مقدس انتقلت من صعيد ديني إلى صعيد علماني، وأن السلطة المدنية ادعت لنفسها حقوقاً على ضمير المحكومين لم تكن ملكاً، في يوم من الأيام، وحتى زمننا هذا، إلا للسلطة الكنسية. وفي بلدان عديدة، أظهرت سلطة الأفكار أنها أكثر تشدداً من التيوقراطية. وقد رأينا آثارها في إيطاليا وألمانيا، ونراها الآن في روسيا. فإذا كان البلاشفة، المولعون بالمادية الفلسفية، يمتنعون عن التشديد على الطابع الديني للنظام التوتاليتاري، فالإيطاليون والألمان لم يترددوا في الإعلان عنه. فلقد كتبت صحيفة فاشية ما يلي: "نحن نذكّر بأن الدوتشي لا يمكن أن يناقش؛ لا ينسينَّ أحد أن موسوليني هو رجل العناية الإلهية". وكنا قد قرأنا في صحيفة نازية: "إن مسيح الرب هو رفيق نضالنا، فلقد أرسل لنا الله مخلصاً، هو الفوهرر". وفي موسكو بالذات، في الساحة الحمراء، يقدم الجمهور كل يوم لجثمان لينين احترامات شبه إلهية.

والأمر الأكثر غرابة هو أن هذا الميل إلى الدغمائية السياسية لا يمتد اليوم إلى بلدان أوروبا الشرقية وحسب، بل يجتاح حتى الشعوب التي كانت تعتز باحترامها التقليدي لحرية الرأي. ففي فرنسا بالذات، حققت الروح الحزبية تقدماً خطيراً، إلى حد أنه قد يكون بالامكان التساؤل إذا لم يكن الغرب سيخون ذات يوم رسالة صنعت مجده، فتنتقل إليه عدوى الاستبداد الروحي.

إذا كان الأمر كذلك، فهل يجب أن نَخْلُص من ذلك إلى اعتبار أن

الليبرالية متعارضة جذرياً مع الطبيعة البشرية وأن القرن الأخير كافح عبثاً لجعلها تنتصر؟ هل ينبغي ترداد الكلمة التي تفوه بها من لم أعد أذكر اسمه، قائلاً: "التسامح مجرَّد تمنٍّ، بينما اللاتسامح واقع".

إن الدراسة التي تناولنا بها للتو الماضي المسيحي ربما تبرر هذا التشاؤم: فلقد استعرضنا كل الطرق التي تفنن بها الناس في تبادل الكراهية باسم الله، باسم إلههم. وكان روسو قد كتب في الـEmile: "كنت أنظر إلى هذا التنوع في البدع التي تسود في الأرض وتتبادل الاتهام بالكذب والضلال؛ وأتساءل: أيٌّ هي الصالحة؟ وكان كل واحد يجيبني: "تلك الخاصة بي". وقبل جان جاك بوقت طويل، كان بيلاطس البنطي قال ليسوع: "ما هي الحقيقة؟" وكمواطن روماني حقيقي، أي "كعلماني"، كان قد غسل يديه أمام أولئك اليهود الذين رآهم يستبسلون في مطالبته بقتل إنسان عادل.

لقد كان مشهد عصبيات الزمن الغابر مريعاً، وكئيبٌ هو مشهد نزعة اللامبالاة لدى معاصرينا، ومثيرٌ للقلق مشهد الاستبداد العقيدي الجديد. ألن يكون في وسع الناس إذاً، ذات يوم، أن يحترم بعضهم بعضاً على الأقل، إذا لم يكن ممكناً أن يحبوا بعضهم بعضاً؟ وأن لا يعود يريد أولئك الذين يزعمون امتلاك حقيقة دينية أو سياسية أن يضفوا صفة إلزامية للجميع على طريقة إيمان أو طريقة حياة؟ هل سيأتي أخيراً زمن يكون في إمكان كل واحد فيه أن يختار، على هواه، طريق خلاصه في السماء أو سعادته على الارض؟

خلاصه بوجه خاص. لأنه إذا كان هناك قدس أقداس لا تتمكن أي إصابة من التأثير فيه، فإن محكمة الضمير، المحكمة الداخلية هي التي تزن الأمور وتختار بحرية. ولكن لكي لا تُنتَهَك أي نفس، ينبغي أن يكف

الامتثاليون وغير الامتثاليين عن التراداد: "لا خلاص خارج كنيستي". فعلى هذا المبدأ العام الحديدي، المولّد لكل ذلك القدر من الأحقاد سابقاً ولكل هذا القدر من انعدام التفاهم الآن، يمكن أن نرد – وتلك ستكون خاتمتنا الأخيرة – بالجواب السامي الذي أعطته جان دارك للمطران كوشون حين سألها إذا كانت تظن أنها في حالة النعمة: "إذا لم أكن فيها، فليجعلني فيها الله، وإذا كنت فيها، فليبقني فيها الله".

# الفهرس